دعوة من
جامع الأحكام
من تفسير الإمام القرطبي
رسالة دكتوراه بامتياز

الشيخ الدكتور
محمد بن حامد حَوَارِيّ

الجزء الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة فصلت (٤١)

التقديم

تشير السورة في البداية إلى القرآن الذي أنزله تعالى باللسان العربي ليكون معجزة وحجة على العرب كأول من بُلِّغوا به ليؤمنوا به ويحملوه لأمم الأرض كلها، ثم تذكر إعراضهم عنه ودعوة الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام لهم ليؤمنوا بالله الواحد وبيوم القيامة ولا يكونوا من المشركين بل يبادروا ليكونوا من المؤمنين الصالحين، أصحاب التوبة دون منّة ولا حساب.

وتأتي بعدها لتبين لهم، مشركي العرب، بأن أشد العجب في أمرهم أن يكفروا بالقرآن العربي المعجز ثم يلحقون به الكفر بخالق السموات والأرض وذلك لأنهم يشركون به أصنامهم مع أنهم يقرون بأنه تعالى هو الخالق لكل شيء.. خالق الأرض وما فيها من أقوات في أربعة أيام، وخالق السموات السبع في يومين، خالق كل شيء ويستحق الإفراد بالعبادة.

وتخاطب الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام بعدها لتدعوه لإنذار كفار قريش بصاعقة تهلكهم كما أهلكت عاداً وثمود إن أعرضوا عما يدعوهم إليه من الإيمان والتوحيد والطاعة، وأن يذكروا أن أحداً من تلك الأقوام لم ينج من الهلاك إلا المؤمنون.

وأن عليهم أن يحذروا نفس المصير كما يحذروا إن لم يهلكهم الله تعالى بعذاب ما في الدنيا فإنه سيحل بهم من عذاب النار في الآخرة ما لا يستطيعون دفعه إذ ستشهد عليهم آذانهم بما سمعوا بها، وعيونهم بما رأوا بها، وجلودهم بما لامسوا بها، وحيث يرون مصير سوء ظنهم بربهم وخالقهم تعالى ويرون عاقبة استجابتهم لقرنائهم من شياطين الإنس والجن، وأنه الخسران المبين في نار جهنم.

وأما موقف أولئك المشركين من القرآن، فتشير إليه السورة بأنه بعد أن أعجزهم لجأوا لإبعاد الناس عنه، وأنهم سينتظرون العذاب الشديد جزاء سوء أعمالهم هذه بزجهم في النار حيث يتمنون أن يدوسوا بنعالهم من أضلهم من الإنس والجن.

وأما موقف المؤمنين فإنه الاستقامة على الطريق التي رسمها هذا القرآن، طريق الهدى والطاعة في كل أمر ونهي لله رب العالمين، طريق الطمأنينة بأنهم لن يخافوا ولن يحزنوا من ماضيهم ولا مصيرهم وهم يبشرون عند الموت وعند البعث بالجنة ونعيمها

جزاء أعمالهم وتفضلاً من المولى الرحيم الكريم عليهم حيث يجدون ما تشتهيه أنفسهم من نعيم الجنة.

وتقف السورة قليلاً بعدها مع الداعين إلى الله تعالى، وما عليهم أن يمتازوا به من خصال طيبة بدفع السيئة بالحسنة، فيصلوا بذلك إلى قلوب الناس في دعوتهم.

وأما أولئك المشركون المتكبرون عن الإيمان فإنها تذكرهم بقدرة الله تعالى عليهم وهم يرونها ممثلة في آياته الكونية الكثيرة من خلقه الليل والنهار والشمس والقمر مما يلزمهم بإفراده بالعبادة.

وتذكّرهم بأن عاقبة استكبارهم عليهم هم أنفسهم، وأن عليهم أن يكفُّوا عن ذلك ويعلموا أن الملائكة مخلوقات الله العليا تملأ وقتها بعبادته تعالى دون كلل ولا ملل.

كما تذكرهم بما يرون من آياته تعالى في الأرض كيف تدبُّ الحياة فيها بإنزال الماء عليها، وأن بعثهم كبعث هذه الحياة في الأرض بعد جدبها.

وتذكّرهم بأن تكذيبهم لآيات الله تعالى لا ولن تخفى عليه سبحانه وهو العليم بكل حركة وسكنة في خلقه، وأن عليهم تبعاً لذلك أن ينقذوا أنفسهم من النار يوم القيامة فيهبوا للإيمان بالقرآن الذي وقفوا عاجزين أمامه لأنه الحق ولا حق سواه.

وتسرّي السورة بعدها عن الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام لتكذيبهم هذا له وذلك بذكر ما فعلته الأقوام السابقة من تكذيب رسل الله تعالى إليهم، وتؤكد له عليه وآله وصحبه السلام وتطمئنه بعدم قيمة ما يقولونه من أن القرآن لو كان أعجمياً لوجد من يفهمه ويتبعه، ثم بقولهم لو كان عربياً لفهموه هم، ثم بزعمهم لو كان خليطاً من العربية والأعجمية.

فاطمئن يا محمد بأنهم مجرد باحثون عن تبريرات لتغطية عجزهم أمام القرآن، ولذلك قل لهم يا محمد بأن القرآن هدى من كل شك وعمى في القلوب والعيون للمؤمنين به، وأما من يعرضون عنه فقد صموا آذانهم وأقفلوا عيونهم، فلا هم يسمعون كلام الحق سماع تدبر وتفكر يدخل إلى عقولهم وقلوبهم، ولا هم يرون آيات الله تعالى ومعجزاته التي كثيراً ما يلفت القرآن النظر إليها لتدخل إلى عقولهم وقلوبهم.. فأصبحوا كمن ينادون من مكان بعيد تعجز معه آذانهم عن سماع النداء وعيونهم عن رؤية ما تدعوهم إليه كلمات النداء من آيات وعظات.

إنهم قد عاندوا واستكبروا.

وهنا تشير السورة إلى ما وقع من قوم موسى من اختلاف على التوراة، فتسلي الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام بشأن اختلاف مشركي العرب على القرآن..

وتتهددهم بعدها بعلم الله تعالى لكل ما يصدر عنهم من أقوال وأفعال، وأن شركاءهم سيتخلون عنهم يوم القيامة، وأنهم سيجدون أنفسهم أمام أعمالهم، وأن عليهم أن يتذكّروا بأن رحمة الله تعالى واسعة لا يأس معها عند التوبة والإقبال على الطاعة.

وأن عليهم أن يذكروا أن الله تعالى معهم في السراء والضراء، فعليهم أن يكفوا عن اللجوء إليه تعالى في أوقات الشدة والكفر به في أوقات الرخاء، وليذكروا أن جزاءهم على ذلك كله لابد قادم يوم الحساب، ذلك اليوم القادم لا محالة ليجزى كل امرئ بما سعى، وأن على الواحد منهم أن يعجل للإنابة إلى ربه والثبات بجانبه في جميع الأحوال.

وتدعو السورة أخيراً الرسول عليه وآله وصحبه السلام ليقول لأولئك المشركين بأنكم ما دمتم تحتملون أن القرآن من عند الله، فإنكم ستكونون بعنادكم وإعراضكم أشد ضلالاً من غيركم، ولذلك عليكم أن تجيلوا نظركم في جميع أرجاء العالم، وفي أنفسكم، لتروا من النظم البديعة الدقيقة الحق كل الحق في صنعته تعالى ولزوم إفراده في العبادة.

وأن عليك يا محمد ألا تبالي بما يقولون لأن الله تعالى وحده كافيكهم وهو العالم بهم وبكل أقوالهم وعنادهم واستكبارهم!!

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾

فبعد الافتتاح بـ ﴿حمٓ ۝١﴾ تتحدث السورة عن القرآن، وأنه منزل من لدنه تعالى بصورة مفصلة مبينة باللغة العربية الواضحة والتي يعلمها العرب وهم أول من خوطبوا بها ليحملوا هذا القرآن دعوة لغيرهم بفهم وقوة وصدق وإخلاص، وذلك لأنه جاء يحمل البشارة لمن يؤمن به بالجنة ونعيمها الخالد كما يحمل الإنذار لمن يكفر به بالنار وعذابها المقيم.

ولكنهم لجمودهم على القديم الباطل أقفلوا آذانهم وعيونهم عن سماعه ورؤية الحق الذي يدعون إليه، فكفروا به مدعين بأن عقولهم لا تفهمه وآذانهم لم تسمع بمثله وأنهم لذلك يرفضون بعناد وإصرار التخلي عن كفرهم وعبادتهم الباطلة للأوثان.

وتدعو السورة بعدها الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام ليبيِّن لهم أنه رسول الله إليهم، ويبيِّن ما أرسل به إليهم فتقول:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ
لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ
لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ
أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ
أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا
بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ
وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا
لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ
أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ
أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ
ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾

مبيِّنة أنه عليه وآله وصحبه السلام من البشر مثلهم، ولكن الله تعالى قد اختاره ليبلغهم رسالة ربهم من أنه تعالى إله واحد ولا يجوز الشرك به، وأن عليهم أن يتبعوا هذا الإيمان الحق ويطلبوا المغفرة من الله تعالى لشركهم السابق، وأن يعلموا أن من يستمر على شركه فسيجد العذاب الأليم بسبب تفضيله لدنياه وأمواله على طاعة ربه إذا وقف عندها وكفر بالآخرة، وأن يعلموا أن من يؤمن ويتخلى عن شركه ويدخل حظيرة الإيمان والتزام الأعمال الصالحة فله الثواب الجزيل الذي لا منّة عليه ولا حساب لمقداره.

وأعلمهم يا محمد بأن حقيقة كفرهم هو إنكار الخالق إذ كيف يعبدون غيره ويقرون به في نفس الوقت بأنه خالق السموات والأرض؟!

وليعلموا بأن الله تعالى قد خلق الأرض في يومين وخلق فيها أقواتها في يومين وخلق السموات السبع وما فيها من نجوم وكواكب في يومين، وثبت الأرض بالجبال بعد أن مادت، وزين السماء الدنيا بالكواكب وحفظها بالشهب، فكيف يقعون في هذا الكفر والتناقض مع ما يعترفون به؟!

وأنذرهم يا محمد إن استمروا على كفرهم وإعراضهم بأن صاعقة مثل تلك التي نزلت على قوم عاد وقوم ثمود قد تنزل بهم وتهلكهم، وما ذلك إلا لأنهم يقعون في نفس خطيئة أولئك الأقوام عندما دعتهم رسلهم لعبادة الله تعالى وحده ولكنهم كفروا بحجة أنهم ليسوا رسلاً وأن الله قادر على إنزال الملائكة برسالاته.

وما هم في الحقيقة إلا مستكبرون على الإيمان كما ظهرمن عاد وهي تدّعي أنها أقوى المخلوقات، وأن لديهم القدرة على التصدي لأيِّ عذاب يهددون به، ونسوا أن الله تعالى خالقهم هو أقوى منهم، وأن خلقاً من خلقه كريح باردة عاصفة كفيلة بالقضاء عليهم في الدنيا، وأن عذاب الآخرة الأشد والأخزى بانتظارهم ولن يمنعه عنهم أحد.

وانظر إلى ثمود وهي تفضل الضلال على الهدى الذي جاء به لهم صالح عليه السلام فحلَّ بهم ما حل بعاد عندما أخذتهم الصاعقة فلم ينج منهم أحد إلا من آمن وقليل ما هم.

وتنتقل السورة إلى تصوير حال الكفار يوم الحساب فتقول:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ
وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ
أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ
سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ
ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن
يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ
وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟

بِـَٔايَـٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا
لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

أن انظروا إلى أعداء الله تعالى الذين كذبوا رسله وخالفوا أمره كيف أنهم يحشرون إلى النار ويدفعون إليها دفعاً، وأن أسماعهم وأبصارهم وجلودهم تأخذ بالشهادة على أعمالهم الكافرة بحيث لن ينفعهم استنكارهم لشهادة أعضائهم عليهم إذ إن قدرة الله تعالى قد جعلتهم يشهدون.

فليعلموا ذلك وليعلموا أن الخالق الذي خلقهم قادر على بعثهم وحسابهم بهذا الشكل من الحساب العسير، وأن عليهم أن يتذكروا أن استخفاءهم عند ارتكاب المنكرات لن ينفعهم يوم القيامة عندما تشهد عليهم جوارحهم بما فعلوا بها، وعليهم ترك الكفر والمعاصي وعندها يكون حذرهم من أنفسهم في محله.

وليحذروا من ظنهم بأن الله تعالى لا يعلم أسرارهم لأن ذلك هو الذي ورَّطهم مع جوارحهم هذه الورطة لأن الله تعالى يعلم السر وأخفى.

وليعلموا أنه إن كان لديهم صبر فليصبروا غداً على النار، وأن معذرتهم لن تقبل منهم في الآخرة ماداموا قد أعرضوا عن الهدى واستجابوا لأصدقائهم من الجن والإنس بما زيَّنوا لهم من الشهوات والمتع الدنيوية، وأنهم هم وقرناؤهم سيجزون هذا الخسران، فليذكروا ذلك جيداً وليحذروا هذا المصير بالخسران لأنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

وانظروا إليهم وهم سادرون مع غيهم وهم يدعون غيرهم ليس فقط لعدم السماع للقرآن وآياته وإنما أيضاً للإكثار من اللغط عند تلاوته حتى لايفهم ولا يستجاب له ممن يتلى عليهم، وليعلموا أن العذاب الشديد في النار والخلود فيها هو جزاؤهم على ذلك، وأنهم لن تسمع لهم معذرة وهم يسندون ضلالهم لغيرهم من الجن والإنس، وأنهم هم وأولئك معاً في العذاب سواء.

وتأتي السورة بعدها لتشير إلى حال المؤمنين يوم القيامة.. فتقول:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ
وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ
فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾ وَمَنۡ أَحۡسَنُ
قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا

ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا
ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾

أن انظروا إلى المؤمنين في الدنيا وهم يقولون بأن الله تعالى هو ربهم، وأنهم يلتزمون بطاعته وفقاً لطريق الاستقامة الذي بينه لهم رسوله عليه وآله وصحبه السلام، وأنهم يجدون الملائكة تطمئنهم بسبب ذلك بأن لهم البشرى عند موتهم وفي قبورهم، وعند بعثهم، وأن عليهم ألّا يخافوا الموت ولا يحزنوا على ذنوبهم السابقة لأن الله تعالى يغفرها لهم ويدخلهم الجنة التي وعدهم بها.

وانظروا إليهم وحفظة أعمالهم في الدنيا من الملائكة تصحبهم في طريقهم إلى الجنة حيث يجدون ما تشتهي أنفسهم من الملاذِّ وما يطلبونه عندما يحلون في ضيافة الغفور الرحيم في جنات النعيم جزاء ما كانوا يعملون.

كيف لا وقد أحسنوا العمل والقول عندما تصدوا لذلك مع الله ورسوله بالدعوة إلى دينه، وأعلنوها بملء أفواههم بأنهم مسلمون، ولم يقابلوا السيئة بالسيئة بل تحملوا الأذى الكثير، فدفعوا السيئة بالحسنة على رجاء أن تصحو تلك العقول المتحجرة على الباطل وتستجيب للدعوة إلى الله وتقبل على طاعته والتزام أمره ونهيه فيستحق أصحابها الثواب الجزيل.

وانظروا إليهم وهم لا يسمحون لنزغات الشيطان وتزيينه للمعاصي والتقصير في الدعوة والتخويف من المتاعب.. أن تضلهم عن طاعة ربهم، بل تجدهم ما إن يدهمهم نزغ منها حتى يلجأوا إلى ربهم مستعيذين به تعالى منها.

وتورد السورة بعدها بعضاً من مظاهر قدرته تعالى موبِّخة المشركين لعبادتهم لها دون خالقها.. فتقول:

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ
ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ
بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ
ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا
لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ

بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ
وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو
مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾

فاذكروا يا مشركي العرب، ومن على شاكلتهم، بأن الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم جميعاً هي جانب من خلقه تعالى، فكيف تعبدون شيئاً منها وهي من خلق الله تعالى وتنسون عبادة خالقها؟!

واعلموا أنكم إن تعاليتم عن هذه العبادة الحق فإن مخلوقات الله العليا من الملائكة التي هي أفضل منكم تقوم بهذه العبادة ليلاً نهاراً ودون كلل ولا ملل، فإنه لا حاجة بكم لهذا الاستكبار وأنتم أدنى خلقاً منهم.

واذكروا أن من جوانب قدرته تعالى أنه يحيي الأرض من جدب بحركة الإنبات بعد المطر، ثم يجفُّ النبات ثم يعود للحياة، في دورة الحياة على الأرض، فاذكروا أنكم تموتون كما يموت هذا النبات وغداً تبعثون كما يبعث.

واذكروا أن شيئاً من أعمالكم وأقوالكم لن يخفى على الله تعالى عندما يحاسبكم، فاختاروا بين أن تستمروا في هذا التعنت والمكابرة، فتلقوا في نار جهنم جزاء وفاقاً، وبين التخلي عن ذلك للإيمان والطاعات فتدخلوا الجنة.

واذكروا أن القرآن الذي يتوعدكم بذلك وينذركم به هو كتاب حق ولا ينطق إلا بالحق، وأنه يلتقي بدعوته للتوحيد والطاعة مع كل الأديان المنزلة سابقاً وإن اختلف عنها من حيث التشريع، وأنه يعد الطائعين بالمغفرة والجنة ويتوعد العصاة بالعذاب والنار.

وتؤكد السورة افتراءهم وكذبهم على القرآن بالنسبة للغته، وتنذرهم لذلك فتقول:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى
وَشِفَآءٌۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ
بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۚ
وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ
لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ

إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾

فتبيِّن أن القرآن لو جاء بالعربية والعجمية بحجة أنه للناس كافة لاحتجوا بأنهم لا يفهمونه وطالبوا أن يكون بالعربية الواضحة، وتوضح بأنه جاء بلسانهم لتقوم الحجة عليهم لعجزهم عن الإتيان بمثله وهم علماء اللغة شعراً ونثراً، وتذكّر بأنه لو جاء فيه عجمة لاستنكروا ذلك بقولهم كيف يكون أعجمياً والرسول عربي؟

وتؤكّد أنه قد جاء هدى لمن آمن به وشفاء من كل شك، ولكن من أصمَّ أذنيه وأقفل عينيه فلا يسمع معجزاته وأحكامه، ولا يرى مواضع عبره وعظاته فإنه كالأصم الذي ينادى من بعيد أو الأعمى الذي لا يرى موضع أقدامه.

واذكروا قوم موسى عندما اختلفوا في التوراة بين مؤمن وكافر، فلا تكونوا مثلهم، واعلموا أنه لولا قضاء الله المبرم لنزل حكم الله فيكم ولا أمهلتم مع هذا الظن السيء والتكذيب والرفض لكتاب الله تعالى، واعلموا أن من يؤمن به ويلتزم أوامره ونواهيه فإنه يعمل لنفسه فيدخلها الجنة، ومن يكفر ويعصي فإنه يخسر نفسه فيدخلها النار.

واذكروا أنكم تبعثون بعد الموت للحساب يوم القيامة، اليوم الذي لا يعلمه إلا الله تعالى كما يعلم مواعيد ظهور الثمار من أزهارها، ومواعيد حمل ووضع كل أنثى لمولودها، ويعلم بأنه متى طلب منهم أن يأتوا بشركائهم يوم القيامة فإنهم يقرون بأن لا أحد منهم يشهد بأن لله شريكاً، وأن كل الأصنام التي كانوا يزعمون شركها مع الله تعالى قد تخلت عنهم وأيقنوا عندها أن لا فرار لهم من النار.

وتعود السورة لتذكّر بموقف الإنسان عند حصول الخير له ونزول الشر به.. فتقول:

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾

فتبيِّن بأن الكافر أو ضعيف الإيمان يكثر الدعاء طلباً للخير والرزق الوفير، ولكنه سريع اليأس من رحمة الله وفضله، ويزعم بأن ما فيه من صحة ورخاء ولا سيما بعد

الشدة هو مما يستحقه جزاء عمله وكأن النعمة توجب على الله تعالى له، وليعلم أنها ابتلاء ليظهر مدى صبره وشكره إن كان مؤمناً وأنها استدراج له إن كان كافراً.

وليذكر أن إنكاره للبعث عند الإغراق في الكفر بعد تعرضه للضر لن يدخله الجنة، كما يزعم، بل سيدخله النار بكل يقين.

وانظر إليه وهو يقابل نعمة الرزق عليه بعبادة غير المنعم بذلك عليه!

وانظر إليه وهو يعود للضراعة لله والدعاء له عندما يتعرض لخسارة مالية أو فقدان صحة! إنه كافر لأنه يعرف ربه في البلاء ولا يعرفه في الرخاء.

فشتان بينه وبين المؤمن الذي يديم صلته بربه في الحالتين بل قد يجد متعة بالبلاء تبعاً لرقيِّه الإيماني وقوة صلته بالله تعالى.

وتختم السورة تعريضها بالمشركين لموقفهم المتذبذب من ربهم، وكتاب ربهم، فتقول:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾

فقل يا محمد للمشركين بأن هذا القرآن إن كان من عند الله، كما يؤكد لهم المولى عز وجل ورسوله عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام، فأيُّ الناس أكثر ضلالاً منهم عندما يكفرون به؟!

إنه لن يكون هناك أحد أكثر ضلالاً منهم لشدة شقاقهم وعدوانهم.

وقل لهم يا محمد بأن الله تعالى يستدعي لفت نظرهم إلى علامات قدرته وعظمته في جميع أرجاء هذه السموات والأرض، كما يستدعي ذلك في أنفسهم هم، فيرون من عظيم قدرته وبديع تدبيره بهذا النظام الكوني الدقيق، وهذا النظام الجسمي البديع.

هذان النظامان اللذان يشهد لمدى دقتهما، وعظم صانعهما، وقدرة مدبِّرهما، الكافر قبل المؤمن، فهل لهذا القرآن، ولهذا الإسلام الذي جاء به الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام ودعاهم إليه، وهذه الدلالات في النظام الكوني البديع، وهذا الرسول محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم إلا أنها في كل منها منفردة وفيها كلها مجتمعة إلا الحق ولا شيء غير الحق؟!

فانظروا في ذلك كله لتروا بغاية الوضوح والبيان دلائل قدرته سبحانه ووحدانيته

لا إله غيره، كيف لا وأنتم ترون آثار الأمم السابقة بعد أن فتح الله تعالى على المسلمين البلدان في الشرق والغرب، وأخذتم تستشعرون قدرته وعظمته وهو يحقق النصر للمؤمنين على قلتهم بالنسبة لأعدائهم في جميع المعارك الفاصلة التي خاضوها على طول قرون عهود الخلافة الإسلامية بدءاً ببدر في العهد النبوي، وغيرها من المعارك طيلة عهود الخلفاء حتى دكت جيوشهم أسوار فيينا في العهد العثماني بالرغم من الضعف الفكري الذي كان يعصف بالأمة الإسلامية في ذلك الوقت.

انظروا في ذلك لتروا أن ما يدعوكم إليه هذا القرآن هو الدعوة الحق، وأن ما تحمله إليكم هذه الدعوة هو الدين الحق، والعز الحق.

ويكفيك أن تعلم يا محمد بأن ربك سبحانه وتعالى عالم بذلك كله، وقادر على نصرة الحق حيث وجد رجاله، وأن علمه وقدرته علم وقدرة شاهد الحق الذي لا يترك صاحب عمل إلا ويجازيه به.. ويكفيك أن تعلم بأن ربك يكفيك شاهداً لك بأن هذا القرآن المنزل عليك هو من عند الله تعالى وحده.

واعلم بأن المعاندين في الباطل والمصرين على الاستكبار باقون على شكهم بيوم القيامة إن لم يكن إنكارهم له، وأن الله تعالى عالم بهم وأنه سيحاسبهم على كل صغيرة وكبيرة في هذه الدنيا قبل تلك الآخرة، فلينتظروا ذلك وليعود المشرك إلى ربه والمرتاب إلى يقينه قبل فوات الأوان.

دليل سورة فصلت - ٤١

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ٥٤ آية، وإنها السورة الثانية من الحواميم.
- تبدأ بذكر القرآن المعجز للعرب بلغته وبيانه ليبلغوه ويلتزموا بما فيه.
- ثم تستنكر عليهم شركهم وكفرهم بالقرآن المعجز وتدعوهم للإيمان بالله تعالى وتوحيده وهو خالق ومدبِّر كل شيء منذرة لهم بصاعقة عاد وثمود في الدنيا وبالعذاب الشديد في الآخرة.
- وتقارن بين موقف المشركين من القرآن وموقف المؤمنين.
- وتبيِّن خصال الداعين إلى الله تعالى الطيبة من العفو عن الإساءة، وما يمتازون به عن المشركين المتكبرين.
- وتذكّرهم بشيء من مظاهر قدرة الله تعالى على الخلق والتدبير في الأرض والسموات ووجوب إفراده بالعبادة.

- وتنذرهم بما حصل مع الأقوام السابقة وهي تسرّي عن الرسول عليه وآله وصحبه السلام.

- وترفض وصفهم للقرآن بأنه خليط من العربية والعجمية وإلا لوجد فيه ما لايفهمونه.

- وتستنكر عليهم عنادهم في رفض القرآن المليء بالآيات والعظات.

- وتطمئنهم بأن رحمة الله تعالى تسع كل تائب نائب.. كما أن جهنم تسع كل مشرك مكذب معاند.

- وتدعوهم للتفكر والتدبر في أرجاء العالم وفي أنفسهم ليروا نعمة خلق الله تعالى وصنعه وتدبيره.

- وتطلب أخيراً من الرسول عليه وآله وصحبه السلام بعدم الاهتمام بأقوالهم المنكرة لأن الله تعالى كفيل بهم وبمحاسبتهم.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ تأكيد عربية القرآن الواضحة المفصلة للعرب كأول مخاطبين به. .﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾.

٢ ـ وبيان أن الرسول عليه وآله وصحبه السلام لا يمتاز عنهم في بشرية وإنما في رسالته ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾.

٣ ـ وبيان أن السماء كانت من الدخان قبل أن تصبح سبع سموات ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ وأن ذلك قد تم في يومين من أيام الله تعالى.

٤ ـ وتأكيد أن العيون والآذان والجلود تنطق بالشهادة على ما عمل أصحابها بها ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.. فما قيمة الإنكار؟!

٥ ـ وبيان أسلوبهم في التنفير من القرآن ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

٦ ـ وبيان أن أحسن ما يقوله الإنسان هو ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

٧ ـ وتأكيد أن الحسنة تدفع السيئة في المرحلة المكية واستمرار الصبر على الأذى ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾.

٨ ـ وبيان الحالة النفسية للإنسان عند الخير والشر ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾.

سورة الشورى (٤٢)

التقديم

سورة الشورى مكية إلا أربع آيات من ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ إلى آخرها وتقع في ثلاث وخمسين آية، وهي الثالثة في الحواميم وتشمل الأمور الآتية:

بعد الافتتاحية بـ ﴿حمٓ ۝١﴾ و﴿عٓسٓقٓ ۝٢﴾ تؤكد السورة للرسول عليه وآله وصحبه السلام أن القرآن الذي يوحى إليه هو من الله تعالى الذي يملك كل ما في السموات والأرض من خلق إيجاداً وتدبيراً وتعبيداً.

ثم تشير إلى أن السموات توشك أن تتمزق من خشية الله تعالى والملائكة عليها تردد تنزيه الله تعالى مما يصفه به المشركون، وتعجب من جرأتهم على ذلك، وتحمده تعالى وتثني عليه وتطلب المغفرة والعفو للمؤمنين في الأرض وسعة الرزق لهم.

ثم تشير إلى جرأة المشركين في عبادة الأصنام وهم يجهلون أن الله تعالى يحفظ أعمالهم هذه ليجازيهم بها يوم القيامة.

وتعود وتطمئن الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن ما يوحى إليه بالعربية هو القرآن ليبدأ به إنذار مكة ومن حولها ودعوتهم للإيمان بالله وطاعته، والإيمان بالبعث والحساب على أعمال الدنيا فيساق المؤمن الصالح إلى الجنة والآخر إلى النار.

وتؤكد للرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن حكم الله وقضاءه قد اقتضى أن يخلق البشر بقابلية التقوى والفجور، والقدرة على الاختيار بينهما، وأنه لو شاء تعالى بقضائه أن يخلق البشر بقابلية واحدة لجعلهم على دين واحد وجماعة واحدة، وأن من نتيجة الاختيار جاءت عبادة الأصنام.

وتؤكد أن الله تعالى هو الحكم الفصل في ذلك بأحكامه في الدنيا وقضائه في الآخرة، وأنه تعالى وحده القادر على ذلك، إذ خلق هذه السموات والأرض، وخلق البشر بشكل يتكاثرون بالزوجية بما بينهم من التجاذب الجنسي الذي يتحقق به بقاء النوع البشري، كما يحقق بنفس الشكل بقاء نوع الأنعام وغيرها من الأحياء.

فهو سبحانه وتعالى لا مثيل له لا في ذاته ولا في صفاته، وأنه بيده مفاتيح خزائن السموات والأرض فيبسط بتدبيره لخلقه الرزق لهذا ويضيِّقه لذاك.

وتتحدث السورة بعدها عن طبيعة هذا الدين، دين الإسلام، وأنه يلتقي في التوحيد والطاعة والقيامة بما أوحي لنوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، وأنه

تعالى وحده يقضي في الاختلافات يوم القيامة بغضِّ النظر عن شك أهل الكتاب في أكثرهم بالقرآن.

ثم تدعوه عليه وآله وصحبه السلام أن لا يهتم بهذا الشك ويواصل الدعوة إلى الله ويتجاهل أهواء الناس في اختلافاتهم، ويركز في دعوته على الإيمان وتحقيق العدل بين الناس، ولا يضع أيَّة قيمة لمخاصمة المشركين في الإيمان بعد أن استجاب الناس للإسلام، مذكرة بأن القرآن والكتب المنزلة الأخرى قد جاءت بالصدق واليقين والعدل مما يطمئن الخلق على دقة وزن أعمالهم يوم القيامة.

ثم تدعو الكفار لعدم الاستعجال بطلب العذاب، مؤكدة لهم بوقوعه في وقته مهما سخروا من ذلك وابتعدوا عن طريق الهدى، وأن عليهم أن يتأكدوا من مجيء يوم الحساب الذي يخشاه المؤمنون لعلمهم اليقيني بمجيئه، وأن عليهم جميعاً أن يطمئنوا بأن الله تعالى رفيق بعباده برهم وفاجرهم في الدنيا إذ ييسِّر لهم جميعاً الرزق فيتفضل على البارِّ ويمد للفاجر.

وتحث السورة المؤمنين بعدها للحرص على آخرتهم والعمل لها، وأن في ذلك مضاعفة الجزاء، وإن كان الكافر لا يحرم من عطاء الدنيا ولكنه يحرم من عطاء الآخرة، وهذا هو الخسران الحقيقي.

إنه خسران المشرك والكافر الذي يرفض الإيمان عناداً ومكابرة، فيخسر التنعم في جنات النعيم حيث يعيش المؤمنون، المؤمنون الذين لا يطلب منهم الرسول عليه وآله وصحبه السلام أجراً على تبليغهم إلا أن يقبلوا على محبة الله تعالى وطاعته ومحبة أوليائه وآل بيته الطيبين الطاهرين.

وتنفي السورة الافتراء على الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأنه يدّعي الوحي، وتؤكد أن أحداً لن يجرؤ على ذلك لا الرسول عليه وآله وصحبه السلام ولا غيره من الرسل لأن الله تعالى يمنعهم من ذلك بطمس قلب كل مدع وإزالة كل باطل مدعى وإثبات كل حق مرتجى.

ثم تؤكد للخلق جميعاً بأنه تعالى تواب رحيم بعباده المذنبين، فكيف بأنبيائه المعصومين! وأنه تعالى يزيد المقبل على طاعته خيراً وثواباً في الدنيا والآخرة، ويعد للكافر المعاند العذاب الشديد.

وأنه تعالى يوسع الرزق على من يرى بتدبيره أنه الخير له في ذلك أو يضيِّقه، لأنه بعلمه المطلق يعلم أن من عباده من إذا وسع له الرزق يتجاوز الشرع ويقع في الإثم والظلم لنفسه ولغيره.

وأنه تعالى يذكّر الخلق بما ينزله من غيث بعد أن يعصف بهم اليأس، وكيف أن المؤمن والكافر يلمسان بذلك أنه تعالى لا يترك أحداً من رحمته.

وتورد السورة بعدها العديد من دلالات قدرته تعالى، مذكرة خلقه الكافر قبل المؤمن لتزداد الحجة في حق الأول وضوحاً على وضوح ويزداد المؤمن إيماناً على إيمان، فتذكر خلقه تعالى للسموات والأرض وما فيهما من مخلوقات يجمعهم للحساب يوم الحساب.

ثم تذكر الخلق بسبب وقوع المصائب عليهم وأن سوء أعمالهم هو السبب، وأنه لولا عفوه عن الكثير من سيئاتهم لكان لهم حساب آخر.

وأن لهم في السفن الجارية كالجبال في البحر، ومدى حاجتها للريح، سواء كانت طيبة هادئة، أو شديدة عاصفة، إلا أكبر تذكرة.

وأن بالإجمال لهم في نعم الدنيا كلها ما يذكرهم بعظمة الله وقدرته، وما يستدعي منهم التذكر بأن هذا المتاع الزائل لا يقارن بالجزاء الطيب الباقي المتحصل بطاعة الله والإيمان به معاً، بالتوكل عليه سبحانه واجتناب معاصيه، بالعفو عن الناس عند الغضب، بأداء الصلوات المفروضة وزيادة، بالتشاور في مختلف الأمور مع غيرهم، بالإنفاق في الطاعات، بالانتصار ضد الظلم والظالمين، بالرد على السيئة بمثلها دون تجاوز، بالعفو والصفح عن صاحب السيئة طلباً للمزيد من الثواب من الله تعالى لا من غيره، بالاطمئنان أن لا حرج في رد الظلم وأن الحرج في ظلم الآخرين، بالصبر والمغفرة لمن يظلمهم وبالذات مع القدرة على الظالم.

وتؤكد السورة من جديد معنى بأن من يضله الله تعالى بأن لا يعينه على مغالبة الحياة بسبب كفره فإنه لن يجد غير الله تعالى معيناً ناصراً له، لأنه بظلمه لنفسه بالشرك والكفر ورفض الإيمان يقود نفسه للتمني يوم الحساب أن يعود إلى الدنيا ليصلح حاله وأعماله، ولكن هيهات!

فإنه وأمثاله ـ وقد خشعوا ذلاً وهواناً أمام عذاب النار جزاء أعمالهم ـ يرون المؤمنين وهم يقولون لهم: ها أنتم قد خسرتم أنفسكم بعد أن ضاعت التوبة عليكم وأصبحتم في هذا العذاب، وخسرتم أهليكم، سواء بتركهم لكم وذهابهم إلى الجنة بإيمانهم أو بمشاركتهم لكم في هذا العذاب حيث لا نفع لكم فيهم.

فاحذروا هذا المصير المشؤوم، واذكروا أنكم لن تجدوا في ذلك الوقت غير الله تعالى ناصراً لكم، وأنه لن ينصركم وأنتم تكفرون به وتعرضون عن طاعته، فأقبلوا على

ذلك قبل موافاة الأجل وذهاب العمل ومجيء يوم الحساب حيث لا تجدون أحداً ينكر ما يحل بكم من عذاب.

واذكر يا محمد بأنهم إن رفضوا الاستجابة، وأعرضوا عن كل هذا الإنذار والتحذير، فإنك لست مسؤولاً عنهم وعن أعمالهم، وإنما هم المسؤولون عن ذلك، وتبقى أنت مكلفاً بالتبليغ مادمت لا تملك الحق في محاسبتهم.

واذكر بأن من طبيعة الإنسان عندما يخلو من الإيمان أن يبطر ويفرح بالنعمة التي تتيسَّر له لأنه يسندها لنفسه ولعلمه ولأعماله وينسى أنه مدين في ذلك كله إلى الله تعالى الذي خلق فيه هذه القدرات للسعي والوصول إلى ذلك، وخلق له هذه النعمة، وخلق له الحاجة إليها، ووفقه إليها.

واذكر بأنه ما إن تحل بأمثال هؤلاء من البطرين مصيبة بسبب سوء أعمالهم حتى تجد أن الواحد منهم ما أسرع أن يكفر بكل نعمة أنعمها الله تعالى عليه.. فهو عند النعمة لا يذكر فضل الله عليه وعند النقمة لا يرعوي عن التجديف في حق الله تعالى!

وللفت نظر هؤلاء المشركين وكفار الإيمان والنعمة إلى ضآلتهم بجانب قدرة الله تعالى وعظمته تعود السورة وتذكّرهم بأنه هو وحده سبحانه وتعالى صاحب هذه السموات والأرض خلقاً وتدبيراً، وأنه وحده الذي يخلق ما يشاء، ومتى يشاء، وبالقدر والشكل والحال الذي يشاء، وأن أحداً لا يملك أن يتدخل في ذلك لا جلباً ولا منعاً.

وليعلموا أن من مشيئة قضائه وقدره أن يهب بعض الناس الإناث فقط من المواليد ويهب البعض الآخر الذكور فقط، كما حصل أن وهب نبيه إبراهيم عليه السلام الذكور فقط، ونبيه لوط عليه السلام البنات فقط.

وأن من قضائه أيضاً أن يهب غيرهم الذكور والإناث، سواء توائم أو متفرقين، كما حصل أن وهب آدم عليه السلام التوائم من الذكور والإناث، ووهب محمداً عليه وآله وصحبه السلام ثلاثة ذكور وأربع إناث.

وأن من قضائه أيضاً أن يجعل آخرين في عقم دائم، كما حصل ليحيى بن زكريا عليهما السلام.

فهو سبحانه العالم بما يصلح لخلقه كأفراد وكرسل، وهو القادر على إعطائهم وجعلهم على هذا الحال أو ذاك ولا رادَّ لقضائه.

وتؤكد السورة مع نهايتها للرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن توصيل رسالة الله لمن يصطفيه من خلقه للتبليغ يتم إما بالوحي والإلهام في اليقظة أو المنام، وإما بالكلام

معه من وراء حجاب، وإما بإرسال ملك هو جبريل عليه السلام، ولا مجال لشكل رابع.

فيطمئن المولى عز وجل رسوله عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام بأنه قد أوحى إليه روحاً من أمره تعالى، دون تحديد هذه الروح مما يجعلها تشمل الأشكال الثلاثة عندما كلمه سبحانه في المعراج، وألهمه في كثير من المواقف نائماً ويقظاً، وأرسل إليه جبريل عليه السلام في صورته الأصلية حيناً وصورة إنسان يعرفه حيناً آخر.

ويؤكد تعالى لرسوله عليه وآله وصحبه السلام بأنه قبل هذا الوحي لم يكن يعرف حقيقة هذا القرآن ولا الإيمان الشامل، وأن عليه أن يدعو الناس إلى الإيمان، ويقف عند التبليغ في هذه المرحلة، لأن ذلك هو الطريق الذي ارتضاه الله تعالى لعباده (مما كان في المرحلة المكية) وأنه تعالى سيحاسبهم على أعمالهم يوم الحساب وفقاً لمدى التزامهم أو تفلُّتهم من ذلك.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾﴾

فبعد افتتاحية السورة بـ ﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾﴾ تؤكد أن هذا القرآن الذي يوحي به تعالى إلى رسوله عليه وآله وصحبه السلام هو من الله العزيز فلا أحد يمنعه ولا يرغم عليه، والحكيم الذي لا أحد أدرى منه بمواضع وحيه أو مضمونه، وهو تعالى كما أوحى بهذا القرآن أوحى بالرسالات السابقة إلى الرسل السابقين.

فاطمئن أنت يا محمد ومن تبعك من المسلمين لإيمانكم بذلك لأن العزيز الحكيم الذي أوحى به هو مالك هذه السموات والأرض وما فيهن، وهو العظيم في قدرته المتعالي عن ضعف خلقه.

وانظروا إلى السموات وهي تكاد أن تتشقق وتتمزق أمام قدرته تعالى وعظمته،

والملائكة من فوقها لا تكلُّ ولا تملُّ من تسبيح ربهم وعبادته بترديد الحمد له والثناء عليه والاستغفار للمؤمنين من أهل الأرض علماً منهم بأنه تعالى وحده هو الغافر الساتر للذنوب والرحيم الرحمن بعباده وضعفهم.

فأين من ذلك كله أولئك المشركون الذين هبطوا بعبادتهم للأوثان بعقولهم إلى الحضيض وهم يجهلون أن كل ذلك مسجل محفوظ عليهم عند خالقهم ومحاسبهم عليه يوم الحساب، وأن الرسول عليه وآله وصحبه السلام غير مسؤول عن ذلك وقد قام بتبليغهم كل ذلك خير قيام واختاروا هم بكامل إرادتهم واختيارهم هذا الشرك والطغيان والإصرار عليهما.

وتحدد السورة بعدها مسؤولية الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام.. فتقول:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٩ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ۝١٠ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗاۖ يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١١ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ۝١٢﴾

موضِّحة أن المولى عز وجل قد أوحى القرآن إلى رسوله عليه وآله وصحبه السلام بالعربية، ليفهمه أهل مكة والناس أجمعين، وليكونوا على علم بما ينتظرهم من عذاب إذا أعرضوا عنه في ذلك اليوم الذي يجمع فيه تعالى الخلائق للحساب، ذلك اليوم الذي لا ريب في قدومه حين يساق المؤمن فيه إلى الجنة والكافر إلى النار وفقاً لإيمانهم وأعمالهم.

وتطمئن السورة بعدها الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن هذا التوزيع العادل للناس بين الجنة والنار ما هو إلا نتيجة اختلاف إرادات البشر واختياراتهم تبعاً لما أودع فيهم من قدرات الاختيار ومن قابليات التقوى والفجور، فجعل لهم الخيار بين تزكية

النفوس وبين تدنيسها، فكان هذا الاختلاف في الأصل تبعاً لما قضى تعالى به وقدره في خلق هذه الخاصّيات والقابليات في النفوس البشرية، ولذلك عبَّر عنه بالمشيئة الربانية.

وبالإشارة إلى أن من استجاب وزكَّى نفسه فإن جزاءه الرحمة والرضوان والجنة، ومن رفض الاستجابة وكفر وظلم نفسه فإن جزاءه العذاب والسخط والنار، وأن شيئاً من معبوداته الأخرى من أصنام وغيرها لن تعينه وتنقذه من هذا العذاب، ذلك لأنه عندما تولى تلك المعبودات فقد أنكر ولاية الله تعالى عليه، وهو الولي لكل خلقه، وبيده موتهم كما بيده حياتهم، وهو سبحانه الحاكم فيهم يوم القيامة.

ثم يؤكد المولى عز وجل لرسوله عليه وآله وصحبه السلام بأنه هو ربه الذي يحميه ويرعاه، والذي عليه يجب أن يتوكل في أموره كلها، كيف لا وقد خلق بقدرته المطلقة السموات والأرض وجعل للبشر أزواجهم من مواليدهم، كما جعل ذلك للأنعام، حفظاً للنوع البشري والحيواني، فبتعاقب هذا التناسل خلق الخلق في بطون أمهاتهم، فهو سبحانه الذي لا يماثله ولا يشبهه شيء من مخلوقاته في عظمته وقدرته في ذاته وصفاته، وهو سبحانه الذي يملك وحده مفاتيح خزائن السموات والأرض، وبقضائه وحكمه يوسع الرزق على من يشاء من عباده ويضيقه على من يشاء منهم تبعاً لعلمه سبحانه بما ينفعهم ويصلح أمورهم.

وتشير السورة بعدها إلى حقيقة ما طلبه سبحانه من رسوله أن يبلغه في رسالة الإسلام فتقول:

﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ
وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن
يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا
كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى
شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ
ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ
بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ
حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ
وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ
لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾

مبيِّنة ومؤكدة بأن المولى عز وجل قد أوحى لرسوله عليه وآله وصحبه السلام في العقائد والأمر بالطاعات كما أوحى إلى نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، فالكل مطالب بتوحيد الله وطاعته والإيمان برسله وكتبه واليوم الآخر ولكن الشرائع مختلفة ﴿لِكُلٍّ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةً وَمِنۡهَاجًاۚ﴾ [المائدة: ٤٨]، والكل مطالب بالمحافظة على الدين، مما فرض على المشركين إلزامهم بالتوحيد ونبذ الأوثان التي توارثوها.

ولكن ما قيمة هذا أمام أن يعلموا بالأمر من خالقهم ثم تركه وعدم اتباع الرسول الذي له تعالى وحده حق اختياره لتبليغ رسالته؟! وعليهم أن يعلموا أن التوفيق للاستجابة للتبليغ هو منوط باختيار الواحد منهم دون جبر ولا إكراه.

وانظر إلى تفرُّق قريش الذي جرى بعد بعثتك يا محمد مع أنهم كانوا يتمنون أن يبعث الله إليهم رسولاً، ولكن كذبهم قد ظهر ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٨٩]، ولذلك عليهم أن يعلموا بأنه لولا قضاء الله بتأجيل حسابهم ليوم القيامة لنالهم ما نال من سبقهم من الأمم من العذاب في الدنيا.

وليعلموا أيضاً أن اليهود والنصارى يشكّون في ما تركه الأنبياء في التوراة والإنجيل كما أن مشركي قريش يشكون في القرآن ونبوة محمد، فعليك يا محمد أن تدعوهم جميعاً إلى التوحيد وعدم الشك في القرآن وعدم التفرق على الإسلام، وأن تحذر من الاستجابة لأهوائهم الباطلة.

وأن تدعوهم للإيمان بما أنزل من الكتب بأنها من الله تعالى، وأن تعلمهم بأنك ستعاملهم بالعدل في كل معاملة فيما بينهم تنفيذاً لأمر الله رب العالمين.

وأن تعلم اليهود بأنهم إذا أصروا على الأخذ بالتوراة فلا لقاء بينك وبينهم، وأن لك أعمالك ولهم أعمالهم، وأنه لا حاجة للتخاصم معهم لأن الله تعالى سيجمع بينك وبينهم غداً يوم القيامة فيجازي كلاً منكم بما كان عليه.

وأن تعلمهم بالكف عن الخصومة في الإيمان بعد أن أسلم من أسلم من الناس ولن يستطيعوا أن يمنعوا الناس ويعيدوهم للجاهلية المشركة، ولينتظروا غضب الله تعالى عليهم وعذابه الشديد لهم يوم الحساب بعد أن يخزيهم في الدنيا بما سيلحقهم من هزائم.

وليذكروا أن الذي أنزل القرآن والكتب السابقة أنزلها بالعدل وللعدل، وأن كل ظالم لنفسه أو للناس لن يفلت من الجزاء المناسب يوم الحساب الذي لن يطول تأخره.

وليعلموا علم اليقين أنه لا حاجة لهم باستعجالهم العذاب سواء عناداً أو سخرية، فإنهم سيرونه في حينه قطعاً وعليهم الاستعداد له والخوف منه كما يفعل المؤمنون به.

وعليهم أن يتأكدوا بأن شكهم بقيام الساعة يبعدهم كل البعد عن الحق والهدى، ويستدعي نزول العذاب بهم.

وعليهم أن يتذكروا بأن الله تعالى لن يترفق بهم عند الحساب لأنهم ليسوا أهلاً لذلك بل هم في الحقيقة يرفضون ذلك بينما المؤمنون هم أحق به وأهله.

وعليهم أن يدركوا أنه مهما تلطَّف بهم تعالى في هذه الدنيا بتطويل أعمارهم فإن ذلك لأنه سبحانه قد أخذ على نفسه الرزق لخلقه مهما عصوه ومهما اقترفوا من السيئات.

وعليهم أن يدركوا أن رزقه تعالى لهم ليس دليل رضى عنهم وإنما هو مجرد مدٍّ لهم واستدراج، مدٍّ لهم لعلمه بأن من ذرياتهم يأتي مؤمنون، واستدراج ليعطيهم فرصة تزداد عليهم بطولها الحجة إن لم يرتدعوا ويؤمنوا فيزدادوا إثماً على إثم.

وعليهم أن يذكروا أن إصرارهم على الكفر والضلال، ورفض الاعتراف بوحدانية الله تعالى وطاعته، تجر عليهم أشد العذاب في الدنيا والآخرة وأنه مجرد إمهال منه تعالى وإلا فهو عز وجل قادر على البطش بهم ومنع كل رزق وخير عنهم.. وأن ما يرزقونه ليس بأكثر من لطف الله بالدواب والأنعام من خلقه.

وتتحدث السورة بعدها عن طلاب الدنيا والآخرة، وحالة كل منهم، فتقول:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا
لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ
وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ
مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ
ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ
لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ
قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَـٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ

عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾

مبيِّنة صورة العاملين للآخرة، وما يعطيهم الله تعالى من جزيل الأجر والثواب في الآخرة بعد أن يمدَّهم بالكثير من بركاته في الدنيا.

وأما العاملون للدنيا فإنه تعالى لن يحرمهم من التمتع بما يحصلونه وفقاً لسنته في الأخذ بالنتائج وأسبابها ولكنهم لن يجدوا في الآخرة أيَّ حظ من النعم وإنما من العذاب الشديد.

فأعلمهم يا محمد بأن شركاءهم الذين يزعمونهم لله سبحانه وتعالى، سواء كانوا من الأصنام الجامدة أو المعبودات المتحركة، فإنهم لن ينفعوهم مهما شرعوا لهم من النظم المخالفة لأمر الله تعالى ومهما تقربوا لهم بالقرابين.

وأنه لولا إمهال الله تعالى لهم بتأجيل إنزال حكمه في حقهم إلى يوم الحساب لحل بهم من سخطه تعالى في الدنيا ما لم يحتمله جميع الأقوام السابقين الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً، وما ذلك إلا لأن الظالم ليس له إلا العذاب الأليم يوم الدين، يوم يجتاح الرعب أولئك الظالمين العتاة الطغاة بسبب سيئاتهم بينما يستمتع أولئك المؤمنون بنعيم روضات الجنات جزاء أعمالهم الصالحة القائمة على إيمانهم السليم.. بل بتفضل المولى عز وجل عليهم وهو المنعم الأكبر من فضله الكبير.. ومن أين كل هذا؟

إنه مما يبشر الله تعالى به عباده المؤمنين جزاء صالح أعمالهم.. ولكن هل لهذا أن يتحقق دون نفقات؟

فأعلمهم يا محمد أنك لن تطلب منهم أيَّ أجر مقابل ما تبلغهم به من الهدى إلا المطالبة لهم بالمزيد من التقرب إلى الله تعالى والطاعة الصادقة له ومحبة المؤمنين به وبخاصة من كانوا من آل بيته الطيبين الطاهرين.. وهل هذا هو فقط جزاء الأعمال الصالحة؟

أعلمهم يا محمد بأن من يعمل حسنة فإن الله تعالى يزيد له في ثوابه وأجره وجزائه الحسن، وما ذلك إلا لأن الله تعالى غفار الذنوب ستار العيوب لمن تاب وآمن وعمل صالحاً وصدق في توبته وإنابته، وأنه تعالى مجاز لكل شاكر لأنعم ربه بمزيد من

النعم، كيف لا وهو سبحانه وتعالى القائل ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[إبراهيم: ٧] وإن كان يكمل فيقول ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[إبراهيم: ٧] مهدداً ومتوعداً كافر النعمة ومنكرها بالعذاب الشديد في الدنيا وفي الآخرة.

وأعلمهم يا محمد بأن زعمهم وافتراءهم الكذب عليك بأنك تختلق على الله تعالى كلاماً مردود عليهم، لأن الله تعالى قد هيأك منذ صغرك للعصمة من ذلك ومن كل خروج في التبليغ عن ربك، وأنه تعالى لذلك سيحول بين قلبك وعقلك وبين أيِّ باطل قد يتسرب إليك فيزيل ذلك الباطل ويثبتُك على ما أوحاه إليك من حق، كيف لا وهو سبحانه يحيط بعلمه بكل ما يخفيه صدرك ويبديه لسانك.

وإذا كان هذا هو شأن الله تعالى مع رسوله المصطفى الأمين، والمعصوم عن كل خطأ وانحراف في التبليغ فكيف سيترك المولى عز وجل لغير المؤمنين ولغير المعصومين أن يغيِّروا ويبدِّلوا في شيء مما أوحاه تعالى لرسوله؟! إنه ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾.

وأعلمهم يا محمد بأن المولى عز وجل ما أسرع ما يقبل توبة عبده بمجرد دخوله حظيرة الإيمان وإقباله على الصالح من الأعمال بكل صدق وأمانة.. وأنه تعالى يضاعف له في ثوابه، بينما ينذره ويتهدده بأنه لو بقي على كفره أو ارتد عن إيمانه فإنه لن يجد إلا ما أعده للكافرين من العذاب الشديد في الآخرة ناهيك عن الخزي في الدنيا.

وأعلمهم يا محمد أن المولى عز وجل يوسِّع رزقه على من يشاء بناء على علمه وحكمته في خلقه، ويعطيه لمن يشاء بالقدر المحدود، وأن ذلك من باب اللطف بهذا أو ذاك، وحتى يمنع هذا من تجاوز العدل إلى الظلم والبغي والعدوان، ويطلق يد ذاك الكريمة في طاعته وللإنفاق في سبيله.

وأعلمهم يا محمد بأن الله تعالى يحيط علماً بحال خلقه، وما يحل بهم من يأس عندما يتأخر عنهم نزول الغيث، ويعلم ما تصير إليه حالهم عندما ينشر عليهم من رحمته فينزل الغيث الوفير، فهم يقبلون على هذه النعمة فرحين مستبشرين، ولكن، ويا لنكران النعمة!

إنهم ما أسرع ما تنتكس حالهم من شكر الله إلى الكفر بنعمته وإسنادها إلى أنفسهم وإلى أعمالهم وعلومهم.

فحذّرهم من ذلك يا محمد وذكّرهم بأن الله تعالى هو ولي نعمتهم مهما كان لهم من دور في اتخاذ الأسباب ونتائجها التي وضعها بين أيديهم لأنه سبحانه القادر على سلبها منهم وتركهم لندمهم وحسرتهم.

وليذكروا أنه سبحانه الواجب الحمد والثناء على كل حال.

وتأتي السورة بعدها لعرض بعض من العلامات الدالة على عظمته تعالى وقدرته في السراء والضراء من أحوال خلقه.. فتقول:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾
وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي
ٱلْأَرْضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾
إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ
بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن
شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ
كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ
شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَاۖ
فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم
مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦۗ
وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا
خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ
وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم
مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾

مبينة أن من دلائل عظمته تعالى وقدرته أن خلق هذه السموات والأرض، ونشر فيها من الخلق سواء الدابة أو الطائرة، وأنه سبحانه القادر يوم البعث على إخراجهم من قبورهم وجمعهم للحساب حين يجد كل منهم جزاء عمله جزاء وفاقاً.

وأنه سبحانه يعلمهم بأن أيَّ مصيبة لا تحل بأحد من البشر إلا بسبب سوء عمله، وأن أسوأ عمل للمسلم هو نسيان حفظه للقرآن مادام غير معذور في ذلك.

وأن الله تعالى يعفو عن الكثير من الأخطاء والسيئات برحمته وفضله، وأن على المشركين والكافرين بالذات أن يعلموا أنهم لن يستطيعوا أن يفلتوا من عقابه تعالى مهما

مد لهم تعالى في الدنيا وأمهلهم، وأن ذلك إنما هو القضاء المؤجل، وأنهم لن يجدوا لهم من معين يدفع عنهم هذا العذاب ولا ناصر يقيهم وقوعه بهم متى حان أجله.

ولينظروا إلى البحار وإلى هذه السفن التي تمخر عبابها وعباب المحيطات، وبأحجام متنوعة ومقاصد مختلفة، ليروا فيها وكأنها جبال متحركة.. إنها من دلالات قدرته تعالى وعظمته لأنه سبحانه وحده القادر على أن يسكن الريح أو يجمد المياه فتركد على ظهرها.

فلينظروا إلى ذلك بتمعن وتدبُّر ليروا ما فيه من عبرة لكل مقدر لنعم الله تعالى وصابر على ابتلائه بجمود سفينته في الماء مثلاً، وشاكر على إنقاذه من الركود أو الغرق، كيف لا وأن هذه الرياح لو أحالها المولى عز وجل من هدوئها إلى عواصف هوجاء جزاء سيئاتهم وكفرهم بالنعم لتحقق لهم الغرق لا محالة، ولكنه صاحب العفو سبحانه عن الكثير من السيئات، والذي يمهل ويعطي الإنذار تلو الإنذار لمن كان له عقل عادل وفكر نزيه.

وانظروا إلى أولئك المصرِّين على الطعن في دلالات قدرته تعالى وعظمته، والجدل الباطل حولها، فإن أحداً لن ينقذهم من عذاب الله تعالى الشديد متى حاق بهم.

فليحذروا ذلك وليخلصوا العبادة لله تعالى وحده.

وليذكروا أن ما يتوفر لهم من متاع في هذه الحياة الدنيا فإنه مهما كثر وتنوع إلى زوال، بينما ما أعده المولى عز وجل لعباده المؤمنين الصادقين الصالحين هو الباقي الدائم، هو الأفضل ودون أيِّ مقارنة مع متاع الدنيا، وليتوكلوا تبعاً لصدق التفكير على ربهم دون سواه.

وليجتنبوا الآثام والفواحش الصغيرة والكبيرة، وليغفروا لمن أغضبهم، وليقبلوا على طاعة ربهم بالصلوات وإحسان إقامتها، وليتشاوروا فيما بينهم في كل أمر يحزبهم أو شأن من شؤونهم، ولينفقوا مما رزقهم تعالى في أوجه البر والخير والإحسان وسنامها الجهاد في سبيل الله.

ولينتصروا ضد كل بغي وظلم يلحق بهم، وليجازوا السيئة بمثلها، وليذَّكروا أن العفو والصلح أكبر أجراً عند الله تعالى من رد السيئة بمثلها.

وليذَّكروا أن الله تعالى عادل يحب العدل في الأمور كلها ولا يحب الظلم مهما كان بسيطاً، وليحذروا من الوقوع في الظلم عند الانتصار ضد الظلم، وليذَّكروا أنه لا لوم ولا عتب على من ينتصر بعد وقوع الظلم عليه، وأن اللوم كل اللوم والعتب كل العتب على من يظلم الناس دون حق له عندهم.

وليذَّكروا أن التجبر والطغيان في التعامل مع الناس وبخاصة مما يقع من الراعي بحق الرعية هو من الظلم الفادح الذي أعد الله تعالى لمرتكبيه أشد العذاب يوم الحساب.

وليعلموا أن من يصبر على الأذى في سبيل الله تعالى وحمل دعوته والجهاد في سبيله فكرياً ومادياً، ويحتسب ذلك لوجهه الكريم، ويغفر لمن يؤذيه وهو قادر على الرد، فإن له عند الله عظيم الأجر لأنه بلا شك من عزائم الأمور وجلائل الأعمال وحميد الخصال.

وليعمد إلى الاتصاف بذلك كل متصدٍّ لدعوة الله، وليتق الله تعالى كل حاكم من حكام المسلمين تجنباً لسخطه سبحانه بسبب ما يوقعه من ظلم على عباده، عباده الذين استضعفوا ممن بيدهم زمام الأمور وأذلوا طمعاً بمغانم الدنيا وكراسيها العالية ومتعها الزائلة.

واذكروا أيها المشركون أن من يخذله الله تعالى في سعيه، فلا يوفقه إلى تحقيق ما يريده منه، فإنه لن يجد له بعد الله تعالى من ناصر ينصره ولا داعم يدعم عمله.

واذكروا كيف يتمنى الظالم الكافر أو الفاسق لو يجد سبيلاً يوم الحساب للعودة إلى الدنيا ليتوب ويصلح.. ولكن هيهات هيهات وقد عاين العذاب أمامه وأصبح يرى العذاب وناره أمام عينيه، ويلمس الذل والصغار وهما يسيطران عليه، وعيونه ووجهه تنضح بالخزي والعار من على جبينه وبين حاجبيه.

واذكروا ذلك أيها المؤمنون، وأن هذه هي الخسارة العظمى التي عليكم أن تذكّروا المشركين والكافرين دائماً بها وذلك عندما يخسرون أنفسهم بالعذاب الدائم، وأهليهم ببعدهم عنهم وقد أدخلوا الجنة لإيمانهم، أو بدخولهم النار معهم فيحرمون منهم لاشتراكهم في العذاب معهم.

واذكروا ذلك وذكّروهم حتى لا ينتهوا إلى هذا المصير المشؤوم عندما تعمى منهم العيون وتصمُّ منهم الآذان فلا يملكون القدرة على رؤية باطل ولا حق ولا القدرة على سماع باطل ولا حق وقد أخذ منهم العذاب كل مأخذ ولا يجدون معه أحداً يستطيع أن يتقدم لإنقاذهم منه.

وأيُّ نجاة وإنقاذ لمن رفض الهدى، لمن أصرَّ على الضلال ومحاربة الإسلام، لمن ساير الشيطان وأعوانه ضد الرحمن وأتباعه؟!!

وتتوجه السورة بعدها لدعوة المشركين للإيمان وتجنب الإعراض عنه حذراً من المصير المشؤوم جزاء من يفعل ذلك..فتقول:

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾

داعية لهم أن استجيبوا لدعوة الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وكل من سار على طريقته، وادخلوا يا ناس في حظيرة الإيمان بالله وحده، والعمل في إطار طاعته، فتتحقق لكم بذلك المثوبة الجزيلة الحق مهما وقعتم فيه من سيئات تبتم منها وندمتم عليها وأقلعتم عنها.

ويتحقق لكم أيضاً بذلك عفو الله ورحمته قبل مجيء يوم القيامة، يوم الحساب، اليوم الذي لا تقبل فيه توبة ولا رجوع بعده إلا للحساب أمام رب الأرباب، يوم لا يجد الإنسان أيَّ ملجأ يلجأ إليه، ولن يجد أيَّ منكر ينكر ما يحل به من عذاب.

واذكر يا محمد بأنهم إن رفضوا الاستجابة لدعوتك، واذكر يا كل حامل لدعوة محمد ذلك، فإنك أنت لست المسؤول عن كفرهم، وأنه ليس المطلوب منك أن تحفظ سيئاتهم ليوم الحساب بل إن هذا كله يتولاه غيرك، وأن كل ما عليك هو أن تبلغهم بدعوتك لهم للإيمان والطاعات، مادمت لا تملك غير ذلك (وهذه إشارة للدعوة في العهد المكي)، وأن لا تحزن عليهم عندما تجد الكافر أو الفاسق أو الفاجر يبطر ويتكبر على عباد الله تعالى وعلى نعمه بل تراه يتجاوز بجنون العظمة الذي يسيطر عليه إلى التجديف في حق المولى عز وجل وأنعمه عليه وينكرها بل ويطعن فيها عندما تحل به أية مصيبة، وينسى أنها ما حلت به إلا بسبب سوء أعماله.

فاحذروا يا عباد الله الصالحين من الوقوع في مثل ذلك، واحمدوه تعالى، واذكروا أنه تعالى وحده العالم بما يصلح لكم في السراء والضراء على كل حال.

ثم تتحدث السورة عن قدرته تعالى على تنويع ما يهب لعباده من الإناث والذكور مجتمعين أو متفرقين أو لا يهبهم من ذلك شيئاً.. فتقول:

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

فتذكّرهم بأن هذه الهبة المتنوعة من النسل متحققة لهم من مالك السموات والأرض، والمتصرف بها بحكم ما يرى في قضائه وقدره، سواء كان في خلقها

وإيجادها بعد أن لم تكن أو في تدبيرها بعد أن كانت ووجدت، أو في تعبيدها بوحيه كتبه إلى رسله.

وتذكّرهم بأن من قدرته تعالى وتدبيره لخلقه أن يهب الإناث فقط لمن يشاء من خلقه، كما حصل مع لوط عليه السلام عندما وهبه ابنتين اثنتين فقط دون ذكور، وأن يهب الذكور فقط لمن يشاء من خلقه، كما حصل مع إبراهيم عليه السلام عندما وهبه ذكوراً دون إناث، وأن يجمع في هبته لمن يشاء بين الذكور والإناث، كما حصل مع آدم عليه السلام فكانت تلد له حواء ذكراً وأنثى في كل مرة، ومع محمد عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام عندما وهبه تعالى أربع بنات وذكرين اثنين من خديجة رضي الله عنها وذكراً واحداً من مارية القبطية، وأن يجعل من يشاء عقيماً فلا يهبه ذكوراً ولا إناثاً، كما حصل مع يحيى بن زكريا عليهما السلام.

فإنه تعالى يهب كل ذلك لأولئك أو لا يهب شيئاً بقدرته وبحكمه في قضائه تبعاً لما يراه مناسباً لعباده، عباده الذين عليهم أمام ذلك الحمد والشكر له تعالى، وأن لا يحسبوا أن هبة شيء من ذلك هو الخير ولا خير غيره أو أن عدمها هو الشر ولا شر غيره، لا وألف لا.

كيف لا وهو سبحانه وتعالى يقول ما يؤكد ذلك ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ فما أروع هذه الكلمات، وما أروع التسليم بها والاطمئنان لها، والحكم أولاً وآخراً حكم العليم الخبير بخلقه.

ويختم المولى عز وجل السورة بالإشارة إلى طرق الوحي الرباني إلى رسله، وكيف كان حال الرسول عليه وآله وصحبه السلام قبل أن يوحى إليه.. فتقول:

﴿۞وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾

فتوضح أن الوحي الإلهي قد تمَّ إلى رسله تعالى عليهم صلوات الله وسلامه إما بطريق الإلهام أثناء اليقظة أو في المنام، وإما بطريق الكلام من وراء حجاب فينتقل الكلام بقدرة الله تعالى إلى أذن وسمع الرسول المرسل إليه دون أن يرى مصدره، وإما

بطريق الرسول الذي يرسله الله تعالى إلى رسله، ألا وهو جبريل عليه السلام، فيوصل ما يشاء الله تعالى توصيله إلى رسوله.

وتبين أنه تعالى يكلف الرسول الموحى إليه بأيِّ طريق من هذه الطرق بتبليغ ما وصله وعلمه إلى قومه، إذا كانت رسالته محدودة في إطار قومه ومقصورة عليهم من دون غيرهم من الأقوام الأخرى، أو إلى الناس كافة بل إلى عالمي الإنس والجن، إذا كانت رسالته شاملة إليهم جميعاً.

ففي الحالة الأولى كان الحال هو حال جميع الرسل السابقين للمصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وأما في الحال الثانية فكانت محصورة بمن أرسلوا من الرسل للناس كافة، وهما فقط نوح عليه السلام ومحمد عليه وآله وصحبه السلام، والقرآن يقول لمحمد عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام بشأن رسالته ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ثم ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: ٢٨] و﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فهي رسالة لعالمي الإنس والجن بعامة ولعالم الإنس بخاصة، وكان الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم في جميع الحالات هو المختار من البشر وليس من الملائكة، وكان من الرجال وليس من النساء، وأن الرسول لو كان ملكاً في أيِّ حال لجعله سبحانه وتعالى رجلاً، ويفهم لغة من يرسل إليهم، وإلا لما فهموه ولا تعاونوا معه ولا استجاب أحد منهم له.

ولو كان الرسول امرأة لتعرضت لما يمنع قيامها ببعض التكاليف سواء أثناء الإقامة أو السفر، وفي ذلك نقص في لزوم التبليغ في كل زمان ومكان، وكيف يكون ذلك ورسالة الله تعالى الشاملة للناس كافة والصالحة لكل زمان ومكان هي رسالة الإسلام هذه الخاتمة؟!

وتبين السورة بعدها للرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام بأن ما أوحاه الله تعالى إليه هو روح من أمره، وسواء كان هذا الروح هو القرآن نفسه أو جبريل الموصل له، أو النبوة المكلف بحمل أعبائها أو الرحمة المتحققة من تطبيق هذه الرسالة في عالم الخلق، فالكل من أمر الله تعالى إذ ﴿لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾.

ثم تخاطب الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام قائلة: إنك يا محمد لم تكن قبل هذا الوحي إليك تعرف شيئاً مما أوحي إليك لا الكتاب ولا الإيمان ولا الطريق إلى ذلك.

وإنك يا محمد وإن كنت معصوماً عن ارتكاب المحرمات قبل النبوة وبعدها فإنه

لم يكن لديك العلم بأيِّ جانب من جوانب الإيمان المطلوب منك لنفسك ولمن يؤمن برسالتك مما يشمل الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر، كما يشمل أصول الشريعة كلها، وأن القرآن الكريم، والسنة النبوية هما مصدرا هذه الشريعة بتحديد من الله تعالى المنزل لهما.

وأن القرآن الكريم والسنة النبوية وما دلّا عليه من إجماع الصحابة من بين كل الإجماعات المتعددة والقياس الشرعي بالذات هي الأدلة التفصيلية لهذه الشريعة، وهي كلها من الله تعالى بأمره وإلزامه لتكون هي فقط مرجع استنباط الأحكام العملية للتطبيق في الحياة اليومية بحيث لا يستنبط أيُّ حكم وفي أيِّ جانب من جوانب الحياة إلا من هذه الأصول الأربعة، وإن وجد الاعتبار لدى بعض الأصوليين لبعض الأصول الأخرى من مثل إجماع الأمة الذي يتردد بين جوانب تفسير الإمام القرطبي الذي نحن بصدد الوقوف معه هنا.

فيبقى إذن القول المركز بأن هذا القرآن ومعه السنة «أوتيت الكتاب ومثله معه»، قد أوحى الله تعالى بهما وحياً باللفظ والمعنى للقرآن وبالمعنى فقط للسنة ولفظها من الرسول عليه وآله وصحبه السلام.

وكان أن جعلهما الله تعالى لشمول كلمة الروح لهما معاً نوراً يصل به المؤمن إلى الهداية عندما يؤمن بهما ويلتزم ما فيهما من أمر ونهي، وكان أن تحقق في الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وكل من يقتدي به صفة الداعية أو حامل الدعوة وفقاً للطريق القويم، طريق الله تعالى مالك السموات والأرض ومحاسب الخلق فيهما، في الأرض بالذات، يوم القيامة عندما يحشرون إليه ليجزيهم بأعمالهم إن كانوا كفارا ويجازيهم بأعمالهم إن كانوا مؤمنين.

فهلا انتهيتم أيها الناس عما أنتم عليه من بُعد عن هذه الشريعة الإسلامية، شريعة الهدى والنور، وعدتم إليها إيماناً وتطبيقاً في حياتكم، لتجدوا ثواب الله تعالى الجزيل بانتظاركم في الآخرة ورحمة الله تعالى وسعادته وعزته في الدنيا؟!

فإلى سعادة الدنيا والآخرة ندعوكم أيها الناس.

دليل سورة الشورى ـ ٤٢

- تبدأ بالتأكيد للرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن القرآن الموحى إليه هو من الله تعالى.. وأنه يوحى إليه بالعربية ليسهل تبليغه لأهل مكة ومن حولها من العرب ابتداء.

- وتبين أن الله تعالى قد قضى بخلق البشر بقابلية التقوى والفجور ليمكن الاختيار بينهما فكان ما كان من البشر من الشرك والتوحيد.

- وتذكر ما قضاه تعالى من خاصية التكاثر بين البشر لبقاء النوع البشري وبنفس الشكل بقاء أنواع الأحياء الأخرى.

- وتؤكد بأن الله تعالى ليس كمثله شيء في ذاته وفي صفاته.

- وتؤكد التقاء الإسلام مع الأديان الأخرى في الإيمان بالله وحده وطاعته والحساب يوم الحساب والعدل بين الناس.

- وتحذر الكفار من استعجال العذاب لأنه سيأتي لا محالة ولكنها رحمة الله تعالى بعباده إذ يمهلهم وييسر الرزق للبارِّ والفاجر.. فعليهم الاستعداد بالعمل الصالح لآخرتهم وإلا خسروها بعنادهم.

- وتؤكد نفي ادعاء الوحي عن الرسول عليه وآله وصحبه السلام وجميع إخوانه من الرسل السابقين.

- كما تؤكد أنه تعالى بحكمته وتدبيره يوسع الرزق أو يضيقه على من يشاء لعلمه المطلق بصالح عباده.

- وتورد العديد من الأدلة على قدرته تعالى من الغيث وغيره.

- وتؤكد للخلق بأن نزول المصائب بهم هو بسبب سوء أعمالهم.

- وتحذر من ظلم النفس بالشرك وظلم الآخرين بعدم الصفح.. وأنهم يتحملون نتيجة إعراضهم.

- وتحذر من بطر النعمة ونسيان المنعم المتفضل.. وهو القادر على كل شيء جلباً ومنعاً.

- وتذكّر بأن الأولاد هبة منه تعالى فهو المعطي والمانع.

- وتحدد سبل توصيل رسالته لرسله: إما الوحي والإلهام في اليقظة أو المنام، وإما الكلام من وراء الحجاب، وإما الملك جبريل عليه السلام، ولا سبيلاً رابعاً أبداً.. وبهذه السبل الثلاثة كلها أوصل رسالته لمحمد عليه وآله وصحبه السلام.. وأن عليه أن يطمئن لذلك ويواصل التبليغ.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ ابتدأ الأمر بالتبليغ بمكة ومن حولها ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

٢ ـ بعلمه سبحانه المطلق بعباده يوسع الرزق ويضيقه ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ

وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٞ﴾، ولأنـــه ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٢٧﴾.

٣ ـ ليس معنى وحدة الدين بين رسل الله وحدة التشريع لأنه ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾.

٤ ـ الأمر بالتزام الوحي وتجنب الهوى ﴿وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ﴾ مع مواصلة الدعوة ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ﴾.

٥ ـ التحذير من أعمال الإثم والبغي والعدوان ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾

٦ ـ وصفة الشورى بين المسلمين في أمورهم اقترنت بالإيمان وإقامة الصلاة.. ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾ مما يدل على خطورة ذلك في حياتهم.

٧ ـ حصر العمل في المرحلة المكية بالدعوة ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾

٨ ـ إن الروح التي أوحى تعالى بها لرسوله عليه وآله وصحبه السلام هي رسالة الإسلام كتاباً وسنة ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ تشمل الخطاب من وراء حجاب في المعراج والإلهام في اليقظة أو المنام بكثير من الإسلام، والملك جبريل عليه السلام في أمور أخرى مما جعله عليه وآله وصحبه السلام أعظم مكانة وتكريماً من الرسل السابقين الذين اختص الواحد منهم بواحدة من هذه السبل.

سورة الزخرف (٤٣)

التقديم

سور الزخرف مكية إلا آية ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾، فجاءت في تسع وثمانين آية، وهي الرابعة بين الحواميم وهي تشمل الأمور الآتية:

تبدأ السورة بالافتتاح بـ﴿حمٓ ١﴾ ثم يقسم المولى عز وجل بالقرآن بأنه قد أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بالعربية ليمكنهم من تدبر ما فيه وتبليغه لغيرهم.

ثم يؤكد لمشركي العرب بأن تذكيرهم سيتواصل رغم إسرافهم وكفرهم ودون مبالاة بالسخرية التي تشبه ما وقعت ممن كان قبلهم من الأمم فأهلكوا بسببها.

ثم يحذرهم من إقرارهم بأن الله تعالى قد خلق السموات والأرض مع الشرك.

ثم تذكرهم بنعم الله تعالى عليهم من خيرات الأرض والسماء ليؤدوا واجب الشكر عليها ويكفوا عن القول بأن الملائكة إناث.

ثم تحذرهم السورة من زعمهم بأن مشيئة الله تعالى هي سبب عبادتهم للملائكة، وينسون أن سنته تعالى تتجلى في خلق الإرادة والاختيار للواحد منهم، وفي إنزال الهداية لهم ودعوتهم لاختيارها بدلاً من الشرك والكفر الذي هم عليه.

وتتصدى السورة بعدها لافترائهم على الرسول عليه وآله وصحبه السلام وكفرهم بما جاءهم به من الهدى بحجة اتباع آبائهم، وأن ذلك قد جرَّ عليهم العذاب بالقحط والقتل والسبي مع أن ما حصل لمن كان قبلهم يكفيهم للاعتبار.

وتدعو السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام بعدها لتذكيرهم بما حصل مع إبراهيم عليه السلام عندما تبرَّأ من معبودات قومه وقصر عبادته على الله تعالى، ثم أوصى بنيه من بعده بذلك.

ولكن مشركي العرب لم يبالوا بهذا التذكير والتحذير من أن يحل بهم ما حل بقوم إبراهيم عليه السلام.

فماذا فعلوا؟ لقد كذبوا الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم واتهموه بالسحر.

ولقد تألَّوا على الله تعالى أن لو أنزل القرآن على رجل من عظماء مكة أو الطائف غير محمد، وكأن النبوة بيدهم ولهم إسنادها لمن يرونه مع أنهم لا يملكون الفقر والغنى حتى لأنفسهم.

وتذكّرهم السورة بعدها بأنه لولا معرفة الله تعالى بهم وبغيرهم من الناس في ميلهم نحو الدنيا ومتاعها وتركهم الآخرة، مما يجرُّ عليهم الكفر، لولا ذلك لأعطاهم في دنياهم البيوت المسقفة بالفضة والمدرجة بالفضة، ولكن رحمته تعالى بهم وبالبشر جميعاً يحرمهم من ذلك ومن أمثاله دفعاً لهم للاعتبار والتذكر.

وتواصل السورة تذكيرهم بلزوم استحضار عبادة الله تعالى وحده، وطاعته وحده، وعدم الاستجابة لغواية الشيطان الذي يزين لهم الضلال وأفضلية الدنيا ومتاعها على الآخرة، وخلود نعيمها.

وتؤكد السورة لهم بأنهم سيشاركون شياطينهم من الإنس والجن في عذاب جهنم، وأنه لن يخفف عنهم شيئاً من عذابها.

وتنبههم السورة بعدها إلى أن اتباع الهدى لهم هم أنفسهم وباختيار الواحد منهم

وإرادته، وأن الرسول عليه وآله وصحبه السلام لا يملك القدرة على إكراه أحد منهم على ذلك.

فماذا يجب عليهم؟

إن عليهم أن يقبلوا على سماع الهدى ورؤية أدلة الحق والتخلي عن الإصرار على الضلال، لأن سنة الله تعالى في خلقه قد درجت على أنه لو قضى على رسوله أن يقتلوه بالطبع بإرادتهم فإن العذاب سيحيق بهم جزاء فعلتهم، وأنه عز وجل قادر على إنزال ما توعدهم به في الدنيا وفي الآخرة متى حان أجله.

ثم تدعو السورة الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام بعدم الاهتمام بتكذيبهم له.

وتدعوه للحرص على الأخذ بكل ما يوحي إليه ربه، لأنه الطريق القويم، ولأن القرآن نفسه شرف له ولمن اتبعه، وأنهم سيحاسبون على تفريطهم به.

ثم يطلب المولى عز وجل من رسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم أن يسأل عمن أرسل قبله من الرسل حول ما إذا كان قد جعل الله تعالى معه أو من دونه آلهة أخرى تعبد في الأرض.

فهنا إشارة إلى سؤاله لهم بالفعل عندما تقدم بهم فصلى إماماً ليلة أسري به إلى المسجد الأقصى، وأنهم جميعاً أجابوه بالنفي.

ثم تضرب السورة مثلاً بموسى عليه السلام عندما أرسل إلى فرعون، فتذكر كيف كانوا يسخرون منه ويتهمونه بالسحر، وكيف أن الله تعالى قد ألزمهم الحجة عندما استجاب لطلبهم بكشف العذاب والضر الذي كان ينزل عليهم.

وتذكر السورة كيف أنهم خالفوا ما وعدوا به من أنهم سيستجيبون لدعوته تبعاً لذلك، وأن العذاب قد حل بهم جزاء سخريتهم وتلاعبهم حتى انتهوا إلى الغرق والهلاك الماحقين وانتهت أرضهم وديارهم وأرزاقهم كلها إلى بني إسرائيل.

فتذكّرهم السورة وتحذرهم من السير على طريقة فرعون وقومه فيحل بهم ما حل بهم.

وتدعوهم للكف عن العناد في الكفر، وأن يذكروا عاقبة تلاعبهم وسخريتهم لئلا يقعوا في ما وقع فيه فرعون وقومه من السخرية والاستخفاف الذي كان يمارسه فرعون مع أتباعه فيطيعونه على افترائه بالألوهية، فينتقم الله منهم ويهلكهم كما انتقم وأهلك فرعون وقومه.

ثم تذكّرهم بقصة عيسى عليه السلام، وما فيها من العبر، وتأمرهم بعدم الافتراء

بأن الله تعالى يريد أن يجعلهم يعبدون محمداً كما عبدت النصارى المسيح، وبالكف عن هذا القول وعن أن أصنامهم أفضل من عيسى معبود النصارى، كما يزعمون.

وتقول لهم بأنهم هم وأصنامهم سيكونون وقوداً للنار بينما عيسى عليه السلام بريء من عبادة من يعبده من البشر لأنه لم يطلب منهم ذلك، ولا طلبه تعالى منهم.. إنه مجرد افتراء على الله تعالى وعلى رسوله عيسى عليه السلام.

وتؤكد لهم بأن عيسى عليه السلام هو عبد من عباد الله المخلصين، وأن ظهوره إشارة لقرب قيام الساعة كما أن بعثة محمد عليه وآله وصحبه السلام إشارة لذلك.

وتذكّرهم بأن عيسى عليه السلام قد جاء بني إسرائيل بالإنجيل وبيان نقاط الاختلاف فيما بينهم لكي ينتهوا عن ذلك ويقبلوا على طاعة رب العالمين.

ولكنهم بدلاً من الاستجابة تفرقوا إلى فرق متعددة، ورفضوا التوحد على إيمان واحد:

فادعى النساطرة منهم بأن المسيح هو ابن الله، سبحانه.

وادعى اليعاقبة بأنه هو الله، سبحانه.

وادعى الملكية بأنه هو ثالث ثلاثة أحدهم الله، سبحانه.

فماذا يستحقون من الجزاء؟

إنهم يستحقون ما ينتظرونه من العذاب الأليم في الآخرة وما حل بهم في الدنيا.

فاذكروا ذلك يا مشركي العرب، وأعلموا أن من يصرُّ على الشرك لن يجد يوم القيامة نصيراً حتى من أقرب الناس إليه ولا من أصدقائه وأحبائه لأنهم وإياه سيكونون في نار جهنم.

وشتان بينهم وبين الأخلاء المتقين الذين يناصرون أصدقاءهم بل يشفعون لهم في الآخرة بإذن الله تعالى.

شتان بين الفريقين، فاذكر ذلك أنت يا أمية بن خلف وصاحبه عقبة بن أبي معيط، فإنكما لن تجدا أنتما وأمثالكما إلا العداوة والخزي بدلاً من الصداقة والكرامة هناك يوم القيامة، يوم الخلود في النار لكم ولأمثالكم، وسترون الندامة والعار لجميع المشركين والكفار، والفساق والفجار.

وتذكّرهم بما للمتقين من عباد الله الصادقين من مصير طيب في الآخرة بما ينتظرهم من الخلود في جنات النعيم، بالمقابل لخلود المشركين في عذاب الجحيم،

وأن عليهم إذا استقامت عقولهم مع الحق واستجابوا لدعوة الحق أن ينخلعوا من شركهم ليكونوا مع المتقين الصادقين المخلصين.

وتذكّرهم بأن من كذّب الحق أو طغى وتآمر على رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم سواء في دار الندوة أو غيرها، أو زعم مع اليهود والنصارى بأن لله تعالى ولداً أو نداً، سبحانه وتعالى عمَّا يصفون، فإن مصير أصحاب هذا الإفك والافتراء محتوم معلوم في قرار الجحيم بقدرة قادر لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

كيف لا وهو سبحانه وحده إله السموات والأرض، خلقاً وتدبيراً وتعبيداً.. وأنه هو وحده مالكهما وما بينها.. وأنه هو وحده سبحانه الذي سيبعث الخلق جميعهم يوم البعث للحساب.. وأن يوم البعث لا يعلمه أحد سواه سبحانه وتعالى.. وأنه لا يستطيع التقدم للشفاعة في ذلك اليوم أحد لأحد إلا بإذنه تعالى وحده.. وأن ذلك لن يكون إلا لمن آمن به وحسن إيمانه وعمله، وكل ذلك بإذنه سبحانه وحده، ناهيك عن فضله ورحمته وكرمه.

وتذكّرهم السورة في خاتمتها بما اعتادوا على الإقرار به بأن الله تعالى هو وحده الخالق.

وتؤكد لهم بأنهم سيؤخذون مع هذا الإقرار بكذبهم وافترائهم على الله تعالى، وتستدعي العجب كل العجب من عقولهم إذ كيف يجتمع لديها الإقرار والإنكار!؟

وتأتي السورة في التعقيب على ذلك لتطلب من الرسول عليه وآله وصحبه السلام، ومن كل من بيده السلطة من بعده من المسلمين أن يعرض عن هؤلاء المشركين ويوجه لهم التهديد والإنذار بأنهم سيعرفون ما ينتظرهم من الخزي والعار في هذه الدنيا ومن العذاب الأليم في تلك الآخرة، وأن عليهم أن يتدبروا أمورهم في دنياهم بالتوبة والإنابة بعد أن يتخلوا عن شركهم وطغيانهم، وعندها فقط سيجدون رحمة عباد الرحمن بأمر من ربهم بانتظارهم.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ

ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ
﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾﴾

فبعد الافتتاح ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ تورد السورة القسم الذي أقسم به المولى عز وجل بالقرآن، الكتاب الواضح الآيات المبيَّن الأحكام النيِّر البراهين، على قدرة المولى وعظمته من أنه تعالى قد أنزله باللغة العربية بهدف أن يتمكّنوا من أن يتفكروا فيه كعرب ويتدبروا آياته المقنعة لذوي العقول النزيهة لينتقلوا من الشرك والكفر إلى الإيمان به تعالى، وإلى دعوة بقية الشعوب والأمم في الأرض إليه ما دام لم ينزل للعرب خاصة وإنما للناس عامة.

ثم تذكّرهم بأن القرآن، هذا الكتاب الموجود بين أيديهم، موجود في علم الله تعالى كأنه لوح محفوظ، وأنه هكذا عند منزله تعالى رفيع محكم بلا اختلاف ولا تناقض ولا تباين، وأن تبديلاً لن يلحقه ولا تغييراً ولا تحريفاً.

وتؤكد للبشر عموماً وأهل مكة والعرب خصوصاً بأن الرسول المبلِّغ له لن يتخلى عن مواصلة تذكيرهم بهذا القرآن، هو ومن يتبعه عليه ويؤمن به، دون أن يبالوا بإسرافهم وشركهم.

وتركز الخطاب لمشركي العرب كأول من يجب أن يؤمن به ويحمله للبشرية كافة.

إنها تذكّرهم بأن الله تعالى قد أرسل الكثير من الأنبياء في الأمم السابقة، فكانت تلك الأمم تقع في نفس الخطيئة التي يقعون فيها هم مع الرسول محمد عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام ورسالته القرآن من الاستهزاء والسخرية والتكذيب.

ثم تذكّرهم بأن عاقبة ذلك كان الهلاك لأولئك بالرغم من أنهم كانوا أكثر قوة من هؤلاء ولكنهم بكفرهم وطغيانهم قد أصبحوا أثراً بعد عين، وأن على مشركي العرب أن يحذروا نفس المصير.

ثم تعرض السورة إقرارهم بالله خالقاً، فتورد بعض جوانب عظمته تعالى وقدرته ووجوب توحيده.. فنقول:

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ
﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ
لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ
بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ

وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ
الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ
جُزْءًا ۚ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ
أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ
وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ
سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ
إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا
عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ
مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا
وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ۖ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ۞

مشنعة على أولئك المشركين كيف يقرُّون بأن الله تعالى هو خالق السموات والأرض ثم يعبدون غيره!!

ثم تذكّرهم بأن الله تعالى هو الذي أنعم عليهم النعم الكثيرة عندما مهَّد لهم الأرض وسهَّلها لمعايشهم دون أن يجدوا في ذلك دليلاً على قدرته تعالى ووحدانيته.. فيا للعجب من ذلك!!

ولماذا؟ وأين منهم هذه النعمة التي تنزل عليهم مطراً من السماء، وبالمقدار المناسب، فتحيي البلاد بعد أن كانت ميتة جدباء، وتحيي العباد بعد أن يئست نفوسهم من الخير والنماء.. إنه دليل محسوس على قدرة الله تعالى على إحيائهم للحساب يوم القيامة.

فأين هذه الحياة للأرض بعد موتها من بعثهم بعد موتهم، بعثهم يوم القيامة من موتهم ليحاسبوا على كل معتقد وقول وفعل يصدر عنهم؟!

وأين هم من خلق هذه الأصناف العديدة من النباتات والثمار بعد أن دبَّت الحياة في الأرض بنزول نعمة المطر عليها، ومن خلق هذه الأنعام الكثيرة، وبالذات التي يجدون بها الوسيلة للركوب والتنقل من بلد إلى آخر؟!

هل غابت عنهم عقولهم وهم يرون هذه النعم الكثيرة تتوفر بين أيديهم فلم تر عيونهم إلا النعم وأما المنعم فقد عميت عنه!!

ها هو تعالى سبحانه يعلّم عباده كيف يعبّرون عند الركوب في السفن والأنعام وغيرها من جميع وسائل النقل عن اعترافهم لله تعالى بنعمته هذه عليهم بأن يقولوا﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف: ١٣ ـ ١٤] مقرّين بأنه لولا تذليله تعالى لهذه الوسائل وتيسيره لها ليتمتعوا بها في حياتهم ويتنقلوا بها في البر والبحر والجو لما توفرت لديهم، كما يعلمهم عند ركوب السفن الدعاء بـ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: ٤١].

ولكن هل أقروا بذلك وتخلوا عن كفر النعمة؟ ها هم يقعون في شر أعمالهم وهم لشركهم يجعلون الله تعالى جزءاً من عباده المخلوقين فيشركونهم معه سبحانه وهم يزعمون بأن الملائكة بنات الله تعالى وأنهم يتشفعون بهم إلى الله تعالى، فما هذه السرعة في تذكر الجدب وانحباس الأمطار ونسيان النعم عندما تنزل الأمطار وتكثر الخيرات؟!

ومن أين لهم بهذا الزعم وهم يدّعون أن الملائكة بنات وقد اختص تعالى نفسه بهم، وأن الذكور قد خصَّهم هم بهم ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢١ ـ ٢٢] فما هذه القسمة بينهم وبين خالقهم وخالق كل شيء: فيعطي الواحد منهم لله تعالى ما يسود به وجهه لو بُشِرَّ به من الغم والكرب، ألا وهو الأنثى؟!

فكيف جعلوا لله تعالى من يُنَشَّأُ في الحلية والزينة، ويعجز عن مخاصمة الآخرين، وهن الإناث؟! فما أكذبهم وأجهلهم وهم ينسبون الأولاد كأهل الكتاب إلى الله تعالى، وما أشد تحكمهم وهم يزعمون بأن الملائكة إناث وأنهم بنات الله!! فهل حضروا خلقهم حتى حكموا بذلك؟! وليستعدوا للسؤال يوم القيامة عن شهادتهم الكاذبة هذه؟!

ثم ليعلموا بأن الله تعالى قادر على منعهم من أيِّ عمل وإلزامهم بأيِّ عمل قهراً، ولكن تدبيره الحكيم اقتضى أن يلهم كل نفس الميل إلى الفجور والتقوى وجعل فيها قدرة الاختيار بينهما، وأنزل الهداية لتعرف ما تختاره منها وما تتركه إذا عزمت على الأخذ بأحدهما لتتحمل مسؤولية ما تختار وتأخذه بين يدي الحساب يوم القيامة، وأن عليهم لذلك أن يكفوا عن زعمهم بأنهم عبدوا الأصنام والملائكة بمشيئة الله تعالى، وهم يقصدون من ذلك أن المشيئة قد أكرهتهم على هذه العبادة وأرغمتهم عليها جبراً عنهم، فهو زعم كاذب وبهتان على الله تعالى الذي سيسألهم عن ذلك يوم الحساب ولن ينفعهم التهرب من المسؤولية عن أعمالهم.

وتوبخهم السورة لهذا الزعم وهم لم يحضروا خلق الملائكة ولا بين أيديهم كتاب من عنده تعالى يعتمدون عليه في زعمهم قبل القرآن ولا سيما أنهم يبنون زعمهم كله

على اتباعهم لآبائهم.. إنهم في ذلك كحال كل المنعمين من ملوك الأرض وجبابرتها.. فلا تحزن يا محمد لقولهم لأنه ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ ولكن قل لهم: أليس ما أتيتكم به من عند الله هو أهدى وأرشد من هذا الذي أنتم عليه تبعاً لآبائكم؟! فعليكم أن تكفوا عن إصراركم وعنادكم في الباطل، والكفر بما جئتكم به من الإيمان والتوحيد.

وانظر يا محمد، ويا أتباع محمد ما حلَّ بهم جزاء تكذيبهم: إنه القحط والقتل والسبي.. هذه هي الدنيا، وأما الآخرة فالجزاء فيها أشد وأخزى!

وتشير بعدها السورة إلى نموذج يحتذى من إبراهيم عليه السلام وموقفه من عبادة قومه.. فتقول:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾
وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

متنصلاً عليه السلام من عبادة أبيه وقومه للأصنام، ومصرّاً على عبادة خالقه الذي أنزل إليه الهدى، الهدى الذي أوصى به بنيه ليتوارثوه منهم إلى أحفادهم وأحفاد أحفادهم لتبقى كلمة التوحيد يتناقلونها من حفيد إلى حفيد ويلتزمون بها إلى يوم القيامة.

وتعود السورة وتشير إلى تكذيبهم للرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام باتهامهم له بالسحر، وإنكارهم عليه الرسالة، وحكم الله تعالى في تضييق الرزق عليهم.. فتقول:

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا
بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ
رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم
بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن
يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا
يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾
وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ

وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾

موضحة أن المولى عز وجل قد وفَّر لهؤلاء المشركين، كما وفَّر لآبائهم من قبلهم، متعة الحياة الدنيا إذ أمهلهم مع كفرهم حتى أنزل الإسلام على رسوله المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ليوصله إليهم وإلى الناس كافة. ولكنهم بدلاً من شكر هذه النعمة كفروا بالمنعم والرسالة التي أنزلها إليهم على رسوله معتبرين لها مجرد سحر، ولم يكتفوا بذلك بل أنكروا الرسالة على الرسول وتمنوا لو نزلت على أحد عظماء مكة أو الطائف بدلاً منه عليه وآله وصحبه السلام، لا لشيء إلا لفقره بالنسبة لغنى زعمائهم أمثال الوليد بن المغيرة عمِّ أبي جهل، أو أبي مسعود عروة بن مسعود الثقفي.

ولكن أنَّى لهم أن يتدخلوا في توزيع رحمة الله تعالى وفضله بالنبوة على من يشاء من عباده، وهو وحده تعالى الذي يقسم بينهم أرزاقهم في هذه الحياة، وليس لهم من رزق دونه، فكيف بالنبوة؟!

وهو سبحانه وتعالى الذي رفع بعضهم على بعض بالغنى والقوة، وما ذلك إلا لتدبير حكيم منه سبحانه ليسخِّر الفقير للغني كما يسخِّر الغني للفقير، كل حسب دوره وعطائه، فيكون بعضهم سبباً لمعاش بعض، وما عليهم إلا أن يذكروا أن رحمة الله تعالى من النبوة لأنبيائه والجنة لجميع أصفيائه هي خير من كل ما يجمعونه في دنياهم من مال ومجد وقوة.

وعليهم أن يذكروا أن الدنيا كلها من الحقارة والهوان عند الله تعالى بحيث كان من الممكن أن يجعل بيوت الكفار ودرجها من الذهب والفضة لولا غلبة حب الدنيا على القلوب فتكفر، وأن يجعل للبيوت الأبواب وييسر الفرش والأسرة المزخرفة بحيث يتنعمون عليها.. ولكن ذلك كله من متاع الدنيا الزائل، وأين منه ما أعدَّ تعالى للمتقين في الآخرة؟!

وعليهم أن يذكروا أن من يعرض عن كتاب الله تعالى وطاعته فإن هواه وشهواته تغويه وتزين له متع هذه الدنيا وتبعده عن طريق الهدى بحيث يظن نفسه الوحيد على طريق الهدى، ولكنه ما إن يبعث يوم الحساب حتى يتمنى لو كان ما بينه وبين قرينه أبعد من المشرق عن المغرب، ولكن هيهات أن تنفعه هذه الأماني بعد أن ظلم نفسه بالكفر فزجَّها مع قرينه في العذاب الشديد!!

وتخاطب السورة المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم مذكرة، مثيرة، آمرة.. فتقول:

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

مؤكدة له عليه وآله وصحبه السلام بأنه لا يمكنه أن يسمع دعوته لمن أقفل أذنيه عن سماع كلمات الحق، ولا أن يهدي من أصرَّ على إقفال عينيه لكي لا يرى طريق الحق ولا يسير فيها،

وأن عليه وآله وصحبه السلام أن لا يضيق صدره بمواقفهم لأنه وهو رسول دعوة ليس عليه إلا التبليغ ولكنه وهو رسول دولة يصبح عليه التنفيذ، ولكنه يبقى ليس له أن يُكرِه أحداً ليكون مؤمناً.

وأن عليه أن يعلم بأن خروجه من مكة بسبب أذاهم سيوقع النقمة بهم في حياته عليه وآله وصحبه السلام، وأنه سيرى ذلك، وقد رأى بالفعل ما حلَّ بهم في بدر.

وأن عليك يا محمد أن تتمسك بما أوحى به إليك ربك من النبوة لأنه الطريق القويم، ولأن في القرآن شرف لك ولقومك ومن اتبعك من الناس، وأنكم سوف تحاسبون على تبليغه والعمل به.

واسأل يا محمد، ليطمئن قلبك، من أرسلنا قبلك من الرسل وقد اجتمعوا عليك وأنت تؤمهم في الصلاة في المسجد الأقصى عندما أسري بك، اسألهم فيما إذا كان ربك قد جعل معبودات أخرى تعبد معه أو من دونه، وستجد الطمأنينة التامة في صدرك لا تجعلك تسأل وإنما للتقرير على ما يقوله اليهود والمشركون بأن شيئاً من ذلك لم يحصل، وأنهم جميعاً لم يبعثوا إلا بالتوحيد فقط.

وتذكّر السورة بعدها ببعض جوانب بعثة موسى عليه السلام إلى فرعون، وبعثة عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل.. فتقول:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ

لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا
كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ
وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ
يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ
فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥٥﴾
فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ
﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا
عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ
﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ
إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ
ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ
﴿٦٤﴾ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ
إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٦٦﴾

فانظر يا محمد إلى موسى عندما أرسله تعالى بالمعجزات التسع إلى فرعون وكبار قومه، ودعاهم إلى التوحيد، فإنهم قد ضحكوا منه ولم يتراجعوا عن كفرهم وطغيانهم رغم المعجزات المتتاليات، ولكنهم كانوا يطلبون كشف الضر عنهم كلما اشتد بهم مع إظهار الاستعداد ليؤمنوا، ولكنهم كانوا يسرعون في نكث الوعد ونقض العهد، ويعودون لكفرهم بمجرد كشف العذاب عنهم.. إنه إمهال الله تعالى لهم ليلزمهم الحجة.

واشتط فرعون في كفره فادَّعى الألوهية لنفسه بحجة أنه يملك مصر وأنهارها بينما موسى لا يملك شيئاً، وأنه يملك أدلة المكانة والرفعة من حلية الذهب وغيرها بينما لا يملك موسى منها شيئاً، وأنه لديه من الخدم والحشم حوله الشيء الكثير بينما موسى ليس لديه من الملائكة لمعونته ضد من يخالفه، وأنه لو ألقي على موسى أسورة من ذهب من ربه لكان صادقاً!

لقد كان يستخدم مثل هذه الحجج كأباطيل يحاول أن يقنع بها قومه، وما هذا منه إلا الاستخفاف بعقولهم مما جعلهم تحت ضغط الخوف والرهبة لا يملكون إلا طاعته، وهم خلوٌّ من أيِّ قوة إيمانية تحفزهم للخروج عليه.

وانظر يا محمد ما فعله ربك بفرعون وقومه عندما تمادوا في غيِّهم وطغيانهم، فقد انتقم منهم أشد الانتقام بالغرق عندما ظنوا أنهم أوشكوا على الإمساك بموسى وقومه، فأصبحوا حديثاً لمن عمل عملهم فيما بعد.. فلا تبتئس وأنت ترى ما حصل مع فرعون وقومه وأنه ليس ببعيد عن قومك إذا استمروا في غيِّهم.

وانظر إلى ما حصل مع عيسى عليه السلام عندما ذكر أمام قومك فزعموا بأنك تريد أن يعبدوك كما عبد بنو إسرائيل عيسى عليه السلام، فقل لهم: «يا معشر قريش، لا خير في أحد يعبد من دون الله».

وانظر إليهم وهم يصحبون إعراضهم بالضجيج والصراخ للتشويش عليك وأنت تبلغ رسالتك.

وانظر إلى استهتارهم وهم يرون أن آلهتهم خير من عيسى عليه السلام من باب قوله تعالى بأنهم وكل ما يُعبد من دون الله حصب جهنم، ولكن المولى عز وجل يردُّ عليهم افتراءاتهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١﴾ [الأنبياء: ١٠١]، وأكد لهم أن عيسى عبد من عباد الله المخلصين، الذي أنعم عليه بالنبوة وجعله مثلاً لبني إسرائيل لولادته من أم دون أب، وأن الله تعالى قادر على إبادتهم والإتيان بغيرهم، ولو ملائكة بدلاً منهم ولكن سنته سبحانه أن الإنس للأرض والملائكة للسماء.

كما أكَّد لهم بأن عيسى عليه السلام يعتبر علامة على مجيء الساعة كما أن بعثتك أنت يا محمد هي أيضاً علامة أخرى على ذلك مما لا يجوز معه الشك بذلك، وأن من الواجب عليهم أن يتبعوك فيما تدعوهم إليه والابتعاد عن طرق الشيطان وغوايته بالاستجابة لأهواء الدنيا وشهواتها.

وانظر يا محمد إلى ما حصل من جماعات بني إسرائيل عندما جاءهم عيسى عليه السلام بالمعجزات الكثيرة من إحياء الموتى وإبراء الأسقام وخلق الطير والمائدة وغيرها، وأكد لهم بأن ما لديه هو رسالة الله تعالى التي تزيل الاختلافات الواقعة فيما بينهم بسبب نظرتهم للتوراة، وأن عليهم أن يتبعوه ويخشوا الله تعالى في كل ما يأمرهم به وينهاهم عنه.

ولكنهم بدلاً من الاستجابة له اختلفت تلك الجماعات فيما بينها فقال النساطرة بأن المسيح ابن الله، وقال اليعاقبة بأن المسيح هو الله، وقال الملكانية بأن المسيح هو ثالث ثلاثة أحدهم الله، سبحانه وتعالى عن ذلك كله، وأن عليهم أن ينتظروا العذاب الشديد على هذا الكفر يوم القيامة، ذاك اليوم الذي قد يفاجأون به.

وتذكّر السورة بعدها بحال الأصدقاء في الدنيا والآخرة، وتعقد مقارنة بين المجرمين منهم والمتقين.. فتقول:

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ
أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ
تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ
ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾
لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ
عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا
رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا
فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن
كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ
﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى
ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ
عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ
بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ
هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

موضحة أن الأصدقاء في الدنيا يصبحون أعداء يوم القيامة إذا كانوا كافرين، وأما إذا كانوا مؤمنين فإن خشيتهم من عذاب الله تزيد صداقتهم قوة، فسواء كانوا أمية بن خلف الجمحي وعقبة بن أبي معيط اللذين كانا صديقين حميمين في الدنيا أو غيرهما فإنهم يلعن كل منهما الآخر، ذلك لأنهما كانا لا يتناهيان عن المنكر، بل عن المعروف، وهذا هو شأن كل كافر ومضل.

وأما عباد الله المؤمنون، الخاضعون لأمره ونهيه، فإنهم عليهم أن يطمئنوا أنه لن يلحقهم أيُّ خوف من العذاب يوم القيامة ولن يجدوا ما يحزنهم في ذلك اليوم، وأن عليهم أن يستعدوا لنيل جائزة ذلك بالدخول في الجنة هم وأزواجهم المؤمنات وأصدقاؤهم المؤمنون، حيث يجدون التكريم والسرور وهم يطاف عليهم بطعام آنيته من

الذهب وشراب مثله، ويجدون فيها ما تحبه نفوسهم وتستطيبه عيونهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فهم خالدون في ذلك النعيم في تلك الجنة التي أدخلوها بأعمالهم الطيبة، في تلك الجنة التي يجدون فيها من أصناف الفاكهة الكثيرة مما لا مثيل له في الدنيا.

وأما أنتم أيها المجرمون، فليس لكم إلا الخلود في الجحيم، حيث لا يخفف عنكم من عذابها يوماً، وحيث اليأس من رحمة الله الذي رفضتم الإيمان به وطاعته وتوحيده.

ولكم أن تنادوا ما شاء لكم النداء، نادوا مالكاً خازن النار ليحكم الله تعالى عليكم بالموت فترتاحوا من العذاب، ولكن مالكاً لا يجيبكم إلا بعد سنين طويلة ويقول لكم بأنكم ماكثون في هذا العذاب، وأن استغاثتكم لا تسمع ولا أيُّ طلب أو دعاء منكم يسمع جزاء رفضكم الاستجابة لرسل الله وإعراضكم عن الحق.

وهل نسيتم تآمركم لقتل رسول الله عليه وآله وصحبه السلام في دار الندوة بأن تشترك القبائل كلها في قتله فيضيع دمه، وما ذلك إلا كبر وإعراض عن الرسول والرسالة.

وهل تظنون أن الله تعالى لا يسمع كلامكم في السر ونجواكم!! عليكم أن تتأكدوا أن كل ذلك محسوب عليكم وستسألون عنه يوم الحساب.

وقل لهم يا محمد إن ثبت زعمهم بأن لله ولداً فإنك ستكون أول من يعبد ولده، ولكن ذلك مستحيل، ونحن معشر المسلمين ننزهه تعالى ونقدسه كما نزَّه سبحانه نفسه وأمر رسوله بالتنزيه عما يصفونه به من الكذب.

ودعهم يا محمد يخوضوا في باطلهم، ويلعبوا في دنياهم حتى يروا العذاب في الدنيا والآخرة إذا أصروا على ذلك ولم يقلعوا ويتوبوا عنه قبل أن يوافيهم الأجل.

وليذكروا أن الله تعالى وحده هو القادر والمسيطر على السماء والأرض، وأنه لا معبود بحق فيهما غيره، وأنه سبحانه هو وحده صاحب الخير والبركة على عباده فيهما، ووحده العالم بوقت قيام الساعة ومجيء يوم الحساب، وأنهم بلا أدنى ريب سيبعثون ويحاسبون على أعمالهم.

وليذكروا أن هذه الآلهة التي يعبدونها مع الله سبحانه أو بدونه لا تملك لهم الشفاعة، لأن الشفاعة هي فقط لمن شهد بالحق والوحدانية لله تعالى وحده، فهو الذي يشفع له بإذنه تعالى ولا يشفع لأيِّ مشرك أو كافر.

وليذكروا أن إقرارهم بأن الله خلقهم يلزمهم الحجة إذ كيف يعبدون غيره أو يشركون معه غيره ويرجون منه الإذن بالشفاعة لهم؟!

وتختم السورة بندائه عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام وهو يقسم بربه العظيم وكأنه يقول بهذا النص: وأقول قولاً واحداً: يا رب إن قومي ليسوا بمؤمنين بك رغم كل البراهين الواضحة، وأنك أنت يا رب أدرى بهم وبما بذلته لأجل إيمانهم، ولكنني أتوجه إليك يا رب بالدعاء لتصفح عنهم ولا تهلكهم في الدنيا، فإنهم مهما طالت بهم المكابرة والعناد سيعلمون الحق ويتبعونه.. وأنت أدرى بهم يا رب، وهم سيرون أثر رحمة إمهالك لهم ولطفك بهم.

فلك الحمد والمنة حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك.

دليل سورة الزخرف - ٤٣

- تبدأ بتأكيد إنزال القرآن بالعربية ليمكن فهمه وتبليغه.
- وتؤكد مواصلة تبليغ مشركي العرب بالرغم من إعراضهم وسخريتهم.
- وتحذرهم من الإقرار بالخلق مع الشرك ونسبته لله تعالى في مشيئته واتهام الرسول عليه وآله وصحبه السلام بالسحر.
- وتنذرهم من التألِّي على الله لتكون النبوة في رجل عظيم من مكة أو الطائف وكأن النبوة ملك أيديهم!
- وتحذرهم من طلب زخارف الدنيا لأن العالم بهم يحرمهم من ذلك رحمة بهم.
- وتؤكّد لهم أن اتباع الهدى أو الضلال هو ملك اختيارهم فليحسنوه لطفاً بأنفسهم.
- وتؤكّد للرسول عدم الاهتمام بتكذيبهم وكفرهم والحرص على الوحي لأن القرآن شرف لهم ولمن يتبعه.
- وتذكّر بما حصل مع موسى عليه السلام وما انتهى إليه فرعون وقومه من الهلاك جزاء كفرهم وطغيانهم.
- وتحذرهم مما حصل مع عيسى عليه السلام من الافتراء عليه بالألوهية والزعم بأن الله تعالى يريدهم أن يعبدوا محمداً كالمسيح!!
- وتحذرهم من التآمر في دار الندوة وغيرها على الرسول عليه وآله وصحبه السلام.. وتنذرهم من مصير ذلك من الخزي في الدنيا قبل الآخرة.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ إن الإقرار بالحقيقة ليس مجرد شقشقة لسان بل هو إيمان والتزام فكيف يقرّون بالخلق ويعبدون غير الخالق ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ﴾

٢ ـ خطورة نسبة الكفر والمعاصي للمشيئة الربانية ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ﴾ فذلك جهل بأنفسهم المسؤولة عن الاختيار وبالخالق الذي أعطاهم ميزة الاختيار ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾.

٣ ـ إن اختيار الضلال يفتح على النفس البشرية أبواب الشر ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ٣٦﴾.

٤ ـ إن اعتياد الطغاة الاستخفاف بأتباعهم دليل السخف والجهل ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ﴾.

٥ ـ تأكيد دخول الجنة بالعمل الصالح ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧٢﴾.

٦ ـ تأكيد بأن الله تعالى لا يظلم أحداً ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.

٧ ـ تأكيد مواصلة الصفح عن الأذى في المرحلة المكية لأنهم سيعلمون مصير ذلك في المرحلة المدنية قبل الآخرة ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٨٩﴾.

سورة الدخان (٤٤)

التقديم

بعد الافتتاحية بـ﴿حمٓ ١﴾ يقسم المولى عز وجل بالقرآن الواضح الآيات والبراهين بأن الله تعالى قد أنزله على محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم في ليلة مباركة هي ليلة القدر، أنزله كاملاً من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا ثم نزل منجماً على ثلاث وعشرين سنة، في هذه الليلة يقضي تعالى كل خلق وأجل ورزق وعمل إلى السنة التالية، فهو تعالى مرسل الرسل رحمة لعباده، وهو رب السموات والأرض لكل موقن، وهو خالق الخلق ومالكهم ومدبرهم.

ثم تدعو السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام لينتظر يوم يظهر الدخان بشكل واضح في السماء، وعندها يغشى الناس عذاب شديد، والراجح أن ذلك أمارة من أمارات يوم القيامة وإن كان قد ظهر عند القحط بمكة عندما طلبوا أن يكشف عنهم

ووعدوا بالإيمان ولكنهم نكثوا الوعد واستمروا في الافتراء على الرسول عليه وآله وصحبه السلام وتكذيبه وأنه يأتي بالقرآن من بشر وأنه مجنون.

وأن عليهم أن يذكروا البطشة الكبرى سواء ما حصل بهم في بدر أو ما يحصل في الآخرة.

ثم تأخذ السورة في تذكير مشركي العرب بما حلَّ بقوم فرعون عندما كذبوا موسى فأهلكهم المولى عز وجل ببغيهم، بعد أن رفضوا إطلاق بني إسرائيل من العذاب وإرسالهم مع موسى وشتموه وهددوه بالقتل، فاستعاذ بالله تعالى منهم ودعاهم ليكفوا أذاهم عنه، فأصروا فدعا الله تعالى أن ينقذه منهم، فأمره الله تعالى أن يخرج ليلاً بهدوء وسكينة هو وقومه ويضرب البحر بعصاه ويجتازه بيسر وسهولة، ويتركه منشقاً ليدخل فيه فرعون وقومه فيبتلعهم.

وهكذا كان، وورث بنو إسرائيل أرض مصر بما فيها من البساتين من عيون وفواكه وزروع ونعم كثيرة، واندثر فرعون وقومه دون أن يخلفوا عملاً صالحاً تبكي عليهم الدنيا لأجله ولا يصعد لهم إلى السماء فتبكي عليهم لأجله، وأنجى تعالى بني إسرائيل منهم واختارهم ليكونوا خير الناس في زمانهم وبقدر التزامهم بالتوحيد والطاعة، وأنزل عليهم من معجزات موسى الكثير من أمثال فلق البحر، والتظليل بالغمام، وإنزال المنِّ والسلوى.

وتعود السورة بعدها إلى مشركي العرب فتستنكر إنكارهم البعث، وتذكّرهم بقوم تبَّع المجاورين لهم في اليمن بأن الله تعالى قد أهلكهم بإنكارهم وكفرهم، وتحذرهم من نفس المصير إذا رفضوا الإيمان، لأن خالق السموات والأرض قادر على ذلك، وما أيسر عليه أن يهلكهم كمن كان قبلهم، أو أن يدَّخر حسابهم ليوم الحساب، يوم الفصل والقضاء حين يجمع كل البشر للحكم والعدل، يوم لا يستطيع أن يدفع أحد عن أحد شيئاً، اللهم إلا من استثناه الله تعالى برحمته فغفر له بسبب من إيمانه السابق في الدنيا، وأذن للشفاعة له كما يؤذن بالشفاعة بين هؤلاء المؤمنين.

ثم تتهددهم السورة بنوعية رهيبة من الطعام، إنه شجرة الزقوم التي تغلي كالنحاس المذاب في بطونهم، وأيُّ بطون تتحمل هذا الطعام، ولا سيما حين تأخذ الواحد منهم زبانية جهنم فتدفعه فيها دفعاً عنيفاً، وحين يصب الماء الغالي فوق رؤوسهم، وحين تقول لهم تلك الزبانية ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ٤٩﴾ سخرية وإهانة رداً على ما كان يزعمه الواحد منهم كأبي جهل لنفسه في الدنيا من المكانة.

وبالمقابل تأتي السورة لوصف جانب من حال المؤمنين المتقين لتدعو أولئك

الطغاة المشركين ليكونوا منهم بدلا من أولئك الطغاة العتاة المجرمين، وما ينتظرونه من العذاب الأليم، فتقول لهم أن انظروا إلى منزل الواحد من المتقين وهو يحفه الأمن والأمان في الجنة ونعيمها، وتحيطه العيون والبساتين والجنان بثمارها، ويلبس من الديباج الناعم والخشن أصنافاً كثيرة من لباسها، وما يستمتع به من الزوجات حوراء العيون وجمالها، وما يأكله من الفواكه التي لا حصر لأنواعها، وما يعيشه من الحياة الدائمة الخالدة التي لا موت بعدها، وأن ذلك وأكثر منه فضلاً ونعمة من الله الرحمن الرحيم.

وتأتي السورة مع نهايتها ليتحدث المولى عز وجل مخاطباً رسوله المصطفى محمداً صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بأنه قد سهَّل ويسَّر هذا القرآن عندما أنزله عليه باللسان العربي المبين، لغة الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام، ولغة العرب المطالبين أصلاً بالإيمان به وحمله رسالة للعالمين، كيف لا وهم القادرون على الاتعاظ به وفهمه وتدبر معانيه وإدراك براهينه وحججه أكثر من غيرهم ممن لا يفهم لغته.

ثم يدعو المولى عز وجل رسوله، مع آخر آية في السورة، بأن ينتظر ما وعده به من النصر عليهم، وأن ينتظروا هم الهزيمة في الدنيا والهلاك والموت والعذاب الشديد في الآخرة إذا أصروا على الكفر والعصيان.

إنها كلمات نورانية يشير العليم الخبير بها إلى من نزل القرآن الكريم عليه بلغتهم ابتداء وما ينتظرهم ﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾، فهل هناك أبلغ من هذه الكلمات بصدد أسلوب الخطاب ومضمون ما حل بهم بعد ذلك؟! فقد رفع عنهم، عن مضر بالذات، العذاب الذي دعا به رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم من قحط وجدب حتى أكلوا الشجر، وذلك بعد أن وعدوا بالإيمان والطاعة لو رفع عنهم، ولكنهم أخلفوا الوعد ورجعوا إلى كفرهم وطغيانهم، فحل عليهم هذا التهديد والوعيد، فكان ما كان من الهجرة إلى يثرب عنهم والعودة لفتح مكة وبعدها دخولهم حظيرة الإيمان والإسلام، وما تبع ذلك ما تبع من الخير للبشرية جنباً لجنب مع الفتوحات الإسلامية.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ

أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦
رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ
ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ۝٩﴾

يقسم المولى عز وجل بعد الافتتاح بـ ﴿حمٓ ۝١﴾ بالقرآن الواضح الأدلة والبراهين والأحكام والحجج بأنه سبحانه قد أنزل هذا القرآن في ليلة مباركة، هي ليلة القدر، ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١﴾ [القدر: ١]، ليلة أنزله دفعة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ثم أنزله تعالى منجَّماً حسب الحوادث والوقائع على مدى ثلاث وعشرين سنة هي مدة البعثة النبوية.

وأنه سبحانه كما أنزله بكل تلك الرحمات والبشارات للمؤمنين المتقين من الجنان والنعيم أنزله ينذر بالنار وعذابها والجحيم وسعيرها للمشركين الكافرين.

فكان بنزوله في تلك الليلة المباركة قد قضى وحكم لعباده المؤمنين على عباده المشركين، بناء على علمه المحيط بكل دقائق أعمالهم وخلجات صدورهم، بأن لكل منهم حياة أو موتاً أو رزقاً بآجالها ومقاديرها، وأن أحداً منهم لن يملك في ذلك كله جلباً ولا دفعاً، لا لأنه مما اقتضت سنة الله تعالى في خلقه بالاختيار للأعمال المحاسب عليها ولكن لأنه مما اقتضت بأنه من قضاء الله تعالى وقدره الذي لا اختيار فيه ولا مسؤولية عليه.

ولذلك كان هذا الذي قضاه سبحانه في تلك الليلة المباركة من أحوال عباده هو النافذ عليهم حتى قيام الساعة، مما قضاه ومما قدره، مما قضاه من الأعمال من وعلى كل إنسان دون اختيار في ذلك، ومما قدره من خواص وقابليات في الأشياء دون إرادة ولا اختيار من أحد وإنما لكل أحد أن ينتفع أو يسبب الضرر بهذه الخاصية التي قدرها في هذا الشيء أو ذاك أو بتلك الخاصية مما يدخل في إطار دائرة الاختيار والمسؤولية.

لقد كان سبحانه قد قضى وقدر فيها ﴿كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤] تفضلاً منه ورحمة على عباده، وهو المحيط بكل ما يقولون وما يفعلون، فأعلمهم مواضع الإيمان من قضائه وقدره ولو لم يعلمهم من الغيب إلا ما أعلمه لرسوله، وطمأنهم بأن ربهم الذي يخبرهم بذلك هو القادر على كل شيء، والمحيط علمه بكل شيء، وهو رب السموات والأرض وما بينهما، هو خالقها ومدبرها باعتراف كل مؤمن، هو المعبود بحق لكل عابد، هو المحيي والمميت لكل حي، لكل أب من آباء هؤلاء المشركين ومن

بعدهم أجمعين، هو الذي عليهم أن يحذروا من الشك والظن في شيء من قدرته وعلمه ويتجنبوا السخرية في شيء من ذلك كما يليق بكل عاقل متدبر.

وينقل الخطاب الرباني التوجه من الرسول عليه وآله وصحبه السلام إلى مشركي قومه ومن على شاكلتهم إلى يوم الدين..فيقول:

﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾

منبهة الرسول عليه وآله وصحبه السلام أن ينتظر يوم يظهر في السماء ذلك الدخان الواضح الذي يملأ الأرض حتى تزكم منه أنوف المؤمنين وتنثقب منه منافذ سمع وبصر وشم وذوق ولمس الكافرين، فيشعرون بالألم الشديد، وهو في الراجح إشارة إلى القحط والجدب الذي حلَّ بقريش بدعاء الرسول عليه وآله وصحبه السلام عليهم، وإن كان قد ظهر غبار عند فتح مكة، وسيكون أشد من هذا الدخان الذي سيظهر إمارة من إمارات يوم القيامة.

ويأتي الترجيح بدليل دعوة المشركين ليكشف عنهم هذا العذاب إذا تعهدوا بالإيمان، وقد انكشف فعلاً بتعهدهم، ولكنهم ما أسرع ما نقضوا العهد فتوبخهم السورة لسرعة بعدهم عن التذكر والإيمان، وتشنع عليهم هذا الطعن في الرسالة الواضحة المعجزة، والإعراض عن الإيمان والاتهام له عليه وآله وصحبه السلام بأنه يأتي بالرسالة من شخص يعلمها له، واتهامه أيضاً بالجنون.

وبالرغم من علم الله تعالى بموقفهم سلفاً إلا أنه تعالى أراد أن يلزمهم الحجة أمام أنفسهم وأمام الناس جميعاً عندما كشف عنهم العذاب بعد وقت قصير استجابة لدعائهم، ولكنهم ما إن غرقوا بمتعة الدنيا حتى رجعوا إلى الشرك والكفر.

فهل يريدون البطش بهم بتلك البطشة الكبرى كما حصل فيما بعد ببدر؟!

وتذكّرهم السورة بما حصل مع فرعون وقومه جزاء ما فعلوه بموسى عليه السلام... فتقول:

﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ

﴿٣٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم
مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ
كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ
وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ
عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْـَٔايَٰتِ مَا فِيهِ
بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾

فاذكروا يا مشركي العرب ما حلَّ بفرعون وقومه عندما كذبوا موسى عليه السلام وبغوا وطغوا، واحذروا أن يحل بكم ما حلَّ بهم، فقد اختبر تعالى قوم فرعون ببعثة موسى إليهم فكذبوه فأهلكهم الله، وأن ذلك لن يبعد عنكم يا مشركو العرب إن لم تؤمنوا.

لقد أرسل موسى الكريم في قومه ليطلب من فرعون وقومه أن يخلُّوا بينه وبين قومه بني إسرائيل ويرفعوا العذاب عنهم، وأن يسمعوا منه وحي ربه ويؤمنوا ولا يتكبروا عليه، وعرض عليهم معجزتي اليد والعصا أولاً ولكنهم كذبوه وشتموه وهموا بقتله فلجأ إلى الله تعالى لينقذه منهم فيذهب الأذى عنه، ولكنهم أصروا على الأذى والكيد ضده.

فماذا فعل؟ لقد جأر بالدعاء لربه أن يعاقبهم لكفرهم وطغيانهم، فاستجاب تعالى دعاءه، وأمره بالخروج ليلاً ومن آمن معه ولا يكترث بمن يتبعهم من قوم فرعون، وليعمد إلى البحر ويجتازه عند انفراجه بهدوء وسكينة، ويطمئن بأن الله تعالى يعرف كل من اتبعه وطارده من فرعون وقومه.

وبالفعل فقد اجتاز موسى وقومه البحر وابتلع فرعون وقومه ليتركوا جميع أملاكهم من بساتين وعيون وزروع وقصور فارهة وسعة عيش ناعمة، تركوها لبني إسرائيل ليرثوها عنهم، ولم يتركوا خلفهم أيَّ عمل صالح تبكي عليهم الأرض من أجله ولا تبكي عليهم السماء بصعوده، ولم يؤخروا عن الغرق لحظة، وأنجى الله تعالى بني إسرائيل من ذلك العذاب الشديد المذل الذي جاءهم جزاء وفاقاً لما كانوا يقترفونه من البغي والطغيان والاستكبار في الأرض.

لقد انتهى الأمر إلى أن فضل المولى عز وجل بني إسرائيل على عالم زمانهم لأنهم آمنوا وكثر فيهم الأنبياء، وأنزل عليهم المولى عز وجل من الآيات والمعجزات الدالة على نبوة موسى عليه السلام العديد من مثل إنجائهم من فرعون بفلق البحر لهم،

ومن مثل تظليلهم بالغمام، وإنزال المنِّ والسلوى عليهم، فيا مشركي العرب اذكروا ذلك واحذروا نفس المصير الذي حل بفرعون وقومه.

وتواصل السورة مخاطبتهم محذرة لهم من إنكار البعث من الهلاك كمن تبعوهم أو بعذاب يوم القيامة.. فتقول:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾
إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾
إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾
كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟
فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ
تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

فيا كفار قريش، لم تعلنون إنكار البعث بعد الموت وتزعمون أنها فقط الميتة الأولى ولا بعث ولا حساب بعدها؟!

ويا مشركي العرب، لم تطلبون أن يؤتى بآبائكم دليلاً على صدق البعث، فهل تظنون أنكم أفضل مكانة وأشد قوة من قوم تُبَّع ملك اليمن الذي دعا قومه للإيمان فكذبوه فحق عليهم العقاب؟ أم أنتم أشد قوة ممن سبقوا قوم تبع وهم الذين لم يستطيعوا دفع الهلاك الذي نزل بهم جزاء كفرهم وطغيانهم؟

فاعلموا أن الله تعالى لم يخلق بقدرته وتدبيره هذه السموات والأرض لمجرد اللهو والعبث، وأن عليكم أن تجدوا فيهما الدليل على قدرته تعالى عليكم وأنه لا يمهلكم إلا ليلزمكم الحجة فتستحقوا العقاب الساحق لكم إذا بقيتم على كفركم وطغيانكم.

واذكروا بأن الله تعالى قد خلق السموات والأرض بالحق الذي لا حق بعده، وإن قصّر علمكم وعلم أكثركم عن ذلك.

واعلموا أن الفصل في أعمالكم وأقوالكم سيكون يوم الحساب، يوم القيامة، يوم يجمعكم تعالى ليحاسبكم الحساب العسير، يوم لا ينفع أيُّ ناصر ولا مغيث مهما كانت

مكانته وقوته في الأرض وقبل الموت، ولا يستثنى من ذلك إلا من آمن وحسن عمله فإن الله تعالى يأذن بالشفاعة منه وله.

واعلموا أن طعامكم في ذلك اليوم وأنتم في نار جهنم سيكون من شجرة الزقوم، تلك الشجرة التي تقدم طعاماً لكل آثم كافر فاجر، فيجد بطنه يغلي منها كما يغلي النحاس المذاب، فهل أنتم قادرون على تحمل ذلك؟

واذكروا عندما تدفع زبانية جهنم الواحد منكم إلى قعر الجحيم ثم تصب الماء الغالي من فوق رأسه ليذوق وبال كفره وتعاليه واستكباره على رسالة الله تعالى وعلى رسوله الصادق الأمين وهو يدّعي أنه العزيز الكريم، فلتدفع عنه تلك العزة والكرامة الموهومتان شيئاً من هذا العذاب، وليذق وبال أمره وعاقبة فعله. وليذكر أن هذا هو الحساب الذي كان يشك فيه وأصبح يعيشه بلحمه ودمه!

وتذكّر أولئك المشركين بما يكون عليه المؤمنين المتقين يوم الدين من النعيم مقابل ما هم عليه من الجحيم... فتقول:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾

فانظروا يا كفار العرب إلى ما يدعوكم إليه رسول رب العالمين من عاقبة ملؤها الخيرات الكريمات، ومنزلة رفيعة آمنة لا عذاب فيها ولا نصب في جنة الخلد، ومن بساتين تعجُّ بالفواكه الدائمة والعيون الجارية، ومن ألبسة الديباج بأنواعها المختلفة، ومن تكريم حتى لتدور بكم الأسرّة فلا ترون إلا وجوه بعضكم بعضاً، ومن زوجات هن الحور بشدة بياضهن حتى ليرى نخاع عظامهن، وتتسع عيونهن ويشتد بياضهن وسوادهن حتى تخلب الألباب، ومن جميع الفواكه التي تأتيكم بمجرد أن تطلبها نفس أحدكم، ومن خلود في ذلك النعيم بلا موت بعده ولا عذاب.

فهل هذا النعيم المعد للمؤمنين المتقين من فضل الله تعالى عليهم ورحمته ما تريدونه لأنفسكم أم ذلك العذاب المذل المهين؟!

فأين عقولكم يا مشركي الأرض، وكيف تقبلون لأنفسكم تلك العاقبة السوداء ولا تحرصون على هذا الفوز العظيم ليكون فوزكم أنتم ومصيركم أنتم؟؟

وتصل السورة إلى خاتمتها فتصرخ في وجوه المشركين والكفار في الأرض جميعاً قائلة:

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

أن ها هو القرآن، رسالة رب العالمين إلى رسوله المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ليبلغها لكم وللناس كافة.

ها هو بين أيديكم، ها هو قد أنزله تعالى إليكم يا مشركي العرب بلسانكم ولغتكم التي تفهمونها حق الفهم، وها هو يتحداكم صباح مساء أن تجدوا فيه ما يصعب عليكم فهمه وإدراكه وقد يسره لكم وسهل عليكم فهمه.

فانظروا في كل موعظة فيه وزجر، في كل بشارة وإنذار، في كل آية من آياته فلن تجدوا فيه إلا القريب السهل التناول لكل صاحب عقل وذاكرة و﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾(آيات من سورة القمر)

فعليكم باتباع هذا القرآن والتزام كل ما فيه، والعمل به في حياتكم الفردية والمجتمعية.

وأنت يا محمد، عليك أن تنتظر ما وعدك به ربك من النصر على أعدائك، أعداء رسالة ربك، وعليهم هم أن ينتظروا الهزيمة مهما تمنوا لك من الموت في الدنيا، وانتظر جزيل المثوبة في الآخرة جزاء طاعتك وتبليغ رسالتك، ولينتظروا هم العذاب الأليم في سواء الجحيم.

دليل سورة الدخان ـ ٤٤

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ٥٩ آية، وهي الخامسة بين الحواميم، ولها فضل القراءة ليلة الجمعة.

- تأكيد القسم بالقرآن بأنه أنزل على محمد عليه وآله وصحبه السلام في ليلة القدر دفعة واحدة وهذا غير الإنزال متفرقاً على ثلاث وعشرين سنة.

- تحذير المشركين من ظهور الدخان كأمارة للعذاب في الدنيا أو قرب عذاب الآخرة ما داموا معاندين في التكذيب والاتهام للرسول عليه وآله وصحبه السلام بالجنون.

- إنذارهم بما حصل مع فرعون وقومه وقد أصروا على تكذيب موسى واتهامه بالسحر فوقع بهم الهلاك ونجى موسى وقومه منه.

- إنذارهم بقوم تبَّع المجاورين لهم في اليمن وما حلَّ بهم من العذاب جزاء كفرهم وتكذيبهم.

- وتحذرهم من عذاب جهنم وتشجعهم للتخلص منه بمقارنتهم مع المتقين وما ينتظرهم من نعيم الجنة.

- وتذكّرهم بتسيير القرآن على فهمهم وقد أنزل بلغتهم، فلا حجة لهم.

- وتنذرهم بمثيل ما نزل من عذاب بمضر في الدنيا جزاء طغيانهم وكفرهم وبما ينتظرهم من الهزائم متى حان وقتها.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ فهم من ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ أنزل جميع القرآن وهذا كما يرى المفسرون غير الإنزال إلى الأرض على مدى ٢٣ سنة، وهذا مما يميز القرآن عن الكتب السابقة.

٢ ـ يعلمنا المولى سبحانه الدعاء في المرحلة المكية ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾.

٣ ـ الإلحاح على أسلوب المقارنة بين المشركين وجزائهم والمؤمنين ومصيرهم مما يستدعي ملاحظة الحرص على هذا الأسلوب في الدعوة الإسلامية.

٤ ـ تأكيد إنزال القرآن بالعربية لتحقيق الفهم والتذكر المطلوب وليس مجرد الفهم والعلم ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

٥ ـ وأما التهديد الموجه للمشركين في تلك المرحلة وكل مرحلة ﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ فإنه تأكيد بقرب النصر في المرحلة التالية كما هو تأكيد لما ينتظرهم يوم الحساب من عذاب الجحيم.

سورة الجاثية (٤٥)

التقديم

سورة الجاثية مكية إلا آية ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾، وهي منسوخة بآية ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[النساء: ٨٩]، وتقع في سبع وثلاثين آية، وهي السادسة بين الحواميم، وتشمل الأمور التالية:

فبعد الافتتاحية بـ ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ تخبرنا السورة بأن القرآن منزل من الله تعالى وليس

من أحد من البشر، وأن من قدرته تعالى على خلق السموات والأرض، وما فيهما من دواب وملائكة وغيرها وتعاقب الليل والنهار، والمطر الذي يبعث الله به الحياة في الأرض، وجريان الرياح، في ذلك كله وأكثر منه أدلة مفحمة على أنه تعالى القادر على كل شيء: من إنزال القرآن بما يشتمله من الآيات والبراهين المؤكدة وحدانيته تعالى وقدرته... فكيف لا تعقل العقول السوية ذلك وتؤمن به وتلتزمه؟!

ألا ويل شديد وعذاب أليم لكل كذاب افترى على الله تعالى وعلى رسوله بإصراره على الكفر، ورفضه الانقياد للحق وسخريته بآيات الله تعالى مع أن هذا القرآن هو مصدر الهداية للإنسان.

ثم تذكر السورة بعض الأدلة الدالة على قدرته تعالى وتمام نعمته على عباده من تسخير البحر وما في السموات والأرض لمنفعة الإنسان ومصلحته، وتطالبه بأن لا يتعجل في عدم العفو عمن أساء إليه وظلمه ولا سيما إن كان كافراً، وليذكر بأن العمل الصالح هو فقط الذي يعود لصاحبه بالجزاء الطيب وأما العمل السيئ فإنه يعود لصاحبه بالجزاء السيئ، جزاء وفاقاً، يوم الحساب.

وبعدها تتوجه السورة إلى المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم فتدعوه لالتزام ما أوحى به الله تعالى إليه من شريعة، وتجنب اتباع أهواء غير المؤمنين الذي لا يملكون لأنفسهم الخير، فكيف لغيرهم؟! والعلم بأن في هذا القرآن المنزل عليه معالم الناس في الحدود والأحكام، والتمييز بين من يعملون السيئات ومن يعملون الصالحات، سواء في حياتهم أو بعد حسابهم يوم الحساب،

وتدعوه عليه وآله وصحبه السلام إلى التذكر بأن الله تعالى قد خلق السموات والأرض بالحق، وتذكير الناس بذلك، وبأن الله تعالى قد ألهم كل نفس فجورها وتقواها، فتميل إلى هذا وإلى ذاك تبعاً للمؤثر الخارجي أو الدافع الداخلي، وأنه تعالى قد مكّن كل نفس من الاختيار بينهما بعد أن وضع القدرة على التمييز بينهما في عقله وإدراكه، ووضع بين يديه طريقي الهدى والضلال ﴿وَهَدَيْنَهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد: ١٠] ليختار بينهما ويتحمل مسؤولية اختياره فينال الجزاء بما كسب أو اكتسب من أفكار وأعمال ودون أن يلحقه قيد شعرة من الظلم.

وبعدها تلفت السورة نظر الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام إلى ذلك الكافر الذي جعل دينه هواه، واختار طريق الضلال دون طريق الهدى وهو يعلم من القرآن المنزل أنه على الضلال، وأنه بسبب إصراره على إقفال سمعه وبصره عن سماع الحق ورؤيته يوقع نفسه في سوء فعله في حق نفسه، وأنه بدواعي الاستكبار والعياذ بالله

يصرُّ على إنكار البعث والحساب كما يصرُّ على أن الدهر وسير الزمن هو الذي يميته، وأنه من أجل الاحتجاج على ذلك يطلب إحياء آبائه ليطمئن منهم عن ذلك.

فإن هذا المكابر وأمثاله عليهم أن يعلموا بأن الله تعالى وحده هو الذي أوجدهم بعد أن كانوا عدماً، ثم هو الذي يميتهم بعد هذه الحياة، ثم هو الذي يبعثهم يوم القيامة ليحاسبهم على معتقداتهم وأعمالهم.

كيف لا وهو سبحانه خالق هذه السموات والأرض وما فيهما ومالكهما، وهو سبحانه القادر على إقامة الساعة والحساب يوم الحساب، يوم يخسر هؤلاء الكفار أنفسهم وأهليهم بكفرهم وتكذيبهم، يوم ترى كل أمة من الأمم جالسة على الركب وهي تحشر للحساب وفقاً لما أنزل الله تعالى عليها من كتاب، وتبعاً لمدى إيمانها بذاك الكتاب والتزامها بأوامر الله تعالى التي وردت فيه ونواهيه.

وتعود السورة بعدها وتخاطب مشركي العرب، ومن على شاكلتهم إلى يوم القيامة، فتذكّرهم بأن هذا القرآن الذي أنزله تعالى يشهد عليهم بالحق والصدق، وفيما إذا كانت أعمالهم متطابقة مع ما ورد فيه أو مخالفة، وأنها ستكون ماثلة بين أيديهم مما سجله الملائكة عليهم بحيث ينال الواحد منهم الجزاء الأوفى على ذلك، فإن آمن وصلح إيمانه وتاب وصلحت توبته فإنه سيجد الجنة ونعيمها جزاء له، وإن أصرَّ على الكفر واستكبر وبغى فإنه سيجد النار وسعيرها جزاء له.

فليحذر أولئك المشركون إنكارهم الساعة وقيامها والزعم بأنهم لا يدرون عنها شيئاً، وليعلموا أنهم في ذلك لا يحتكمون إلا للظن، وأمر الساعة من الغيب الذي أنزل بخبره عالم الغيب سبحانه الخبر اليقين، ونفى بذلك الظن عن العلم به، فجاء القرآن بخبره اليقيني بكل الصدق والاطمئنان سواء في ما أخبر به من الغيب عنه أو عن أيِّ أمر آخر من عالم الغيب، ويبقى هو المرجع الوحيد والأكيد بأن قيام الساعة لا بدَّ حادث، وفي الوقت الذي حدده الله سبحانه وتعالى ليس غير.

كما عليهم أن يعلموا أنه متى جاء وقتها وبعث البشر ووضع الميزان فستظهر سيئات المسيئين، ويحيق بهم مكرهم واستهزاؤهم، فيلقوا في النار جزاء نسيانهم وتركهم الإيمان بهذا اليوم والاستعداد له، وجزاء سخريتهم بآيات القرآن التي تخبرهم بذلك، وجزاء انسياقهم وراء متع وملذات وشهوات هذه الحياة الدنيا الزائلة الفانية.

وتنتهي السورة بتذكير الخلق كلهم بأن الحمد والثناء هو لله وحده، خالق السموات والأرض ومدبرها بتدبيره المحكم المتقن، وأن له سبحانه وتعالى وحده الكبرياء والعظمة والجلال والبقاء والسلطان والقدرة والكمال، وهو سبحانه العزيز المنيع

الذي لا يعجزه شيء، والحكيم الذي يدبر كل شيء بأحكم وأتقن تدبير، وهو سبحانه الواجب توحيده وعبوديته، والاستعداد للقاء يوم حسابه، يوزع الخلق باختيارهم بين الجنة والنار.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾

فتبدأ السورة بعد الافتتاحية بـ ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ ببيان أن القرآن قد أنزله الله تعالى العزيز الذي لا يعجزه شيء والحكيم بإتقانه ودقة صنعه، وأنه لم ينزله أحد سواه، وأن في السموات والأرض المخلوقة بقدرته دلالات وبراهين لكل مؤمن به.

كما أن في خلق الإنسان، وفي ما في الأرض من دواب، وفي السماء من ملائكة دلالات أيضاً لكل موقن بقدرته تعالى وعظمته.

كما أن في تنوع وتعاقب الليل والنهار، ونزول المطر من السماء وإحياء الأرض الميتة به، وفي تسيير الرياح في آفاق الأرض وأرجائها المختلفة دلالات لكل عاقل متدبر تؤكد له أن شيئاً من ذلك لا يمكن أن يكون لولا قدرة الله تعالى وتدبيره مما يؤكد قدرته تعالى على إنزال القرآن بما فيه من آيات وأحكام ودلالات على وحدانيته وقدرته، وأن ما فيه من آيات وبراهين قد تلاها جبريل عليه السلام على محمد عليه وآله وصحبه السلام بكل الصدق والدقة التي لا يلحقها أيُّ كذب أو باطل.

وأن الويل والثبور سيلحقان بكل أفاك كذاب آثم يصر باستكباره على تجاهل سماع هذه الآيات، وأن العذاب الأليم بانتظاره، كيف لا وهو لا يعلم آية من آيات الله

تعالى حتى يأخذ بالهزء والسخرية منها، مما يجعله مستحقاً للعذاب المذل المهين جزاءً وفاقاً حيث لا ينفعه في جهنم هناك أيُّ عمل قام به مهما كان في مظهره طيباً، ولا يجد أحداً يعينه ولا يشفع له ولا ينصره من كل أولئك الذين اتخذهم في الدنيا أنصاراً من دون الله تعالى.

وليعلم هذا الأفاك وأمثاله بأن هذا القرآن هو مصدر الهداية لكل إنسان بعد أن وضعه بين يديه ودلَّه عليه، ووضع له في عقله قدرة التمييز بين طريق الهدى وطريق الضلال، وفي نفسه قدرة الاختيار بينهما والعمل بما يختار، وأنه تبعاً لذلك متى اختار الضلال فإنه بمحض إرادته واختياره قد رفض الإيمان بالله وآياته وأحكامه وحكم على نفسه بالعذاب الأليم الذي أُنذر به.

وتذكّر السورة بعدها الإنسان بما منّ عليه تعالى من النعم.. فتقول:

﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

موضحة له أن العلي القدير هو الذي سخر له هذا البحر ليستخدمه في تسيير سفنه سعياً وراء تجاراته وتنقلاته السلمية والحربية محققاً الكثير من رزق الله تعالى وفضله، مما يتوقع منه الشكر عليه والامتنان.

كما تذكره بأنه تعالى وحده هو الذي سخر له كل ما في السموات والأرض ليجول بعقله وتفكيره في آفاقها ورحابها ويصل للإيمان به تعالى، ويوحده ويعبده بكل أمره ونهيه.

ثم تخاطب السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام ومن حوله وبعده من المؤمنين.. فتقول:

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾

أخبر يا محمد كل المؤمنين من حولك عامة، وعمر بن الخطاب خاصة، بعد أن سعى لأخذ حق له ممن أساء إليه، بأن يغفروا سيئات من أساء إليهم، ويعفوا عنها ولا سيما لكفر المسيء وعدم رجائه ثواب الله ورضاه، مما يكافؤهم بجزاء الله تعالى الطيب

لصفحهم، كيف لا وأن كل من يعمل صالحاً فثوابه الطيب له، ومن يعمل سيئاً فجزاؤه السيء عليه... إنه الجزاء العادل.

وتذكّر السورة بعدها بني إسرائيل كمثل في تهيئة البشرية للشريعة القرآنية... فتقول:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

مذكرة بأن الله تعالى هو الذي أنزل التوراة على موسى عليه السلام ليبلغها لقومه بني إسرائيل، كما أنزل عليه آيات الأحكام اللازمة لهم، وأرسل فيهم العديد من الأنبياء من عهد يونس عليه السلام إلى عهد عيسى عليه السلام، وأنه هو تعالى الذي رزقهم بكثير من الأرزاق من أمثال المنِّ والسلوى، والذي فضَّلهم على أهل زمانهم.

والذي أخبرهم بأمر مجيء النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وشواهد نبوته ليستعدوا للتصديق به، والذي أنزل عليهم من أحكام الحلال والحرام ما لا يحتاج لخلاف حوله، ولكنهم هم الذين اختاروا التنازع فيما بينهم بغياً وحسداً على النبي عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام عندما بعثه على علم منهم، فأعرضوا عما أوتوا ليحكم الله ويفصل فيما بينهم أولاً وفي رفضهم للإسلام ورسوله أخيراً.

فاذكر لهم وللبشرية جمعاء يا محمد بأن الله تعالى قد أرسلك برسالة وشريعة أخرى ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾ [المائدة: ٤٨]، وأنك على منهاج واضح من أمر الدين هو الحق المبين، وأنك تدعو كل إنسان لاتباعك عليه وترك اتباع أهواء الذين لا يعلمون من ذلك شيئاً وإنما فقط يحتكمون لشهواتهم ومطامعهم الدنيوية.

واعلم يا محمد بأنك إن اتبعت أهواءهم فلن يدفعوا عنك شيئاً من عذاب الله،

لأنهم ليسوا مناصرين ولا أصدقاء إلا لبعضهم بعضاً، كما هو حال المنافقين مع الكفار، وأما المتقون فإنهم خير معينين لك ولبعضهم ولعون الله لهم.

واعلم يا محمد بأن هذا القرآن الذي أنزله تعالى عليك، حاملاً إليك وإلى البشر عامة البراهين والدلالات الإيمانية والأحكام الحياتية، هو السبيل الموصل إلى الجنة والمحقق للحصول على رحمة الله تعالى في الآخرة.

وذكّرهم يا محمد بأنه من المستحيل التسوية بين من يقترف السيئات ومن يؤمن ويعمل الصالحات، سواء في هذه الحياة أو بعد الممات، وأن هذه التسوية حكم ظالم، لأن المؤمن الذي يحيا مؤمناً ويموت مؤمناً، والكافر الذي يحيا كافراً ويموت كافراً، شتان بينهما وبين ما ينتظرهما من جزاء الجنة للأول والنار للآخر، كيف لا وما ذلك على الله ببعيد، ولا على المؤمن والكافر بغريب، فالله تعالى هو القادر على كل شيء والذي خلق السموات والأرض بالحق وأقام العباد فيهما على العدل.

وتخاطب السورة بعدها الرسول عليه وآله وصحبه السلام بشأن عبيد الهوى ومنكري البعث... فتقول:

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

واذكر يا محمد أولئك الذين عبدوا أهواءهم ورغباتهم من دون ربهم، فيميلون معها حيث تميل، فيبتعدون عن حقيقة الإيمان حتى لو كانوا يدّعونه «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» كما قال عليه وآله وصحبه السلام ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠ ـ ٤١].

إنهم قد ارتضوا لأنفسهم الضلال والبعد عن الهدى عندما أقفلوا أسماعهم دون كلمات الحق وعيونهم دون رؤية دلالات الهدى والإيمان فأنّى لهم أن يتذكروا قدرته تعالى وعظمته ووحدانيته فيؤمنوا به ويلتزموا أمره ونهيه؟!

هاهم يخدعون أنفسهم بأنهم على الحق وهم ينكرون البعث ويرون أن لا حياة

بعد الموت وإنما هي فقط هذه الحياة الدنيا، ويرون أن مرور العمر فقط هو سبب الموت، ولا يرون أن الآجال بيد الله يحددها لوقتها، ويرددون رأيهم بالظن فقط، فكيف يصح بل يجوز أن يكون الإيمان بالظن مع أن العلم اليقيني هو طريق الإيمان، وأن الظن في الإيمان لا يغني من الحق شيئاً، وإن كان يجوز العمل بالظن مع غلبة الترجيح في مجال الأحكام والعمل بها؟

واذكر يا محمد بأنهم لا يجدون فيما يسمونه حجة عندهم شيئاً وهم يطلبون أن يحيي لهم آباءهم، لأن مقصدهم من هذا الطلب ليس في حقيقته الاطمئنان عن البعث والجزاء وإنما لأنهم يبحثون عن مبرر لتكذيب الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام في قوله بالبعث والجزاء.

ولذلك فإن المولى عز وجل يدعو رسوله لعدم الرد عليهم إلا بتذكيرهم بما يقرون به بأن خالق كل شيء هو الذي يحييهم ويميتهم ثم يحييهم يوم القيامة ليحاسبهم في ذلك اليوم الذي لا يجوز الشك فيه، وإلا فإنه من العبث غير الجائز في حق الله تعالى أن يكلف ولا يحاسب.

عليهم أن يعلموا أن ذلك حق بغضِّ النظر عن عدد من يؤمن به أو لا يؤمن، لأن الأكثرية ليست دليلاً على الإيمان وصدقه وصحته، وإنما الدليل في ذلك هو الدليل العقلي المبني على الواقع المحسوس الملموس.

وذكّرهم يا محمد بأن الله تعالى القادر على ذلك هو الذي بيده حياتهم ومماتهم وبعثهم وحسابهم، كيف لا وهو مالك السموات والأرض خلقاً وتدبيراً وتعبيداً، وليس خلقاً فقط كما يرون، وأنه هو سبحانه الذي يتولى إقامة الساعة ومحاسبة أهل الباطل وأمثالهم ليجدوا خسران الحساب وضياع الجنة بانتظارهم.

وذكّرهم يا محمد بأن كل أمة من أمم الأرض ستجثوا على الركب في ذلك اليوم العسير بانتظار الحساب الشديد حين تدعى وفقاً للكتاب الذي أرسل إليها، وتحاسب عن مدى العمل به وتطبيقه في حياتها الفردية والمجتمعية.

ويختم المولى عز وجل السورة بالتنبيه إلى أحقِّية القرآن والحساب بالعدل بين المؤمنين والكافرين، وإلى تنبيه الخلق لتوجيه الحمد لله رب العالمين... فتقول:

﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي
تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا

نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا
كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن
نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ
يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

انظروا إلى ما يأمركم به القرآن وهو يخبركم بأن كل ما فيه من أوامر ونواه، وما يبيِّنه من أحكام، هي كلها الحق كل الحق، وأن الله تعالى قد أوكل ملائكة معينة تستنسخ ما كتبته الملائكة الأخرى الحفظة على بني آدم من الصحائف التي رفعت إلى الخزنة، وأنه لذلك لن يفوته سبحانه وتعالى شيء من أعمال البشر عند الحساب، وهو العالم بكل شيء ولكنها صحائف للحجة على بني آدم الذين لا يرون الحجة إلا بالملموس المحسوس!

وانظروا إليه تعالى وهو يدخل أولئك المؤمنين الصالحين في جناته لينالوا الفوز الكبير العظيم، وانظروا إليه وهو يسوق أولئك الكافرين الذين تعالوا على الإيمان به وطاعته واستكبروا عن سماع آياته والتزام أحكامه، فكانوا هم المجرمين المنكرين لقيام الساعة ومجيء يوم الحساب.

وكانوا ينظرون لهذا اليوم بمجرد الظن الخالي من كل يقين، وكأن كل ما عرض عليهم من حجج وبراهين على قدرة الله تعالى وعدله وحسابه الحق لا تعني عقولهم بشيء، وكأن جهنم التي أنذروا بها بسوء أعمالهم فأنكروها كانت مجرد كلام لا حقَّ فيه، وكأن استهزاءهم بآيات الله تعالى ورسوله عليه وآله وصحبه السلام لا حساب عليه!!

فهل يجدون معيناً ينقذهم من هذه العاقبة المشؤومة؟ وأين مناصروهم في الدنيا؟ لقد تخلوا عنهم.

وأين اندفاعهم وراء مطامع الدنيا وشهواتها وما جرَّه عليهم هزؤهم بآيات الله وأحكامه؟ فليخلدوا في النار دون مسترض لهم ولا راض عنهم؟!

وإليكم أيها المشركون المجرمون جزاءكم العادل من رب العالمين الذي وحده يستحق الحمد والثناء لأنه صاحب الكبرياء والعظمة والجلال والبقاء والسلطان والقدرة والكمال والمنعة والاقتدار والحكمة والتدبير.

دليل سورة الجاثية ـ ٤٥

– تبدأ كالعديد من السور بالإخبار بأن الله تعالى هو منزل القرآن بدلالة قدرته على ذلك بالكثير مما خلق من السموات والأرض وما فيهما.

– ثم التهديد بالعذاب الشديد للمكذبين المصرِّين على الكفر.

– مطالبة المؤمن بالعفو عن إساءة من ظلمه من الكفار مما يلزم في المرحلة المكية.

– ثم تأكيد دعوة الرسول عليه وآله وصحبه السلام لالتزام الوحي وتجنُّب الأهواء وعدم الاهتمام بمن يصرُّ على ذلك.

– وتبين أن الاستكبار والإصرار على إنكار البعث والحساب هما سبب رفضهم سماع الحق واتباعه.

– وتذكر قولهم بأن الدهر والزمن هو الذي يميتهم مما جعلهم يسمون بالدهريين.

– وتخبر بأن كل أمة ستجلس على ركبها يوم الحساب تبعاً لإيمانها والتزامها.

– وتحذير المشركين من إنكار القيامة والحساب بناء على ظنهم بينما القرآن يخبرهم باليقين أن ذلك لا بد قادم.

– وتختم تذكيرها بالثناء على الله تعالى الخالق المدبر الواجب التوحيد والعبادة.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ مواصلة الاستدلال بآيات الله تعالى على قدرته تعالى في الخلق والتدبير مما يلزم مع إنكاره كل عذاب ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

٢ ـ إضافة الاستدلال بالبحر وحمله للسفن خدمة لمصالحهم مما هو مدعاة للشكر لكل عاقل متدبر!

٣ ـ استمرار دعوة المؤمنين العفو عن إساءات الكافرين في المرحلة المكية ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾

٤ ـ لقد فضَّل الله تعالى بني إسرائيل على عالمي زمانهم لإيمانهم بين كافرين ﴿وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

٥ ـ إن الظن في العقيدة لا يغني من الحق شيئاً ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾.

سورة الأحقاف (٤٦)

التقديم

بدأت السورة بـ ﴿حمٓ ۝١﴾ ثم أخبرت أن الله تعالى هو منزل القرآن، وهو القادر على ذلك إذ قدر على خلق السموات والأرض وما بينهما، وأنها ستبقى لليوم الموعود، يوم القيامة الذي يعرض عن الإنذار به الكفار والمشركون.

ثم توبخ السورة أولئك الكفار وهي تورد الكثير من مواقفهم اللاعقلانية:

إنهم يعبدون الأصنام التي لم تخلق شيئاً بل هي مصنوعة.

إنهم يستغيثون بالأوثان وهي لا تغيث أحداً.

إنهم يلجأون للأصنام وهي التي تبرأ منهم ومن عبادتهم لها يوم القيامة.

إنهم يقولون إن آيات الله تعالى ومعجزاته مجرد سحر، وقد أقر علماء اللغة والشعر منهم بأنها ليست كذلك.

إنهم يتهمون محمداً عليه وآله وصحبه السلام بالكذب فيما يبلغه عن ربه إليهم وهم يشهدون أنه الصادق الأمين.

إنهم يتهمون الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأنه بدع من الرسل وهم يعرفون أنه سبقه الكثير من الرسل.

إنهم يكفرون بالقرآن ويشهد أحد علماء بني إسرائيل وهو عبد الله بن سلام بأنه كتاب من الله بعد أن استشهدوا به.

إنهم يطعنون في القرآن بأنه لو كان خيراً لما سبقهم للإيمان به أحد ممن يحطُّون من شأنهم من أمثال أبي ذر الغفاري أو غيره وهم يعرفون كذب تبريرهم.

وأخيراً إنهم يتهجمون على القرآن بأنه لا علاقة له بالله وبالرسل السابقين وهذه التوراة تؤكد صدقه ونزوله من رب العالمين!

وتأتي السورة بعدها لتطمين الرسول عليه وآله وصحبه السلام على مكانة أصحابه الذين آمنوا واستقاموا كأبي بكر رضي الله عنه وأنهم خالدون في الجنة.

ثم تطمئنه على ما يحصل من قومه باستجابة بعضهم لدعوته ورفض بعضهم الآخر.

وتزيد في تطمينه بأن ذلك يشبه ما يحصل من الأبناء مع والديهم فقد يطيعون وقد

يخالفون، وأن من يستجيب له هم أصحاب الجنة وأما من يعرض فكمن عقّ والديه فيخسر نفسه وأهله يوم القيامة إذا مات على كفره.

وتؤكد له أن للنساء المؤمنات درجات في الجنة كما أن للكافرات دركات في النار، مما يذكّر الكافرين رجالاً ونساءً وهم يعرضون على النار بمصيرهم فيندمون على ما صنعوا من طغيانهم في الدنيا ونسيانهم للآخرة.

ثم تدعو السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام ليذكّر مشركي العرب بما حصل لقوم عاد عندما رفضوا إنذار رسولهم هود وكذبوه فجاءتهم ريح عاصف لم تبق على مساكنهم في حضرموت بعد أن طمرتها الرمال.

ويذكّرهم بقرى ثمود ولوط وغيرهما ممن يعرفونها في طريقهم لبلاد الشام لعلهم يرجعون إلى ربهم ويرتدعون عن غيّهم ويتخلون عن الشرك بعبادة أصنام لم تنصر من عبدها من قبلهم بل جرت عليهم العذاب والدمار.

وتعود السورة وتخاطب الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وتقول له: ذكّرهم يا محمد بأن الله تعالى قد أمر الجن بأن يستمعوا إليك، فنفذوا أمره، وآمنوا بك وبرسالة القرآن وعادوا وبلّغوا ذلك لقومهم، بينما هؤلاء الأضعف منهم معرضون عن الاستماع ويصرُّون على الكفر.. فيا لخيبتهم!!

ذكّرهم وذكّرهم يا محمد بأنهم كغيرهم ممن رفض قبول دعوة الله، وأنهم سيكونون بلا ناصر ولا معين بين يدي رب العالمين، القادر على بعثهم وحسابهم كما قدر على خلق السموات والأرض، وكما يقدر على كل شيء.

هكذا: ذكّرهم يا محمد بأن عليهم أن يستعدوا لأشد الحساب والعذاب إذا ماتوا على الكفر.

واصبر يا محمد على أذاهم.

وأعرض يا محمد عنهم كما فعل إخوانك أولو العزم من الرسل، ولا تعجل بطلب العذاب لهم ضيقاً منهم لأن الله تعالى للكافرين منهم بالمرصاد وشديد العذاب يوم الحساب.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا

بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى
مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن
كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ
عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا
بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا
تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ
﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠
إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ
مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ
كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ
إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾

موضحة بعد الافتتاح بـ ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ لمشركي العرب وأمثالهم إلى يوم القيامة بأن الله تعالى هو منزل القرآن وذلك بدليل قدرته تعالى على أكبر من ذلك عندما خلق السموات والأرض وما بينهما بكل تأكيد، وأن سنته وتدبيره قد اقتضت أن تبقى إلى يوم القيامة، إلى وقت محدود حين يبدل الأرض غير الأرض ويطوي السموات بيمينه، وأن ذلك قائم وجار قطعاً بقدرته تعالى بغض النظر عن إعراض الكفار عن النذير بحتمية وقوعه.

وتعرض السورة بعد هذا التوضيح مجموعة من مواقف أولئك المشركين المستحقة للتوبيخ لبعدها عن العقل، فتبدأ بتسفيه أحلامهم المنحرفة بعبادتهم للأصنام من دون الله تعالى، وهم يرون أنها لا تخلق شيئاً من الأرض، بل هي نفسها مادة مخلوقة، كما أنها لم تشترك في خلق السموات مع خالقها الذي يعترفون به ألا وهو الله سبحانه وتعالى، وأنهم لا يجدون مستنداً يستندون عليه في زعمهم بسلامة عبادتها لا من كتاب يعتمدون على ما فيه من علم قبل هذا القرآن، ولا من أثر من علم سابق وصلهم مخطوطاً وبشكل موثوق يشهد على صدقهم.

ثم تسفه ادعاءهم بأن تلك الأصنام تشفع لهم عند الله تعالى يوم القيامة بل في أيِّ

وقت يلجأون فيه إليها، ولكن كيف تشفع لهم وهي التي لا تجيب على من يناديها بل لا تسمع أيَّ نداء استغاثة ولا في أيِّ وقت طيلة هذه الحياة الدنيا وإلى يوم القيامة!

وليعلموا بأنها ستقف منهم يوم الحشر، يوم الحساب، موقف العداء وتنكر عبادتهم لها!

ثم تسفِّه زعمهم بأن آيات الله تعالى التي تنقل إليهم وتبلغ لهم من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم هي سحر واضح مع أن هذا القول قد رفضه من يُعتبرون من أكابر عقلائهم عندما استمعوا إليها ورفضوا وصفها بهذا الوصف.

ثم تسفه اتهامهم للرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام بأنه يكذب عليهم بما يبلّغهم عن ربه سبحانه وتعالى من الوحي، لأنه لو كذب في شيء منه فإنه وحده يتحمل ذلك ولا يصيب أحداً منهم عاقبة ذلك!

ثم تؤكد لهم بأن عليهم أن يعلموا بأن كل ما يسندون إليه عليه وآله وصحبه السلام من افتراءات هو معلوم لديه تعالى تماماً، وأن الله تعالى يشهد عليهم في ذلك، وأنه سبحانه لن يغفر لمعاند منهم مثل هذه الافتراءات ولن يرحمه يوم الحساب!

ثم تسفِّه اتهامهم له عليه وآله وصحبه السلام بأنه أول من يدَّعي الرسالة عن ربه بتذكيرهم كيف يكون ذلك وقد سبقه الكثير من الرسل في التبليغ عن الله تعالى لأقوامهم وللبشرية جمعاء.

ثم تحذرهم من غضب الله تعالى عليهم لهذه الاتهامات والأباطيل وهو عليه وآله وصحبه السلام لا يدري ما يمكن أن يحل به ولا بهم في هذه الدنيا إذا استمروا على هذا العناد في الإعراض والكفر مع استمراره في تبليغهم كل ما يوحى إليه من ربه وإنذارهم عذابه وعقابه الأكيدين.

ثم تدعوه عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام أن أكَّد لهم فيما بعد بأن الله تعالى قد بلَّغه بأنه سينصره عليهم بقوله سبحانه وتعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٤].

كما بلغه سبحانه وتعالى بأنه لن ينزل أيَّ عقاب على أمته وهو بينهم بقوله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾ [الأنفال: ٣٣]، وذلك كما عذب الأقوام السابقين.

ثم تسفِّه رؤيتهم للقرآن بأنه من عند الله غير منزل، وذلك لإصرارهم على الكفر به بالرغم من شهادة شاهد من بني إسرائيل هو عبد الله بن سلام بأنه منزل من عند الله، وهم يثقون بشهادته وأنه يؤمن به، فكيف يتعالون هم عن الإيمان به فيظلمون أنفسهم باستكبارهم عن الإيمان، وعليهم أن يعلموا بأن الله تعالى عالم بهم وبسوء مواقفهم.

ثم تسفِّه موقفهم عندما يزعمون للمؤمنين بأن القرآن لو كان خيراً ما سبقهم للإيمان به من هم أقل شأناً منهم من أمثال ما يرونه في أبي ذر الغفاري وزنيرة والقبائل البدوية من غفار وأسلم وجهينة ومزينة وخزاعة، وفي عبد الله بن سلام عند عتاة اليهود مع أنهم كانوا يستشيرونه.

ثم تسفِّه زعمهم بأن القرآن مجرد إفك قديم لأنه جاء مصدقاً بنزول التوراة التي يؤمن بها اليهود والتي تبشر بمجيء الرسول محمد صلى عليه وآله وصحبه وسلم ورسالته، كما يبشر الإنجيل بذلك وإن كانوا لا يعرفونه كالتوراة.

وتذكّرهم بأن هذا القرآن الذي بشر به موسى وعيسى عليهما السلام في التوراة والإنجيل نزل عليكم يا مشركي العرب باللسان العربي المبين ليسهل عليكم التفكر فيه وتدبره وتجدوا فيه خير نذير لكم من عذاب أليم كما تجدوا فيه خير بشارة لمن يؤمن به منكم بالنعيم المقيم.

وتضفي السورة بعدها المزيد من الطمأنينة على قلب رسول الله عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام وهي تطمئنه لمصير أصحابه وما يمكن أن يحصل من اختلاف الناس عليه بين مؤمن وكافر كما يحصل من اختلاف الأبناء على طاعة أبويهم فتقول:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ
خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ
كُرۡهٗاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ
نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ
وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ
وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ
ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ
﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ
﴿١٨﴾ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ
أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ
بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾

مؤكدة للرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام بأن أولئك المؤمنين الذين أعلنوا

إيمانهم بملء أفواههم، ولم يكتفوا بالقول بل اتبعوه بالعمل على طاعة الله، لن يتعرضوا يوم القيامة لما يخيفهم من عذاب الله ولا ما يحزنهم بل هم أهل الجنة الخالدون فيها جزاء أعمالهم الطيبة.

وتبين للرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن هذا الاختلاف عليه من قومه بين مؤمن وكافر ليس بالغريب على الإنسان المخير بين التقوى والفجور، والمعرّض لنوازع الأمرين، والمزود بالقدرة على الاختيار بينهما، وأن ذلك ملاحظ ملموس على الأبناء في طاعتهم لآبائهم،

وأن مجرد النظر في ذلك يظهر كيف أن الله تعالى قد أمر الإنسان أن يحسن لوالديه بعد أن عانت الأم في حمله ووضعه ورضاعه ما عانت لثلاثين شهراً، وعانى الأب مع الأم في تربيته والانفراد في الإنفاق عليه حتى كبر وبلغ رشده وتجاوز ذلك لما تقتضيه مطالب الحياة ما عانى، وأنه يقر بكل هذا العناء منهما نحوه ويتوجه إلى الله تعالى بالدعاء ليعينه على شكرهما مع شكر الله تعالى الذي مكنهما من ذلك، وعلى برهما في حياتهما وبعد مماتهما، وعلى إصلاح ذريته في حياته، وعلى توفير ما يصلحها بعد موته، وأنه نادم لأيِّ تقصير في طاعته لربه.

فهذا ابن بارٌّ بوالديه يتجاوز الله تعالى عن سيئاته ويدخله الجنة جزاء برِّه وإحسانه لوالديه، ولكن هناك ابن عاق لوالديه بكثرة تأففه وضجره في وجهيهما وباستنكاره كل شيء يطلبانه منه، ولا يجد من الجزاء يوم الحساب إلا شديد العذاب، كيف لا وهما يجأران بالدعاء صباح مساء إلى الله تعالى والاستغاثة به لعل ولدهما يؤمن بالله تعالى وبيوم القيامة الذي طالما ردد إنكاره والقول عنه بأنه من أباطيل الماضي.

فالسورة تطمئن الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بهذا التصنيف للأبناء، ومقارنتهم بأبناء قومه، بأنه ليس غريباً عليهم أن يستجيب له من يستجيب فيؤمن، ويرفض الاستجابة من يرفض ويصرُّ على كفره.

كما يؤكد لهم عليه وآله وصحبه السلام بأن درجات العلا في الجنة معدَّة للمؤمنين بينما الدركات الدنيا في النار معدَّة للكافرين، وأن ظلماً لن يلحق بأيٍّ منهما.

ثم تذكّر الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام ليذكّر مشركي قومه ومن على شاكلتهم إلى يوم الدين بأنهم عندما يعرضون على النار ويقربون منها وينظرون إليها يقال لهم استنكاراً وتعجباً: لماذا أضعتم طيباتكم في الدنيا بالتمتع بها ولم تحسبوا حساب ما ينتظركم في الآخرة من طيباتها عندما تؤمنوا وتقبلوا على الطاعات بدلاً من هذا الإغراق

في الشهوات والمعاصي فلم تبقوا لأنفسكم بل لم تعملوا لها طاعة تنقذكم من عذاب الخزي والفضيحة التي تنتظر المشركين المكابرين يوم الحساب؟!

فلماذا كل هذا التعالي على الناس المؤمنين بالحق والبغي والظلم لهم؟! إنكم لم تقفوا على ما أحله الله تعالى لكم من الطيبات ولم تشكروه تعالى على التمتع بما أنعم الله تعالى به عليكم من الطيبات... ولو فعلتم ذلك لما حل بكم من العذاب ما حل.

وتذكّر السورة بعدها الرسول عليه وآله وصحبه السلام ليذكّر قومه بما حلَّ بقوم هود عليه السلام... فتقول:

﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾

مبينة أن هوداً عليه السلام قد أنذر قومه بالأحقاف من حضرموت اليمن بأن العذاب سيحل بهم إذا استمروا على تكذيبهم له، وداعية الرسول عليه وآله وصحبه السلام أن يتذكّر صبر هود على قومه ليتعزى به عن صدِّ قومه المشركين له، ويتذكر كيف أنهم رفضوا الاستجابة لدعوته لهم للإيمان وزعموا بأنه يريد أن يبعدهم عن عبادتهم بكذبه عليهم بأنه رسول الله إليهم، مما جعلهم يستعجلونه ما يتهددهم به من العذاب إن كان صادقاً، ومما جعله يخبرهم بأن موعد العذاب عند الله تعالى وحده، وأن عليه هو أن يبلغهم رسالة ربه بالرغم من استعجالهم بالعذاب بسبب جهلهم بصدق ما يتوعدهم به.

وانظروا إليهم وهم يعتبرون السحاب الذي رأوه يعترض السماء بأنه مجرد مطر جاء لخيرهم، ولكن هوداً عليه السلام أوضح لهم بأنه العذاب الذي استعجلوه، وأنه قادم مع ريح تحمل لهم العذاب الأليم بما ستحدثه فيهم من التدمير لبيوتهم وقتلهم

وطمرهم تحت الرمال لمدة سبعة أيام وثماني ليال، وبالفعل وقع ذلك كله بهم حتى لم تعد ترى مساكنهم ثم كشفتها الرياح لتكون عبرة لمن بعدهم.

فهل تريدون هذا يا مشركي العرب لأنفسكم؟!

ثم دعته السورة عليه وآله وصحبه السلام ليذكّر قريش ومن حولهم ومن بعدهم بأن الله تعالى قد مكّن قوم هود بشكل قوي جداً وبشكل لا يقارن بما هي عليه قريش وكل العرب معها، ومنحهم من القدرات على سماع الحق ورؤية براهينه وإدراك حقيقته الشيء الكثير، ولكنهم لم ينتفعوا بذلك مطلقاً وأصروا على الجحود والإنكار لآيات الله تعالى والبراهين الشاهدة على قدرته وتوحيده، فحلَّ بهم ما استحقوه من العذاب المخزي جزاء سخريتهم وهزئهم بالله ورسوله وآياته.

وتحذر السورة المشركين أنفسهم بعدها وتنذرهم وتوبخهم بسبب كفرهم وعنادهم... فتقول:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا
مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ
نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾
قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ
طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ
أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ۚ أُولَٰئِكَ فِي
ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن
يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ
قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ
وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ
الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

فاذكروا أيها المشركون المعاندون ما حلَّ بالقرى من حولكم من حجر ثمود وقرى لوط وغيرها مما يجاور من بلاد الحجاز، وأنتم تذكرون أخبارهم المتواترة لديكم، وكيف أهلكهم تعالى جزاء كفرهم وسيئات أعمالهم بعد أن بين رسله لهم من الحجج والبينات وذكروا من العظات ما يكفي لرجوعهم عن الباطل الذي كانوا يعيشونه

والفحشاء التي كانوا يتمرغون فيها، ولكنهم رفضوها وأصروا على عنادهم في الكفر، وتعنتهم في الباطل.

فهل نصرتهم، أيها المشركون، آلهتهم التي كانوا يزعمون بأنها تشفع لهم عند الله تعالى، وهل منعتهم من الهلاك الذي حلَّ بهم بعد أن قدموا لها ما قدموا من القرابين؟! بل انظروا إليهم وقد هرب كل منهم من الآخر بعد أن تزلفوا بها فوقعوا في عاقبة إفكهم وكذبهم.

فذكّر يا محمد مشركي قومك ومن حولهم وبعدهم بأن الله تعالى قد وجَّه مجموعة من الجن للاستماع إليك وأنت تقرأ عليهم القرآن، وأنهم آمنوا بالله تعالى ورجعوا بأمر الله تعالى إلى قومهم ودعوهم للإيمان.

وقل لهم يا محمد لماذا يشركون بالله تعالى ويرفضون الاستماع للقرآن ولا يقبلون على الإيمان به وهم أضعف بكثير من أولئك الجن وأقل منهم علماً؟!

وذكّرهم يا محمد بأن أولئك الجن قد أنذروا قومهم بعذاب الله تعالى إن لم يؤمنوا، وبلّغوهم بما سمعوه من القرآن الذي نزل من بعد التوراة مصدقاً بنزولها من الله تعالى ومؤكداً بأنها والإنجيل قد أنزلهما للأخذ بأيدي بني إسرائيل إلى الهدى والطريق القويم، ودعوهم لكي يستجيبوا لذلك ويؤمنوا بالله تعالى ورسوله لكي يغفر لهم ما قد سلف من ذنوبهم وينقذهم من العذاب يوم القيامة، وبلّغوهم بأنه من يرفض هذه الدعوة إلى الله ورسوله فإنه لن يفلت من عذاب الله تعالى وعقابه، وأنه لن يجد له معيناً ولا ناصراً من دون الله القادر يمنعه من العذاب.

وذكّرهم يا محمد بأن ما يقرون به من أن الله تعالى قد خلق السموات والأرض يجب عليهم أن يستحضروه دائماً في أذهانهم ويلتزموه في أعمالهم وإلا كانوا متناقضين مع أنفسهم، كيف لا وأن معرفتهم بذلك أكيدة ومتحققة، وأنهم على علم بأن الله تعالى قادر على كل شيء، وأنه تعالى لن يلحقه في كل ما يفعله نصب ولا تعب، وأنه سبحانه وتعالى قادر على أن يحيي ويميت ثم يحيي يوم القيامة للحساب العادل.

وذكّر قومك ومن حولهم ومن بعدهم يا محمد بأنهم يوم يُعرضون على النار فإن أحداً منهم لن يملك القدرة على إنكار أن ما يراه ويلمسه هو الحق كل الحق الذي أنذر به ورفضه، وأن الكل سيجدون الجزاء الأوفى من العذاب الشديد بانتظارهم.

ثم تذكّر السورة الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام معزية له بأن هذا هو ديدن الأقوام السابقين مع إخوانه المرسلين، وتدعوه للصبر على أذى قومه من مشركي

العرب كما صبر أولو العزم من إخوانه من المرسلين، وهم الخمسة المعروفون: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، بالإضافة له هو.

وتدعوه عليه وآله وصحبه السلام أن لا يستعجل في طلب أيِّ عذاب ليحل بهم جزاء منكر أفعالهم وصدهم عن سبيل الله والذي يقع منهم على المسلمين وعلى رسول الله أنت يا محمد صلى الله وسلم عليك وآلك وصحبك، وأن يعلم أن يوم القيامة هو موعدهم الأقصى مع ما ينتظر من يبقى منهم مصرّاً على الشرك والبغي، وأن يتأكد بأنهم ما إن يروا ما يوعدون به من العذاب، سواء في الدنيا أو في الآخرة، حتى يروا كأنهم من هول ما يرونه يوم القيامة لم يلبثوا إلا ساعة من الزمن.

واعلم يا محمد وأعلم قومك بأن هذا القرآن هو بلاغ لهم ولمن يأتي بعدهم من الخلق إلى يوم الدين ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٥٢] و ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ ١٠٦﴾ [الأنبياء: ١٠٦]. أعلمهم بأن الله تعالى لن يهلك في الدنيا والآخرة أو الاثنتين معا إلا القوم الخارجين عن أمره ونهيه، والسادرين في غيِّهم وطغيانهم، والمعاندين لأمر رسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ونهيه، والمقفلين آذانهم وأعينهم وعقولهم عن سماع الحق ورؤيته وإدراكه والإيمان به والتزامه..

فهلّا وعت عقولكم يا ذوي الألباب والنهى قبل فوات الأوان ذلك كله؟؟

دليل سورة الاحقاف ـ ٤٦

-إنها سورة مكية، وأنزلت في ٣٥ آية، وهي السورة السابعة والأخيرة بين الحواميم.

-تؤكد أن الله تعالى هوالذي ينزل القرآن..

ـ ثم تستنكر على الكفار عبادتهم الأصنام واستغاثتهم بها وهي من صنع أيديهم..

ـ وتستنكر وصف معجزاته تعالى بأنها سحر مع إقرار علمائهم بأنها ليست كذلك..

ـ وتستنكر تكذيب الرسول عليه وآله وصحبه السلام وهم يشهدون له بالصدق.

ـ وتستنكر تكذيب الرسول عليه وآله وصحبه السلام وهم يشهدون له بالصدق..

ـ وتستنكر طعنهم بأنه عليه وآله وصحبه السلام رسول وهم يعرفون بمجيء رسل قبله..

ـ وتستنكر كفرهم بالقرآن وأحد علمائهم ـ وهو عبد الله بن سلام ـ يشهد أنه كتاب من الله تعالى..

ـ وتستنكر طعنهم في القرآن بحجة سبق الفقراء للإيمان به وهم يعلمون كذب تبريرهم..

ـ وتستنكر طعنهم في القرآن بأنه لا علاقة له بالله وبالرسل والتوراة والإنجيل تكذبهم..

ـ ثم تطمئن الرسول عليه وآله وصحبه السلام لمكانة أصحابه العالية عند ربه، ولاستجابة بعض الناس إليه ورفض الآخرين كالأبناء مع والديهم، ولمكانة النساء المؤمنات في الجنة والكافرات في النار تماماً كالرجال، ولشبه ذلك كله بما حصل مع الأقوام السابقين..

ـ ثم توبخهم كيف يؤمن الجن وهم الأقوياء بالرسول والرسالة بينما يعرضون هم وهم الضعفاء.. وأنهم يجرون بذلك أشد العذاب على أنفسهم..

ـ وأخيراً تدعو الرسول عليه وآله وصحبه السلام بالصبر على أذاهم وعدم استعجال العذاب لهم..

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ استنكار دعوة وتقدير من لا يستجيب يستدعي التوقف عن دعوته ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ﴾.

٢ ـ استنكار عمل من يعرف ضعف وتهافت موقفه يفرض تجاهه في النهاية مع إصراره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٣ ـ إن الاستمتاع بالطيبات في الدنيا ونسيان الآخرة خسران مبين ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾.

٤ ـ إن العلم ووسائطه السمعية والبصرية والعقلية لا تغني عن صاحبها شيئاً مع كفره ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

٥ ـ التأكيد أن القرآن قد أنزل للإنس والجن وليس للإنس فقط، وأنه قد آمن به جمع من الجن ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

٦ ـ تأكيد دعوة الرسول عليه وآله وصحبه السلام للصبر في هذه المرحلة المكية

على أذى المشركين كما صبر إخوانه أولو العزم من الرسل وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا۟ الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾.

٧ ـ أعلمهم بأن الله تعالى لن يهلك في الدنيا والآخرة أو الاثنتين معا إلا القوم الخارجين عن أمره ونهيه، والسادرين في غيِّهم وطغيانهم، والمعاندين لأمر رسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ونهيه، والمقفلين آذانهم وأعينهم وعقولهم عن سماع الحق ورؤيته وإدراكه والإيمان به والتزامه .

فهلّا وعت عقولكم يا ذوي الألباب والنهى قبل فوات الأوان ذلك كله؟؟

سورة محمد (٤٧)

التقديم

سورة محمد أو سورة القتال مدنية إلا ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ﴾، وتقع في ثمان وثلاثين آية، وتشمل ما يلي:

بالنظر لأن السورة سورة قتال فإنها تسلط الضوء على الكافرين والمنافقين الواجب قتالهم بقيادة الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام ومن يخلفه على المسلمين.

فالسورة لهذا تبدأ بذكر أولئك الذين أصروا على الضلال والوقوف في طريق دعوة الرسول عليه وآله وصحبه السلام إلى الإسلام، وتذكر كيف أن الله تعالى قد أبطل مكرهم وكيدهم ضد النبي عليه وآله وصحبه السلام وصحبه، وأن العذاب والعقاب بانتظارهم.

وتشير السورة إلى المؤمنين بالله ورسوله والملتزمين بأحكام دينه، بالمقابل، فتذكر بأن الله تعالى يكفر سيئاتهم.

وتحدد السورة بعدها كيفية التعامل في المعارك الحربية مع أولئك الكفار، وأن طريقة ذلك هي ضرب رقابهم وأسر من يؤسر منهم لينتهوا إما بالمنّ أو بالفداء.

وتشير بالمقابل إلى المؤمنين في المعارك واستشهادهم في سبيل الله وجزائهم بالجنة، حيث يستقرون ويتمتعون في حياة النعيم الخالد.

ثم تدعوهم للحرص على الحصول على هذا الجزاء الطيب بالحرص على البذل في سبيل نصرة دين الله والتضحية في سبيله، وعندها سيجدون نصر الله تعالى حليفهم في كل معاركهم مع الكفر وأهله من الكافرين بجميع مللهم ونحلهم وهم الذين ينتظرون الهزائم في المعارك كما ينتظرون الخزي والعار يوم الحساب.

مذكرة لهم بآثار من سبقوهم من الأمم الشاهدة على تدميرهم والمنذرة لكل عاقل بنفس المصير إذا سار على طريقهم.

ومؤكدة أن الله تعالى ينصر المؤمنين به ويخذل الكافرين، وأن هذا في الدنيا وأما في الآخرة فشتان بين جزاء المؤمنين بالجنة والكافرين بالنار.. شتان بين من يقدمون أنفسهم وأموالهم رخيصة في سبيل الله تعالى وبين من يبخلون بذلك طمعاً في متع الدنيا وشهواتها.

وتعود السورة وتتهدد المشركين والمنافقين بالهلاك كما أصاب من كان أقوى منهم ممن سبقوهم من الأمم.

وتدعوهم ليتخلوا عن الغرور بما هم عليه من القوى، ويتخلوا عن عبادة الأصنام التي يزينها لهم الشيطان ويدفعهم إليها هواهم، وتذكرهم بالبون الشاسع بين الجنة التي وعد بها المتقون وبين النار التي توعِّد بها الكافرون.. بين الجنة وما فيها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من الطيبات وبين النار التي يتجرعون فيها من أصناف العذاب ما لا يتصوره عقل.

وتقف السورة بعدها على بيان شيء من أفعال المنافقين ضد الرسول عليه وآله وصحبه السلام، وكيف أنهم يتظاهرون بالاستماع إليه عليه وآله وصحبه السلام وهم مصرُّون على الكفر بما سمعوه، بينما بالمقابل كيف يزيد المهتدين استماعهم هدى واطمئناناً بنصر الله تعالى ورحمته وجنته.

وتتهددهم السورة بعدها بقرب مجيء الساعة، وقد ظهرت بعض أشراطها، وأنهم عند مجيئها لن يجدوا مجالاً للتذكر والاعتبار.

ثم تدعو الرسول عليه وآله وصحبه السلام لتذكير المؤمنين دائماً بوحدانية الله تعالى والعمل الصادق بطاعته، وتذكر أن علمه محيط بكل أعمالهم وتصرفاتهم في النهار وبراحتهم ونومهم في الليل.

ثم تتحدث عن حال المؤمنين وطلبهم بإنزال سورة لبيان الجهاد، وكيف يكون وقع مثل هذه السورة على الكفار والمنافقين عندما يسيطر عليهم الرعب والحقد معاً رفضاً للجهاد في سبيل الله، وعملاً بكفرهم ونفاقهم، بينما كم كان أفضل لهم لو صدقوا الإيمان والجهاد؟!

وتأتي السورة بعدها لتتوعد المؤمنين وتهددهم فيما لو تولوا قيادة أمتهم بالظلم والفساد وتقطيع الأرحام، وأن لعنة الله تعالى تنزل عليهم وهم يبتعدون عن سماع الحق، ورؤية الحق وتدبر الحق.

ثم تدعوهم للحرص على دوام مراقبة أنفسهم في طاعة الله ورسوله في كل موقف سواء كان أثناء خوض المعارك الحربية، فلا يجبنون ولا يهربون، أو عند تسلم الحكم وقيادة الأمور، فلا يظلمون ولا يفسدون.

وأن عليهم أن يعلموا أن الهارب من المعركة أو المرتد عن دينه فإنه قد تبع الشيطان وأغضب الرحمن.. وما ذلك إلا لأنهم عندما يفعلون ذلك إنما يسيرون في طريق الكافرين والمنافقين، ويخالفون أمر رسول الله ويقعدون عن الجهاد معه.. ولن يرضى عنهم الله ولا رسوله بل ها هو المولى عز وجل يكشف سرَ من حدثته نفسه بذلك أو تواطأ مع غيره عليه، يكشفه للرسول عليه وآله وصحبه السلام فيعلم من هم المنافقون.. ولكنه عليه وآله وصحبه السلام لا يذيع خبرهم على الرجاء أن يستقيم أمرهم كلهم أو بعضهم.. وسواء هم أنفسهم أو من خلفهم.

ثم يتهددهم المولى عز وجل بأن مثل هذا النفاق سيكون عقابه يوم الحساب أشد وأخزى مما هم يرونه من الهزائم في الدنيا وذلك عندما تتولى الملائكة ضربهم على وجوههم وأقفيتهم جزاء ما هم عليه من العناد في الكفر، وما يبطنون من النفاق، وما يفعلونه من رفض طاعة الله تعالى والتهرب منها.

وأن عليهم أن يعلموا بأن الله تعالى سيظهر أحقادهم مهما حاولوا أن يخفوها عن المؤمنين.. ويكشفهم للرسول عليه وآله وصحبه السلام بعلامات تظهر في وجوههم وبلحن القول يظهر في كلامهم.

ونبهت السورة بعدها المؤمنين إلى ما يمكن أن يتعرضوا له من مواقف الاختبار والابتلاء، وأن في ذلك التمييز بين المجاهد الصابر منهم وبين غيره، وأن عليهم لذلك أن يحذروا الفشل في هذه الاختبارات!

كما عليهم أن يعلموا بأن أعمال الكفار، مهما وقفوا في طريق الدعوة، وتنفيذ أحكام الإسلام، وعادوا رسوله، فإنهم لن يؤثروا على الله تعالى في شيء وإنما سيضيعون ثواب ما كان يمكن أن يعملوه من الأعمال الصالحة أثناء نفاقهم.

وأن عليكم أيها المؤمنون أن تلتزموا طاعة الله ورسوله ولا تعرضوا أعمالكم للخسارة كما يفعل المنافقون، وأن تتأكدوا أن الكفار المعادين لدين الله لن يغفر لهم من ذنوبهم شيئاً بعد الموت وعند الحساب إذا ماتوا على كفرهم، وأن تحرصوا ألا تضعفوا في المعارك ضدهم مع رسول الله وقادته أو تميلوا لطلب الصلح وأنتم الغالبون مهما أصابكم من خسائر في الأرواح والأموال.

واعلموا أن الله تعالى معكم ولن ينتقص من ثواب أعمالكم شيئاً، وتأكدوا أن

الحياة الدنيا ما هي إلّا متاع زائل وأن ما عند الله تعالى هو الخير والأبقى، وأن تحرصوا على التضحية بالأنفس والأموال لأن من يبخل بشيء من ذلك فقد أضاع على نفسه أعظم الأجر في جنات النعيم الخالد، كما أن الله تعالى لن يعجزه استبدال من هم أفضل طاعة وعدلاً بمن يعصونه، فليحذروا ذلك.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ
عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾﴾

مبينة بأن أهل مكة الذين كفروا بالقول بالشرك مع الله تعالى ووقفوا ضد دين الله الإسلام قد أبطل الله تعالى كيدهم ومكرهم بالنبي عليه وآله وصحبه السلام بينما أولئك المؤمنون الصالحون من الأنصار والمهاجرين الذين لم يخالفوا النبي عليه وآله وصحبه السلام في شئ فإن إيمانهم هو الإيمان الحق وأن الله تعالى قد كفَّر عنهم سيئاتهم السابقة لإيمانهم وأصلح لهم أمورهم، وما ذلك بحق الكفار إلا لأنهم اتبعوا الباطل بعبادة الأصنام بينما بالنسبة للمؤمنين لأنهم اتبعوا الحق بعبادة الله تعالى واتباع رسوله، مما يظهر من هو على السوء ومن هو على الحسنى.

وتتحدث السورة بعدها عن الفئة الكافرة، وكيفية قتالهم، وعن الفئة المؤمنة، وكيفية قتالهم.. فتقول:

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ
ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن
يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ
ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ
ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ
عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾

فانظروا أيها المؤمنون إلى ما يجب عليكم متى نشب القتال بينكم وبين الكفار، فلا بدَّ من عدم التردد في قطع رقابهم والتنكيل بهم، وإذا انكشفت المعركة عن أسرى منهم بعد القتل الواسع فعليكم إما أن تطلقوا سراحهم دون مقابل أو أن يدفعوا فدية يتفق عليها مع دولتهم بشرط أن تكون الحرب قد انتهت بالنصر عليهم وتبعاً للسياسة الحربية المتبناة.

و اعلموا أن إرادة الله تعالى قادرة على إهلاكهم بغير قتال ولكنه تعالى حكم بقضائه أن يأمركم بالحرب ليختبر بعضكم بعضاً فيظهر المجاهدين والصابرين أمام أعينهم وأعين غيرهم، وليس أمام الله تعالى العالم بهم دون ذلك، وليجزل الثواب للقتلى الشهداء منهم، كيف لا وعنده تعالى لا يضيع عملهم بل يرشدهم يوم القيامة إلى مسالك الجنان ليدخلوها فتطمئن قلوبهم وترتاح أنفسهم في تلك الجنة التي عرفوها قبل أن يروها، والتي طيبها لهم بأنواع من الطيب جزاء طيبات أعمالهم.

واعلموا أيها المؤمنون الصالحون المجاهدون أن الله تعالى يحقق لكم النصر على أعدائكم من الكفار والمنافقين مهما كثروا عدداً وعدَّة بمجرد أن تصدقوا في نصر دينه وتضحوا بأنفسكم وأموالكم في سبيل إعلاء كلمته، وعليكم أن تتأكدوا أن النصر لا يمنحه تعالى إلا لمن يستحقه منكم، وفي الزمان والمكان التي يقضي بخيريته لكم، وأنه تعالى لن يعطيكم نصراً مهزوزاً بل حاسماً تثبت به أقدامكم وتقر به عيونكم.

وأما أولئك الكفار فاعلموا أن الله تعالى موقع الهزيمة بهم ومفسد عليهم كل ما مكروه ضدكم وكادوا به لكم، كيف لا وقد رفضوا وحي الله تعالى كرهاً فحبطت أعمالهم بأيديهم ولم ينتفعوا بما يرونه من معالم وآثار الأمم السابقة من أمثال عاد وثمود ولوط وغيرهم الذين رفضوا وحي الله تعالى وطاعته، وبغوا في الأرض بغير الحق فدمرهم تعالى بما يستحقونه ورفضوا سماع الإنذار به، وكأنهم لا يخافون نفس المصير؟! وكأنهم لا يعلمون أن النصر بيد الله تعالى يؤتيه لمن يواليه ويتبع أمره ولا يعصي نهيه، ويمنعه عمن يفعل عكس ذلك!! و كأنهم لا يعلمون أن الجنة ونعيمها في الآخرة هي للمؤمنين الصالحين وأن الجحيم وسعيرها هي للكفار الطاغين والذين لا يبقى لهم إلا متعة هذه الدنيا الفانية الزائلة!!

وتعود السورة وتتهدد أولئك الكفار والمنافقين بالهلاك، وتعد هؤلاء المؤمنين المجاهدين بالنصر.. فتقول:

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾

مبينة للرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن مكة التي أخرجته بعنادها على الكفر والصدِّ عن الدخول في دين الله تعالى ليست بأقوى من تلك الأمم التي أهلكها الله تعالى لأفعالهم المنكرة، والتي لا تختلف عنها أفعال أهل مكة، وأنهم لم يجدوا عندما نزل بهم العقاب من يعينهم وينقذهم من ذاك العذاب.

فاطمئن يا محمد لذلك، وطمئن المؤمنين معك بأن من أمثالكم على هذا الإيمان واليقين والثبات سيجدون من الله تعالى كل التأييد والنصر، وأنكم لن تكونوا كالذين يتبعون أهواءهم وشهواتهم وتزيين الشيطان لسوء أعمالهم، وأن الله تعالى سيترك هؤلاء لمعبوداتهم الباطلة وأهوائهم الخادعة، ويحرمهم يوم القيامة من مثل جزاء المتقين الذي قطعه لهم بالجنة وما فيها من أنهار متنوعة لا يتغير طعمها ولا رائحتها ولا مذاقها ولا صفاؤها، ناهيك عن تنوع ثمارها، فكيف بالرضوان المصاحب لها؟

وهل من الممكن أن يقارن هذا الجزاء الطيب المبارك بما ينتظره أولئك الكفار والمنافقون من النار وما فيها من طعام الزقوم العلقم بل الأشد منه مرارة، وشرابه الماء المغلي بل الأشد منه حرارة؟!!

وتشير السورة بعدها إلى الفرق بين تصرفات المنافقين والمهتدين، وما ينتظر كلاً منهم... فتقول:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾﴾

منبهة الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام إلى أن من أولئك الذين يتمتعون

كالأنعام في هذه الدنيا جماعة تستمع إليه وهم المنافقون من أمثال ابن سلول، وهم يملكون في صدورهم قلوباً سوداء لحرصهم على عدم فهم ما يسمعونه، وتظاهرهم الكاذب بمتابعة العلم بسؤال بعض الصحابة كابن عباس، وما هم إلا فاعلون ذلك من باب الهزء والسخرية، كيف لا وهم خلو من الإيمان، وهم أتباع الهوى والشيطان.

ومشيرة بالمقابل إلى أولئك المهتدين الذين كانوا يحرصون على فهم ما يسمعون من القرآن وبيان أحكامه، ويبادرون للالتزام والطاعة دون تردد، فكان عليهم بما يزيد هداهم على هدى، وثوابهم على ثواب.

فماذا ينتظر أولئك المنافقون غير أن يفاجأوا بقيام القيامة بعد أن ظهرت علاماتها، وقد قال عليه وآله وصحبه السلام «بعثت والساعة كفرسي رهان»، فمن أين لهم التذكر عندها والنجاة مما ينتظرهم والندم ولات ساعة مندم!!

وتأمر السورة بعدها الرسول عليه وآله وصحبه السلام بالاستغفار لنفسه وللمؤمنين، وتخبره بما ينتظر المنافقين.. فتقول:

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ
(١٩) وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ
فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ
مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟
فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ (٢٣) أَفَلَا
يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ (٢٤) إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ
ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ (٢٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ
سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ
وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ (٢٧) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ
أَعْمَٰلَهُمْ (٢٨) أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَآءُ
لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ (٣٠)﴾

فاذكر يا محمد وذكّر دائماً بأنه لا إله إلا الله، واربطوا هذا التذكر بالعمل، بالاستغفار لنفسك وللمؤمنين وللمؤمنات، استغفاراً يقتدى به، واذكروا بأن الله تعالى

يعلم أعمالكم في كل حالات تصرفاتكم سواء في النهار أو في الليل، كما يعلم مصيركم في الدنيا والآخرة بحيث لا يخفى عليه سبحانه شيء من حركاتكم وسكناتكم.

واذكروا بأنه عندما تنزل سورة جهاد تطلبونها وتشتاق نفوسكم لتنفيذ أوامرها وكسب ما تعد به من الثواب، فإن المنافقين أصحاب القلوب المريضة بالشك والرياء يستولي عليهم الحقد والهلع لميلهم سرّاً للكفار، مع أن الأولى بهم والأفضل أن يطيعوك يا محمد ويحرصوا على القول الطيب بدلاً من النفاق الخبيث، ويشتركوا معكم في ذلك محققين الإخلاص في الإيمان، ويبادروا عندما يجد الجد وينشب القتال للصدق في القتال إيماناً واحتساباً، فعندها يتحقق لهم الخير بدلاً مما هم فيه من الشر.

وأخبر هؤلاء المنافقين يا محمد، وذكّر بذلك المؤمنين معك، بأن من يتولى عن طاعة الله ورسوله فإنه يكون ممن يفسد في الأرض، وينتكس إلى الجاهلية، ويوقع الظلم والفساد في الأرض لو تسلم قيادة الأمة.

فعليكم يا ذوي الألباب أن تتدبروا كتاب الله تعالى وآياته، وتعلموا ما أعده تعالى لمن يتولى عن الإسلام من العذاب الشديد، وتدركوا أن من يقفل عقله عن سماع الحق وتدبر الحق والتزام الحق فإنه من المنافقين، وتحذروا الوقوع في أيِّ إعراض عما تؤمروا به من الإيمان ومقتضياته من الطاعات وفي رأسها الاحتكام لشرع الإسلام، وعندها فقط لا تقعوا في أعمال الإفساد في الأرض وسفك الدماء بغير حق.

واعلموا أيها المنافقون والكافرون الذين قعدوا عن القتال بعدما علموه في القرآن بأنكم تتبعون في ذلك الشيطان الذي زين لكم سوء الأعمال وأمّلكم بطول العمر وحسن العاقبة فغرر بكم حتى وقعتم في التواطؤ مع المشركين العرب في كراهية القرآن وأحكامه، والقعود عن الجهاد وتثبيط الناس عن ذلك.

فأخبرهم يا محمد بأن الله تعالى يعلم سرَّهم، وأنه أعلمك بهم وبما ينتظرهم من عذاب شديد عندما تضربهم الملائكة على وجوههم وأقفيتهم وتدفعهم للنار في الآخرة، وتنصر جيوش المسلمين عليهم في الدنيا، وتلحق بهم الخزي والعار عند بعثهم للحساب على ما فرطوا في حق أنفسهم وهم يفترون على الله ورسوله الكذب ويصدون عن كتابه، ويوقعون الأذى على عباده، وأنهم بذلك قد جلبوا سخط الله وكرهه لهم وأضاعوا ما كان يمكن أن يأتيهم من خير لو التزموا الإيمان والطاعات.

وأعلمهم يا محمد بأن لا تخدعهم ظنونهم الموهومة وآمالهم الكاذبة وصدورهم تطوي على مرض النفاق، وأن عليهم أن يدركوا أن أحقادهم معلومة بدقائقها عند الله تعالى وأنهم لن يستطيعوا أن يخفوا شيئاً منها عن عباده عندما يكشفها لهم، وأن يعلموا

بأن الله تعالى قادر على أن يظهرها لرسوله ليراها رأي العين، فيعرفهم بملامحهم كما يعرفهم بشكل كلامهم وتصرفاتهم، وأن يتأكدوا أن عداوتهم لله ورسوله وحقدهم على الإسلام وأهله قد أصبح معلوماً لدى رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

وتخاطب السورة المؤمنين بشأن المنافقين والكافرين محذرة منهم وداعية لإلزامهم بالطاعة.. فتقول:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن
سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾
۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن
سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ
مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا
يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ
تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ
الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾﴾

فانظروا أيها المؤمنون كيف قضى الله تعالى باختباركم حتى يميز بين المجاهدين الصابرين منكم وغيرهم لتروهم أنتم وتعلموهم أنتم إذ يكشفهم لكم، وهو سبحانه العالم كل العلم بهم، كما يكشفهم لأنفسهم فيلزمهم الحجة.

واعلموا أيها المؤمنون أن أعمال الكيد والمكر التي يقوم بها الكفار في تنفير الناس عن الإسلام والدخول في حظيرته، وفي دفعهم لمعاداة الرسول عليه وآله وصحبه السلام، لن تؤثر على الله تعالى بشيء، بل هم يضيعون على أنفسهم ثواب أعمالهم الحسنة بسبب هذا المكر والكيد والكفر.

واستمروا أيها المؤمنون المجاهدون الصابرون في طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وإياكم أن يفتنكم أحد من المشركين والمنافقين عن ذلك فيفسد عليكم أعمالكم الطيبة.

وتأكدوا أن مصير هؤلاء الكفار بسبب كفرهم ومحاربتهم للمسلمين هو العذاب الشديد يوم الدين، وأنهم متى بعثهم للحساب فسيرون كم هو عسير عليهم بسبب هذه المنكرات الفظيعة التي يرتكبونها.

وعليكم أيها المؤمنون أن تواصلوا جهادكم وصبركم وثباتكم، واحذروا أن تطلبوا الصلح والمهادنة معهم وأنتم غالبون لهم ومنصورون عليهم، وكونوا على ثقة ويقين بأن الله تعالى يرعاكم وينصركم عليهم، وأنه تعالى لن ينتقص أجر أعمالكم في الآخرة بعد أن ينصركم عليهم في الدنيا.

كما كونوا على اطمئنان بأن هذه الحياة الدنيا بكل ما فيها من متع وشهوات وملهيات ليست بأكثر من لعب يمارسه الإنسان ويتركه لغيره، ولهو يلهو به في متعه العابرة ويبحث عن غيره، فعليكم أن تحذروا من الركون إليها لأن ما تطلبونه وتنتظرونه مقابل الصدق في إيمانكم وجهادكم من الأجر والثواب لا يعادله شيء من الدنيا وما فيها.

وتأكدوا أن الله تعالى عندما يدعوكم إلى الإنفاق في سبيله ونصرة دينه وإعلاء رايته وتطبيق شريعته فإنما يسألكم أمواله التي بين أيديكم والتي أودعها عندكم، فاحذروا أن تبخلوا في البذل والعطاء، واذكروا أن في هذا البذل والعطاء إزالة للأحقاد بينكم من الفقير للغني، وفيه عظيم الأجر والثواب في آخرتكم.

وتأكدوا أن أيَّ بخل في ذلك هو ضياع لثواب البخيل منكم وأنتم بأمس الحاجة لهذا العطاء من الله تعالى يوم لا ينفع مال ولا بنون.

وتأكدوا أن الله تعالى قادر لو عصيتموه على أن يأتي ببديل لكم يطيعونه ولا يعصونه مثلكم.. فاحذروه!!!

دليل سورة محمد ـ ٤٧

- تبدأ بالمقارنة بين موقف الكفار والمؤمنين من رسالة الإسلام ثم تحدد طريقة التعامل معهم.

- ثم تدعو المؤمنين للحرص على ما ينتظرهم من الجزاء الطيب، والكافرين والمنافقين للخوف والحذر مما ينتظرهم من الجزاء السيئ.

- ثم تكشف شيئاً من أفعال المنافقين الكاذبة من أمثال التظاهر بالاستماع مع الإصرار على الكفر وتتهددهم بالعذاب.

- وتدعو المؤمنين معها لدوام توحيد الله تعالى والصدق في طاعته وتذكر إحاطة علمه بكل عمل.

- وتحذر المؤمنين من ظلم أمتهم وتقطيع أرحامهم، فلا فرار في المعارك ولا ظلم وفساد في قيادة الأمة.

- وتنذر المنافقين بفضح أحقادهم مهما أخفوها.

- وتحذّر الكفار من معاداتهم للإسلام ودعوته لأن نصر الله تعالى لا محالة متحقق للمؤمنين وأن ما يفعله أعداؤهم ما هو إلا إضاعة الثواب عليهم أنفسهم.

- وتؤكد على المؤمنين التزام طاعة الله ورسوله، والحذر من التشبه بالمنافقين فيخسروا أعمالهم، والحرص على التضحية في الجهاد وعدم الرغبة في الصلح مع النصر مهما كانت الخسائر كبيرة.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ بروز خطورة الكفار والمنافقين في تصديهم للدعوة الإسلامية وبيان فشل أعمالهم مهما ظهر لها من نجاح ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ١﴾.

٢ ـ تطمين المؤمنين العاملين على ما ينتظرهم من الخير ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾.

٣ ـ تحديد السياسة الحربية في التعامل مع الأسرى إما إطلاق سراحهم دون مقابل أو دفع فدية بالاتفاق مع دولتهم ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾.

٤ ـ تحديد شرط النصر على العدو ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ٧﴾.

٥ ـ إن الاستماع ليس دليل قبول واستجابة ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

٦ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ١٧﴾ تؤكد أن من يلتزم الهدى يوفق للمزيد من الهدى والتقوى.

٧ ـ إن الكافر مدعوٌّ لتدبُّر القرآن فكيف بالمؤمن ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ٢٤﴾.

٨ ـ إن النفاق يظهر على صاحبه من شكل كلامه ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾.

٩ ـ يحرم طلب الصلح مع النصر ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾.

١٠ ـ يحرم البخل عامة ولكنه في الإنفاق في سبيل الله أشد حرمة وتحريماً ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ﴾.

سورة الفتح (٤٨)

التقديم

سورة الفتح مدنية، نزلت في تسع وعشرين آية، وتشمل ما يلي:

نزلت هذه السورة بين مكة والمدينة في شأن الحديبية، وجاءت تعلن بافتتاحيتها ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ بأن الله تعالى قد فتح على رسوله عليه وآله وصحبه السلام فتحاً مبيناً بصلح الحديبية، مما جعل الرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول «نعم، والذي نفسي بيده إنه لفتح» رداً على سؤال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أو فتح هو يا رسول الله؟

كما تعلن أن هذا الفتح قد جعل علةً لاجتماع أربعة أمور هي: المغفرة، وإتمام النعمة، وهداية الصراط المستقيم، والنصر العزيز، فكأنه جمع به الرسول عليه وآله وصحبه السلام عزَّ الدارين الدنيا والآخرة.

كما أنه تعالى قد أنزل الطمأنينة به على قلوب المؤمنين فيزداد إيمانهم بالله تثبيتاً وهم يرون نصره لرسوله فيكّفر عنهم ما اجترحوا من سيئات سابقاً ويدخلهم جنات الخلد والنعيم، ويعذب أعداءهم المنافقين والمشركين الذين استخفوا بعدد المؤمنين بقيادة الرسول عليه وآله وصحبه السلام حتى رأوا أنهم لن يرجعوا إلا قتلى قريش.

وتذكر السورة للرسول عليه وآله وصحبه السلام بعدها بأنه مرسل بالإسلام شاهداً على الناس بالتبليغ ومبشراً لمن يؤمن به بالجنة، ومنذراً لمن يكفر به بالنار، وتخبره برضى الله تعالى عمن بايعوه بيعة الرضوان.

كما تطلب منه عليه وآله وصحبه السلام أن يخبر الأعراب المخلفين عنه للخروج يوم الحديبية بأن أحداً لا يملك دفع الضر الذي جلبوه لأنفسهم بسقوطهم في النفاق، ولا جلب نفع الدعاء لهم مع علمه تعالى بقلوبهم وأعمالهم.

كما تطلب منه عليه وآله وصحبه السلام أن يخبرهم بأن ظنهم السيء بالرسول عليه وآله وصحبه السلام وأصحابه بأنهم سيقتلون هو تزيين من الشيطان وخسارة أمام الرحمن، وأنه لن يسمح لهم بالسير معهم عند فتح خيبر مهما قالوا زوراً بأنكم تطردونهم حسداً لهم.

وتطلب منه عليه و آله وصحبه السلام أن يخبرهم بأنهم مدعوون لقتال المشركين

من الأعراب الذين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو القتل، وأنهم إن تخلفوا عند ذلك فالعذاب الأليم بانتظارهم.

وليعلموا أن الأعمى والأعرج والمريض منهم معذورون لعدم الخروج والقتال. كما أن يخبر المؤمنين بالمقابل بقرب فتح خيبر وتعويضهم به عن فتح مكة. كما يطمئنهم بقرب أن تحقيق وعده تعالى لهم وقد كف أيدي أهل مكة عنهم بالصلح، ويؤكد لهم تحقيق الفتوحات التالية في فارس والروم، وأنه تعالى يبث الرعب في قلوب أعدائهم حتى يفروا خوفاً أمام جيوشهم.

كما يؤكد لهم بأنه سيمكنهم من فتح مكة بعدها دون قتال.

وأخبرهم يا محمد كيف منعهم كفار قريش من العمرة وهم يسوقون الهدي، ولكن الله جعل في ذلك خيراً إذ جنبهم من قتل إخوان لهم مسلمين لا يعلمونهم لو دخلوا مكة فاتحين وأعملوا السيوف في رقاب أهلها.

وذكّرهم يا محمد كيف سيطرت عليهم حمية الجاهلية فرفضوا الإيمان والإقرار للرسول عليه وآله وصحبه السلام بالرسالة فطمأن قلوبهم لوحي ربهم.

وذكّرهم بأن الله تعالى قد حقق الرؤيا التي أراكها بأنكم ستفتح عليكم مكة وتدخلونها آمنين معتمرين في غير عام الحديبية.

وطمأنهم يا محمد، ومن جاء بعدهم من المؤمنين، بأن ما أرسلت به هو الهدى ودين الحق، الدين الذي سيعلو على جميع الأديان في الأرض بدلالة قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [التوبة: ٣٣].

وذكرهم بأنك رسول الله لا شك في ذلك بدلالة قوله تعالى ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ [الفتح: ٢٩].

وأكد لهم بأن أصحابك هم الرحماء فيما بينهم الأشداء على الكفار بدلالة قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح: ٢٩].

وذكّرهم يا محمد بأن يثبتوا في القتال ولا يطلبوا ولا يقبلوا الصلح وهم منتصرون على أعدائهم.. بدلالة قوله تعالى ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ [القتال: ٣٥].

وادعهم يا محمد للإنفاق بسخاء في سبيل الله وتجنب البخل بدلالة تشنيعه تعالى على من يفعل ذلك ﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ [محمد: ٣٨].

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾

بدأت السورة مؤكدة أن يوم الحديبية كان فتحاً جلياً، كما وصفه الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة السلام «بل هو أعظم الفتوح، قد رضي المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح، ويسألوكم القضية، ويرغبوا إليكم في الأمان وقد رأوا منكم ما كرهوا».

وقد أصاب عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام بهذه الغزوة ما لم يصب في أيِّ غزوة أخرى بما غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، حتى لو ارتكب مثل هذه الذنوب، وتحققت له بيعة الرضوان، وأطعموا نخل خيبر، وبلغ الهدي محله، وظهرت الروم على فارس ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس عبدة النار، بينما كان عدد المؤمنين فيها ألف وأربعمائة بالمقارنة لعددهم عندما فتحوا مكة إذ كانوا عشرة آلاف مقاتل.

هذا وقد أخبر المولى عز وجل رسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بأنه قد أجزل عليه العطاء في ذلك اليوم عندما جعل له به المغفرة، وإتمام النعمة بالفتوح القادمة، وإخضاع المستكبرين، والهداية إلى الصراط المستقيم بالتثبيت على الهدى حتى الموت، والنصر العزيز المنيع الذي لا ذلَّ بعده للرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام ولأصحابه ولمن سار على طريقهم.

وأخبره عز وجل بأن في ذلك الفتح بياناً وكشفاً للمؤمنين الذين صاحبوه

بأجسامهم وعقولهم مما استحقوا عليه جنات النعيم بعد أن كفَّر عنهم سبحانه ما سبق من سيئاتهم، كما حقَق لهم هذا الفوز العظيم.

ولكن كيف كان حال المشركين والمنافقين؟

لقد نصر الله عز وجل المسلمين عليهم، فأخذوهم قتلاً وأسراً واسترقاقاً، فحلَّ بهم ما يستحقونه من العذاب جزاء سوء ظنهم بالله تعالى بأنهم لن ينتصروا عليهم بل ستقتلهم قريش ولن يعود منهم أحد للمدينة سالماً، فكان أن نصرهم تعالى وحلَّت بعدها دائرة السوء بالمنافقين والمشركين، وما ذلك على الله بعزيز، وأن جنوده من ملائكة السماء ومؤمني الأرض أكثر بكثير من فارس والروم والعرب معاً، وأن الهزائم بانتظارهم جميعاً.

وتتحدث السورة عن الرسول عليه وآله وصحبه السلام بعدها، وعمن بايعه يوم الحديبية، وعمن تخلفوا عنهم.. فتقول:

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ
بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا
يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١٠ سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ
ٱلۡأَعۡرَابِ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ
لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۚ بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرَۢا ١١ بَلۡ ظَنَنتُمۡ
أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمۡ وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ
وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا ١٢ وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرٗا ١٣ وَلِلَّهِ مُلۡكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٤ سَيَقُولُ
ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل
لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلۡ تَحۡسُدُونَنَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٥
قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ
ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنٗاۖ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٦ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا
عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ
وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٧﴾

فاعلم يا محمد أن الله تعالى قد أرسلك شاهداً على أمتك بأنك بلغتهم الرسالة، وأنهم يتحملون وزر كل معصية ومخالفة لها، وأنه تعالى أرسلك مبشراً بالجنة لمن أطاع الله تعالى ومنذراً من النار لمن عصاه، وأرسلك لتبين للناس حقيقة الإيمان بالله تعالى ورسوله ولزوم تعظيمه تعالى ونصرة دينه وتوقيره سبحانه بتسويد شريعته في الأرض وتسبيحه تعالى في كل وقت وبالأخص في الصباح والمساء حين يغفل الناس أو يتشاغلوا.

واعلم يا محمد بأن أولئك الصحابة الذين بايعوك قد بايعوا الله تعالى عندما بايعوا رسوله يوم الحديبية بيعة الرضوان، وأن قدرته تعالى في إجزال العطاء والثواب عليهم جزاء بيعتهم ستعطيهم أكثر مما يحرصون على الوفاء بتلك البيعة.

وحذّرهم يا محمد من أن ينقض أحدهم بيعته لأنه بهذا يكون قد حرم نفسه من الثواب وأوقعها في العقاب، وعليهم أن يحرصوا على الوفاء بها لينالوا الأجر العظيم في جنة الرضوان.

واعلم يا محمد بأن المخلفين عنك من أعراب غفار ومزينة وجهينة وأسلم وأشجع وغيرهم ممن كانوا حول المدينة، عندما تثاقلوا عن الخروج وتشاغلوا بأموالهم وأهليهم ولم يخرجوا معك لمكة للعمرة لا للقتال، بأنهم سيدّعون بذاك الانشغال ويطلبون منك أن تدعو الله لهم المغفرة لتخلفهم.

فأعلمهم يا محمد بأنهم قد نافقوا لتناقض ما يدّعونه مع ما أخبرك الله به عما في صدورهم، وأنك لن تستطيع لا أنت ولا غيرك أن تدفع عقاب الله عنهم أو تجلب ثوابه لهم بعد أن حرمهم منه لنفاقهم، وهو الخبير بكل أعمالهم وما بداخلها من نفاق، كيف لا وقد ظنوا بالله ظن السوء، وأنه تعالى لن ينصركم بل سيسلمكم للمشركين ليقتلوكم، وأنهم بهذا الظن استجابوا لوساوس الشيطان فوقعوا في الخسران عندما لم يؤمنوا بقدرة الله تعالى على نصركم وحمايتكم.

وأنهم لو أحسنوا التفكير لما وقعوا في هذا الظن السيء وهم يرون أن الله تعالى هو مالك السموات والأرض، والغني عن جميع عباده، والذي ابتلاهم بالتكليف ليثيب من آمن وأطاع ويعاقب من كفر وعصى.

وأخبرهم يا محمد بما يصدر عنهم من قول عندما تنطلقون لفتح خيبر، وتقولون لهم بأنكم لن تسمحوا لهم بأن يتبعوكم ليشتركوا معكم في غنائم ذلك الفتح مع أن الله تعالى قد حكم بأن غنائم خيبر خاصة بكم يا مؤمنون من دونهم، فعندها سيطلبون منكم بأن تسمحوا لهم بأن يسيروا معكم ليشتركوا في تلك الغنائم.

وأن عليكم أن تمنعوهم من صحبتكم وذلك تنفيذاً لأمر الله تعالى بذلك عقوبة لهم على نفاقهم، كما عليكم ألا تسمعوا لقولهم بأنكم تمنعوهم من باب الحسد لهم، والرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول لهم ليموتوا بغيظهم «إن خرجتم لم أمنعكم إلا أنه لا سهم لكم».

وانظر إليهم وهم يرددون كلمتهم: هذا حسد، فلا تبالوا بقولهم لأنهم لا يفقهون من أمر الدين إلا قليلاً، ولا يحرصون إلا على أمر الدنيا وترك القتال.

وأخبرهم يا محمد بأنهم سيؤمرون بقتال قوم أصحاب قوة كبيرة، ومطلوب منهم أن يسلموا أو يقتلوا، ولا تقبل منهم أيُّ جزية كأهل الكتاب لأنهم مشركو العرب، وأنهم إن أطاعوا الأمر وشاركوا بصدق وإخلاص في القتال ضدهم فإن الله تعالى يجزل لهم العطاء في الدنيا بالنصر والغنيمة مع المسلمين وفي الآخرة بجنات النعيم، وأما إذا تولوا وتخلفوا كما فعلوا يوم الحديبية فإنهم يخسرون الدنيا والآخرة، وعليهم أن يعلموا أن الله تعالى يعذر الأعمى والأعرج والمريض منهم، فلا يفرض عليهم القتال وإنما يجازيهم بصدق نياتهم.

وتعرض السورة بعدها صورة للمؤمنين المبايعين، وما وعدهم الله تعالى به من الغنائم والنصر.. فتقول:

﴿۞لَقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ
عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ
مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ
وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ
ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ
عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ
تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟
لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ
ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا

وَأَهْلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ
ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن
دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ
وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا
سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِۚ
وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ
ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

مؤكدة أن المولى عز وجل قد رضي عن أهل بيعة الرضوان التي حصلت في ذي القعدة عندما خرج الرسول عليه وآله وصحبه السلام في ألف وأربعمائة رجل قاصدين العمرة لا القتال، ولكن مكة منعتهم وانتهت المفاوضات التي قادها سهيل بن عمرو إلى توقيع صلح مدته عشرة أعوام أصرَّ عليه الرسول عليه وآله وصحبه السلام بالرغم من استنكار عمر بن الخطاب رضي الله عنه للنص على إعادة من جاء مسلماً للمسلمين وعدم إعادة من جاء كافراً للمشركين.

وتمت البيعة بعد أن ظنوا أن عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي أرسله الرسول عليه وآله وصحبه السلام قبل التوقيع قد قتل، فكانت بيعة على القتال والموت. وما رضي الله تعالى عنهم إلا بعلمه بصدقهم ووفائهم لما بايعوا عليه، فأنزل الطمأنينة على قلوبهم، وكافأهم بفتح خيبر القريب وبعدها فتح مكة، ورزقهم مغانم كثيرة من أموال خيبر وأراضيها.

فكان صلح الحديبية مقدمة طيبة لذاك النصر ذي المغنم الوفير، ناهيك عن كف أيدي مكة عن المسلمين كما كف أيدي اليهود عن المدينة طيلة فترة غيابهم في الحديبية، مما يجزم برعاية المولى عز وجل وحراسته لهم في حضورهم وغيابهم، ومما يزيد من الثبات على طاعة الله تعالى ولاسيما بعد أن عجل عليهم بتلك الفتوح التي تلت لبلاد فارس والروم بعد خيبر والتي لم تكن يتوقعونها حتى أخبرهم تعالى بها، فقد حفظها لهم لتكون فتحاً لهم وهو تعالى القادر على كل شيء.

واعلم يا محمد بأن كفار قريش لو حاربوكم في الحديبية لهزموا لأن سنة الله في نصره لأوليائه على الأعداء نافذة إلى قيام الساعة.

وذكّرهم بأن الله تعالى هو الذي منع وقوع القتال في الحديبية بعد أن استسلمت

مجموعة الثمانين من أهل مكة عند صلاة الصبح بعد أن هبطوا من جبل التنعيم بأسلحتهم ليأخذوا الرسول عليه وآله وصحبه السلام وأصحابه على حين غرَّة، فأعتقهم عليه وآله وصحبه السلام بعد استسلامهم من باب السياسة الحربية البعيدة النظر لما في ذلك من فتٍّ في عضدهم وأمثالهم عن معاداة المسلمين ومن باب التأكيد على صدق نيته عليه وآله وصحبه السلام بأنه جاء معتمراً لا محارباً.

وذكّرهم يا محمد بأن هؤلاء المشركين الذين وقَّعتم معهم عهد الحديبية هم الذين لم يقبلوا عمرتكم وهم يرون الهدي معكم جاهزاً للعمرة مما جعلكم تنحرونها وتحلقون رؤوسكم عند الحديبية وإن كان بعد توقف حتى بادر بذلك الرسول عليه وآله وصحبه السلام بمشورة زوجه أم سلمة رضي الله عنها.

واعلموا أيها المؤمنون أنه لولا لطف الله تعالى بكم إذ حقق لكم هذا الفتح بالحديبية دون قتال فإنه كان من الممكن لو خضتم معهم حرباً أن يصيب أولئك الرجال المؤمنين والنساء المؤمنات الذين يعيشون في وسط كفار مكة كمستضعفين، كسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة وأبي جندل بن سهيل، القتل والأذى منكم دون أن تعرفوهم وتعلموا إيمانهم، مما يجعل المشركين يشمتون بكم ويعيّرونكم بقتل أهل دينكم، مما يلزمكم بكفارة قتل الخطأ، وأنكم لو قتلتموهم لأدخلهم الله في رحمته، كما أدخل الكثيرين من مشركي قريش بعد أن أسلموا وحسن إسلامهم، وأنكم لو ميزتم المؤمنين من الكفار، وانفصلوا عنهم لقتلتم الكفار.

مما يشير إلى مراعاة الكافر تبعاً لحرمة المؤمن إذا علم وجود المؤمنين معهم، وأما إذا لم يعلم فلا دية ولا كفارة، وأما إذا اقتضت مصلحة الإسلام والمسلمين فيجوز قتل الترس المسلم إذا لم يمكن الوصول إلى الكفار إلا بذاك.

وذكّرهم يا محمد بأن ذلك الصلح قد أثار عصبية الجاهلية بالاعتزاز بعبادة الأصنام من دون الله تعالى لدى المشركين، مما ملأ قلوب المؤمنين وعلى رأسهم قائدهم المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بالطمأنينة وهم يرددون أمر الله تعالى: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، يرددون هذه الكلمة الإيمانية التي هم أهلها والأولى بها من كفار مكة.

وذكّرهم بأن الله تعالى قد صدق رسوله رؤيا الحق والإلهام التي رآها بأنه يدخل مكة، فوقع الصلح مع قريش ليدخلها في العام التالي وليس في ذاك العام، كيف وقد أكدت السورة بأنهم سيدخلونها ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ـ من الآية ٢٧ من نفس سورة الفتح ـ وبشكل يكونون عليه آمنين ومحلقي رؤسهم ومقصرين ودون أيِّ خوف، مما يشير إلى

تغلبهم التام على المشركين وليس إلى صلح الحديبية الذي وصفه تعالى بأنه فتح وبعده فتح خيبر القريب المباشر.

واذكروا بأن الله تعالى قد أرسل رسوله بالقرآن والسنة مصدري الهدى والإسلام، وأنه سيعلو على جميع الأديان، وأن لهم في الله تعالى العالم بكل شيء والقادر على كل شيء الشاهد الكافي في ذلك، فلتطمئن نفوسهم بقيادة الرسول عليه وآله وصحبه السلام أكثر وأكثر.

واذكروا بأن الذي وقَّع صلح الحديبية هو رسول الله، وأن الله تعالى لن يضيعه، فاستحضروا ذلك دائماً في عقولكم، وكونوا دائماً على وعي أشداء في حربكم ضد الكفار، ورحماء فيما بينكم.

واحرصوا على قوة الصلة الروحية بالصلاة وغيرها بربكم لما في ذلك من إمكانية الحصول على رضى الله تعالى وفضله في الدنيا والآخرة، ولتديموا هذه الصلاة بقوة حتى تظهر علامات السجود على جباهكم، كما ذكرت التوراة.

ولتحرصوا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كعلامة مميزة لكم، كما ذكر الإنجيل، وأن لكم بعد ذلك أن تحصلوا على وعده تعالى لكم بالنصر في الدنيا وجنات الخلد في الآخرة.

واذكروا أن ذلك من فضل الله عليكم إذ كثَّركم بعد قلة وقوَّاكم بعد ضعف كالزرع يبدأ قليلاً فيكثر وضعيفاً فيقوى.

فهلّا استحضرتم هذا يا مسلمي هذا الزمان، وكل زمان لتستحقوا النصر والرضوان؟!!

دليل سورة الفتح ـ ٤٨

- تعلن أن صلح الحديبية فتح من الله تعالى على المؤمنين رغم تساؤلهم وأنه حقق زيادة إيمان المؤمنين.

- وتؤكد أن الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام يشهد على الناس بالتبليغ.

- وتطمئنه عليه وآله وصحبه السلام برضى ربه عمن بايعوه بيعة الرضوان.

- وتنذر المنافقين المتخلفين عن الخروج يوم الحديبية من جلب الضر لأنفسهم بذلك عندما استجابوا للشيطان، وأنهم سيحرمون عقوبة لهم من الخروج يوم خيبر، وأنهم مدعوُّون للمشاركة في القتال ضد مشركي العرب الملزمين بالإسلام وإلا فالقتال.

- وتطمئن المؤمنين بقرب فتح مكة دون قتال.

- وتطمئنهم يا محمد بأن ما أرسلت به هو الهدى ودين الحق الذي سيعلو على جميع الأديان في الأرض.

- وتدعو المؤمنين للتراحم فيما بينهم والشدة على الكفار في المعارك.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ قد يخطئ المؤمن مهما كان تقياً في اجتهاده مما لا يسمح له بالتدخل في الوحي الصريح.. قالها عليه وآله وصحبه السلام لعمر وقد احتج على شروط الحديبية (إنه الوحي وإن الله لن يضيعني).

٢ ـ تأكيد استعمال البيعة في كثير من المواقف بين الرسول عليه وآله وصحبه السلام والمؤمنين مما يعطيها أهمية خاصة كلما عظم الأمر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ والرسول عليه وآله وصحبه السلام يؤكد ذلك (من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية) مما يفرض على المسلمين العمل لإيجاد الخليفة الذي يبايع، وإلا فالمقصر كأنه مات كافراً عند موته.

٣ ـ للعرب ميزة على غيرهم في البدء بهم بالمخاطبة بالإسلام، وهذه الميزة تحملهم مسؤولية خاصة كبيرة بوجوب تحمل المبادرة بالدعوة للإسلام وبذلك لا يقبل منهم غير الإسلام وإلا فالقتل ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾.

٤ ـ تأكيد جبن الكفار في القتال ضد المسلمين مهما تظاهروا بالشجاعة ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ وأن هـــذه ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

٥ ـ رفض حميَّة الجاهلية في كل حال ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ بالتخلي عن العصبية القومية والاحتكام للهوى والتزام طاعة الله ورسوله ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾.

٦ ـ تأكيد أن النصر لدين الإسلام لا بد متحقق مهماً تظاهر عليه الكفر وأهله ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾.

سورة الحجرات (٤٩)

التقديم

سورة الحجرات مدنية، نزلت في ثماني عشرة آية، وتشمل الأمور الآتية:

تبدأ السورة بالتنبيه على جميع المسلمين بأن لا يقدِّموا قولاً ولا عملاً على رسول

الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وإلا فقد وقعوا في تقديم ذلك على الله تعالى ما دام الرسول عليه وآله وصحبه السلام يأمر بما يأمر به الله تعالى، ومن يقدِّم شيئاً من ذلك على الرسول عليه وآله وصحبه السلام فقد قدَّمه على الله تعالى الذي أرسله بغضِّ النظر عن أن بداية السورة تشمل تقديم الطاعات عن أوقاتها، كالصلاة والصوم والحج.. فهذا مما لا يجوز مطلقاً، لأن لكل فرض وقته المحدد، وأما الزكاة فيجوز إذا كان التقديم يسيراً لمدة سنة أو سنتين فقط، لما في ذلك من مصلحة أو منفعة لفقراء المسلمين أو من تخرج إليه.

وتأتي السورة بعدها لتنهى المسلمين عن رفع أصواتهم فوق صوته عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام عندما يكونون في حضرته، الأمر الذي يجعل سامعه لا يفهم كلامه ولا يعي بيانه، وهذا محرم شرعاً لأنه يحول بين الرسول عليه وآله وصحبه السلام وبين تبليغ رسالته للناس أو يحد منه.

ثم تنهاهم السورة عن مخاطبته عليه وآله وصحبه السلام باسمه محمد أو أحمد مجرداً من صفة النبوة والرسالة لأنه لابد من التوقير بهما، وإلا خسروا ثواب أعمالهم دون أن يتنبهوا إلى ذلك.

وأنهم بالفعل قد استجابوا لهذا النهي فأخذوا يغضُّون أصواتهم في حضرته عليه وآله وصحبه السلام إلى درجة جعلته يستفهم عما يقوله الواحد منهم، كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لأن مثل هؤلاء جرى امتحان قلوبهم المخلصة فازدادت إخلاصاً على إخلاص، بينما كان الأمر بالعكس من ذلك بصدد من كانوا يجيئون من البادية، كوفد بني تميم، الذين كانوا ينادونه عليه وآله وصحبه السلام باسمه دون وصف النبوة أو الرسالة، وأثناء قيلولته، فكانوا لا يدركون شناعة فعلتهم، مما جعلهم يقعون بسبب جفوتهم في سوء عملهم دون تنبُّه لذلك أو إدراك وتعقُّل، مع أنهم لو صبروا حتى يخرج إليهم من وقته لنالوا مثوبة توقيره عليه وآله وصحبه السلام بتقدير وقته في كل حال.

وتحذر السورة بعدها من الاستماع للفاسق الكاذب الذي ينقل الخبر الذي قد يؤدي لإيقاع الأذى بمن ينقله عنه، إذ لا بد من التأكد بنقله حتى لا يقع في الندم بسبب أيِّ تصرف متعجَّل، ويعلم المولى عز وجل رسوله عليه وآله وصحبه السلام بحقيقة النبأ فتقع فضيحة الكاذب.

وتحذِّر السورة أيضاً من الاستجابة للنقل طلباً لتحقيق ما ترغبون فيقع المحظور لو نفَّذ الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام، وأيُّ خليفة أو مسؤول من بعده، مطلب هذا الناقل وتعرَّض الناقل للإثم العظيم.

واحرصوا أيها المؤمنون على عدم الكذب على الرسول عليه وآله وصحبه السلام، وعلى أيِّ خليفة من بعده، أو أيِّ ولي أمر لكم يجب عليكم طاعته لأنه يطيع الله ورسوله، لأن مثل هذا الكذب لا يتفق مع الإيمان المحبب لقلوبكم وإنما يلتقي مع الكفر والفسوق والعصيان المكروهة لنفوسكم.

وتعرض السورة بعدها حالة البغي والعدوان التي قد تقع بين فئتين من المسلمين فتقتتلان، وكيفية فضِّ النزاع بينهما بالإصلاح بالعدل حتى يعود الصفاء الأخوي بينهم وتعود الأخوة الإيمانية الحق فيما بينهم.

وتنهى السورة بعدها عن السخرية من رجل أو امرأة مسلم أو مسلمة ضد غيره أو غيرها بظن كل منهما أنه أفضل أو أكمل منه، كما تنهى عن اللمز والتنابز بالألقاب مما يوقع في عصيان الله تعالى المناقض للإيمان.

ثم تنهى عن الكثير من الظن مما هو سيء، وعن التجسس والغيبة التي تصفها كأكل لحم الأخ الميت التي هيهات أن تتقبله النفس البشرية وهي في وضعها السوي.

وتأتي بعدها لمخاطبة الناس عامة، مسلمين وغير مسلمين، وتذكّرهم بأن الله تعالى الذي خلقهم من آدم وحواء، هو الذي جعلهم شعوباً كبيرة وقبائل صغيرة لكي يتبادلوا المنافع بما يجري بينهم من علاقات يعرف بها بعضهم بعضاً.

تذكّرهم بذلك وبأثر هذه العلاقات بين الأمة الإسلامية وهي في حال مجتمع إسلامي يعيش على الشريعة الإسلامية وبين الأمم الأخرى فترى أثر تطبيق الشريعة في تحقيق السعادة للأفراد والجماعات من خلال العدل في إعطاء كل ذي حق حقه دون محاباة لأحد على حساب أحد، مما يؤدي كما حصل عبر التاريخ الإسلامي المعروف إلى دخول الأمم في الإسلام والاحتكام إلى شريعته دون قتال ولا حروب، كيف لا والشعوب والأمم تصبح متعطشة لذلك عندما ترفع عنها حجب التضليل السياسي والإعلامي وتصبح ترى الحقائق على واقعها والوقائع على حقيقتها إلى حد بعيد.

وهم يرون أنه لا تمييز بين البشر عند الله وأمام شريعة الله على أساس الحسب والنسب أو المال ولكن فقط لا غير على أساس تقوى الله تعالى ومخافته والحرص على طاعته والتزام أمره ونهيه.

وتنتهي السورة أخيراً ببيان الفرق بين المؤمن الصادق والشخص الخاضع للإسلام دون إيمان حقيقي، فتذكر أن اليقين في الإيمان يظهر بالجهاد بالمال والنفس في سبيل الله وليس بمجرد القول بأنه مؤمن.

ثم تنهاهم عن المنّ على رسول الله عليه وآله وصحبه السلام بإسلامهم الذي

يحمل الخير لهم أنفسهم لا لغيرهم إذا كانوا صادقي الإيمان، وتنبههم إلى أنهم يتعاملون في ذلك مع الله تعالى، مع علّام الغيوب، مع علّام كل ما يجري على ألسنتهم من أقوال وعلى أيديهم من أفعال، كيف وهو سبحانه العالم بكل ما في السموات والأرض.

فليحذروا ذلك وليعلموا أن الله تعالى وحده المتقبل الطاعات والمجزل عليها بالحسنات.

التفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

فتبدأ السورة بالأمر بما يتفق مع مكارم الأخلاق ورعاية الآداب الرفيعة فتأمر المسلمين بأن لا يتقدم أحد منهم لا في قول ولا في فعل بين يدي الله تعالى ولا في قول ولا في فعل على رسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم في كل أمور الدين والدنيا مما عليهم أن يأخذوها عنه، فلا يقدموا أعمال الطاعات قبل وقتها المحدد لها من الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، لأن كل عبادة كالصلاة والصوم والحج لا يجوز تقديمها أو تأخيرها عن وقتها المحدد لها، فالصلاة ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣] والصوم. ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥] والحج ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وأما الزكاة فيجوز تقديمها أو تأخيرها عن وقتها المحدد، وهو المحدد لمن يخرجها في كل عام هجري كأن يكون في شهر رمضان، ولكن بشرط أن يكون التقديم أو التأخير لمدة يسيرة لا طويلة كأن يكون لمدة سنة أو سنتين، ذلك لأنها عبادة مالية ومن أجل سدّ خلة الفقير، إذا كان هذا هو الغالب من أبوابها الثمانية في كل بلد إسلامي.

ولذلك نقول يجب ترك التعرض لأيِّ قول من أقوال النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم أو أيِّ عمل فعله عليه وآله وصحبه السلام إلا كما بيَّن هو عليه وآله وصحبه السلام عن ربه وحده.

كما يجب عدم رفع الصوت فوق صوت النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم مما يتعذر عليه معه أن يبلغ أمر ربه ونهيه، سواء كان هذا الرفع كما حصل بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما عندما تخاصما في تحديد أمير على وفد بني تميم وقومهم الذين قدموا على الرسول عليه وآله وصحبه السلام من البادية مسلمين، وذلك عندما أشار أبو بكر رضي الله عنه بتعيين القعقاع بن معبد بينما أشار عمر رضي الله عنه بالأقرع بن حابس وارتفعت أصواتهما في ذلك فنزل النهي، فكان أن آل الأمر إلى أن أصبح النبي عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام بسبب من انخفاض الأصوات لا يسمع ما يتكلم به عمر حتى يستفهمه عنه.

فالحال سواء كان سبب نزول هذا النهي هو هذا الأمر أو غيره مما حصل من ارتفاع أصوات علي وجعفر وزيد بن حارثة عندما تنازعوا لمن تضم ابنة حمزة بعد استشهاده على أثر إحضار زيد لها من مكة، فقضى الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام لجعفر لأن خالتها عنده.

أو سواء كان مما حصل بين ثابت بن قيس بن شماس الخزرجي، الذي قتل له يوم الحرة في سنة ثلاث وستين من الهجرة ـ عندما نهب عسكر يزيد بن معاوية المدينة ـ ثلاثة من الولد هم محمد ويحيى وعبد الله، والذي كان يعتبر خطيب الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم كما كان حسان بن ثابت شاعره، وحاله أنه رفع صوته أمام رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم فنزل النهي فالتزم بيته لارتفاع صوته وخوفه من ضياع عمله، فطمأنه الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة وسلم قائلاً «لست منهم بل تعيش بخير وتموت بخير» وقتل في وقعة اليمامة ضد مسيلمة الكذاب.

فسواء كان السبب هذا أو ذاك أو غيرهما فلا بد من تعظيم الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وتوقيره وخفض الصوت بحضرته وعند مخاطبته وإلا حبط العمل وضاع الثواب، اللهم إلا إذا كان الحال يقتضي لمصلحة الإسلام والمسلمين ذلك، كما حصل في وقعة حنين عندما قال عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام للعباس رضي الله عنه لما انهزم الناس «اصرخ بالناس».

ثم تذكر السورة دلالة مثل هذا الخفض للصوت على التقوى، فتدعو أمثال وفد بني تميم الذين لم يراعوا حرمة الرسول عليه وآله وصحبه السلام بجفاء البادية، ولا

تصرفوا التصرف المناسب في وقته عندما أخذوا ينادونه عليه وآله وصحبه السلام باسمه ودون أدنى احترام وتوقير ليخرج إليهم مع أنهم لو صبروا حتى يحين وقت خروجه لكان الأفضل لهم، ولكن الله تعالى بلطفه ورحمته تجاوز عن فعلتهم لجهلهم.

وتنقلنا السورة بعدها لأمر حساس طالما يقع فيه المسلمون، مسؤولون وغير مسؤولين ألا وهو التعجل في قبول الخبر المنقول دون التمهل للتأكد من صحته، فتنهى وتشدد في النهي عن ذلك، وأن ما حصل من الوليد بن عقبة بن أبي معيط عندما رجع مسرعاً وخائفاً من مهمته في جمع الصدقات من بني المصطلق التي أوكلها إليه الرسول عليه وآله وصحبه السلام، وذلك لإحنة كانت بينه وبينهم، فأخبر الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأنهم ارتدوا عن الإسلام وهمّوا بقتله، فجاءوا الرسول عليه وآله وصحبه السلام بعد أن سمعوا ما نقل عنهم وظهر كذب الوليد فنزل الوحي بالنهي حتى لا يتأذى من نقل عنه الخبر ويندم المتقبل للخبر ولاسيما إذا كان الناقل في الأصل عدلاً ولكن بسبب ما وقع في الكذب فاقتضى التثبت على كل حال ولاسيما عند غلبة الظن من عدل الناقل ودقة نقله.

وقد أشارت السورة إلى أن سبب هذا النهي كون الكذب على الرسول عليه وآله وصحبه السلام ما أسرع ما يخبر به الوحي فيفتضح أمر الكاذب، مما يفرض التثبُّت لغير الرسول عليه وآله وصحبه السلام في مثل هذا الحال بشكل أكثر.

والمهم أن تسرّع المسؤول أو غيره في قبول النقل دون تمهُّل وتثبُّت قد يؤدي إلى المشقة والأذى والإثم.

فليحذر المؤمن الصادق من الكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم مهما كان السبب، وليحذر منه على كل من يخلفه بخير في أمور المسلمين، لأن من وفقه الله تعالى للإيمان لا يمكن أن يقبل منه نقيضه من كذب أو غيره فكيف وقد جعل له الكفر والفسوق والعصيان مكروهة أشد الكراهة، وأن الله تعالى قد مدحهم بأنهم الراشدون لمحبتهم للإيمان وكراهتهم للكفر، وأن ذلك من فضل الله تعالى ونعمته عليهم لأنه سبحانه عليم بما يصلحهم وحكيم في تدبيره لشؤونهم فتقول:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨﴾

وتنقلنا السورة بعدها إلى موضوع أشد حساسية من الإخبار الكاذب وهو مما يمكن أن يقع بين المسلمين في أيِّ وقت من الأوقات من خلاف قد يؤدي إلى الاقتتال وسفك الدماء، فتبيِّن كيفية وجوب التصرف حياله.. وتقول:

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾

فإنه بغضِّ النظر عن سبب أو أسباب النزول من مثل تقاتل حيين من الأنصار لخلاف بينهما أو لخلاف بين حي من الأنصار وآخر من خارج المدينة، فالواجب أن يبادر المسلمون بالإصلاح بين الجماعتين المتخاصمتين مهما كان مستوى الخصومة بالدعوة لالتزام كتاب الله تعالى مهما كان لهما أو عليهما، وأنه إذا رفضت إحداهما ذلك فلا بد من حملهما على الإنصاف بالتدخل بأيِّ وسيلة ليحق الحق بينهما لأن هذا هو ما يوجبه الله تعالى، وأما لو كانت إحداهما باغية في الأصل فلا بد من أن يقاتلها المسلمون حتى تكف وترجع عن بغيها، وأما لو كانت هناك شبهة فلا بد من مقاتلتهما معاً.

وأما ما حصل بين الصحابة رضوان الله عليهم في مختلف مواقف الخلاف من تقاتل فهو أكبر دليل على ذلك، وإجماع الصحابة حجة، ولو خرجت جماعة باغية على الإمام ولا حجة لهم فالواجب على الإمام دعوتهم بالحجة أولاً، وإلا قاتلهم بالمسلمين كافة أو بمن فيه الكفاية.

والمهم أنه لا يجوز أن ينسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطوع لأن الكل كان مجتهداً، ولأننا أمرنا بأن نذكرهم بالحسنى وبعدم سبِّهم، لأن الله تعالى قد غفر لهم وأخبر بالرضا عنهم حتى أنه قد بشَّر طلحة بأنه شهيد،

وكما قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم عن الزبير «بشّر قاتل ابن صفية بالنار»، الأمر الذي يفرض علينا أن نردد مع الإمام الحسن البصري ما قاله عن قتالهم فيما بينهم: قتال شهده أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وغبنا، وعلموا وجهلنا، واجتمعوا فاتبعنا، واختلفوا فوقفنا.

ثم نردد قوله تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ في الدين لا في النسب، وأن أخوَّة الدين أثبت من أخوَّة النسب لأن هذه تنقطع بمخالفة الدين بينما تلك لا تنقطع بمخالفة

النسب، ولأن الرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ها هنا ـ وأشار إلى صدره ثلاث مرات ـ بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه».

فالواجب الإصلاح بين كل مسلمين متخاصمين لأنهما على الإيمان رغم البغي، حتى قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه بشأن ما حصل في موقعة النهروان بأنهم ليسوا بالمشركين ولا المنافقين وإنما إخواننا بغوا علينا، وصلى عليهم ودعا لهم.

وتنقلنا السورة بعدها إلى جانبين من الأدب الرفيع هما السخرية والظن بين المسلمين.. فتقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

فاحذروا أيها المؤمنون من أن يسخر أحدكم رجلاً أو امرأة، فرداً أو جماعة من غيره لأنه لربما يكون خيراً منه، فليحذر كل مسلم سواء أكان ثابت بن قيس الذي عيّر شخصاً جلس أقرب منه لمجلس الرسول عليه وآله وصحبه السلام، ورفض أن يجلسه محله، أو كان سخرية غني من فقير أو صاحب مكانة ممن هو أدنى مكانة منه أو بكفر أبيه أو أحد أقاربه، أو من قصير القامة أو ضخمها.. أو غير ذلك، فليحذروه فإن ذلك كله حرام، والرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام يؤكد هذا النهي بقوله «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

كما ليحذر من اللمز بالإشارة لعيب في الآخر سواء كان اللمز باليد أو العين أو اللسان، كما يحذر اللمز باللسان، فكله محرم قطعاً مثله مثل التنابز بالألقاب عندما يدعى مسلم بلقب يكرهه ولا ينادى به كالأعرج، أو الأحدب مثلاً، وأما الألقاب المحببة فلا حرج فيها كالصدّيق والفاروق وذي النورين وذي اليدين، والرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام يؤكد ذلك فيقول «من حق المؤمن على المؤمن أن يسمِّيه بأحب أسمائه إليه».

هذا بالنسبة لتحريم السخرية واللمز والهمز وأما بالنسبة للجانب الآخر من الأدب

الرفيع والذي كثيراً ما يتعرض للانتهاك بين المسلمين فهو سوء الظن وما يشمله من التجسس والتحسس والتناجش والحسد والغيبة والنميمة والتباغض والتنابز.. وأمثالها، فكله حرام بغض النظر عن سبب ذلك، سواء كان ما حصل من اثنين من الصحابة عندما اغتابا أسامة وسلمان بحجة أنهما قصَّرا في تنفيذ عمل طلباه منهما، أو كان غير ذلك.

وللعلم فإن للظن حالتين: حالة يقويها وجه من وجوه الأدلة فيحتكم بها، وهي غلبة الظن، وأكثر أحكام الشريعة مبنية عليها، كالقياس وخبر الواحد، وحالة لا يقويها أيُّ وجه، فلا تكون أولى من غيرها، وهذا هو الشك الذي لا يجوز الحكم به والذي ذمَّه الشرع ونهى عنه، فقال عنه عليه وآله وصحبه السلام «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»، وهكذا كان هناك ظن محمود وظن مذموم. ويرى أكثر العلماء أن الظن القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز ولكنه يجوز بمن ظاهره قبيح.

وأما التجسس والتحسس المنهي عنهما فالأول هو البحث عن أمر مكتوم سرِّي، والثاني هو طلب الخبر والبحث عنه، فالأول تبحثه وتطلبه لغيرك والثاني لنفسك. وقد نهى وأكد الرسول عليه وآله وصحبه السلام هذا النهي فقال «إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم» في حق الفرد العادي، وأما في حق المسؤول «إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم».

وأما الغيبة فهي كما عرَّفها الرسول عليه وآله وصحبه السلام «ذكرك أخاك بما يكره» و«إن كان فيه ما تقوله فقد اغتبته وإن لم يكن فقد بهته». وهي ثلاثة: الغيبة، بأن تقول في أخيك ما هو فيه مما يكرهه، والإفك، بأن تقول فيه ما بلغك عنه مما يكرهه، والبهتان، بأن تقول فيه ما ليس فيه مما يكرهه.

والرسول عليه وآله وصحبه السلام يؤكد تحريم الغيبة بقوله حتى في حق الصائم «ما صام من ظل يأكل لحوم الناس»، وأشد الغيبة ما كان في الدين ثم في الخَلق والخُلق والنسب والحسب، فقال عليه وآله وصحبه السلام بصددها «دماؤكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام» لشمول ذلك الدين والدنيا معاً، ولذلك اعتبرت الغيبة مظلمة يجب التحلل من صاحبها قبل الموت وإن قال بعضهم يكفي الاستغفار منها، وذلك عندما تكون في غير الفاسق المجاهر لقوله عليه وآله وصحبه السلام «اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس»، فصاحب الهوى، والفاسق المجاهر، والإمام الجائر ثلاثة لا حرمة لهم. أما صاحب الهوى فهو المبتدع المائل عن الدين.

وتخاطب السورة بعدها عادة الناس في علاقاتهم فيما بينهم في مجتمع إسلامي.. فتقول:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾

موضحة أمراً بديهياً يحسن البناء عليه والاحتجاج به، أنه تعالى قد خلق البشر من زوجين هما آدم وحواء عليهما السلام ثم جعل البشرية بعد تناميها وتعدد تجمعاتها وتباعدها شعوباً كبيرة العدد والقوة، وقبائل أقل عدداً وقوة، وذلك بقصد التعارف بنتيجة التلاقي وإقامة علاقات تتبادل فيها المنافع والمصالح الدنيوية.

كما يمكن معها فتح الأبواب على مصاريعها لحمل الدعوة الإسلامية وتبليغها لمن لم تبلغه وذلك بواسطة ما يسمونه بالعلاقات الثقافية والفكرية والعلمية، ومن خلال اتفاقات وسائل الاتصالات التي باتت تقفز هذه القفزات الهائلة في العصر الحاضر.

وما دام هذا هو أصل البشرية كلها، فلا تفاخر لأحد على أحد من حيث الأجناس والأنساب، وإنما بمقدار ما يحققه من أعمال التعريف والتعارف بما عنده من فكر وعلم وفن.

هذا بالنسبة لما بين الناس في مجالات العلوم المكتسبة، وأما فيما بينهم وبين الله تعالى فهناك الإيمان الذي اكتسب نموه واستقامته بعد أن كان بذرة في الفطرة البشرية، وهناك التقوى ومخافة الله تعالى والسعي لتحصيل رضوانه، ففي الأمرين يتفاخر المسلمون، ويدعون الناس الآخرين لدينهم الذي يحقق ويدعو للأمرين معاً من خلال دعاية حق لا تزوير فيها ولا تزييف.

وهكذا نجد أن أهل الدنيا المبتورين عن الله تعالى وشرعه وتوقع حسابه بالجنة أو النار في الآخرة هم الذين يتفاخرون بالأمور المحصورة في متاع الدنيا الزائل وما يتعلق به، وأما أهل الروح والروحانية الذين حبسوا نفوسهم في الصوامع والمعابد والمساجد، ظناً منهم بأن في هذا الكفاية، فإنهم مخطئون لأن كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم تشمل شؤون الدنيا والآخرة، ولنا في ما فعله الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام وعاشه الصحابة الكرام خير دليل، مما يفرض الروح والروحانية بشؤون الحياة فيعيشها المسلم وفقاً لأوامر الله تعالى ونواهيه التي بينها الرسول عليه وآله وصحبه السلام وطبقها وعاش عليها صحابته الخلفاء الراشدون ونفذوها.

وتأتي السورة لخاتمتها مع حديث القلوب وما تطويه، والجوارح وما تبديه، فتحذر وتنذر.. وتقول:

﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥ قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٦ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾

فإياكم أيها الأعراب أن تقولوا للرسول عليه وآله وصحبه السلام أو لغيره أو حتى لأنفسكم بأنكم قد آمنتم بالله ورسوله ورسالته، لأنكم لستم بأكثر من مرددين للشهادتين وممارسين لشيء من العبادات من صوم وصلاة وغيرها.. فأين الإيمان الذي استقر في القلب عن يقين ونطق به اللسان وظهر عملاً على الجوارح؟

فاعلموا أن من ينفذ بعض الأحكام الشرعية ويستسلم لها فإنه مسلم لم يدخل الإيمان الحق إلى قلبه، وأما من صدَّق بأركان الإيمان تصديقاً جازماً مطابقاً للواقع عن دليل، فالتزم بكل ما أمر الإيمان به ونهى عنه في علاقاته الثلاثة: مع نفسه ومع غيره من الناس ومع ربه، فإنه المؤمن بحق في الباطن وفي الظاهر، فالتزامه بكل أمر ونهي لله ورسوله يجعله مؤمناً لأنه جمع بين جنبيه التصديق الحازم والعمل الحازم، وكان له الجزاء الأوفى عند ربه، ولن ينتقص من أعماله شيئاً.. بل يتجاوز عن كل ما وقع فيه من مخالفة قبل ذلك ويشمله بمغفرته ورحمته ما دام قد حسنت توبته وصلحت أعماله.

فاعلموا بأن المؤمنين عند الله تعالى حقاً هم أولئك الناس الذين آمنوا بالله تعالى: وجوداً وخلقاً وملكاً وتعبيداً وتدبيراً، أي: أنه سبحانه موجود وواجب الوجود بحيث لا يستند في وجوده إلى شيء بل كل شيء يستند في وجوده إليه، وأنه سبحانه خالق الوجود والأكوان كلها إذ تستند في وجودها إليه، وأنه تعالى له ملك هذه السموات والأرض وما بينهما وما فيهما، وأنه تعالى خلق الخلق من ملائكة وإنس وجن ليعبدوه، وأنه تعالى قد بيَّن لهم كيف يعبدونه وهم يتدبرون شؤون حياتهم وفقاً للشريعة والمنهاج اللذين أنزلهما على كل قوم واللذين ختمهما بشريعة الإسلام ومنهاجه الناسخين لكل الشرائع والمناهج السابقة، والصالحين لكل زمان ومكان، والباقيين إلى قيام الساعة.

واعلموا أيها المؤمنون أن مجمل هذا الإيمان الصادق هو الإيمان بالله تعالى الشامل للأمور الخمسة المذكورة، والإيمان برسوله محمد صلى الله عليه وآله وصحبه

وسلم، بأنه جاء من عند ربه برسالة الإسلام: قرآناً وسنة، مما يقتضي الإيمان بكل ما أمرت به تلك الرسالة من الملائكة، وكتب الله تعالى المنزلة قبل الإسلام، ورسله الذين أنزلت عليهم تلك الكتب، واليوم الآخر، يوم الحساب، يوم الجنة أو النار، والقضاء والقدر خيرهما وشرهما من الله تعالى، وصفة الخير والشر هنا طبقاً لما يقوله الإنسان بشأنهما تبعاً لما يلحقه من نفع أو ضر، وليس لوصف حقيقي في ذاتهما، هذا عند من يقول بذلك من الفقهاء، ولا نص شرعي على أيٍّ منهما، وهذا هو الأصح والأدق شرعاً وفقهاً.

واعلموا أن من دلائل وجود هذا الإيمان الحق لديكم هو أن يكون جازماً لا ريب فيه، مما يجعله مبنياً على اليقين بالبراهين العقلية والأدلة النقلية القطعية، وأن يكون مصحوباً بالجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس كدليل على صدق وجود هذا الإيمان الحق.

لا شك أن في هذا إشارة إلى أن الجهاد هو ركن أساس ولكن ليس كل الأسس، وفرع ولكن ليس كل الفروع في الأحكام العملية التطبيقية لذلك الإيمان في واقع الحياة.

ثم ليحذر المؤمن من الظن بأن الله تعالى لا يعلم مقدار إيمانه والتزامه لمقتضى هذا الإيمان في الأعمال، ومن المنّ على أيِّ إنسان بإسلامه من خلال أعمال معينة يقوم بها لله تعالى.

وليتذكر أن الله تعالى هو يمنّ عليه بهذا الإيمان الذي يطويه بين جنبيه ويترجمه لأعمال في حياته الفردية والمجتمعية. كما ليتذكر أن الله تعالى يعلم غيب السموات والأرض، فلا تفوته حركة ولا سكنة فيهما إلا وعلمه محيط بهما، وأنه سبحانه وتعالى بصير بكل أعماله وأقواله .

دليل سورة الحجرات ـ ٤٩

- تبدأ السورة بالنهي عن تقديم أيِّ قول أو عمل على الرسول عليه وآله وصحبه السلام لأنه يقدَّم على أمر الله تعالى ونهيه.. فكل أمر له وقته المحدد.

- ثم تنهى المسلمين عن رفع أصواتهم فوق صوته عليه وآله وصحبه السلام لأن ذلك يشوش على التبليغ.

- ثم تنهاهم عن مخاطبته عليه وآله وصحبه السلام باسمه المجرد دون صفة النبوة والرسالة لوجوب التوقير بهما.

- ثم تحذرهم من الاستماع والاستجابة لخبر الفاسق الكاذب إذا لابد من التأكد تجنبا للأذى والإثم.

- ثم تفرض العدل في حسم أيِّ نزاع بين المسلمين حتى تدوم رحمة الأخوَّة الإيمانية فيما بينهم.

- ثم تنهاهم عن السخرية والظن السيئ فيما بينهم كما تنهى عن اللمز والتنابز بالألقاب لتبقى المحبة فيما بينهم، وأما التجسس والغيبة فتشدد النهي عنهما إذ تشبه الغيبة بأكل لحم الأخ الميت.

- ثم تذكّر المسلمين وغير المسلمين بالعلاقات التي تجلب المنافع لهم عندما جعلهم المولى شعوباً وقبائل مختلفة.

- ثم تذكر الفرق بين المسلم والمؤمن فتدعو للحرص على الإيمان ومقتضياته.

- وأخيراً تنهاهم عن المنّ على رسول الله عليه وآله وصحبه السلام بإسلامهم وعلَّام الغيوب يعرف حقيقة قلوبهم.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ إن مفهوم تحريم تقديم أيِّ قول أو عمل على الله ورسوله هو وجوب التزام الكتاب والسنة.. وهو يتأكد بتحريم رفع الصوت على النبي عليه وآله وصحبه السلام وهو يبلغ رسالته مما يستدعي من المسلم الصمت والاستماع لبيان كلام الله ورسوله لما في ذلك من دليل مخافة الله تعالى والحرص على نيل رضاه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾.

٢ ـ إن النهي عن غشيان بيوت الرسول عليه وآله وصحبه السلام أثناء راحته يفرض الدراية بالوقت المناسب عند زيارة الشخص ليتحقق الخير المقصود دون أذى بأحد ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

٣ ـ إن مجرد نقل الخبر السيئ يوحي بفسق ناقله إلا أن يتأكد من ذلك فلا يقع الاتهام والأذى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾.

٤ ـ لابد من اللجوء للصلح بين أيِّ فئتين من المؤمنين يقع تنازع بينهما ولا يلجأ لمساندة إحداهما بالقتال ضد الأخرى إلا عند تأكد البغي عليها وإلا فالصلح بالعدل بينهما يبقى واجباً حتى بعد القتال والعودة للحق ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾.

٥ ـ إن النهي عن السخرية واللمز والتنابز والظن السيئ والتجسس يجنب المسلمين الشحناء والبغضاء ويبقي على الأخوَّة بأقوى مظاهرها فيما بينهم فيجذب

الآخرين إلى دينهم والتشبه بهم. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾.

٦ ـ إن غاية التعارف بين الشعوب والأمم تحقق التقارب وتفتح العقول والقلوب لسماع الحق ومعرفته والأخذ به ولا سيما أن المزيد من التكريم عند الله تعالى لا يتوفر للمسلم إلا بالمزيد من التقوى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾.

٧ ـ ذكر الأعراب بالتحديد عند نفي الإيمان من القلوب إشارة للغلظة والجفوة التي هم عليها في سلوكهم الفردي والجماعي، مما يستدعي الحرص على التخلص من ذلك عند التعامل ليتحقق الإيمان والإسلام عقيدة وعملاً من المسلم دون منَّة على أحد ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ﴾.

بل وخلجات صدور عباده.. وكفى به عز وجل عليماً حسيباً متفضلاً رحيماً.

سورة ق (٥٠)

التقديم

فبعد الافتتاح بـ ﴿قٓۚ﴾ يقسم المولى عز وجل بالقرآن المجيد بأن البشر سيبعثون يوم القيامة للحساب، بغضِّ النظر عن عجبهم من أن يرسل تعالى إليهم رسولاً منهم ينذرهم بعذاب الآخرة ويبشرهم بنعيم الجنة في آن واحد.. وأنه لا حاجة لهذا العجب الذي صدر عن الكفار عند إنذارهم لأنهم لا يعترفون بيوم البعث الذي ينذرهم به، وبسبب استبعادهم لمجيء يوم القيامة ولأنهم لا يرون أن الأجساد التي بليت وأصبحت تراباً ستعود للحياة من جديد وتصبح أجساداً كما كانت من قبل.

ويأتيهم الرد القرآني بأنه تعالى الذي خلقهم يعلم ما يقع في خلقه من نقص بسبب موتهم ودفن أجسادهم في الأرض، وأن ذلك كله محفوظ مسجل لدى ملائكته تعالى الموكلين بهم، كما أنه معلوم محفوظ لديه تعالى، وأنه تعالى قد جعلهم يلمسون من هذا الموت بعد الحياة أنه هو الذي خلقهم، ويقرون به خالقاً لهم، ويقرون بأن موتهم بيده، وأنه بالتالي قادر على بعثهم يوم القيامة وحسابهم على أعمالهم، فلا حاجة للعجب ولا للتكذيب بيوم القيامة والحساب.

ثم تلفت السورة نظر أولئك المكذبين بيوم البعث إلى قدرة الله تعالى وعظمته في خلق وتدبير هذه السموات والأرض وما فيهما، لتؤكد لهم أن بعثهم عنده تعالى أيسر من

ذلك، فليعملوا عقولهم ليروا أن في كيفية خلقه وتدبيره لهذه السموات والأرض، وما ينزل من السماء من مطر إلى الأرض، وما يبعثه من حياة فيها بعد جدب وموت، لأكبر دليل ملموس لهم لو صحت عقولهم وتخلصت من التحجر على تقاليد الباطل.

ولينظروا في ما فعلت الأقوام السابقة من قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وقوم لوط وأصحاب الأيكة وتبَّع.. وما حلَّ بهم نتيجة تكذيبهم لرسلهم.. فإنهم سيرون قطعية تحقق قدرة الله تعالى في إيقاع ما أنذرهم به من عقاب، وسيعلمون أن القادر على ذلك قادر على بعثهم ومحاسبتهم بالجنة لمن آمن وأحسن، وبالنار لمن كفر وطغى.

ولينظروا إلى قدرته تعالى في خلقهم هم، وما ينزله من عقاب في الدنيا بهم، ليروا في ذلك دليلاً على قدرته على بعثهم كما خلقهم، ومحاسبتهم كما رزقهم.

وتصور السورة كيف يجري بعدها يوم البعث والحشر، وكيف ينفخ في الصور ثم يساق الناس للحساب ثم تقع الخصومة بين الكافر وقرينه الشيطان من إنس وجن، وأمره تعالى لجهنم وللجنة لتستقبل كل منهما أهلها، ولا سيما أهل الجنة الذين استعدوا لها واعتبروا من الأمم السابقة التي أهلكها المولى عز وجل رغم قوتها وشدتها.

وتدعو السورة بعدها الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم للصبر على كل أذى يلحق به وبالمؤمنين به من أولئك المشركين، ولا يعيرهم المزيد من الاهتمام، لا هم ولا من يتواطؤ معهم من اليهود، وليقبل على طاعة ربه بالتسبيح والصلاة قبل طلوع الشمس بصلاة الفجر، وقبل الغروب بصلاتي الظهر والعصر، وفي الليل بصلاتي المغرب والعشاء، بالإضافة للتسبيح عقب كل صلاة، وأن في هذه الصلاة المفروضة وغيرها من الصلوات النافلة ما فيها من تقوية الجانب الروحي الذي يتغلب به على كل مشقات الحياة وأذى أهلها.

وتذكّر الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام أن يستمع لنداء جبريل عليه السلام عندما يدعو الناس للحشر بعد أن ينفخ إسرافيل النفخة الثانية في الصور، نفخة البعث والحساب.

وليتذكّر الناس عامة، والمشركون خاصة، أن ذلك عمل يسير على الله تعالى.

وليحذروا أن يغتر منهم أحد بتمهل المولى عز وجل عليه، لأنها ما هي إلا فرصة أو فسحة يعطيها له سبحانه وتعالى للتوبة لمن أرادها قبل موته، لتنفعه عند بعثه وحشره وسوقه مع الناس للحساب أمام علّام الغيوب، المحيط بعلمه بكل ما يصدر عنه من قول وفعل، بل بكل ما يختلج به صدره ويدق معه قلبه ويتحدث به عقله.

واعلم يا محمد بأنك لست مسؤولاً عن مصير أحد من الخلق بعد أن قمت بالبلاغ المبين، وبعد أن رأوا ذلك وسمعوه ووعوه بكل الحجج والبراهين التي لا يمتلك عاقل إلا أن يقرَّ بصحتها، ويؤمن بما تدعو إلى الإيمان به، ويعمل بما تدعو إلى العمل به.

واعلم يا محمد، وأعلم من حولك، ومن يأتي بعدك إلى يوم البعث، بأن الله تعالى الذي أحياهم من العدم، وأماتهم من الوجود، هو الذي يحييهم يوم القيامة من بقايا جثثهم، وهو الذي يتولى محاسبتهم وتقرير مصيرهم.

فليذكروا ذلك اليوم، عندما تتشقق القبور عنهم فيخرجون منها مسرعين ملبين نداء الحشر، وواقفين أمام العالم بكل ما يقولونه وهم يرون، ويا هول ما يرونه يوم الحساب! يرون كيف يحشرون وعلى أيِّ حال يكونون!!

فما عليك يا محمد إلا أن تواصل تبليغهم برسالتك التي ستأخذ طريقها إلى عقول وقلوب من يؤمن بهذا اليوم ويخشاه.

التفسير

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ۝٤ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ۝٥﴾

فبعد افتتاحية السورة بـ﴿قٓۚ﴾ يقسم المولى عز وجل بالقرآن المجيد، بالكتاب ذي القدر الرفيع، والمنزلة العالية، والإحاطة الصادقة، والعلم الدقيق.

يقسم المولى عز وجل مشيراً لكل هذه الحقائق عن القرآن الذي أنزله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، والتي لجهل الكافرين بها يعجبون من الإنذار الذي حمله إليهم، ألا وهو يوم البعث والحساب، ذلك اليوم الذي يستبعدون وقوعه لأنه حسب تقديرهم يقول بما يستحيل عندهم حصوله ألا وهو الرجوع إلى الحياة، والحساب على أعمالهم التي فعلوها في الدنيا، إذ لا يتصور أحدهم ذلك بعد أن تحول إلى تراب.

فيأتيهم الرد من المولى عز وجل: كيف تستبعدون أن يفعل ذلك من خلقكم بعد

أن لم يكن لكم وجود، وأماتكم بعد أن تولى حياتكم بالتدبير، فأنقص من أعدادكم على مدى الحياة بالدفن التدريجي؟

فعليكم أن تروا ذلك حقاً لا مراء فيه، ويقيناً لا شك فيه، لأن الخالق القادر على إيجادكم، والعالم بما خلق علماً يحيط بكل شيء، سواء باللوح المحفوظ أو بكتاب كل إنسان بعينه أو بهما معاً، هذا الخالق القادر العالم هو الذي ينذركم بيوم الحساب، مما يلزمكم بعدم تكذيب رسوله فيما ينذركم به عندما بلغكم ذلك، ومما يفرض عليكم عدم الوقوع في هذا الاضطراب والارتباك وأنتم تعرفون حق المعرفة الرسول الذي أنذركم بذلك.

فكفوا عن التكذيب وبادروا بالاستعداد لذاك اليوم الرهيب.

وتقف السورة بعدها مع بعض البراهين على قدرته تعالى على بعثهم بعد إماتتهم.. فتقول:

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا
فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ
مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ
وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ
وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ
فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ
ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾
وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾

فلينظروا بعيونهم وعقولهم إلى هذه السماء التي تظلهم وكيف بنيناها دون عمد مرئية وزيناها بالنجوم الثابتة والكواكب المتحركة والشهب الثاقبة، ودون أن يكون فيها فرجة واحدة.

مما يشير إلى وجوب عدم العبث بالبيئة المسبِّب لثقب الأوزون ولما يسبِّبه من أهوال أخرى على جميع المخلوقات.

ولينظروا إلى هذه الأرض كيف بسطها رب العالمين وجعل فيها الجبال المثبتة لها حتى لا يختل توازنها ولا تختلط تضاريسها ولا يضطرب مناخها فتتدمر المخلوقات من فوقها.

بل انظروا إلى ما أنبت على الأرض من نباتات مختلفة الأنواع مسرَّة للعيون مغذية للبطون!

فماذا ترون في ذلك غير أنها تؤكد لكل ذي عقل وفهم من عباد الله تعالى، وبالذات التائبين الآيبين، أن قدرة الله تعالى وعظمته وتدبيره كفيلة ببعثهم وحسابهم كما تكفلت بخلقهم ورزقهم وعيشهم.

ولينظروا إلى هذا الماء الذي ينزله تعالى من السماء مباركاً ليبعث الحياة في الأرض، فتنبت البساتين بأشجارها المتنوعة، والزروع بحبوبها المختلفة.

وكما تنبت النخيل بأطواله الباسقة، وطلعه المتراص، تنبت العنب الزاحف على الأرض بلا أطوال.

تنبت ذلك كله لتقدم للإنسان والأحياء الأخرى الطعام والغذاء فتدب في هذه الأرض الحياة بعد أن كان قد سيطر عليها الموت.

إنها الحجة المرئية الملموسة للبعث يوم القيامة.

ولينظروا لتلك الأقوام السابقة لهم على هذه الأرض: من قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبَّع، وليروا ما انتهوا إليه من العقاب الذي أنذرهم به رب العالمين، ورفضوا الإنذار، فظلموا أنفسهم.

فاذكروا ذلك واذكروا أن رب العالمين الذي لا يعجزه خلق من خلقه ولا تدبيرهم بإرسال الرسل إليهم وإنذارهم من عقابه مع تبشيرهم بثوابه قادر على بعثهم للحساب على ما كلفهم به من تدبير لحياتهم وما أمرهم به من إيمان لدنياهم وآخرتهم.

وليذكروا أنه تعالى القادر على بعثهم يوم القيامة وحسابهم بالجنة لمن أطاع وبالنار لمن عصى، أنه تعالى قادر على خلق أيِّ خلق جديد.. كيف لا وهو تعالى الذي خلق هذا الإنسان بكل طاقاته وتطلعاته ورغباته، وأنه تعالى المحيط بعلمه بكل نبضات قلبه وخواطر نفسه وأفكار عقله.

وليذكر أنه تعالى قد أوكل ملكين لكل فرد يسجلان عليه حسناته وسيئاته، بحيث لا يصدر منه لفظ ولا عمل إلا وبكل دقة يحصيانه عليه، حتى إذا حان أجله وتوفته ملائكة الموت لم يجد من ينقذه منهم، وهو الذي بالأمس كان يصول ويجول حتى ظن من نفسه أنه ضد الموت، وضد البعث بعد الموت، فليذكر ذلك وليقدر نفسه حق قدرها.

وتنقلنا السورة بعدها لعرض بعض مشاهد يوم القيامة، وما يدور من خصومة بين الكافر وقرينه.. فتقول:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ﴿٢١﴾ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ
هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ
كَفَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ
﴿٢٦﴾ ۞قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم
بِٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن
مَّزِيدٖ ﴿٣٠﴾ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ ﴿٣٢﴾ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ
بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ﴿٣٥﴾
وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ هَلۡ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا
بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ﴿٣٨﴾﴾

فانظروا أيها الكفار المنكرون ليوم البعث، يوم الحساب، يوم الجنة أو النار، ماذا يحصل من قدرة الله تعالى يوم البعث عندما يحين موعده؟

إنه تعالى يأمر إسرافيل عليه السلام بالنفخ في الصور النفخة الثانية، نفخة إعادة الأرواح إلى أجسادها، فتنشق الأرض عن الأجساد وقد دبَّت فيها الحياة، فتخرج الأجساد مسرعة وقد عادت إليها الحياة والنشاط، ذلك لأن هذا اليوم هو يوم الوعيد، يوم الإنذار بالعذاب الشديد لمنكري البعث والنشور، فماذا يجري في هذا اليوم أيها المنكرون المعاندون؟

تساق كل نفس من لحظة خروجها من قبرها بملك موكل بها ويصاحبها ملك آخر يشهد عليها بما صدر منها في الدنيا من قول وعمل، وهما ملكا الحسنات والسيئات في الدنيا نفسهما، كما أشار إلى ذلك حديث للرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام.

وبعدها ماذا يجري؟

يتجه كل إنسان براً كان أو فاجراً إلى الموقف حيث يسأل عن غفلته عن هذا اليوم والحساب فيه فلم يستعد له إذا كان فاجراً أو قصَّر به إذا كان فاسقاً أو أحسن الاستعداد له إذا كان براً.

فماذا يقال بعدها؟

يقال للفاجر: ها قد بعثت من قبرك فرأيت حقيقة البعث التي أنكرتها في حياتك،

وأصبحت عيناك تريان ميزان حسناتك وسيئاتك.. فخذ كتاب أعمالك المعدَّ لك منذ يوم موتك، يقول له الملك الموكل بذلك.. وإليك نار جهنم تقدم إليها.. فيدفعانه فيها جزاء كفره وعناده وإعراضه عن الاستجابة لله ولرسوله.

ويسأل: لماذا كنت تصرُّ على الكفر وترفض سماع الحق وتتجنب الاستجابة له؟ لماذا كنت تمنع كل خير من زكاة مفروضة وغيرها، وتمارس كل ظلم في حق عباد الله؟ هل الشك في التوحيد الذي يعصف بعقلك مبرر لكل هذا الظلم والطغيان منك في دنياك؟ هل عبادتك للأصنام مبرر لصد الناس عن عبادة الله تعالى؟ هل كفرك بنفسك مبرر لمنع أقاربك عن الإسلام؟

وهنا يحاول الكافر أن يدافع عن نفسه، فيلقي بتبعة كفره وظلمه وبغيه على قرينه الشيطان، ولكن قرينه يتبرأ منه ويكذبه ويرد عليه بأنه هو الذي اختار بمحض إرادته الضلال والكفر والطغيان.

وهنا يؤمران بالتوقف عن هذه الخصومة، ويذكران بما أنذرا به من العذاب، وأنه لا مبدل لقضاء الله تعالى وحكمه مهما تخاصما لأنهما أمام المحاسب العادل علّام الغيوب، الحاكم العادل الذي لا يظلم أحداً مثقال ذرة.

ها هما يلقيان معاً في نار جهنم جزاء وفاقاً، جهنم التي لديها من الاتساع ما يكفي لهما ولكل أمثالهما.

وأما المتقون، فانظر إليهم وهم يساقون هم وأزواجهم الأتقياء إلى الجنة التي وعدوا بها بطيب إيمانهم وأعمالهم وبثباتهم على توبتهم والاحتكام إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم، وبالتزامهم خشية الله تعالى غيباً دون أن يروه بعيونهم وإن رأته بشواهد خلقه عقولهم.

فها هم يبعثون يوم الحساب وقلوبهم عامرة بالإيمان، سليمة من الكفران، تائبة للرحمن.

ها هم يؤمرون بدخول جنة الخلود بأمن وسلام ليجدوا بانتظارهم كل ما يشاؤون فيها مما لا يحيط به عقل ولا يتصوره خيال.

ها هم يجدون أكثر من ذلك كله، أنه رضوان الله تعالى عليهم.

وانظروا إلى قدرة الله تعالى على تلك الأقوام السابقة ممن كانوا أكثر من مشركي العرب وأمثالهم قوة وبطشاً، وأنه تعالى قد أهلكهم بكفرهم وطغيانهم ولم يبق منهم إلا آثارهم الشاهدة عليهم والدالة على قدرة الله تعالى عليهم.

فهل وجدوا مهرباً من ذلك العذاب المهلك الذي نزل بهم؟ هل أنقذتهم أموالهم وقوتهم من بطش الله بهم كما كانوا يبطشون بعباده رغم إنذاره المتكرر والمشدد لهم؟

وهل فيما ترونه من آثارهم العظة الكافية لكم، والذكرى اللازمة لعقولكم، ولأسماعكم ولعيونكم أم أنتم على إصراركم وعنادكم في باطلكم واستكباركم؟!

ذكّرهم يا محمد بأن الخالق القادر الذي ينذرهم من عذابه هو الذي خلق هذه السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وهو قادر على خلقها في لحظة، خلقها دون أن يلحقه من ذلك أدنى تعب أو إعياء، كما يزعم المفترون اليهود بأنه تعب بهذا الخلق في الأيام الستة التي بدأت يوم الأحد وانتهت يوم الجمعة فارتاح يوم السبت الذي يجعلونه يوم راحتهم الأسبوعية، فكذَّبهم المولى عز وجل وأكَّد للبشرية أن شيئاً من ذلك لم يحصل وإنما هو من مريض عقولهم.

وتأتي السورة بعدها لدعوة الرسول عليه وآله وصحبه السلام للصبر على أذى المشركين، ولمواصلة تبليغ رسالته هو وأتباعه.. فتقول:

﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ﴿٤١﴾ يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ﴿٤٤﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

فاصبر يا محمد على كل ما يقوله المشركون، وهوّن أمرهم عليك، ولا تبال بكل ما يقوله ويزعمه اليهود من أن الله تعالى قد استراح يوم السبت.

وواصل طاعتك يا محمد لربك بأداء صلواتك الخمس المفروضة، من صلاة الفجر قبل طلوع الشمس، وصلاتي الظهر والعصر قبل غروبها، وصلاتي المغرب والعشاء بعد غروبها، وواصل تسبيح ربك وتنزيهه عن كل ما يقولونه من نسبة الشرك إليه سبحانه، أو بوصفه بما لا يليق به من التعب، وافعل ذلك عقب كل صلاة، افعله مع القيام بصلوات النفل عقب وقبل الفريضة، ففي ذلك يزداد قربك من ربك، وبها وأنت جماعة مع صحبك تزداد إيماناً على إيمان، وروحاً إلى الروح، ورضى من الله تعالى إلى رضى.

استمر يا محمد وصحبك على ذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها، حتى يحين مجيء يوم القيامة، وعندها ينطلق صوت النفخة الثانية ينفخ بها إسرافيل عليه السلام، وبعدها يسمع نداء جبريل عليه السلام: أن هلموا عباد الله إلى الحشر والحساب.

فعند النفخة الثانية يدرك الكفار ما ينتظرهم من العذاب الموعود كما يطمئن المؤمنون لما ينتظرهم من النعيم الخالد، فيسمع الخلق كلهم ذلك النداء بشكل يخيل للواحد منهم لشدته بأنه من مكان قريب منه، فيتحقق لهم جميعاً أن هذا هو الوعد الصدق، وأنه من اليسر والسهولة على الله تعالى وقدرته بحيث ما كان لعنادهم وكبرهم أن يستبعده.

وانظروا إليهم وهم شباب أبناء ثلاث وثلاثين يساقون للحشر في بلاد الشام.

وأعلمهم يا محمد بأن الله تعالى أعلم بما يقولونه منهم أنفسهم، لأنهم ينسون وهو سبحانه لا ينسى شيئاً.

وأعلمهم بأن المطلوب منك في هذه الدنيا هو التبليغ المبين لرسالتك أولاً، وبعدها التطبيق السليم متى جاء وقته، وأنك لست مسؤولاً عن اختيارهم للإيمان أو الكفر وقد أفرغت كل جهدك في تبليغهم الهدى الحق وبينت لهم السبيل الحق، وأنك لست ملكاً عليهم لتفرض عليهم الإيمان أو الكفر ولا لتكرههم أو تجبرهم على ذلك ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾ [الغاشية: ٢٢] و﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾[البقرة: ٢٥٦] و﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ٣]، و﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد: ١٠].

أعلمهم يا محمد بأن عليك أن تواصل تبليغهم وتذكيرهم بالقرآن، بعقائده وأحكامه وتشريعاته، ووعظهم بقصصه وحججه وبراهينه وأمثاله ودلالاته.

أعلمهم بأنه لن يتذكر ويتعظ ويستجيب لك إلا من يخاف من عباد الله تعالى وعيده بالعذاب الشديد، ويرجو وعده بالثواب الجزيل في ذلك اليوم المشهود.

وتذكّروا ما قاله قتادة، أحد عباد الله الصالحين: اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ويرجو موعدك.. اللهم آمين.

وأنتم يا عباد الله، يا من استقرت عقيدة الإيمان في عقولكم وترسخت في أعماق نفوسكم حتى ملكت عليكم أفئدتكم، يا من ترون بعد أمتكم في حياتها اليومية التشريعية والتعاملية، المجتمعية والفردية، بعدها كل البعد عن مواطن مقتضى إيمانكم.. هلّا وجدتم في هذه السورة الحافلة بالوعيد من العذاب الشديد أكثر من الوعد بالثواب الجزيل مما يقرع آذانكم، ويبعث الاتعاظ في نفوسكم، والتذكر في عقولكم والالتزام في

جوارحكم؟! أم أن تسلط الأهواء والشهوات وتقليد الآباء والخوف من الاضطهاد وبالذات على الزوجة والأبناء ما زالت تثبط عزائمكم أو تقعدكم أو تبعدكم عن الحق وجادة الحق؟!!

تذكروا أنه لن يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، وأنه لو توفر له واد من ذهب لتمنى وادياً آخر.

تذكروا أن الموت حق عليكم وعلى كل فرد من أفراد أسرتكم، وأن أحداً منهم لن ينفعكم يوم الحساب ما دام قد بررتم بسببه القعود عن العمل لإعادة الحياة الإسلامية للأرض من جديد.

تذكروا أن أحداً من الخلق، مهما قوي سلطانه وارتفع كرسيه، لن يملك أن ينقص من عمر أحدكم يوماً ولا ينقص من رزقه درهماً.

فالأجل والرزق بقضاء وقدر، فأجملوا في الطلب ولا تسفكوا دماء عزتكم وكرامتكم وأمتكم على أبواب من سلطوا عليكم وحكمت سيوفهم في رقابكم.. ولن يتركم المولى عز وجل أعمالكم..

دليل سورة ق ـ ٥٠

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ٤٥ آية.

- تبدأ بقسم المولى سبحانه بالقرآن بأن البعث والحساب لا بد قادمين فلا عجب من ذلك والله قادر عليه كما هو قادر على كل شيء لأن البعث أيسر من الخلق.

- ثم تدعوهم للاعتبار بما حل بالأقوام المكذبين السابقين، مما يجزم بقدرة الله تعالى على بعثهم وحسابهم.

- ثم تذكّرهم بما يقع يوم البعث والحشر سواء بالنسبة للمؤمنين أو الكافرين ليطمئن المؤمن لما ينتظره ويؤوب الكافر عن غيّه خوفاً مما يتوقعه.

- ثم تؤكد دعوة الرسول عليه وآله وصحبه والسلام للصبر على أذاهم مشركين ويهود، والحرص على الاستعانة في ذلك باللجوء إلى الصلاة المفروضة والنافلة لما في ذلك من القوة الروحية التي تقهر كل مشقات الحياة.

- ثم تذكّرهم برحمته تعالى للناس كافة وهو يعطيهم فسحة للتوبة قبل الموت.

- وتعلمه عليه وآله وصحبه السلام بعدم مسؤوليته عن مصير أحد بعد أن قام بالبلاغ المبين، وأن ما عليه إلا أن يواصل التبليغ، مما يستدعي من علماء المسلمين

بخاصة مهما قلَّ أو كثر علمهم وجوب هذا التبليغ إلى يوم يلقى الواحد منهم ربه ما دامت أمامه فسحة لذلك وبالقدر الممكن دون إعذار ولا اعتذار.

فتبرز الأمور التالية:

١ - إن عجب الكافرين من إنذارهم بالنار إذا استمروا على كفرهم بالإسلام ليس غريباً عندما يحصل ما داموا لا يستنبطون من الواقع ما هو وراءه ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾ فكيف يؤمنون بالقدرة على الخلق ويستبعدون القدرة على البعث والحساب؟!

٢ - إن تقرير علم الله تعالى لما في النفس البشرية مدعاة لحراستها من كل وساوس وشرور ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ﴾.

٣ - تأكيد دعوة الرسول عليه وآله وصحبه السلام للصبر على أذاهم في هذه المرحلة المكية ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾.

سورة الذاريات (٥١)

التقديم

فبعد أن أقسم المولى عز وجل بالرياح والسحب والسفن والملائكة، كل فيما يخصه، أكد بقسمه أن وعده بمجيء يوم القيامة لا شك فيه، وأن الحساب بالثواب والعقاب بعده لا شك فيه.

ثم أقسم عز وجل معظماً للسماء بأن أهل مكة مختلفون حول الرسول عليه وآله وصحبه السلام، ومتآمرون عليه، وأنه لذلك دعا عليهم بالقتل لتكذيبهم بيوم القيامة، وسخريتهم بما يتوعدهم به من العذاب الذي يستخفون به ويستعجلونه.. وأنه عليه وآله وصحبه السلام قد بشَّر المتقين، بالمقابل، بما ينتظرهم من جنات خالدات جزاء إحسانهم في دنياهم بالأعمال الصالحات، والعبادات المخلصات، والمعاملات الصادقات.

وتعرض السورة بعدها شيئاً من دلالات قدرته تعالى في الأرض، وفي الأنفس، وفي السماء.. لتؤكد لأولئك الفريقين صدق ما يورده إليهم كتاب الله تعالى من قصص الأنبياء السابقين مع أقوامهم، وقدرة الله تعالى في إيقاع ما أوقعه من العذاب والهلاك عليهم، سواء من مثل ما حصل لإبراهيم عليه السلام وضيوفه الملائكة الذين مروا به

ليبشروه بغلام عليم ويصلوا إلى قوم لوط فيوقعوا بهم الهلاك الأليم، وما حصل مع موسى واتهام فرعون له بالسحر والجنون بالرغم من كل الأدلة الدامغة على نبوته، وكيف أغرقهم تعالى بطغيانهم، وما حصل مع هود وقومه عاد، والريح العقيم التي تركتهم كالرميم، وما حصل مع صالح وقومه ثمود الذين أخذتهم الصيحة، وما حصل مع نوح من قبلهم وما اجتاحهم في زمنه من طوفان.

وكل ذلك أدلة قاطعة على قدرة الله تعالى في تنفيذ ما يتهددهم به إن كفروا وطغوا وبغوا.. كيف لا ولهم الأدلة الكافية في قدرته تعالى في خلق السماء وبنائها بهذا الشكل الباهر، وخلق الأرض وتمهيدها بهذا الشكل الساحر، وخلق الزوجين من كل شيء بهذا الشكل الآسر.

وتدعو السورة بعدها الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام لينبِّه قومه ومن بعدهم، ليهربوا من معاصيهم لله تعالى إلى طاعتهم له، لعلهم بذلك ينجون قبل أن يأتيهم عذاب يوم القيامة.. وأن يتعزى عليه وآله وصحبه السلام لتكذيبهم له وإعراضهم عنه بما فعله الأقوام السابقون لإخوانه الرسل من التكذيب والإعراض.

وتنبهه عليه وآله وصحبه السلام أخيراً، ومن معه ومن بعده، من الناس والجن قاطبة، بأن القصد الرباني من خلقه تعالى لهم، جنّاً وإنساً، هو العبادة له سبحانه وليس لأنه سبحانه له حاجة إليهم في رزق أو غيره مما يحتاجه المخلوقون.. والعبادة يعود خيرها كله إليهم وعليهم.

وأن عليهم ألا يتعجلوا العذاب الموعود به كفارهم أو عصاتهم يوم القيامة، فإنه قادم لا ريب فيه.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ
﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ
ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ
﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ

رَبُّهُمْۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾
وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾

فيقسم المولى عز وجل لرسوله عليه وآله وصحبه السلام ولمن معه ولمن بعدهم إلى يوم الدين بالرياح وما تذروه من خير وشر، وبالسحب وما تحمله من الأمطار، وبالسفن الجارية بدفع الرياح بيسر وسهولة، وبالملائكة وتوزيعها للأمور بين العباد من رحمة وغلظة وموت.

يقسم المولى عز وجل بهذه الأشياء العظام كلها على أن ما يوعدون به من الثواب والعقاب لا بد حاصل، وأن يوم الجزاء على الإيمان والأعمال لا بد واقع.

ويقسم المولى عز وجل بالسماء وعجائبها المختلفة عن الأرض، من نجوم وأفلاك ودقة في البناء.. على أن المشركين في اختلاف على رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: في وصفهم له المزعوم بالسحر والكهانة والشعر وغيرها، وأن ذلك كله مجرد افتراء وكذب يريدون به صرف الناس عن الإيمان والإسلام.

فليقتل الكاذبون المخادعون الغافلون لما ينتظرهم من شديد العذاب يوم الحساب، والجريئون على السخرية والاستهزاء بذاك العذاب، فليقتل الكاذبون ولينتظروا النار لتحرقهم جزاء استخفافهم وتعجلهم بها.

وعليهم أن يعلموا بأنهم لو عقلوا حالهم وما ينتظرهم لما ذهبوا هذا المذهب في طغيانهم.. كيف لا وهم يسمعون بما أعدَّ الله تعالى للمتقين من جنات تنساب فيها مياه العيون جزاء إحسانهم في أعمالهم في دنياهم، وكثرة عباداتهم في الليل، من صلاة واستغفار، وكرم إنفاقهم في عطائهم للسائل والمحروم، للسائل الذي قصَّرت به السبل عن الرزق، والمحروم الذي أقفلت في وجهه كل سبل الرزق.

وتورد السورة بعدها جوانب من قدرته تعالى في خلقه للأحياء والجمادات.. فتقول:

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ
ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ
دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ
قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةًۖ قَالُواْ لَا تَخَفْۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِي

صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾
۞قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ
طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ
مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ
﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي
ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا
اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَالسَّمَاءَ
بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾

فانظروا أيها المشركون بعقولكم قبل عيونكم لتروا بهذه الآيات الكونية قدرة الله تعالى وعظمته فتعترفون به ولا تعبدون غيره.

عجباً لكم! ها هي الأرض ونباتاتها وطيورها وحيواناتها ومياهها وسهولها وجبالها.. مليئة بالعجائب المطمئنة لقلوب الموحدين لله والمصدقين بنبوة رسوله.

وها هي نفوسكم ودقة خلقها دالة على قدرة خالقها، وها هي السماء وعجائب خلقها ومطر سحبها.. فأين عيونكم وعقولكم؟!

لتعلموا بأن خالق السموات والأرض الذي تقرون بقدرته قادر على بعثكم بعد الموت كما يقدر على خلق كل هذه العجائب، وأن ذلك حق وصدق تلمسه حواسكم وتدركه عقولكم كما تلمس الكلمة ألسنتكم.

فانظروا في قدرته تعالى على ذلك وهو الذي أنزل ما أنزل بالسابقين جزاء كفرهم وطغيانهم من أنواع العذاب التي أهلكتهم: فها هم ضيوف إبراهيم عليه السلام من الملائكة وهم يحيونه بالسلام فيرد عليهم ويقدم إليهم عجلاً سميناً مشوياً لتكريمهم لعدم معرفته بهم فيخشاهم لرفضهم الأكل فيطمئنونه بأنهم ملائكة بإحيائهم العجل وبتبشيره بغلام تلده زوجه سارة وهي تقترب من المائة ولا تنجب لعقمها.. دلالة على قدرة الله

تعالى في ذلك في إنزال العقاب بقوم لوط المسرفين باستثنائه وابنتيه، وجعلهم عبرة لمن يخاف العذاب الأليم.

وانظروا في قدرته تعالى وهو يغرق قوم فرعون جزاء استكبارهم على الإيمان مع موسى وطغيانهم عليه وعلى قومه، وفي قدرته تعالى على قوم عاد والريح العقيم تجتاحهم حتى تجعلهم كالجيف البالية، وفي قدرته تعالى على قوم ثمود وهي تأخذهم الصاعقة فيصبحون عاجزين أمامها كأعجاز نخل خاوية ولا ناصر لهم ولا معين، وفي قدرته تعالى على قوم نوح قبل ذلك والطوفان يأخذهم إلا من نجا مع نوح في السفينة.. فهلّا اعتبرتم؟

وانظروا إلى السماء وهذا النظام الكوني البديع الذي بنيت عليه دون عمد ترونها من نظم الجاذبية والمغناطيسية والكهربية.. وإلى الأرض وكيف مهَّدها المولى عز وجل بقدرته القادرة على كل شيء لعباده ليمكنهم من العيش عليها بهذا الشكل والقدرات التي خلقهم عليها؟!

وانظروا إلى هذا التنوع الباهر بين الأشياء، وخلق جنسين من كل منها.. أليس في ذلك كله ما يستثير تفكيركم فتصلون إلى الإيمان بقدرته تعالى على بعثكم ومحاسبتكم على أعمالكم بالجنة لو آمنتم وأطعتم، وبالنار لو أصررتم على الكفر وعصيتم، ألا تعترفون بقدرته تعالى على خلق ذلك كله؟!

وتأتي السورة بعدها لتنبيه المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ليدعو قومه والبشرية بعدهم لطاعة ربه، ونبذ العصيان والشرك.. فتقول:

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾

مبينة للرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن تكذيب تلك الأمم السابقة لأنبيائهم، وإهلاك الله تعالى لهم جزاء أعمالهم، يعطي المشركين من قومه بالذات أكبر دليل على قدرته تعالى على بعثهم وحسابهم يوم القيامة، وأن عليهم لذلك أن يفروا إلى الله تعالى بالتوبة من ذنوبهم.

ويقبلوا على طاعته سبحانه وتعالى لعله يقبل توبتهم ويغفر لهم ما سلف من

ذنوبهم، وعليهم أن يعلموا بأنه ينذرهم عقاب الله تعالى إن استمروا على الكفر والعصيان، وإن لم يتخلصوا من عقيدة الشرك والأوثان.

وعليهم أن يذكروا ما وقع فيه من كان قبلهم من الأقوام من تكذيب رسل الله تعالى إليهم وتعدّيهم عليهم، وتكذيبهم لهم، وما انتهت إليه أحوالهم.

وليذكروا بأن كفرهم مجرد استمرار لتعنت وتكذيب وشرك أولئك السابقين، وكأنهم ينفذون وصِية لهم، وليذكروا أن استمرارهم على هذا الكفر والطغيان لا يختلف في شيء عنهم.. فهل يريدون نفس المصير؟!

فأعرض عنهم يا محمد واصفح، فأنت غير ملوم عند الله بعد أن أديت الأمانة وبلغت الرسالة ونصحت الأمة، ولم يبق عليك إلا أن تواصل هذا التبليغ والتذكير بكل البراهين والعظات التي ينتفع بها المؤمنون بالذات أكثر ممن أقفلوا عيونهم وآذانهم وعقولهم عن رؤية الحق وسماعه وفهمه والاستجابة له والعمل به.

ويختم المولى عز وجل السورة بتذكير المؤمنين بالهدف من خلقهم هم وكل الإنس والجن.. فتقول:

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾

فاذكروا أيها الجن والإنس بأن الله تعالى قد خلقكم ليتعبدكم فتكونوا عباداً له، فجعلكم لذلك محلِّ التكليف المميز لكم عن بقية خلقه بالعقل الذي منحه لكم، وبالقدرة على الاختيار بين التقوى والفجور التي أودعها في هذا العقل الممنوح لكم، وبالقدرة على مباشرة القيام بما تختارونه التي وضعها في أجسامكم، وبالهدى الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وبلغه لكم ووضعه بين أيديكم، وبأمركم بالأخذ لهذا الهدى وترك كل ما غيره من الضلال لتتحملوا مسؤولية عملكم والتزامكم بين يديه عندما يبعثكم ليحاسبكم.

فاذكروا ذلك واعلموا أن الله تعالى يحيط بكل فرد منكم قبل أن يخلقه، فيعلم بأنه بعد أن يدخل في سن التكليف سيختار الهدى، فيوفقه للمزيد منه، أو يختار الضلال، فيجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصَّعَّد في السماء بسبب حيرته واضطراب تفكيره.

فاذكروا ذلك واعلموا بأن علمه تعالى السابق لا يجبر أحداً منكم على اختياره

الهدى أو الضلال وإنما هو من باب الإحاطة بكل شيء بعلمه المطلق، واعلموا أن إذنه تعالى وإرادته ومشيئته ما هي إلا تعبير عن مطلق صفاته تعالى التي تعني أنه لا يقع في ملكه شيء رغماً عنه لقدرته تعالى على منع ذلك في كل لحظة.

فاذكروا ذلك واعلموا أنه تعالى قد خلقكم لعبادته وفقاً لاختياركم، فيدخل أحدكم الجنة أو النار باختياره، فلا ظلم عليه إلا من نفسه، لعدم حاجته تعالى في شيء إليه وإنما هو المخلوق المحتاج في كل شيء لخالقه ومدبره، ولذلك لا حاجة لأحدكم لأن يتعجل العذاب لا بنفسه ولا بغيره، وليذكر دائماً أن العذاب الشديد بانتظار من اختار الكفر على الهدى.

دليل سورة الذاريات ـ ٥١

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ٦٠ آية.

- يقسم المولى سبحانه في مطلع السورة بأربع من مخلوقاته كل له دوره في منافعهم، بقطعيَّة مجيء يوم القيامة والحساب بغضِّ النظر عن شكِّهم أو تساؤلهم عنه، ثم يقرر ما سيكون عليه المكذبون من معاناة العذاب الأليم وما سيكون عليه المؤمنون بالمقابل من التمتع بالنعيم الخالد.

- تأكيد قدرة الله تعالى على ذلك بدلالة ما وقع مع الأقوام السابقين وقدرته تعالى عليهم.

- دعوة العصاة للتعجل في التوبة والإنابة وإلا فيما حصل من الأقوام السابقين خير تعزية وإنذار.

- تأكيد قصده تعالى من خلقه للجن والإنس من أنه عبادته سبحانه التي تعود عليهم وليس لله حاجة بها.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ لله تعالى أن يقسم بما يشاء من مخلوقاته لفتاً للنظر لما فيها ولها من خير للإنسان.

٢ ـ إن قيام الليل والاستغفار بالسحر وأداء الزكاة المفروضة والنافلة من صفات المؤمن التقي.

٣ ـ إن الاستشهاد بالأدلة المحسوسة أقوى أسلوب لإقناع البشر ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾، ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ﴾.

٤ ـ وكذلك الاستشهاد بالأقوام السابقين مدعاة للإقرار بالدليل الملموس لمن يعترف بحصوله.

٥ ـ تأكيد نفع الذكرى للمؤمنين ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

سورة الطور (٥٢)

التقديم

يقسم المولى عز وجل بجبل الطور في سيناء الذي كلَّم عليه رسوله موسى عليه السلام، وبالقرآن المكتوب على الجلد، وبالبيت العامر المبارك فوق مكة، وبسقف السماء المرتفع، وبالبحر المحبوس المشتعل المختلط ماؤه، حلوه ومالحه، بأن عذاب الله تعالى على من يستحقونه واقع لا محالة يوم القيامة، في ذلك اليوم الذي تموج فيه السماء موجاً، وتتحرك الجبال فتسوى بسطح الأرض، وينزل العذاب بأولئك المكذبين بيوم الدين، بأولئك اللاهين الغافلين عنه، فيدفعون إلى جهنم من زبانيتها دفعاً، وعندها يرون ما أنذروا به ورفضوه صدقاً وحقاً، فيدركون أن إعراضهم وتكذيبهم كانا عناداً وتعنتاً، فيجدون جزاءهم بما عملوا من الكفر والطغيان حقاً وعدلاً.

في ذاك اليوم يجد المتقون جنات النعيم، فيها يأكلون ويشربون، ومع أزواجهم يتمتعون، ومع ذرياتهم المؤمنين يتفكهون، وبتناول اللحم والشراب الطيب اللذيذ يعيشون ويتمتعون، ومع خدمة غلمانهم يخلدون، وفيما بينهم عما كانوا عليه في الدنيا من الخوف يتذاكرون.

وتدعو السورة بعدها الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم لتذكير قومه بالقرآن، بكتاب الله تعالى الموحى إليه به، بكتابه تعالى الذي لا تداخله كهانة ولا جنون ولا شعر.

يذكّرهم ليُقبلوا على الإيمان وينتهوا من الانتظار لنهاية الحياة بالموت، لينتهوا من الزعم بأنه عليه وآله وصحبه السلام أتى بهذا القرآن من لدنه وليس بوحي من ربه، ليقلعوا عن هذه المزاعم وهم أنفسهم أعجز من أن يأتوا بمثله.

وتوبخهم السورة لتناقضهم مع أنفسهم وهم يقرُّون بالله تعالى خالقاً وفي نفس الوقت يزعمون بأنهم خلقوا من غير خالق لهم، أو أنهم خلقوا أنفسهم، أو أنهم خلقوا السموات والأرض، أو أن بيدهم رزق الله تعالى ورحمته، وأنهم يتصرفون بهما كما

يشاؤون، ويسيطرون على الخلق جميعاً ويوجهونهم كما يشاؤون، أو أنهم يدّعون العلم بما في السماء بقدرتهم على الصعود إليها، أو أن لهم البنين ولله سبحانه وتعالى البنات.

فليكفوا عن هذه المزاعم، وليعلموا أنك لا تطالبهم بأجر مقابل تبليغهم يا محمد رسالة الله تعالى، وهم يقرُّون أنك الصادق الأمين، وما تقوله هو الحق والصدق.

فليكفوا عن المكر والكيد، عن العناد في الشرك، عن المكابرة حتى يروا العذاب نازل عليهم من السماء، وعن غيِّهم حتى يهلكهم عذاب يوم القيامة.

واصبر يا محمد على أذاهم حتى يحكم الله بينك وبينهم بنصرك عليهم في الدنيا وبالخزي يلحقهم في الآخرة.

واطمئن يا محمد بأنك في حراستنا ورعايتنا.

واستمر في تسبيحك وعبادتك لربك على كل حال وفي كل وقت.

التفسير

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥
وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ۝٨ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ۝٩
وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ۝١٠ فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ۝١٢ يَوۡمَ يُدَعُّونَ
إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ
۝١٥ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝١٦ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي
جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ۝١٧ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝١٨ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا
بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝١٩ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ۝٢٠ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ
ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ۝٢١
وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ۝٢٢ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ۝٢٣ ۞وَيَطُوفُ
عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ۝٢٤ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ۝٢٥ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ
أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ۝٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٨﴾

فتقسم السورة بجبل الطور الذي كلَّم المولى عز وجل عليه موسى تشريفاً لهذا الجبل، وبكتاب الله القرآن المعدِّ للقراءة على جلد رقيق، وبالبيت المعمور في السماء فوق الكعبة، وبالسماء المرفوعة، وبالبحر الملتهب والمختلط عذبه بمالحه.

تقسم بكل هذا للدلالة على قدرته تعالى على خلقها وتدبيرها وللتأكيد بأن عذابه تعالى واقع بالكافرين يوم القيامة، وأن أحداً لن يستطيع أن يدفعه عن نفسه إذا كان مستحقاً له، وأن ذلك كائن لا شك فيه حين تموج السماء كالموج فيطويها الرحمن القدير بيمينه، وحين تتحرك الجبال بسرعة كالسحاب فتسوى بالأرض بحيث لا يرى على سطحها عوجاً ولا أمتاً، وبعدها يقع العذاب الشديد على أولئك المكذبين بمحمد ورسالته وبمرسله تعالى وبيوم القيامة، باليوم الذي يبعثون فيه للحساب، ذلك اليوم الذي يغفلون عنه بكفرهم، وفيه تدفعهم خزنة جهنم إلى النار دفعاً وهي تقول لهم بأن هذا ما كنتم به تكذبون.

فانظروا هل هو السحر الذي كنتم تزعمون ولمحمد به تتهمون؟! انظروا أم أن عيونكم لا تبصر حقيقة ما أنتم عليه أيها المكذبون الضالون!؟ فإليكم بجهنم وسعيرها فيه تحترقون، ودعكم من الزعم بأنكم عليه تصبرون، إنه الجزاء العادل الحق لما كنتم تقولون، ولما كنتم من الكفر والطغيان تفعلون.

وأما أنتم أيها المتقون، فأنتم وحالكم عن أولئك الكافرين المكذبين تختلفون.. فها هي جنات النعيم فيها تتمتعون، فقد أنعم عليكم ربكم فيها بأشكال عديدة من النعيم، وجنبكم عذاب الجحيم.

فإليكم الأكل والشرب جزاء ما كنتم تقولون وتعملون، فتمتعوا بها وأنتم وأزواجكم من الحور العين على الأرائك متكئون، تمتعوا بها أنتم وذرياتكم المؤمنين جزاء بما كنتم تعملون.

تمتعوا بهذه الفواكه واللحوم والشراب الخالي من كل أذى دائم.. تمتعوا بخدمة الغلمان الذين للؤلؤ المكنون يشبهون.

تمتعوا بذلك كله وأنتم فيما بينكم عما كنتم عليه في الدنيا تتذاكرون، ومن خوفكم ألا تنالوا جزاء أعمالكم تتساءلون.

فتمتعوا بذلك كله جزاء طاعاتكم، جزاء إخلاصكم، جزاء صدقكم.. تمتعوا بآثار رحمة الله وفضله، وكرمه عليكم.. فهو سبحانه الرحيم بعباده، العطوف بأوليائه.

وتدعو السورة بعدها الرسول عليه وآله وصحبه السلام ليذكّر قومه بالقرآن، ويحذرهم وينذرهم ويذكّرهم بقدرته تعالى عليهم فتقول:

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ
﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ
يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ
أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ
ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ
﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ
كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ
لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾

فذكّرهم يا محمد بالقرآن، وأنه الوحي المنزل، وأن آياته ومعجزاته وبراهينه صدق وحق، وأنه لا كهانة ولا هذيان، ولا شعر.

ذكّرهم ليكفوا عن قول ذلك بحقه وينتهوا من انتظار الموت لك، فقد يأتيهم قبل أن يأتيك، ذكّرهم بأن الأجل ونهايته بيده تعالى تنتظره كما ينتظرونه، وليكفوا عن ظنون عقولهم وينتهوا عن تجاوز الحد في كفرهم واستكبارهم عن الإيمان وطاعة الرحمن.

ذكّرهم ليكفوا عن اتهامك بأنك لا يوحى إليك وإنما تأتيهم بالقرآن من لدنك، ذكّرهم بأن مثل هذا الاتهام الباطل لا يصدر إلّا عن متكبرين على الإيمان.. وإلا فكيف يصدق زعمهم وأنت بشر وهم بشر، وهم لا يملكون أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وأنت واحد منهم لا يمكنك ذلك مهما تميزت عنهم، ولكنه الكبر والعناد الموقعان لهم في التناقض.

فانظر إليهم وهم يعترفون بالله تعالى خالقاً ولكنهم ينكرونه في نفس الوقت عندما يعبدون غيره! وهم يقرون بأن الله تعالى قد خلقهم وخلق هذه السموات والأرض ويعبدون ما يقرون بأنهم لم يخلقوا شيئاً! وهم يظنون أن بأيديهم أرزاق السموات والأرض وأنهم يستغنون بذلك عنه تعالى وعن طاعته! فهل يرون أنفسهم أنهم المسلطون القاهرون للخلق كلهم، فهم من أوجدوهم وهم من يعدمونهم وهم من يرزقونهم وهم من يمنعونهم؟!

وهل لديهم سلم يصعدون به للسماء فيعرفون الغيب ويحتجون به عليك؟! ومن أين جاؤوا بكذبة أن البنين لهم وأن البنات هم ملائكة الله سبحانه؟! هل تطلب منهم أجراً على تبليغ رسالة الله لهم فيستثقلون دفعه؟! هل علوم الغيب مكتوبة لديهم فيكذبوك بما لديهم؟! أم هو الكيد والمكر في دار الندوة وغيرها للتخلص منك؟!

ليعلموا أن كيدهم سيرتد عليهم، فلينتهوا عن الشرك بالله وعبادة غيره.. ولينتهوا عن الكبر والعناد حتى أنهم ليرون العذاب النازل بهم من السماء أنه مجرد سحاب يحمل المطر إليهم!

فدعهم يا محمد في غيّهم وباطل اختيارهم وسيرون ما أعدَّ لهم من عذاب لن ينقذهم أحد منه إذا ماتوا على شركهم وطغيانهم.

وليعلموا أن لكل مشرك ظالم عذاباً في الدنيا وعذاباً في الآخرة.

فاصبر يا محمد على أذاهم وواصل التبليغ حتى يأتي نصر الله تعالى لك عليهم، واطمئن بأنك في رعاية ربك، فاستمر على عبادته وتسبيحه وطاعته في كل الأحوال والأوقات، فلك ولأتباعك في ذلك القوة الروحية والزاد الروحي لخيري الدنيا والآخرة.

دليل سورة الطور ـ ٥٢

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ٤٩ آية.

- تبدأ بقسم المولى سبحانه بأن عذابه لاشك واقع على من يستحقه يوم الحساب.

- ثم تقارن بين المكذبين وماهم عليه من العذاب والمتقين وماهم عليه من النعيم.

- فتدعو المشركين للإيمان قبل الموت والإقلاع عن الزعم بأن القرآن من لدن محمد وليس بوحي.

- ثم تدعوهم للكفِّ عن مزاعمهم الأخرى الكاذبة وعن مكرهم ومكابرتهم.

- وتدعو الرسول عليه وآله وصحبه السلام للصبر على أذاهم حتى يحلَّ بهم خزي الهزيمة في الدنيا قبل عذاب الآخرة.

- وتدعوه عليه وآله وصحبه السلام أخيراً ليواصل التسبيح والعبادة لربه على كل حال.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ التصوير المحسوس الأخّاذ ليوم القيامة، وما يكون عليه المكذبون والمؤمنون، هو السبيل القرآني لاقناع العقول البشرية القاصرة وإثارة النفوس المتجمدة على القديم والتقليد ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾.

٢ ـ الأمر الرباني للرسول عليه وآله وصحبه السلام بالكفّ عن تبليغ المعاندين الرافضين للحق يدل على لزوم السير على نفس الدرب في حمل الدعوة وإن كان لابد من مواصلة التبليغ لغيرهم والصبر على أذاهم حتى يأتي نصر الله تعالى ﴿قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ۝٣١﴾﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ۝٤٥﴾

٣ ـ ولا بد من الاستعانة مع الصبر على الأذى بطول العبادة وكثرة التسبيح في كل الأحوال والأوقات ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝٤٨ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝٤٩﴾.

سورة النجم (٥٣)

التقديم

تبدأ السورة بقسم المولى عز وجل بالنجوم عند غروبها، لما في ذلك من تكذيب لمن يعبدها، يقسم لهم بأنها من خلق الله تعالى الدالة على قدرته، مؤكداً لهم بأن رسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم يدعوهم للهدى والرشاد، وأن قوله وحي لا هوى فيه، وأن جبريل قد بلغه له، وأن جبريل عليه السلام قد رآه محمد عليه وآله وصحبه السلام عندما ظهر له في الأفق الأعلى، وأن الرسول عليه وآله وصحبه السلام قد رأى بقلبه لا بعينيه ربه تعالى في المعراج، وأن ذلك لا يجحد عليه بتقدير ربه تعالى عليه، وأنه عليه وآله وصحبه السلام قد رأى جبريل عليه السلام مرة أخرى على صورة الملائكة في السماء قبل سدرة المنتهى قرب جنة المأوى، وأنه عليه وآله وصحبه السلام قد توقف بصره عن الرؤية فلم يتجاوز رؤيته جبريل عليه السلام حين رآه قد ملأ الأفق ما بين السماء والأرض، وهو في حلة خضراء.. فكان ذلك من آيات الله تعالى الكبرى.

وتعبّر السورة بعدها عن عجب ما عليه المشركون من عبادة المخلوق دون عبادة الخالق، عبادة اللّات في ثقيف، والعزّى في قريش، ومناة في بني هلال، وعن عجيب نسبة الأبناء إليهم والبنات من ملائكة وأصنام إلى الله سبحانه، فيا للقسمة الجائرة من عقول حائرة!

فكيف يعبدون الأوثان ويتركون هدى الرحمن وعبادته؟!

وعليهم أن يعودوا لعقولهم السليمة التي تقرُّ بالخالق ويعبدونه وحده، وينتهوا عن عبادة الملائكة التي لا تملك لهم شفاعة، ويكفوا عن وصفهم بالإناث.

وأنت يا محمد لا تبال بمن آمن منهم ثم ارتدَّ طلباً للدنيا، كالوليد بن المغيرة، لأنه جاهل بحقيقة الدين وطالب لمتاع الدنيا، ويكفيه ما ينتظره من عذاب الله تعالى المعد له ولأمثاله من الضالين الجاهلين.

وأعلمهم يا محمد بأن هذا الجزاء من الخالق القادر على كل شيء المالك للسموات والأرض، ممن يجزي السيئة بمثلها والحسنة بعشر أمثالها، من العالم بكل عمل والقادر على إيقاع الجزاء لكل عمل، ممن لا يترك متبع الهدى من أجل الدنيا ومتاعها دون جزاء، ممن يجزي من نسي أو تجاهل أن أحداً لن يحمل عنه وزره.

وتعرض السورة بعدها جوانب من قدرته تعالى: فهو سبحانه وتعالى ميسر أسباب الحزن والفرح، والمميت لكل حي والمحيي يوم القيامة لكل ميت، والخالق للذكر والأنثى أصلاً وفرعاً، والمعيد الأرواح لأجسادها للبعث يوم القيامة، والمغني والمفقر، وخالق نجم الشعرى الذي يعبده بعضهم، ومهلك الأقوام السابقة لكفرهم وطغيانهم.

فكيف بعد كل هذا البيان تشك أيها المشرك المكذب بربك وأنت ترى نعمه لا تعد ولا تحصى عليك؟!

فاحذر من تماديك في الباطل حتى لا يحلَّ بك ما حلَّ بمن كان قبلك أو يحل عليك من عذاب جهنم ما لا طاقة به لك.

واحذر الموت قبل الإيمان والتوبة، وتجنب استغراب هذا الإنذار لك، وتوقف عن الركض وراء متع الحياة، ولا تبك على ما فاتك وأضعته من دنياك، فالفرصة للتوبة النصوح والطاعة الصادقة والعبادة الحق، ما زالت أمامك، وعندها تجد التواب الغفار بانتظارك.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ
﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ
قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾

فالمولى عز وجل يقسم بالنجوم إذا غابت لطلوع الشمس أو سقطت يوم القيامة بقدرته تعالى، فبأيِّ عقل يرون عبادتها وهذه هي حالها؟!

والمولى عز وجل يؤكد بهذا القسم بأن محمداً عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام لم يضلَّ عن الحق ولا ابتعد عن الرشاد وهو يدعوهم إلى الإيمان والإسلام، وأن كلمة واحدة مما يبلغه لهم ليست صادرة منه عن هوى وإنما هي عن وحي من الله تعالى.

وليعلموا أن جبريل عليه السلام هو الذي يبلغه هذا الوحي بما أعطاه الله تعالى من القوة والقدرة على ذلك، وأن جبريل عليه السلام قد ظهر عليه بعد أن طلب منه ذلك على هيئته الملائكية التي خلقه الله تعالى عليها مرة وهو معترض في الأفق الأعلى من الأرض، ومرة أخرى عندما كان النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم في غار حراء، وأن نتيجة ذلك أن غشي على النبي عليه وآله وصحبه السلام من هول وضخامة ما رأى، ورآه مرة ثالثة في السماء عند سدرة المنتهى عندما عُرج به عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام بصحبة جبريل عليه السلام إليها، في رحلة الإسراء والمعراج، وأن جبريل عليه السلام قد دنا بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض ثم نزل على النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بالوحي وذلك بعد أن رده الله تعالى إلى صورة آدمي، واقترب منه عليه وآله وصحبه السلام حتى كان بجانبه على مسافة قصيرة كأقرب ما يكون الإنسان من الإنسان.

فكان ما رآه عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام ليلة المعراج من جبريل عليه السلام أولاً رؤية عين ومشاهدة، وما رآه عليه وآله وصحبه السلام من ربه سبحانه وتعالى رؤية فؤاد لا رؤية عين حقيقة، فكانت رؤية نور لا رؤية جسم محسوس، وما رآه عليه وآله وصحبه السلام من جبريل عليه السلام عند سدرة المنتهى للمرة الثالثة رؤيةَ عين ومشاهدة، وأن تلك الشجرة لم يتجاوزها أحد من الأنبياء غير محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم حيث زجَّ به في النور الرباني، وحيث ينبعث منها النور، وحيث رأى جبريل عليه السلام قبيل اقترابه منها وهو في حلة خضراء تسمّر لمنظره في مكانه فلم يلتفت يمنة ولا يسرة.. وأنه عليه وآله وصحبه السلام قد رأى بذلك مدى عظمة الله تعالى وقدرته وهو خالق جبريل وهذا النور.

وتأتي السورة بعدها لذكر معبودات المشركين من دون الله مستنكرة موبخة.. فتقول:

﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ
ضِيزَىٰٓ ٢٢ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ
وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ٢٣ أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ٢٤ فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ
٢٥ ۞وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ
٢٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ٢٧ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا
ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ٢٨ فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا
٢٩ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ٣٠ وَلِلَّهِ مَا
فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ٣١ ٱلَّذِينَ
يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ
وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢ أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ٣٣
وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ ٣٤ أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ٣٥ أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ٣٦
وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ٣٧ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ٣٨ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩ وَأَنَّ
سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ٤٠ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ٤١ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ٤٢﴾

هل رأيتم هذه الآلهة التي تعبدونها وجمادها، وهل أوحت إليكم شيئاً كما أوحى الله تعالى إلى محمد؟!

انظروا إليها وإلى مدى قدرتها على الدفاع عن نفسها، وانظروا إلى عليّ وهو يهدم مناة منها، والمغيرة وهو يهدم اللات، وخالد وهو يهدم العزى.. ماذا ترون أنها تفعل في الدفاع عن أنفسها؟!

إنها مجرد حجارة بأيديكم تصنعونها، فهي لا تضرُّ ولا تنفع لا نفسها ولا غيرها، فأين عقولكم التي توجهكم لعبادتها؟! فهل نفعت أو ضرَّت أحداً حتى تتخذوها شركاء لله؟!

وكيف تجعلون الملائكة بنات الله والأصنام أبناء الله؟! ما هذه القسمة الجائرة

التي تعطون فيها أنفسكم الذكور وتعطون الله تعالى البنات؟! فها أنتم ترون أن هذه الأصنام مجرد أسماء سميتموها آلهة بأسماء كذا وكذا وأنتم قد نحتموها بأيديكم!!

وها أنتم تسيرون في طريق آبائكم الضالة في عبادتها دون حجة ولا برهان إلا اتباع الظن وهوى الأنفس! وأين الظن والهوى البعيدان عن الحق من الهدى الذي جاءكم به الرسول عليه وآله وصحبه السلام من ربه والذي أكدَّ لكم بأنها ليست بآلهة، وأنها كما ترون لا تملك لكم ضراً ولا نفعاً ولا شفاعة يوم الحساب.

وأن عليكم أن تعلموا أنه لن يكون هناك لكم ما تتمنونه وتشتهونه مما يخالف طاعة الله ورسوله، وأن هذه الدنيا وما فيها لله تعالى وحده، وأن تلك الآخرة وما فيها لله تعالى وحده، وأنه ليس من حق من يعيش فيها أن يخالف أمره ونهيه، فكيف وهو لا يملك إلا أن يعيش فيها؟!

انظروا كيف أنكرتم يوم القيامة فجَّركم ذلك إلى تسمية الملائكة بأسماء الأنوثة رغبة منكم في تزيين دنياكم وأنتم لا تملكون أيَّ علم بذلك، لا أنتم ولا من قلدتموهم من آبائكم، وإنما هو اتباع الظن الذي لا وزن له في الاعتقاد، في الإيمان والكفر اللذين لا بد فيهما من اليقين، وباليقين فقط يثبت الدين ولا يهتز.

وأنت يا محمد، عليك أن تعرض عمن ترك القرآن والإيمان حتى يكون لك شأن آخر فيما بعد معه، وعندها سيكون لأمثال النضر بن الحارث والوليد بن المغيرة شأن آخر أيضاً.

واعلم بأنهم لا يرون من أمر دينهم إلا بنظرهم الجاحد القاصر، ولا يعلمون منه شيئاً إلا هذا التقليد الظني الأعمى الذي يعلمه المولى عز وجل تمام العلم، ويعلم إلى أيِّ مدى هم مغرقون في الضلال والبعد عن الحق، ويعلم من اتبعك على الهدى ممن أصرَّ على الضلال، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

كيف لا وهو سبحانه الخالق القادر، وله ما في السموات والأرض، وقد خلق الخلق وابتلاهم بالتكليف ليجزي كلاً بأعماله، فيتحقق الجزاء العادل عندما يجد المحسن الجنة بانتظاره، ويجد المسيء النار بانتظاره، وبخاصة إذا حرص ذاك المحسن على تجنب الآثام والفواحش من شرك وزنى وأمثاله مما لا حد فيه ولا عذاب بالنار، كما لو وقع في الذنوب الصغيرة التي لا يسلم من الوقوع فيها أحد إلا المعصوم، والتي يغفرها الغفار الرحيم مهما كررها التائب، فإنها لا تمنعه من الجنة ودخولها بفضل الله تعالى ورحمته.

كيف لا وهو سبحانه وتعالى العالم بخلقه منذ خلقهم من الأرض أولاً ثم وهم

أجنَّة في بطون أمهاتهم، والعالم بما قدر في كل منهم من قابلية الوقوع في الفجور والتقوى.

فاحذروا أن تزكُّوا أنفسكم على الله تعالى إذا عمل أحدكم أيَّ عمل بالحسنى لأنه سبحانه العالم علم اليقين بالتقي منكم من الفاجر، وهو تعالى لا ينتقص من عمل أحدٍ منكم قيد أنملة بل يزيد المهتدي هدى ورحمة وفضلاً جزاء إحسانه وتوبته النصوح.

وانظر يا محمد إلى هذا الذي اتبعك، فعيّره المشركون لترك دين آبائه، فارتد بعد أن ضمن له أولئك المشركون أن يتحملوا عنه عذاب الآخرة.

انظر إلى الوليد بن المغيرة الذي ضمنوا له ذلك بزعمهم إن أعطاهم شيئاً من ماله.. وانظر إليه وهو يبخل عن العطاء ويمتنع عنه لمن ضمن أن يعذب عنه.. فمن أين للضامن هذا العلم بالغيب حتى يجرؤ على هذا الضمان؟!

ألم يعلم بما ورد في صحف موسى وإبراهيم عليهما السلام بأن أحداً لا يمكن أن يتحمل مسؤولية غيره يوم القيامة، وأنه فقط سيتحمل مسؤولية عمله هو، وأنه سيجد ذلك في كتابه الذي يعطى له إما بيمينه إن كان محسناً، أو بشماله إن كان مسيئاً، ويتقدم به رغماً عنه لينال جزاء جهنم على إساءته، أو يجازى بالجنة على إحسانه.

إنه الجزاء المطابق لعمله وسعيه، إنه جزاء الله تعالى الخالق العالم القادر العادل الذي يعاقب المسيء ويثيب المحسن، والذي يعطي للولد من شفاعة والده وللوالد من شفاعة ولده المزيد من المثوبة والمغفرة، وما ذلك إلا بدعاء كل منهما للآخر ولا سيما الولد الصالح لوالده.

وتقدم السورة أخيراً نماذج من قدرة الله تعالى، لعل بها تقرع آذان أولئك المشركين قبل فوات الأوان فتقول:

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن
نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾
وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾
وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ
﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا
تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾

ألا ترون أيها المشركون أن الله تعالى هو الذي وفَّر لكم أسباب الحزن والفرح، وجعل في الإنسان الاستعداد لذلك؟

وأنه هو سبحانه الذي يميت الإنسان بعد أن أحياه ثم يحييه بعد أن أماته ليحاسبه على ما كلفه؟

وأنه هو سبحانه الذي خلق الذكر والأنثى بنطفة الأب في رحم الأم فإخصاب البويضة بالحيوان المنوي فتكون النشأة الأولى للجنين؟

وأنه هو سبحانه الذي يعيده للحياة يوم البعث في النشأة الأخرى؟

وأنه هو سبحانه الذي يوسع الرزق، فيغني بعض عباده، ويضيقه، فيفقر بعضهم؟

وأنه هو سبحانه خالق نجم الشعرى الذي يعبده بعضكم من دون الله سبحانه؟

وأنه هو سبحانه الذي أهلك العديد من الأمم السابقة بعد أن ألزمهم الحجة بالرسل والبلاغ المبين، فاستحقوا العذاب بالكفر والطغيان؟

فانظروا إلى عاد وثمود وقوم نوح، وكيف اشتطوا في الظلم والطغيان أكثر منكم يا مشركي العرب،

وانظروا إلى أهل الإفك والفواحش من قوم لوط، وكيف قلب تعالى قراهم وأمطرهم بحجارة من سجيل، فهل هذا العقاب تريدون أو بما نزل من قبلهم ترغبون؟!

ها هو قد أنزل تعالى إليكم رسولاً منكم ينذركم لقاء الآخرة، فهلّا استجبتم؟

اعلموا أن محمداً عليه وآله وصحبه السلام نذير بالحق إليكم، ولكم الفلاح إن استجبتم له، وأن عليكم العقاب يحلُّ كما حلَّ بمكذبي الرسل من قبلكم.

ها هو يوم القيامة قد اقترب، وأجله بيد الله تعالى وحده، ولن ينجيكم عندها من الله تعالى أحد من آلهتكم، فاحذروا من تكذيب هذا القرآن والسخرية منه، ودعوا البكاء خوفاً وهلعاً من الوعيد والإنذار اللذين لن ينجو منهما أحد منكم.

واعلموا أن ما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم «لا يلج النار من بكى من خشية الله، ولا يدخل الجنة مصرٌّ على معصية الله، ولو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيغفر لهم ويرحمهم إنه هو الغفور الرحيم» هو الحق والعدل.

فاحذروا هذا اللهو والغناء الماجنين المبعدين لكم عن طاعة الله تعالى والمشغلين لكم في متع الدنيا.

واذكروا أن الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم لم يُرَ ضاحكاً إلا مبتسماً حتى مات منذ نزول هذه الآيات عليه.

فأقبلوا على الإيمان بالله تعالى وطاعته.. بجميع أنواع الطاعات بدءاً من الصلوات بركوعها وسجودها وفرضها ونفلها، وانتهاء بإقامتها كغيرها من أحكام الله تعالى في حياة الناس بأخذ أيديهم عليها.. والله مع المحسنين.

دليل سورة النجم ـ ٥٣

– إنها سورة مكية، وأنزلت في ٦٢ آية.

– تبدأ بقسم المولى سبحانه بالنجوم عند الغروب بأنها من خلق الله تعالى وأن الهدى لا الهوى هو ما يدعوهم إليه الرسول عليه وآله وصحبه السلام الذي رأى جبريل عليه السلام أكثر من مرة.

– ثم تنعى على المشركين عبادة المخلوقات دون الخالق.

– وتطلب من الرسول عليه وآله وصحبه السلام عدم المبالاة بمن يرتدُّ عن الدين طلباً للدنيا.

– وتعرض جوانب من قدرته تعالى لتستنكر عبادة الشرك والتكذيب والتمادي في الباطل، وتحذر من الموت قبل التوبة والإنابة.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ تأكيد أن الوحي مصدر كل كلمة تبليغ تصدر عن الرسول عليه وآله وصحبه السلام ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾.

٢ ـ بيان أن رؤيته عليه وآله وصحبه السلام لجبريل عليه السلام كانت بالعين حقيقة ولكن رؤيته لربه سبحانه كانت مجرد رؤية نور وليس بجسم محدد محسوس.

٣ ـ تأكيد نفي الظن في العقائد ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾

٤ ـ النهي عن تزكية النفس ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾.

٥ ـ تأكيد أن سعي الإنسان في العقائد والأعمال هي التي يحاسب عليها ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩﴾

٦ ـ التحذير من السهر مع اللهو والغناء الماجنين المبعدين عن ذكر الله تعالى وطاعته. ﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَـٰمِدُونَ ۝٦١﴾.

سورة القمر (٥٤)

التقديم

تبدأ السورة بالتحذير من قرب الساعة وقيام القيامة، ومن الإعراض عن التدبر بآيات قدرته تعالى، والتكذيب بما يبلغ إليهم من كتابه، وعدم العظة والاعتبار بما أصاب الأمم السابقة جزاء ذلك، فلعل في ذلك توبة للعاصي وإيماناً للكافر.

وتعمد السورة لتذكيرهم بقدرة الله تعالى من انشقاق القمر بدعاء الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام بعد أن طلبوا هم أنفسهم ذلك.

وتحذرهم من كبرهم وإعراضهم عن الإيمان بعد أن رأوا تلك المعجزة وأخذوا يتهمون الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأنها من السحر، دون أن يبالوا لا بهذه المعجزة ولا بالنذر التي جاءتهم مما حصل للأمم السابقة.. وكأنهم بانتظار ما يحلُّ بهم من ذلك يوم الحساب!!

وتعرض السورة عليهم قصصاً من الأقوام السابقين وما فعلوه من تكذيب رسل الله تعالى حتى نزل بكل منهم ما يستحقه من العقاب الذي كان قد أنذر به.

فها هم قوم نوح وما أصابهم من الغرق، وقوم لوط وما حلَّ بهم من قلب قراهم وحصبها بالحجارة، وقوم فرعون وما انتهوا إليه من الهلاك الماحق بغرق، وقوم عاد وما عصفت بهم من رياح باردة مزمجرة أهلكتهم عن آخرهم، وقوم ثمود وما دمرتهم من صيحة واحدة.

فهل هذا أو بعضاً منه ما تريدونه يا مشركي العرب؟!

اذكروا ذلك واعتبروا وتذكروا أنهم لم يكونوا أقل منكم عدداً ولا أضعف جنداً ولا أقل مالاً.

فاذكروا يا كفار مكة وما حولها، وإلى قيام الساعة، أن الكفر كله ملة واحدة عند الله تعالى، وأنكم على كفركم لن تكونوا خيراً ممن سبقكم من الأمم لتنجوا من العقاب.

واذكروا أنه ليس لكم أيُّ براءة أو نجاة من العقاب ولا في أيِّ كتاب من الكتب المنزلة من الله تعالى على أنبيائه ورسله.

وتأكدوا أنكم ستهزمون أمام الحق لمن صال صولته سواء في الدنيا أو في الآخرة، وستهزمون أمام جحافل الإسلام.

وانظروا إلى مصيركم يوم الحساب وأنتم تسحبون على وجوهكم في نار جهنم، فاذكروا ذلك واعتبروا قبل الموت.

واعلموا أن من يؤمن منكم ويكون من المتقين سيكون من أهل جنات النعيم.. وشتان بين النعيم والجحيم!!

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾

فيا أيها المشركون، ها هي الساعة يقترب موعدها، فماذا أعددتم لها؟

ها أنتم قد طلبتم من الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم أن يأتيكم بآية تدل على نبوته فتؤمنوا معه، وها هو قد دعا ربه استجابة طلبكم، ورجاء إيمانكم، وها هو ربه سبحانه وتعالى قد استجاب لدعاء رسوله عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام، ورأيتم بأعينكم كيف انشقَّ القمر إلى فلقتين كما رآه غيركم.

فلماذا أخلفتم وعدكم، وأعرضتم عن الاستجابة، ورفضتم الإيمان، وزعمتم أن ما رأيتموه هو السحر القوي؟!

لماذا كذبتم نبي الله تعالى، وأنتم تعرفون صدقه، واتبعتم ضلالاتكم التي اخترتموها بأهوائكم؟!

اعلموا أن كل ذلك منكم مسجل عليكم، وسترونه يوم الحساب.

واذكروا ما وصلكم من أنباء الأمم السابقة، وما حلَّ بهم من الهلاك جزاء كفرهم وتكذيبهم، وأن في ذلك ما يكفي لزجركم عن الوقوع في فعل ما وقعوا فيه.

واعلموا أن كل ما يرد في القرآن من البيان الشافي والبراهين المقنعة ليشكل

الحكمة البالغة في أثرها وتأثيرها في النفوس النقية، وأن شيئاً لن يغني عنكم عند تكذيبكم بذلك من العذاب شيئاً.. فاحذروا هذا الإعراض والتكذيب.

وأنت يا محمد، أعرض عنهم ما داموا مكذبين، وما دمت أبنت بدعوتك لهم بالحجة والبرهان كل ما فيه ما يقنعهم بما فيه خيرهم.

واعلم أن لهم يوم يدعو الداعي، يوم البعث والحشر والحساب، ما لهم من الحساب العسير.

فقد أقمت عليهم الحجة، فلست بالمسؤول عنهم وعن أموالهم، فإن العذاب الشديد بانتظارهم، والذل والهوان اللذان لا يقبلهما إنسان عاقل لنفسه بانتظارهم.

فهلّا فكروا وعقلوا وتدبروا وأقلعوا عن الكفر.

وهلّا تذكروا أن الواحد منهم سيخرج يوم البعث كالفراشة التائهة ثم يدعى للحشر فيكون وغيره كالجراد المنتشر وهم يسرعون استجابة لنداء المنادي للحساب وهو يلمس مدى العسر والشدة اللذين ينتظرانه في حسابه.

وتعرض بعدها السورة جوانب مثيرة من قصص الأقوام السابقة في تكذيبهم لرسل الله تعالى إليهم، وفي ذكر ما حلَّ بهم من جزاء ذلك.. فتقول:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾
فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ
عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٥﴾
فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ
عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ
مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ
﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ
كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ
﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي
وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ
مُدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِنْ
عِنْدِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ

﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ
﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا
فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾

فانظروا أيها المشركون المكذبون المعرضون عن الإيمان إلى ما حلَّ بمن سبقكم من الأقوام التي فعلت ذلك من الهلاك والعذاب وإلى ما ينتظرهم يوم القيامة من العذاب الأشد، فلا تسيروا على طريقهم لئلا يحلَّ بكم ما حلَّ بهم.

فانظروا إلى قوم نوح عندما كذبوه واتهموه بالجنون وزجروه عن دعوته، فدعا الله أن ينصره عليهم، فانهمرت الأمطار من السماء لتغرق الأرض في الطوفان ولكن لينجوا في السفينة نوح والمؤمنون معه فقط بعد أربعين يوماً من الأمطار وتفجر العيون من الأرض.

أليس لكم في ذلك عبرة وأيُّ عبرة لمصير من يكذِّب الرسول؟! وهلا اتعظتم من ذلك وخفتم من عذاب الله تعالى وإنذاره الواضح الصريح لكم بما ورد في هذا القرآن الميسَّر السهل للفهم والمعرفة والحفظ؟!. وهلّا وجدتم فيه ما يذكِّركم ويعيدكم إلى صوابكم بدلاً من الهلاك على طريقة غيركم؟!

وها هم قوم عاد وما فعلوه برسول الله تعالى هود عليه السلام عندما كذبوه واشتطوا في سوء معاملتهم له فأرسل الله تعالى عليهم ريحاً باردة مزمجرة في ذلك اليوم النحس بما وقع فيه عليهم من العذاب، فكانت تقتلعهم من بيوتهم ومواضع تخفيهم وتلقيهم كجذوع النخل المنقعرة الفارغة من لبها.

فهلّا اعتبرتم أيها المشركون من عذاب الله تعالى هذا ونذيره لكم بهذا التذكير الميسَّر في القرآن؟!

وها هم قوم ثمود وتكذيبهم رسول الله صالح عليه السلام بحجة أنه أحدهم وهم بمجموعهم أولى منه بالفهم والهدى، وأنهم يريدون آية فاستجاب الله تعالى لطلبهم فأرسل لهم الناقة ليلزمهم الحجة، ولكنهم بدلاً من الطاعة في توزيع الماء يوماً لهم ويوماً للناقة، وشربهم لبنها في يومها، بدلاً من ذلك حرَّضوا أحدهم على قتلها، فعقرها فأبادهم الله تعالى بصيحة واحدة حوَّلتهم كالحشيش الجاف المنتشر على الأرض في كل مكان.

فتذكروا أيها المشركون ذلك ولا تأخذكم العزة بالإثم فيكون مصيركم مصيرهم!!

وها هم قوم لوط وتكذيبهم لرسول الله لوط عليه السلام رغم كل النذر إليهم،

وإصرارهم على فاحشتهم حتى أنهم أرادوها لضيوفه دون أن يعرفوا أنهم من الملائكة ولكن استهوتهم وسامتهم، فما كان إلا أن أعماهم الله تعالى وأوقع بهم العذاب مع الصباح حتى قلبت قراهم عاليها سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل.

وها هي قراهم شاهدة بما يظهر من آثارها، وفي طريقكم إلى الشام حيث يمكنكم أن تروها.

فهلا اعتبرتم أيها المشركون بذلك وتذكرتم بتذكير القرآن السهل الواضح لكم؟!

وها هم قوم فرعون وتكذيبهم لرسول الله تعالى موسى عليه السلام، فأخذهم الله بصنوف من العذاب ليعتبروا، ولكنهم أصرُّوا على باطلهم فأغرقهم تعالى في اليمِّ دون أن يجدوا أحداً يمنعهم من العذاب.

فهلّا اعتبرتم يا مشركي العرب، وهلّا أقلعتم عن غروركم بقوتكم قبل أن يحلَّ بكم من العذاب ما حلَّ بمن كانوا مثلكم؟!

وتنذر السورة أخيراً، أولئك المشركين بما ينتظرهم في الدنيا والآخرة من العذاب، وتذكّرهم بالفرق بين حال الكفر وبين حال التقوى، فتقول:

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾

مستنكرة عليهم زعمهم بأنهم أفضل وأقوى من تلك الأمم السابقة، وأن لهم ما يبرؤهم من وقوع العذاب بهم.

وتؤكد لهم أن كثرتهم لن تنصرهم أمام قوة الله تعالى، بل سيهزمون ويهربون، وهذا ما حصل في بدر فعلاً فيما بعد، وأنه سيحلُّ بهم في الآخرة ما هو أشد من ذاك العذاب.

فاذكروا أيها المجرمون الضالون بأن طريق الضلال الذي تسيرون فيه سيؤول بكم إلى نار جهنم.

واعلموا أن الله تعالى لم يقض ويحكم بذلك عليكم على خلاف اختياركم بل إنه مسجل عليكم بعلم الله المطلق أنكم ستختارون ذلك، وأن العذاب سيحل بكم بظلمكم في نفسكم، ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

واعلموا أن أمر الله تعالى إذا جاء موعده فإنه يقع كلحظة واحدة بل أسرع من البصر.

واذكروا كيف أهلك الله تعالى أشباهكم في الكفر من الأمم السابقة، وأن كل ما تفعلونه وفعلتموه مسجل عليكم في صحائفكم مهما كان صغيراً أو كبيراً.

واحذروا ذلك وسارعوا إلى الإيمان والتوبة النصوح لإنقاذ أنفسكم.

وانظروا إلى ما عليه المتقون، وما يتنعمون به في جنات النعيم، بأنهارها الجارية ومكانتها العالية.

فهلّا حرصتم أن تكونوا مثلهم؟؟

دليل سورة القمر ـ ٥٤

– إنها سورة مكية، وأنزلت في ٥٥ آية.

– تبدأ السورة بالتحذير من قرب يوم القيامة والإعراض عن التفكر بآيات الله.

– ثم تذكّر المشركين بقدرته تعالى على شق القمر وقد رأوه بأعينهم بعد أن طلبوه بألسنتهم.

– وتذكّرهم بما حل بالمكذبين من الأقوام السابقين فليحذروا ذلك.. وأنه لا نجاة لهم من العذاب مع الإصرار على التكذيب بينما النجاة لمن يؤمن ويكون من المتقين قبل الموت.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ إن إعراض المكذبين أمر مستمر مع الإنسان مهما كانت الحجة جلية محسوسة كشق القمر الظاهر للعين المجردة، ولا يكتفون بالتكذيب بل يلجأون للتأويل من أنه سحر ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾.

٢ ـ تأكيد سهولة أخذ الذكرى من القرآن وسهولة فهمه حجة قوية على العرب المخاطبين والمطالبين ابتداء باعتناق الإسلام وحمله للناس كافة ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾.

٣ ـ تأكيد تذكير المشركين بما حل بالأمم السابقة مع التركيز على جوانب أخرى

من قصصها وبأسلوب آخر إعمالاً للمؤثرات المختلفة على عقل الإنسان ونفسيته ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤﴾.

سورة الرحمن (٥٥)

التقديم

افتتحت السورة باسم ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١﴾ كاسم من أسماء الله الحسنى، وذلك ليعلم عباده بأن جميع ما يذكره في السورة بعدها هي من أفعاله سبحانه، ومن ملكه وقدرته سبحانه، وأنها كلها قد جاءت من فضله ورحمته مع عباده.

ثم تذكر الإنسان وما صنع الله تعالى به، وما منّ سبحانه به عليه.

ثم تذكر حسبان الشمس والقمر، وسجود النجوم والشجر لله تعالى في عبادةٍ وتسبيح لا يعلمها إلا هو سبحانه.

ثم تذكر رفعه تعالى للسماء، ووضعه الميزان بالعدل، ووضعه الأرض بهذا الشكل لتكون صالحة لعيش عباده عليها.

ثم خاطبت الخلق بتصنيفهم بين إنس وجن، مذكِّرة لهم بما صدر من نعم الله تعالى عليهم، وكيف أن الكثير منهم قد أشركوا به سبحانه وتعالى وعبدوا الأوثان وغيرها من المعبودات وجحدوا نعمه ورحمته بهم.

فكيف يفعلون ذلك وهو سبحانه وتعالى الذي خلق الإنسان من صلصال وخلق الجان من مارج من نار؟

وكيف يكذبون بقدرة الله تعالى وها هي قدراته سبحانه تظهر في خلقه للإنسان والجان، وفي خلقه للسموات والأرض وما فيهما، خلقاً من بعد خلق؟؟

وها هي قدرة الله تعالى واضحة للعيان في هذا الخلق وهي تؤكد وتكرر مواضعها في خلقه فكيف تقعون في هذا التكذيب؟!

وانظروا وقد رأيتم عظمة الله تعالى في خلقه لكم أنتم والجان، وقدرته في خلقه للسموات والأرض وما فيهما ومن فيهما.

انظروا إلى تدبيره تعالى لهذا الكمِّ الهائل من المخلوقات الموزَّعة بين أحياء وسوائل وجمادات وغازات، وبين أنواع لا تعدُّ ولا تحصى من كل صنف، أيُّ نظام وضعه سبحانه لتدبير هذه المخلوقات بل أيُّ نظام لكل منها بل أيُّ نظام لكل نوع من أصنافها؟!

وانظروا إلى يوم القيامة وأهوالها، وإلى النار وسعيرها، وإلى الجنان ونعيمها، انظروا إلى ذلك كله واختاروا بينها.

واذكروا أن ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ اسم مبارك لما فيه كجامع لكثير من جوانب أسماء الله الحسنى من الرحمة والجلال والإكرام والإنعام الشيء الكثير.

التفسير

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ۝١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾

فتبدأ بـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ كأحد أسماء الله تعالى الحسنى الدالّ على رحمته العظمى لتقول بأن من هذه الرحمة تعليم الله تعالى الإنسان القرآن عندما أنزله على رسوله المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وأمره بتبليغه للناس، وأخبره وأخبرهم فيه بأنه سبحانه قد خلق أول إنسان وهو آدم عليه السلام وعلمه أسماء الأشياء كلها، وما فيها من حلال وحرام، وما فيها من نفع وضر، وأعطاه العقل المميز بين كل تلك الأشياء.

وتذكر السورة بعدها بأن من قدرة الله تعالى أن خلق الشمس والقمر، وجعلهما يجريان بحساب معلوم يتناسب مع موقع كل منهما في هذه المجموعة الشمسية كلها، كما جعل الأرض تجري وتدور حول نفسها ليحصل الليل والنهار، وحساب الأوقات كلها سواء حسب النظام الشمسي أو النظام القمري، وفي ذلك ما فيه من رحمة الله تعالى وفضله.

وبعدها تذكّر السورة بقدرته تعالى في خلق الأشجار بأنواعها من ذوات السيقان وغير ذواتها مما يسمى بالنجم، وكيف تسجد هذه الأشجار لله تعالى بحال وشكل لا يعلمه إلا الله تعالى.. وإذا كانت هي تعبد الله تعالى خالقها فكيف يعبدها من يعبدها من أولئك المشركين؟!

وتذكّر بعدها بخلق السماء بهذا الارتفاع وبغير عمد يراها الإنسان بعينه المجردة، وإن كان قد يحس بها من خلال التعرف على نظام الجاذبية ونظام المغناطيسية والأشعة الكونية ونظمها الكهربية.

وتذكّر الإنسان بما وضعه تعالى عندما خلق هذا الخلق، إنه العدل الذي فرضه على جميع خلقه، وعدم السماح لهم في التعامل البشري بأيٍّ تطفيف في الكيل والوزن.. مؤكدة لهم بأن من يلزم بهذا العدل لا يمكن أن يقبل الظلم بالشرك به وفي التعامل مع خلقه.

وتذكّر أخيراً، بقدرته تعالى في خلقه للأرض وتسخيرها للإنس والجن، إقامة ومعاشاً، بما فيها من طعام وشراب ولباس.

فكيف يقبل منهم الشرك معه غيره؟!

وتستنكر التكذيب لأيٍّ من هذه النعم أو نسبتها لغير الله تعالى.

وتتحدث السورة بعدها عن قدرته تعالى في خلق الإنسان والجانّ، والأرض بجهاتها، والبحار بكنوزها.. فتقول:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾

فتوضح أن المولى عز وجل قد خلق الإنسان من طين يابس كالفخار بعد أن كان تراباً فطيناً فحماً مسنوناً، وأخيراً صلصالاً.

وأما الجانَّ فخلقه تعالى من لهب النار، والأرض خلق مشارقها ومغاربها، والبحار حلوها ومالحها على الأرض وفصل بينها وأودع بها الكنوز من اللؤلؤ والمرجان كما يسَّرها لسير السفن تمخر عبابها كالجبال الطافية.

فكيف يشرك المشركون من الإنس والجن بهذا الخالق الذي انفرد بكل هذه المخلوقات وأنتم لا تملكون تكذيبه في خلق شيء منها كلها؟!

وتذكّروا أنكم ستموتون جميعاً ليبقى الله عز وجل وحده الذي خلقكم والذي له العظمة والكبرياء والتكريم والتنزيه عن كل شرك.

وتشير السورة بعدها لجانب آخر من قدرته تعالى في رزقه لعباده ومحاسبتهم يوم الجزاء .. فتقول:

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾

فانظروا أيها الجن والإنس إلى سؤال أهل السموات لله تعالى الرحمة، وإلى سؤال أهل الأرض الرزق، والى سؤال الفريقين منهما له تعالى القدرة على عبادته.

فهل وجدوا غير أنه من شأنه تعالى أن يغفر الذنب ويفرج الكرب وهو الذي يفعل ذلك كله ويرفع أقواماً ويضع أقواماً؟ فلماذا يتوجه بعضهم للشرك به تعالى في عبادته؟!

وانظروا إلى قدرتكم: فهل يستطيع أحد منكم أن يهرب يوم القيامة من الحساب على كل أعماله وأقواله في هذه الدنيا؟

وهل يستطيع أن يخترق أقطار الأرض أو أجواء الفضاء دون وسيلة أخرى تساعد على ذلك؟

إنكم تعلمون أن أحداً منكم لو حاول ذلك لقذفه الله عز وجل بشهاب من نار ونحاس ملتهب يقضي عليه فوراً إن لم يحرق ودون أن يجد أيَّ ناصر له ينقذه ويدفع عنه هذا الهلاك؟!

وبعدها تورد السورة بعضاً من مشاهد يوم القيامة فتقول:

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى

ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ
﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ
جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾

فتشير إلى تشقق السماء يوم القيامة وتحولها إلى اللون الأحمر الغامق من شدة ضراوة نار جهنم، وإلى أن أحداً في ذلك الوقت لن يستطيع أن يسأل عن ذنبه ليعرف حاله ومصيره، ولكنه وقد رأى ما رأى فإنه يعلم علم اليقين بأن الله تعالى أعلم بحاله من نفسه.

وهنا يوبخ المشرك بالسؤال عن السبب الذي دفعه لأعماله السيئة في الدنيا، وعندها يختم على فمه الذي اعتاد أن يتعجل الإجابات الكاذبة لتشهد عليه جوارحه بدءاً من رجله اليمنى.

وعندها يظهر المجرمون فيعرفون بسيماهم ووجوههم التي غشاها السواد، فيقال لهم بأن هذه هي النار التي أنذرتم وأنذرتم بها فكذبتم وأعرضتم.

فيساقون بعدها إلى الجحيم ليستشعروا شدة حرارتها، وحميم شرابها، وغليان حميمها، وزقوم طعامها، ومرارة شدتها.

وأما المتقون، وما أدراك ما المتقون.. فلكل منهم جنتان، بستانان واسعان، تملأهما الأشجار الوارفة الظلال، والأغصان الممتدة والكثيرة الفروع، وتجري فيهما عينان من الماء العذب الزلال، وتزدحم فيهما أنواع الفواكه.

وهو (المؤمن التقي) يتكئ على فراش بطانته من الحرير.. ويأتيه ثمر بستانه بمجرد التطلع إليه ورغبته فيه.. وبجانبه أبكار الحور العين، بياضهن كاللؤلؤ المصون، قصرن عيونهن على أزواجهن.. ألوانهن كالياقوت والمرجان حتى قال عنهن الصادق المصدق محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم «إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقيها من وراء سبعين حلة حتى يرى مخها».

فيا عباد الله من المتقين ويا أيها المجرمون، ماذا تنتظرون يوم الحساب غير أن يعطى لكل منكم جزاء إيمانه وعمله، فمن أحسن فله الحسنى وزيادة، ومن أساء فعليه سوء عمله.

فهلموا إلى الحسنى واهربوا من غيرها!

وتختم السورة عرض هذه المشاهد بذكر جنتين أخريين للمتقين وعما فيهما، فتقول:

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾

فانظروا إلى خاتمة السورة وهي تعرض هذه المشاهد الأخَّاذة الآسرة للمتقين وما أعدَّ لهم المولى عز وجل من الجزاء الطيب.

إنهما بستانان آخران.

في الأولين النخل والشجر، وفي هذين الزروع والنباتات والفواكه الأخرى.

يسيطر اللون الأحمر والشديد الحمرة على أشجار الأوليين بينما يسيطر اللون الأحمر الغامق المائل إلى السواد من شدة الخضرة على الآخرين.

تجري في الأولين عينان بينما تضخ في الأخريين عينان أخريان.

تحفل الأوليان بصنفين من كل فاكهة وفي الأخريين فاكهة خاصة من نوع النخل والرمان.. في الأوليين بطائن الفرش من الديباج بينما في الأخريين من الديباج العبقري الموشّى.

في الأوليين تشبه الحور الياقوت والمرجان بينما في الأخريين الحور الحسان.

شجر الأوليين ذات أغصان بينما في الأخريين سواد الخضرة.

وهل هذه الجنان الأربعة للواحد من المتقين أم أن الأوليين لدرجة معينة من التقى والأخريين لدرجة أخرى؟

وهل لكل تقي جنتان فقط وليس أربعة؟

هذا ما يدل عليه تغيُّر أوصاف الجزاء تبعاً لتغيُّر مراتب الأتقياء.. وسواء كان هذا أو ذاك فهو ما يستدعي التسابق.

فيا عباد الله من الإنس والجن، هذه هي قدرة الله تعالى على الخلق والحساب، فماذا أعددتم لأنفسكم يوم تلقونه؟!

دليل سورة الرحمن ـ ٥٥

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ٧٨ آية.

- تبدأ بمخاطبة الإنسان باسم (الرحمن) الدال على الرحمة العظمى لتخبره بأن رحمة الله تعالى وقدرته تشمل كل شيء من خلق المخلوقات وتدبيرها.

- ثم خصَّت الميزان والعدل فيه بالذكر لشدة حساسية ذلك في التعامل وتحقيق التراحم بين الناس.

- ثم خاطبت الخلق بصفتهم إنس وجن، وذكرتهم بقدرته تعالى عليهم واستنكار عبادة غيره.

- ثم دعتهم للتفكر بهذا النظام البديع الذي دبَّر تعالى خلقه فيه كل حسب ما يناسب.

- وأخيراً ذكّرتهم بأهوال يوم القيامة والحساب.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ إبراز سهولة التعليم بعامة وتعليم القرآن بخاصة للإنسان كأعظم نعم (الرحمن) على الإنسان فأوردته السورة قبل ذكر الخلق ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣﴾ وإن أوردت بعدها تعليم البيان إشارة لتعليم آدم أول البشر بيان أسماء الأشياء كلها وما يلزمه منها فكان ذلك التعليم بداية لكل العلوم والمعارف حتى قيام الساعة.

٢ ـ ذكر رفع السماء ووضع الميزان في آن واحد دليل الدقة في الخلق والتدبير ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧﴾.

٣ ـ تأكيد أن الخطاب في السورة كلها موجه للإنس والجن معاً فتكرر التأكيد على الاثنين معاً وعلى استنكار تكذيب شيء من نعم الله تعالى عليهما ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾.

٤ ـ تأكيد موت كل الخلق قبل يوم القيامة ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ۝٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٢٧﴾.

٥ ـ تأكيد إمكانية عبور أجواء الفضاء ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾.

٦ ـ تأكيد الجزاء الحسن لمن يحسن الإيمان والطاعات ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾.

سورة الواقعة (٥٦)

التقديم

لهذه السورة من الشمول للأمور كلها ما جعلها يصدِّق قول القائل فيها بأن من أراد أن يعلم نبأ الأولين والآخرين، ونبأ أهل الجنة وأهل النار، ونبأ أهل الدنيا وأهل الآخرة، فليقرأ سورة الواقعة.

وجعلت هذه السورة ابن مسعود رضي الله عنه يقول للإمام عثمان رضي الله عنه عن اطمئنانه على بناته بعد موته بجانب فضل ربهم ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً».

والسورة تبدأ بالتذكير بما يحصل عندما تقع الواقعة وتقوم الساعة.. فتقول بأن أحداً لا يملك يومئذ وهو يراها بأم عينيه تكذيب وقوعها حتى لو مات مصرّاً معانداً مكابراً على ذلك.

ثم تتحدث السورة بتصوير آخذ بالعقول والألباب عما يحصل للبشر، وللأرض بجبالها وسهولها.

للبشر وهو يتوزعون بين أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة، والسابقين، وما تكون عليه حال كل فريق من هذه الفرق الثلاثة.

فنجد السابقين يقلون قلة المعدن النفيس، ونجد الآخرين يكثرون كثرة المعدن الرخيص.

ونرى كيف يتنعم السابقون بأنواع من النعيم مما يفوق ما يتنعم به أهل اليمين بكثير، ونجد أهل الشمال وهم يكتوون بنار الجحيم ولا يأكلون إلا الزقوم، ولا يشربون إلا الحميم!!

وتعرض السورة بعدها عدداً من الحجج والبراهين الدالة على قدرة الله تعالى سواء في خلقه تعالى للمخلوقات أو رحمته وفضله بهم.

إنه تعالى هو الذي خلقهم في الأصل من تراب ثم من التزاوج بين الذكور والإناث.

إنه تعالى هو الذي أحياهم بعد أن كانوا عدماً، ويميتهم بعد أن ملأوا الأرض حياة، ويحييهم يوم القيامة للحساب.

إنه تعالى هو الذي يملأ الأرض والبحار عليهم رزقاً وفضلاً.

إنه تعالى هو الذي يريهم إحياء الأرض بعد موتها دليلاً على إحيائهم بعد موتهم يوم القيامة.

إنه تعالى هو الذي يملأ عليهم وجه الأرض بما ينزل عليه من الأمطار بالمزروعات والنباتات التي تضيق عن الحصر عدداً.

وبعد أن تذكِّر في نهايتها بأن القرآن تنزيل من رب العالمين يجب الإيمان به والعمل بأحكامه تبيِّن ما لكلٍّ من الفرق الثلاثة السالفة الذكر من جزاء يوم الدين، يوم لا يظلم الناس شيئاً ولكنهم أنفسهم كانوا يظلمون.

التفسير

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ۞ إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ﴿٤﴾
وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ﴿٥﴾ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ﴿٦﴾ وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ﴿٧﴾ فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ
ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي
جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا
مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا
يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٞ ﴿٢٢﴾ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ
ٱلۡمَكۡنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ﴿٢٦﴾
وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ﴿٢٨﴾ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ﴿٢٩﴾ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٖ
مَّسۡكُوبٖ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ
﴿٣٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ﴿٣٧﴾ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٞ مِّنَ
ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ﴿٤٢﴾ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٖ
وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُواْ يَقُولُونَ

﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾
لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾
فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾

فاذكروا أيها المؤمنون، واذكروا أيها الكافرون، عندما تقوم القيامة التي لا مجال عند قيامها للتكذيب بها.

اذكروا أن الله تعالى يرفع في ذلك اليوم مكانة المستضعفين المؤمنين المتقين، ويخفض مكانة المتغطرسين الكافرين المتكبرين.

اذكروا أن الأرض التي تعيشون عليها وتنسون أن الله هو خالقها، أن هذه الأرض تهزُّ في ذلك اليوم هزاً تتكسر معه بل ينسف ما عليها من الجبال، وتسوَّى بالأرض، وتصبح كأنها لم تكن، وأن سطح الأرض يصبح منبسطاً لا ترى فيه عوجاً ولا أمتاً.

اذكروا أن الناس كلهم، مسلمهم وكافرهم، يبعثهم الله تعالى في ذلك اليوم من قبورهم ثم يساقون للحساب بين يدي رب الأرباب.

اذكروا كيف أن الناس في ذلك اليوم يقسمون إلى ثلاثة أقسام: أصحاب الميمنة بكل ما لهم من مكانة رفيعة، وأصحاب المشأمة بكل ما لهم من مكانة وضيعة، والسابقون المقربون بكل ما لهم من مكانة سامية.

انظروا إلى أولئك السابقين وهم بسموِّهم يشملون جماعة من الأمم السابقة ومن أمة محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

انظروا إليهم وهم متكئون متقابلون بوجوههم على سرر مصفوفة في الجنة ونسيجها من الذهب والجواهر الأخرى النفيسة.

انظروا إلى الغلمان الخالدين وهم يقومون على خدمتهم، فيقدمون لهم من الشراب الطيب أكواباً وأباريق وكؤوساً، ومن الفاكهة التي تشتهيها أنفسهم، ومن لحم الطير الذي يختارونه برغباتهم.

انظروا إليهم وهم يتمتعون بأزواجهم من الحور العين اللائي يفوق بياض الواحدة منهن بياض اللؤلؤ المحفوظ.

انظروا إليهم وهم يتمتعون بذلك كله جزاء ما عملوه في الدنيا من الأعمال الطيبة، جزاء ما طويت عليه أفئدتهم من الإيمان الصادق حتى لم يعد يسمع بينهم لغو ولا مأثمة وإنما هو تبادل السلام ولطيف الكلام.

وانظروا إلى أصحاب اليمين وهم يتفيأون شجر السدر بلا شوك وبثمار وفيرة شهية، وشجر الموز المتراصِّ القطوف، ودائم الظل الذي لا يزول.

انظروا إلى الماء الجاري بلا انقطاع من بين أيديهم، وإلى الفاكهة المتنوعة الكثيرة الأصناف والطعوم التي لا تنقطع في صيف ولا شتاء.

انظروا إلى فرشهم المرفوعة بدرجات متناسبة مع رفعة مكانتهم، وإلى ما على تلك الفرش من نسائهم المؤمنات وحور العين الجميلات بل رفيعات القدر بحسنهن وكمالهن وديمومة بكارتهن مهما تمتع بهن أزواجهن، وديمومة احتفاظهن بسنِّ الثلاث والثلاثين.

انظروا إليهم واسمعوا قول رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم فيهم «هم جميعاً من أمتي».

وانظروا إلى أصحاب الشمال وهم يتقلبون في حرِّ جهنم، ويكتوون بحرِّ لهيبها، وظلها الحار الأسود.. جزاء شركهم وبطرهم وإنكارهم يوم البعث.

انظروا إليهم وهم يحترقون جزاء تكذيبهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وهو يؤكد لهم أنهم سيبعثون مع آبائهم الأولين في هذا اليوم، يوم الدين.

انظروا إليهم وهم لا يأكلون إلا شجر الزقوم ولا يشربون إلا من الجحيم كما تشرب الإبل العطاش التي لا ترتوي لمرضها.

انظروا إليهم وتذكروا أنهم هم أنفسهم قد اختاروا هذا المصير لأنفسهم بكفرهم وعنادهم واستكبارهم.

وتذكّر السورة بعدها بالعديد من الحجج والبراهين الداعية للإيمان بالله تعالى وبيوم القيامة.. فتقول:

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ
قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ
عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾
لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ
ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ
﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً
وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

فانظروا يا ذوي الألباب وأنتم تقرُّون بأن الله تعالى قد خلقكم وتأكدوا بأنه عز وجل قادر على بعثكم يوم القيامة لمحاسبتكم، كيف لا والإعادة كالابتداء.. بل أيسر وأسهل.

وانظروا في البراهين التالية: هل أنتم من يصور الإنسان في رحم أمه بعد أن صبَّ الرجل منيّه في رحم زوجته أم أن الله تعالى هو المصور البارئ المقدر؟

وهل أنتم من قدَّر هذا الموت عليكم أم أنه خالقكم وبارئكم؟

إن عليكم الإقرار بقدرته على بعثكم للحساب كما تقرُّون بقدرته على إماتتكم.

وتذكَّروا أن أحداً منكم لا يستطيع أن يمنع ربكم من الإتيان بغيركم بدلاً منكم بعد أن يميتكم ويحيلكم إلى صور أخرى.

وتذكَّروا أنكم كما علمتم وتيقَّنتم من خلقكم من بطون أمهاتكم عليكم أن تستحضروا ذلك في عقولكم وأنتم تنكرون بعثكم لتدركوا أن هذا الموقف مجرد عبث منكم في عقولكم.

وانظروا في حرثكم وبذركم الحب في الأرض، فهل أنتم بقدرتكم تنبتون هذا الزرع من الحب وتجعلونه يأتيكم بهذا المحصول أم أن الله تعالى وحده يفعل ذلك وهو رازقكم الذي يحيطه برعايته ويحميه من الآفات والجوائح العديدات التي ما أسرع أن تحيله إلى طعام وهشيم لا يصلح لا لأكل ولا لغذاء؟

واذكروا كيف أن العجب يسيطر عليكم مما حل بكم مع جائحة فتأخذون في الندم على استخفافكم بقدرة ربكم وعلى ما اقترفتموه من معاصٍ قد يكون ما حل بكم جزاءها من ربكم.

وانظروا إلى هذا الماء العذب الزلال الذي ينزله تعالى من السماء لتشربوا منه وتسقوا أنعامكم وبساتينكم، فهل لكم من دخل في إنزاله، وفي جعله حلواً عذباً لا ملحاً أجاجاً؟ وهل شكرتم المنعم المتفضل بذلك عليكم؟

وانظروا في هذه النار التي تشعلونها من هذا الشجر الذي كانت تملؤه الرطوبة والذي خلق لكم فيه سبحانه وتعالى خاصية الاحتراق بقدره وتقديره، فهل أنتم من جعل ذلك أم الله تعالى خالقكم هو الذي جعل لكم في ذلك ما يذكركم بقدرته وتدبيره لكم لتقروا بذلك وتشكروه وأنتم تجدون فيه ما يمدُّكم بالقوة التي تمكنكم من التمتع بحياتكم سواء في سفركم أو إقامتكم؟

وأنت يا محمد، لا تبال بإنكارهم لفضل الله تعالى عليهم، وكفرهم بنعمه الكثيرة، واستمر في تنزيه الله تعالى مما يضيفونه إليه من الأنداد والعجز عن بعثهم.

وتتحدث السورة في نهايتها، بعد أن تقسم بأن القرآن هو كتاب الله الذي لاشك فيه، عن عجزهم عن إحياء الميت منهم، وعن تلك الفئات الثلاثة السالفة الذكر، وما لكلٍّ من الفئتين الأوليين منهما من الجزاء الطيب يوم القيامة بينما سوء الجزاء للثالثة، فتقول:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾
فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم
مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ
﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ
صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ
ٱلۡيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٞ مِّنۡ
حَمِيمٖ ﴿٩٣﴾ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

فتؤكد السورة بهذا القسم بمواقع النجوم، سواء كانت مساقطها ومغاربها قبل يوم القيامة، أو انكدارها وانتشارها يوم القيامة، أو أن ذلك إشارة لنزول القرآن نجوماً على الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام.

فإن هذا القسم عظيم عند الله تعالى الذي سبحانه له أن يقسم بما يريد من مخلوقاته، لما في ذلك من الإشعار لعباده بقيمة خلقه، فكيف به وهو الخالق؟

وأما نحن عباده فليس لنا أن نقسم بغيره تعالى وصفاته وأسمائه الحسنى.

إنه سبحانه وتعالى يؤكد لنا بهذا القسم بأن هذا الكتاب الذي يبلغنا به محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم هو قرآن كريم وليس بسحر ولا كهانة ولا افتراء، كما يحلو لبعضهم أن يفتري عليه، وأنه مكرم عند المؤمنين به من أهل الأرض، كما هو مكرم عند أهل السماء.

كيف لا وهو تنزيل ربهم سبحانه وتعالى ووحيه، وهو يكرم حافظه كما يكرم قارئه.

ويؤكد القسم أيضاً بأن هذا القرآن محفوظ عنده تعالى بوجوده معلوم كل العلم عنده تعالى كأنه في لوح محفوظ، أو أنه هو كذلك، وهو سبحانه العالم كل العلم بما يريده من ذلك، ولكن مقتضى صفة العلم المطلق التي يتصف بها سبحانه لا يستدعي

وجود مثل هذا اللوح المحسوس والذي لا يتصور لنا إلا عند الخشية من النسيان، وهو سبحانه منزَّه عن ذلك.

وتؤكد السورة أن هذا القرآن المصون عنده تعالى لا يمسُّه إلا المطهَّرون من الذنوب، أي: الملائكة، «لا تمسَّ القرآن إلا وأنت طاهر» أمر لكل مسلم مما يختلف عن طهارة الملائكة ويشير إلى الطهارة بالماء.

وتؤكد أن هذا القرآن منزل من لدن رب العالمين، رب الإنس والجن.

فاحذروا أيها الكافرون والمنافقون المكذبون من الاستمرار في نفاقكم وتكذيبكم، وكفوا عن جعل الشكر لله تعالى في خلقه لكم وإنعامه عليكم النعم الكثيرة وأفضلها إنزال هذا القرآن عليكم.

كفوا عن جعل شكركم لله تعالى على ذلك كله تكذيباً بنعمه وفضله.. فلا تقولوا مثلاً مطرنا بنوء كذا وكذا بدلاً من القول بفضل الله تعالى ورحمته.

واذكروا أنه عندما تبلغ روح أحدكم الحلقوم وأنتم تنظرون إليه وملك الموت ينتزع روحه فلا تستطيعون إنقاذه من الموت، اذكروا أنكم لا تملكون إلا التسليم بذلك أمام قدرة الله تعالى.

وكفُّوا عن زعمكم بأن الدهر هو الذي يحيي ويميت، وتأكدوا بأن الله تعالى هو وحده المحيي والمميت، وأنه الأقرب منكم إلى الميت بما يعلمه عنه كل العلم.

وكفُّوا عن زعمكم بأنكم لا تبعثون ولا تحاسبون على أعمالكم، واعقلوا قدرتكم وعودوا إلى ربكم.

واذكروا أن الميت الذي غادركم رغماً عنكم إما أن يكون من المقربين السابقين عند الله تعالى، وعندها سيجد عند ربه يوم الحساب الرحمة والراحة والمتعة بالقرب من ربه بعد أن قضى فترة قبره في حياة برزخية عاشها في روضة من رياض الجنة لا في حفرة من حفر النار، فيتمتع برائحة الجنة وهو في قبره وقبل أن يأتي البعث فيساق إليها برحمة ربه.

وإما أن يكون هذا الميت من أصحاب اليمين الذين يسلمون من عذاب الجحيم ويشعرون بالراحة والطمأنينة وهم يغادرون هذه الحياة الدنيا ليساقوا بعد جنة قبورهم إلى جنة النعيم الخالد التي تنتظرهم عند ربهم، حيث يحيون بسلام وأمان وتحييهم الملائكة عند البعث بتحية السلام.

وإما أن يكون هذا الميت من المكذبين بالبعث الضالين عن الهدى وطريق الحق، وسيجد بانتظاره يوم القيامة الماء المغليّ شراباً، والنار المحرقة مسكناً.

وشتان بين ما عليه هذا الكافر المكذب وبين المقربين وأصحاب اليمين!

واذكروا يا عباد الله، أن الله تعالى سيجعل كلاً منكم يقف على اليقين من هذا القرآن، فالمؤمن قد أيقن في الدنيا فنفعه يقينه في الآخرة، والكافر يوقن يوم القيامة حين لا ينفعه اليقين.

فسبح أيها المؤمن باسم ربك العظيم ونزهه عن السوء، واجعل هذا التسبيح في ركوعك كما اجعل تسبيح سبحان ربي الأعلى في سجودك لتكون مطيعاً لربك ولنبيك.

دليل سورة الواقعة ـ ٥٦

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ٩٦ آية.

- تؤكد السورة في بدايتها بأن وقوع وحدوث يوم القيامة لا مجال لتكذيبه يوم يشاهد تغيُّر الأرض واختفاء الجبال. .

- ثم تبين انقسام البشر إلى ثلاث فئات وفقاً لإيمانهم وطاعاتهم ومصير كلٍّ منهم: إنهم أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة، والسابقون لأصحاب الميمنة بسلامة الإيمان والإخلاص والإكثار من الطاعات.

- ثم تعرض مجموعة من الآيات الدالة على قدرة الله تعالى ورحمته بخلقه سواء من حيث التناسل أو الشرب أو الزرع أو النار، وتطلب تبعاً لها تنزيه الخالق المتفضل عما لا يليق به سبحانه من الشريك.

- ثم تقسم بأن ما يؤمر به البشر من وحي هو القرآن المنزل من رب العالمين، فلا مجال للشك في ذلك.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ بيان أصناف البشر للحساب يوم القيامة دعوة للتسابق بين الناس قبل مجيء ذلك اليوم مما يلزم التصديق بذلك والاستعداد له ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

٢ ـ بيان أربعة أشياء بالذات في قدرته ورحمته تعالى في خلقه دلالة على أهميتها من حيث كيفيات التناسل أولاً ثم الطعام والشراب ثانياً ثم النار وأهميتها في الحياة ثالثاً وأخيراً.

٣ ـ ليس من حق أحد من البشر أن يستخدم القسم بمواقع النجوم ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ كدليل للتنجيم أو غيره من المفتريات لأنه قسم كغيره من الأقسام التي يقسمها المولى سبحانه لتأكيد أمر عظيم ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾

٤ ـ إن احتمال أكثر من معنى للمطهَّرين في ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾ احتاج إلى ترجيح أحدها من السنة: فليسوا هم الملائكة ولا المطهرون من الجنابة وإنما هم المتوضئون.

سورة الحديد (٥٧)

التقديم

سورة الحديد مدنية، نزلت في تسع وعشرين آية، وتشمل الأمور التالية:

يطلق وصف المسبِّحات على هذه السورة وسور الحشر والصف والجمعة والتغابن، وهي تركز على دعوة المؤمنين للإنفاق في سبيل الله تعالى، وعلى نهي المشركين والمنافقين من الاغترار في الدنيا بما بين أيديهم من رزق الله تعالى.

فاذكروا أيها الناس ما في السموات والأرض، وأن كل ذلك يسبح الله تعالى ويحمده ويعبده لأنه مالك الخلق والحقيق بالعبادة ولأنه العالم بكل شيء.

واذكروا بأنه خلق السموات والأرض، والعالم بكل ما فيها من أرزاق العباد، والعالم بكل ما تخفيه صدوركم.

وعليكم بالإيمان بالله تعالى ورسوله عليه وآله وصحبه السلام والإنفاق من مال الله تعالى الذي جعلكم مستخلفين فيه، والذي هو في الأصل ماله تعالى، وأن لكم بهذا الإنفاق أجراً عظيماً.

واذكروا أن المنافقين والمنافقات سيساقون لسوء أعمالهم إلى جهنم يوم الحساب حيث لا يملك أحد منهم أن يفتدي نفسه بشيء مما بخل به في الدنيا.

وعليكم أيها المؤمنون بالخشوع لذكر الله تعالى، واحذروا قسوة القلب كاليهود.

واعلموا أن لكل متصدق منكم بالإنفاق في سبيل الله تعالى أجراً عظيماً ونوراً عظيماً يمشي فيه إلى جنات النعيم.

واعلموا أيها الناس بأن كل ما في هذه الدنيا من أموال وأولاد ونعم وخيرات هو متاع زائل مهما أعجب به الكفار، لأن مغفرة الله تعالى ورضوانه يوم القيامة هي الحياة الحقيقية الدائمة الخالدة التي يحرص عليها المؤمن الذي لا تخدعه كل متع هذه الدنيا الفانية مهما كانت آسرة جذابة.

واعلموا أن علم الله تعالى محيط بكل مصيبة تحل بكم قبل أن تحل لأنه علم مطلق لا يفوته شيء، واذكروا أن عليكم أيها المؤمنون ألا تحزنوا بسبب ما مضى ولا

تفرحوا بما يأتي، لأن المؤمن مدعو للصبر على الابتلاء والشكر على العافية، فأمره كله خير مع ربه الذي لا يحب المتكبر الفخور بمتاع الدنيا على الناس لأنها صفة البخيل الآمر بالبخل المبغوض عند الله تعالى وعند عباده.

واذكروا ما أنزله تعالى على الأقوام السابقين من نعم الهدى والعدل، وما خلق لهم في الأرض من المعادن بما فيها الحديد وما فيه من منافع عديدة، ولكن الكثير منهم لم يؤمن مع رسل الله تعالى إليهم.. فماذا كانت عاقبة دنياهم؟

واذكروا ما جاء به عيسى عليه السلام في الإنجيل من الرأفة والرحمة ولكن الكثير من بني إسرائيل فسقوا عن أمر الله تعالى الذي جاءهم به وعصوه كما كذب الكثير منهم التوراة من قبل.

فيا بني إسرائيل الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام، عليكم بالإيمان بمحمد عليه وآله وصحبه السلام لتنالوا ضعف الثواب.

واعلموا أن النبوة التي أعطاها تعالى لمحمد عليه وآله وصحبه السلام هي من فضل الله تعالى وليس لأحد فيها شيء حتى ترفضوا الإيمان بها.. إنها فضل الله تعالى الذي يؤتيه من يشاء.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ
﴿٦﴾ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ
﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾
هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ
﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ

ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

فاعلموا أيها المؤمنون، ويا أيها الكافرون والمنافقون، بأن كل ما في السموات والأرض من مخلوقات تسبِّح الله تعالى وتعبده، إنه سبحانه وتعالى العزيز الغالب على أمره والحكيم المدبِّر المتقن لصنعه، ولأنه سبحانه يملك السموات والأرض فبيده حياة الأحياء في الدنيا وفي يوم البعث، وبيده مماتهم، فكانوا بأمره في العدم قبل أن يخلقهم، وبيده مماتهم في الدنيا، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

إنه سبحانه الأول فليس قبله شيء، والآخر فليس بعده شيء، والظاهر فليس فوقه شيء، والباطن فليس دونه شيء، والعليم فلا يفوته شيء.

إنه سبحانه خالق السموات والأرض في ستة أيام، فحكمه وسلطانه يحيط بكل شيء كما يحيط علمه بكل شيء.. فلا يدخل في الأرض من مطر ولا غيره، ولا يخرج منها من نبات ولا غيره، ولا ينزل من السماء من مطر ولا غيره، ولا يعرج أو يصعد فيها من ملك أو مخلوق آخر أو عمل إلا وعلمه محيط به، فسلطانه وحكمه شاملان لكل شيء، لكل مخلوق، لكل قول، لكل عمل.. وكلٌّ راجع إلى حسابه يوم القيامة، فيجازي المكلفين بأعمالهم، فإن خيراً فخير وإن شراً فشر ويعفو عن كثير.

إنه سبحانه وتعالى الذي يدخل الليل في النهار فيظلم، ويدخل النهار في الليل فيضيء، إنها سنته تعالى في نظام الكون وحركة الشمس والقمر والأرض التي يدبرها ويسيرها بتدبيره، ويعلم كل حركة وسكنة منها.. يعلم خفايا صدور خلقه وهمسات قلوبهم.

فيا عباد الله، عليكم بالإيمان الصادق اليقيني بأن الله تعالى واحد لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله.

عليكم بالإنفاق والتصدق في سبيله تعالى مما بين أيديكم من الأموال والتي هي في الأصل مال الله تعالى الذي ملكتموه بإذنه، ووسَّعه عليكم أو ضيَّقه بقضائه، واذكروا أنه تعالى يثيبكم بأعظم الأجر عندما ترضونه تعالى في طريقة تملُّككم وطريقة تصرُّفكم بما تملكون.

ويا عجباً ممن لا يؤمن بالله تعالى وقد انتفى كل عذر له في ذلك بعد أن توفرت الحجج والبراهين العديدة المقنعة لكل ذي عقل نزيه وفكر مستنير!!

وأنت يا محمد، انظر إلى هذا التشريع الكامل الشامل بين يديك مما أوحى به ربك إليك، فإنك لن تجد مجالاً لتطلب أيِّ تشريع آخر، ومن أيِّ مصدر آخر، وبلّغ ذلك البشر كلهم من حولك ومن بعدك.

وأعلمهم بأن ما منحهم الله تعالى من عقل مميز ومدرك لكل منهم كفيل بفهم التشريع وتطبيقه الحسن في حياته، بل حياة مجتمعه، ولم يبق لأحد بعد ذلك من عذر لا في الإيمان ولا في الردة عن الإيمان.

كما لم يبق من عذر لعدم الأخذ بهذا التشريع وتطبيقه في الحياة الفردية والمجتمعية، ولعدم الحرص على بقائه مطبَّقاً وبأفضل حال بعد أن وضع المولى عز وجل القرآن بين الأيدي بكل الأحكام.

وهل بغير هذا الإيمان والتطبيق من مخرج من هذه الظلمات التي تعيشها الأمة الإسلامية بل تتخبط فيها أمم البشرية؟

واذكروا أنه بدون الإيمان والتطبيق والحرص على الإنفاق في سبيل الله لن يكون هناك عدل في الأرض ولا إحسان.. لأن بالتطبيق يوجد العدل وبالإنفاق على الجهاد في سبيل الله ينتشر العدل ويتوفر الإحسان.. فأيُّ شيء يمنعكم من الإنفاق هذا في سبيل الله وأنتم تتركون كل هذه الأموال غداً وراءكم.

واعلموا أن من يبادر إلى الجهاد في سبيل الله في ظل راية الله وينفق بسخاء في سبيل ذلك، كما بادر المسلمون قبل فتح مكة وهم فقراء ضعفاء، فإن له أعظم مكانة عند الله تعالى، وهو بذلك يفضل من تخلف عن ذلك، وإن كان لكل من أنفق وقاتل، متقدماً أو متأخراً، الثواب العظيم.

واعلموا أن الإنفاق في سبيل الله يعتبر قرضاً له تعالى ويجزي عليه أعظم الأجر.

واعلموا أن المنافقين يطلبون النور من المؤمنين نور الإيمان ليهتدوا به في طريقهم، وهم يتساءلون عما يكونون فيه من الظلمة والعذاب، متجاهلين نفاقهم وبخلهم في الإنفاق في سبيل الله.

واعلموا أنه لن يقبل من هؤلاء المنافقين أية فدية في ذلك اليوم، لا منهم ولا من الكافرين الآخرين، وأن النار هي مأواهم جميعاً ما داموا قد ماتوا على كفرهم أو نفاقهم.

فليعلموا ذلك وليعجلوا إلى إنقاذ أنفسهم قبل الموت.

وتدعو السورة بعدها المؤمنين للخشوع لذكر الله والطاعة له والتصدق في سبيله وعدم تقدير الحياة أكثر من قدرها.. فتقول:

﴿۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي
الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ
قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ
وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ
﴿١٩﴾ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ
غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ
مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا
كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو
الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن
نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ
وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ
هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾

فيا أيها المؤمنون، لقد حان الوقت لتخشع قلوبكم لآيات الله تعالى وأحكامه، وأن لا تكونوا كاليهود والنصارى الذين مع مرور الوقت قست قلوبهم فاخترعوا كتباً أخرى محرفة عن التوراة والإنجيل، ساروا بها تبعاً لأهوائهم وابتدعوا معها الرهبانية، فغلب عليهم الفسق والخروج عن طاعة الله تعالى.

واعلموا أن الله تعالى هو الذي يحيي الأرض بالمطر بعد موتها وجدبها، وكذلك

تحيى القلوب بذكر الله وطاعته فتعاهدوها، واستحضروا دائماً قدرة الله تعالى واخشعوا لآياته وتصدقوا في سبيله، ولكم بذلك الأجر الطيب يوم القيامة.

واذكروا الفرق الشاسع بين المؤمن المتصدق وبين المنافق البخيل، وكونوا من المؤمنين المتصدقين.

واعلموا أن هذه الحياة الدنيا ليست بأكثر من لعب ولهو سريعة الزوال، وأن كل ما فيها من أموال وأولاد ليست بأكثر من زينة وتفاخر بما بين الناس سريع النهاية، مهما نال من إعجاب أحدكم، ويبقى كالنبات الذي ينال إعجاب المزارع مع قوة ظهوره وشدة خضرته ولكنه ما أسرع ما ينمو وينضج فيصفرُّ لونه، ثم يتحول إلى هشيم، وكأن شيئاً لم يكن.

فلا تغرَّكم هذه الحياة الدنيا فتبعدكم عن طاعة الله تعالى فيضيع الأجر المنتظر للطائعين ويحلَّ محله العذاب الأليم.

وعليكم أن تقبلوا على طاعة ربكم لتدخلوا جنة النعيم التي أعدت للمؤمنين الطائعين جزاء إيمانهم وطاعاتهم.

وكونوا ممن يقدر الحياة حق قدرها ويتعامل معها كما تستحق.

وتذكروا أولاً وقبل كل شيء أن أيَّ مصيبة تصيبكم من قحط أو قلة نبات وثمار أو جوائح في المزروعات أو أمراض وأسقام في الأبدان أو ضيق عيش في المسعى فإنها كلها مسجلة في علم الله تعالى قبل وقوعها لأن علمه تعالى محيط بكل شيء قبل وقوعه وبعده.

وعليكم بذلك ألّا تحزنوا على ما فاتكم من الرزق ومتاع الدنيا، ولا تفرحوا بما توفر لديكم من الدنيا، فكله زائل.

واحرصوا على تسخيره في طاعة الله تعالى والتزام الحلال والحرام فيه، الأمر الذي يبعدكم عن الغرور والتفاخر المكروهة منه تعالى كما يكره البخل والتحريض عليه.

وتشير السورة أخيراً إلى فضل الله تعالى على البشر بالهدى المنزل والرزق الميسر، والى موقفهم من ذلك ودعوتهم للإسلام.. فتقول:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا
ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ
﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ

فَسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا
فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ
فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ
لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ
بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

فاذكروا أن الله تعالى قد أرسل الرسل بالمعجزات والشرائع دعوة للإيمان والطاعة، وأمرهم بالعدل كالميزان في إعطاء الحقوق، وأنه تعالى قد خلق المعادن في الأرض ومنها الحديد لتوفر لكم المنافع الكثيرة في الحرب والسلم، ودعاكم لنصرته باستخدامها في الجهاد في سبيله.

واذكروا أنه تعالى قد أرسل نوحاً وإبراهيم عليهما السلام وجعل النبوة في نسلهما ولكن الفسق غلب على أقوامهم، وأنه تعالى أرسل بعدهما رسلاً آخرين وأنهاهم بعيسى ثم بمحمد عليهما السلام، وأنزل على عيسى الإنجيل بما فيه من رأفة ومودَّة في التعامل، وطلب من اتباعه المزيد من الروحانية بالترهُّب، ولكنهم غيرّوا وبدَّلوا فلم ينج من ارتكاب المنكرات منهم إلا القليل.

واذكروا أن الله تعالى قد ختم الرسل والرسالات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وبالقرآن.

واذكروا أنه عليه وآله وصحبه السلام قد منع الرهبانية بقوله عليه وآله وصحبه السلام «إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية ولكنني بعثت بالحنيفية السمحة، والذي نفس محمد بيده لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها، ولمقام أحدكم في الصف الأول خير من صلاته ستين سنة».

فيا أهل الكتاب من يهود ونصارى، عليكم بالإيمان بالرسول الخاتم محمد صلى الله عليه وآله وصحبه سلم ورسالته الإسلام.

واذكروا أن من يؤمن منكم بذلك يضاعف له الأجر لإيمانه السابق وإيمانه اللاحق، وأن الله تعالى يغفر له كل ذنوبه.

واعلموا أن اصطفاء أيِّ رسول هو فضل من الله تعالى يؤتيه من يشاء وليس لأحد من الخلق دخل في ذلك إذ تعالى هو أعلم حيث يجعل رسالته.. وكفى به عليماً كفيلاً.

دليل سورة الحديد ـ ٥٧

- تبدأ السورة بتقرير ملكيته تعالى للسموات والأرض وما فيهما وأن كل ذلك ينزهه تعالى ويحمده ويجب أن يعبده.

- ثم تأمر بالإنفاق في سبيل الله من مال الله الذي رزقكم به.

- تأكيد الحوار بين المنافقين والمؤمنين يوم الحساب.. وتأكيد أنه لا تقبل فدية من المنافقين والكافرين.

- دعوة المؤمنين بقوة ليحرصوا على التزام أحكام الإسلام ولا يقعوا في خطيئة أهل الكتاب الذين حرَّفوا كتبهم مع طول الوقت وإغراء الدنيا.

- تأكيد أن إغراءات الدنيا ليست أكثر من لهو وزينة وتفاخر في الأموال والأولاد بين طلابها.

- تأكيد أن علم الله تعالى محيط بكل ما يقع في الأرض وداخل النفس البشرية مما يريح الإنسان العاقل من الحسرة والفرح في غير مناسبتهما.

- تأكيد أن ما خلق الله تعالى من المعادن في الأرض وبشكل خاص الحديد بما له من امتيازات وتداخلات في مختلف الصناعات إنما هي لمنافع الإنسان الكثيرة في الحرب والسلم.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ مفهوم ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ أن أصل المال كله لله تعالى وأن فضل الإنسان فيه هو طاعة الله تعالى بإنفاقه، هذا المال الذي ملكه بإذن الله تعالى صاحبه الأصلي.

٢ ـ إن الإنفاق في سبيل الله أي: في الجهاد اعتبره تعالى كقرض له تعالى وأنه سيضاعفه للمقرضين إذا أحسن الإقراض إلى سبعمائة ضعف ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾.

٣ ـ إن التمني والشيطان هما أفظع ما يغرُّ الإنسان في الحياة الدنيا ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ فليحذر النفس الأمارة بالسوء التي يعبث بها الشيطان.

٤ ـ استنكار فقدان الخشوع لذكر الله والتزام أحكامه من قبل المؤمنين أنفسهم بسبب الأهواء ومطامع الدنيا فوقعوا في الفسق ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ

ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾.

٥ ـ على الإنسان المؤمن أن لا يسمح لمتع الدنيا كلها أن تنسيه ما في الآخرة من مغفرة ورضوان مقابل العذاب الشديد ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾.

٦ ـ منع الرهبانية والتبتل بدلاً من الجهاد في سبيل الله فقال عليه وآله وصحبه السلام «لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها، ولمقام أحدكم في الصف الأول خير من صلاته ستين سنة».

سورة المجادلة (٥٨)

التقديم

سورة المجادلة مدنية، ونزلت في اثنتين وعشرين آية، وتشمل الأمور التالية:

تبدأ السورة بالإشارة إلى قصة خولة بنت ثعلبة التي جادلت الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام في أمر زوجها عندما ظاهر منها بأن حرّمها على نفسه كما يحرم على الرجل ظهر أمه.

ثم تتحدث عن مشكلة الظهار هذه، وأنها لا علاقة لها بالأمهات، وأنها في حقيقتها شكل من أشكال الطلاق، وأن من يقع فيها لا يجوز أن يعود إلى زوجته التي ظاهر منها إلا بعد أن يحرر رقبة، وإن لم يستطع ذلك فعليه بالصوم كفارة الظهار لمدة شهرين متتابعين، وإن لم يستطع الصوم لعذر شرعي فعليه أن يطعم ستين مسكيناً، وهذه هي جوانب كفارة الظهار لمن أراد أن يعيد زوجته التي ظاهر منها إلى ذمته، وأما من لم يرد ذلك فهي طالق منه.

وبعدها تتحدث السورة عن المنافقين الذين يخالفون أمر الله تعالى وأمر رسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وتحذرهم من علم الله تعالى المحيط بكل شيء، وأن كل ما يصدر عنهم في مناجاتهم، مهما قلَّ عددهم أو كثر، معلومة عند الله تعالى، فليحذروا ذلك.

وليحذروا العودة إلى المناجاة ومحاولة التواطؤ لإيقاع الأذى بالرسول عليه وآله وصحبه السلام والتظاهر بالتحية، وهم في الحقيقة لا يلقون تحية الإسلام وإنما يشتمون باللعب على الكلام.. فهذه الألاعيب معلومة عند الله تعالى.

ثم تنبه المسلمين إلى النجوى المقبولة منهم، وأنها ليست من نوع نجوى الإثم

والعدوان والعصيان لله ورسوله التي يمارسها المنافقون، وإنما هي التناجي بالبر والتقوى، بأعمال الخير والطاعات.

وتدعو السورة المؤمنين بعدها للتفسح في المجالس بعضهم لبعض، وعدم تعدي بعضهم على بعض بالجلوس في مجلسه بمجرد أن يقوم منه لسبب ما بقصد العودة إليه.

ثم تعود لبيان متى يجوز مناجاة الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن أمروا أولاً بتقديم صدقة قبلها ثم نسخ هذا التقديم.

وتذكر السورة بعدها ما يفعله المنافقون من موالاة اليهود بسبب غناهم، فتحذّر من ذلك لأن من يفعله يكون من حزب الشيطان ويؤول للذل والهوان في الدنيا والآخرة.

وتصف أخيراً المؤمنين الذين يرفضون موالاة كل المخالفين لله ورسوله من كفار ومنافقين، مهما كانوا أقارب لهم، بأنهم من حزب الله المفلحين.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ١ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ٢ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٤ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ٥ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ٦﴾

فانظروا في تلك الشكوى التي رفعتها خولة بنت ثعلبة إلى الله تعالى ضد زوجها الذي ظاهر منها، إنه أوس بن الصامت الذي عاجلها عندما طلبها للفراش فلم تلبِّ طلبه بأن قال لها أنت عليّ حرام كظهر أمي، فرفعت أمرها إلى الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام فأمره الرسول عليه وآله وصحبه السلام أن يعتق رقبة تنفيذاً لأمر الله

تعالى، ثم أمره بالصيام شهرين متتابعين عندما اعتذر بعدم قدرته، ثم أمره بإطعام ستين مسكيناً عندما اعتذر بضعف صحته.

وانظروا إلى الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام وهو يعين أوساً على الإطعام عندما طلب العون لقلة ذات يده.

فالرجل إذا قال لزوجته: أنت عليّ كظهر أمي، أي: محرمة عليه كما هي أمه، فإن ذلك منهي عنه، سواء استخدم اللفظ الصريح المار ذكره أو الكناية، وسواء كانت زوجته مدخولاً بها أو غير مدخول، وشرط أن يكون عالماً بمعنى ما يقول.

وإذا صدر التحريم بالظهار فلا يجوز للرجل أن يقرب زوجته حتى يكفّر عن ظهاره بكفارة واحدة، وعليه أن يكرر الكفارة عند كل ظهار، سواء كانت الزوجة واحدة عند إطلاق الظهار أو أربعة وقصد العدد به وليس واحدة فقط.

وانظروا إلى هذا التحذير الشديد من الإقدام على ذلك عند اعتباره بأن النطق به نطق بقول فظيع وبعيد عن الشرع، وأن فيه كذباً على الله لأن الزوجة لا يمكن أن تكون أماً، وإن كان المولى عز وجل قد عفا وغفر لمن ظاهر فجعل الكفارة هي الخلاص من هذا القول المنكر.

ولكن ليعلم المظاهر بأن دفع هذه العقوبة طاعة لله ورسوله من الإيمان بحدود شريعة الله، وأن عدم أدائها يوقع في العذاب الشديد، وليعلم أن المخالف لله ورسوله بتعدِّيه للحدود يوقعه المولى عز وجل في الخزي في الدنيا، وذلك بما يلحقه وصحبه من الهزيمة، والخزي في الآخرة، بما يلحقه من العذاب الشديد يوم الحساب.

وبعدها تقف السورة مع النجوى، وما يحل منها وما يحرم، فيما بين المسلمين وغيرهم أو فيما بعد فيما بينهم ومع الرسول عليه وآله وصحبه السلام.. فتقول:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا
خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ
بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا
يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا
تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا

﴿ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾

فاذكروا أيها المؤمنون بأن الله تعالى محيط بعلمه بكل ما في السموات والأرض فتجنبوا النجوى بالتهامس فيما بينكم مهما كان العدد قليلاً أو كثيراً، واحذروا أولئك المنافقين واليهود الذين يستخدمون النجوى للإساءة إليكم وإلى الرسول عليه وآله وصحبه السلام.

وانظروا إليهم أيها المؤمنون وهم يتغامزون عليكم ليستثيروا الأسى في نفوسكم، مما جعلكم تشكون ذلك للرسول عليه وآله وصحبه السلام، ولكنهم لم ينتهوا عن فعلتهم.

واحذروا أنتم النجوى بالكذب والظلم ومخالفة الرسول عليه وآله وصحبه السلام.

واحذروا ما يفعله اليهود من إلقاء تحية «السام عليك» على الرسول عليه وآله وصحبه السلام بقصد الدعاء عليه بالموت، فيرد عليهم (السام عليكم)، واذكروا نهي الرسول عليه وآله وصحبه السلام لعائشة من تجاوز هذا الرد عليهم بشتمهم.

واذكروا أيها المؤمنون تناجيهم: لو كان محمد نبياً لعذبنا الله بما نقول، ويرد علينا، ويميتنا بما نقول.. فيرد عليهم بأن عقاب جهنم كافيهم غداً يوم الحساب لو يعلمون هول العذاب فيه.

واحذروا أيها المؤمنون من النجوى فيما بينكم، كما يفعل المنافقون واليهود، وإنما عليكم النجوى بالطاعة وتجنب كل معصية، وأن هذا ما يجب على اليهود كأهل كتاب.

واذكروا أنتم أيها المؤمنون أن النجوى في الأصل عبث شيطاني لبث الحزن في نفوس المؤمنين، كما كان يهدف أولئك اليهود والمنافقون الذين عليهم أن يعلموا أنهم لن يستطيعوا إيقاع أيِّ ضرر بالمسلمين دون أن يعلمه الله تعالى، فكل ذلك محفوظ مسجل عليهم وسيحاسبهم عليه بأشد العذاب.

وأما أنتم أيها المؤمنون فعليكم أن تطمئنوا لنصرة الله تعالى لكم، لأنكم تستعيذون به تعالى دائماً وتتجنبون وساوس الشيطان.

فاذكروا ذلك دائماً واذكروا قول الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم لكم «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن يحزنه» أي حتى لا يقع في نفسه ما يحزن لأجله.

وتأتي السورة بعدها إلى تنبيه المسلمين لمراعاة أدب المجالس.. فتقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١﴾

فعليكم أيها المسلمون ألا تضيقوا على الرسول عليه وآله وصحبه السلام في المجلس، ولا تضيقوا على أنفسكم ولا من بعده، سواء بدافع الحرص على القرب منه عليه وآله وصحبه السلام ليسهل الاستماع إليه والنظر إليه أو بدافع التنافس لقتال أو بدافع الحصول على المكان المناسب يوم الجمعة.

وعليكم أن تراعوا حق المجلس عند اجتماعكم للخير والأجر، فكل واحد أحق بمكانه الذي سبق إليه، ولا تنسوا قول الرسول عليه وآله وصحبه السلام «من سبق إلى ما لم يسبق إليه فهو أحق فيه» بشرط أن يوسع لأخيه دون مضايقة.

واذكروا قوله عليه وآله وصحبه السلام «لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ثم يجلس فيه» وإن كان يجوز أن يوصي أخاً له لأخذ مجلس له يجلس فيه ليتركه له متى حضر، ويجوز تحديد المجلس بسجادة يرسلها للمسجد مبكراً، ولكن لا يجوز أن يؤخذ مجلسه إذا قام منه بحاجة في المسجد ورجع إليه.

فاذكروا أنه لا بد من التفسح في المجالس دون تضييق، فيجازي المولى عز وجل المتفسحين في المجالس في الدنيا والآخرة.

واذكروا أنه لا بد من النهوض من المجالس إذا دعوا للصلاة أو الجهاد أو عمل الخير، وأن الله تعالى يرفع مكانة المؤمن على غيره، والعالم على غيره إذا فعلوا ما أمروا به.

وتواصل السورة الحديث عن النجوى ولكن بالذات مع الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام فتقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٢ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٣﴾

فعليكم أيها المؤمنون أن تخففوا من كثرة أسئلتكم للرسول عليه وآله وصحبه السلام ولا تضايقوه، وقدموا صدقة قبل مناجاته مهما كانت الأسئلة بسيطة، وانظروا إلى

أهل الباطل وقد امتنعوا بسبب ذلك عن مناجاته عليه وآله وصحبه السلام وشق ذلك عليكم لفقركم.

فيا أيها المؤمنون ها قد جاءكم التخفيف عنكم من ربكم وغفر لكم دوام التقديم عند العجز بل نسخه كلياً مكافأة لكم لخوفكم من التقصير وضعف إمكانية الكثيرين منكم، فعليكم بدلاً منه بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله بالفروض والنوافل..

وتختم السورة بالتحذير من موالاة الكافرين مهما كانوا على غنى أو منعة، وتفرض موالاة المؤمنين مهما كانوا على فقر أو ضعف.. فتقول:

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ
يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن
سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ
هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ
هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ
الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ
لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ
مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ
كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾

فيا أيها المنافقون الذين توليتم اليهود، اعلموا أنكم لستم من اليهود ولا من المسلمين بل أنتم تتذبذبون بين هؤلاء وهؤلاء، وأن حملكم أخبار المسلمين إلى اليهود لن ينفعكم بشيء، ولن يضر المسلمين بشيء.

واعلم يا عبد الله بن أبيّ، ويا عبد الله بن نبتل أن نقلكم لما تسمعونه من حديث الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم إلى اليهود يلحق بكم شديد العذاب بسب سوء نيتكم، وأنكم ومن معكم مهما حلفتم على أنكم لا تشتمون الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام فإن الله تعالى الذي يوحي إليه بأخباركم يكذبكم، وأنه تعالى قد أعدَّ العذاب الشديد لكم جزاء سوء أعمالكم.

واعلموا أنكم مهما استخدمتم أيمانكم لتخفوا حقيقة سوء أعمالكم التي تقصدون

بها تنفير الناس من الدخول في الإسلام فإن الله تعالى لا يخفى عليه شيء من أقوالكم كما لا يخفى عليه شيء مما في صدوركم، واعلموا أنكم ستجدون العذاب المهين بانتظاركم سواء بالقتل في الدنيا أو بالنار في الآخرة أو بالاثنين معاً.

واعلموا أيها المنافقون أن أموالكم وأولادكم الذين تزعمون أنهم ينصرونكم يوم القيامة فإنهم لن يغنوا عنكم من عذاب الله شيئاً، وسترون عندما يبعثكم تعالى يوم القيامة أن تكرار الحلف الكاذب أمام عذاب الله تعالى، ظناً منكم بأنه ينفعكم، بأنه لن ينفعكم أمام علّام الغيوب، العالم بأنكم قد غلبتكم طاعة الشيطان على طاعة الرحمن، وأنكم أصبحتم بذلك متحزبين لعصابة الشيطان وقرنائه الخاسرين لدنياهم وأخراهم بسوء أعمالهم.

واعلموا أيها المنافقون، أن من يخاصم الله ورسوله، ويرفض الإيمان بالله تعالى وكتابه ورسوله، والنزول عند طاعته، فإنه عند الله تعالى من جملة الأذلاء الذين لن يجدوا لهم طريقاً إلى النصر الحاسم على المؤمنين مهما تعالوا وتغطرسوا، وأن ذلك هو حكم الله تعالى وقضاؤه الذي لا رادَّ له، وأنه لن يسمح بهزيمة المؤمنين الصادقين.

واعلموا أن وراء فتح مكة والطائف وخيبر وغيرها فتوحاً أخرى على الفرس والروم.. واذكروا القرار الرباني القاطع في ذلك ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣]، والقرار الآخر ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، والقرارات الأخرى العديدة للمؤمنين والتي منها ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وأما أنتم أيها المؤمنون، فاعلموا أنه لا يمكن أن يجتمع الإيمان بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر مع محبة من يعادون الله ورسوله فيرفضون الإيمان به والنزول عند طاعته، ويرفضون الإيمان برسوله والانقياد لطاعته.

واعلموا أن المعادي لله ولرسوله مهما كان في القرب والبعد من المؤمن سواء كان أباً له أو ابناً أو أخاً أو من عشيرته، فلا يجتمع العداء مع الإيمان في قلب واحد ولا عقل واحد ولا عمل واحد، لأن العقل والقلب المليئين بالإيمان لا مجال فيهما لنقيضه.

واعلموا أن ذلك في الدنيا وأما في الآخرة فقد أعدَّ الله تعالى الجنات الخالدات، بأنهارها الجاريات، لهؤلاء الصادقين المخلصين في إيمانهم وطاعتهم، ورضي عنهم

بطيب جزائهم وأعلن لهم بأنهم هم حزبه تعالى، حزبه الفائز المفلح في الدنيا والآخرة مقابل حزب الشيطان الفاشل الخاسر فيهما.

فهلّا وعيتم أيها المنافقون ما أنتم عليه وما ينتظركم لترجعوا عن غيِّكم.

وهلّا اطمأننتم أيها المؤمنون وثبتّم على ما أنتم عليه وواصلتم بصدق وإخلاص حمل دعوة إسلامكم لتنالوا النصر في الدنيا والرضوان في الآخرة من ربكم؟

دليل سورة المجادلة ـ ٥٨

- إنها سورة مدنية، وأنزلت في ٢٢ آية.

- تبين حكم من يطلق زوجته بلغة الظهار بأن يقول بأن زوجته كظهر أمه، وأن من يريد إرجاعها عليه بالكفارة بتحرير رقبة وإلا الصوم لشهرين متتابعين وإلا إطعام ستين مسكيناً.

- تحذر المنافقين من استمرار المناجاة فيما بينهم بالشر ضد المسلمين عامة والرسول عليه وآله وصحبه السلام خاصة.

- تحذرهم من التحية الكاذبة التي يشتمون بها الرسول عليه وآله وصحبه السلام.

- تحدد للمؤمنين المناجاة المقبولة بأنها بالبر في الأعمال والتقوى في الطاعات.

- تدعو المؤمنين للتراحم فيما بينهم بالتفسح في المجالس.

- تحذر المنافقين من موالاة اليهود بحجة غناهم.

- تؤكد أن حزب الله هم المؤمنون الذين لا يوالون من يعادي كتاب الله وسنة رسوله.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ عدم تعجل المؤمنين باستخدام ألفاظ الظهار وغيرها من الطلاق ضد أزواجهم عندما يخالفنهم في أمر كالتأخر في الاستجابة لطلبهن للفراش ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ﴾.

٢ ـ تحريم أيِّ تحية غير تحية الإسلام أو ما في معناها مما يستخدمه الكفار والمنافقون من العبارات ضد المسلمين من مثل (السام عليك). ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾.

٣ ـ إن التفسح في المجالس مدعاة للإلفة والتوادد بين المسلمين بحيث لا يتعدى

أحد على غيره بالحلول في محله بمجرد مغادرته ليعود إليه بعد الفراغ من أمر شغله.. ﴿فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

٤ ـ تحريم موالاة اليهود لأيِّ سبب كان وبالذات بسبب غناهم وقوتهم ونفوذهم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾. ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾.

٥ ـ تحديد حزب الله بأنهم من يؤمنون بالله واليوم الآخر ويحبون من يحب الله ورسوله ويكرهون غيرهم مهما كان من أقاربهم ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾. ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾.

سورة الحشر (٥٩)

التقديم

روي في فضل هذه السورة لمن قرأها ثلاثة أحاديث أوسطها عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم قال «من قرأ آخر سورة الحشر ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ﴾ إلى آخرها فمات من ليلته مات شهيداً».

والسورة تتحدث عن إجلاء بني النضير من اليهود من المدينة إلى خيبر على أثر نقضهم العهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وتواطئهم مع كفار قريش.

ذلك أن سيدهم كعب بن الأشرف قد اتصل بقريش وأخذ يحرضها للمشاركة معهم في الحرب ضد الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام، فعلم بذلك الرسول عليه وآله وصحبه السلام وتأكد منه فأرسل إليه من يقتله، ألا وهو محمد بن مسلمة، الذي قام بالمهمة خير قيام.

فماذا كانت النتيجة؟ كان من نتيجة ذلك أن دبَّ فيهم الرعب، ولم يملكوا إلا الاستسلام للجلاء، والخروج من المدينة فقط بما أقلَّته إبلهم، وبعد أن عمدوا إلى بيوتهم وحصونهم فخربوها بأيديهم، ولم يبق منها إلا ما خربه المسلمون بأيديهم محواً لآثارهم ولزيادة الرعب في نفوسهم، كما أن المسلمين قد عمدوا إلى قطع شيء من نخيلهم لنفس السبب.

وتتعرض السورة بعدها لبيان حكم الله تعالى في الفيء، وهو الغنائم بدون حرب، مما كسبه الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام والمسلمون من بني النضير المذكورين، وما كسبوه بعدها في حربهم من بني قريظة وخيبر وغيرها من الحروب، وتبيِّن الفرق في ذلك بين حكم الفيء وحكم الغنائم التي تحرز بالحرب.. وما للنبي عليه

وآله وصحبه السلام في كل منها، ومآل ما للنبي عليه وآله وصحبه السلام بعد موته، وما للمسلمين في كلٍّ منها، وما تمَّ قسمته بالفعل منها فيما بينهم، وموقف المهاجرين والأنصار عند القسمة، ومتى يكون الإيثار ويكون الشح والبخل، وما للمسلمين من كلٍّ منها بعد المهاجرين والأنصار حتى قيام الساعة.

وتتحدث السورة بعدها عن محاولات المنافقين في التواطؤ مع اليهود، وأكاذيبهم ووعودهم لنصرتهم، وعاقبة ذلك كله.

وتنتهي السورة بدعوة المؤمنين للحرص على تقوى الله تعالى دائماً، وتذكيرهم بأثر القرآن على النفوس من إثارة الخشية من الله، عالم الغيب والشهادة، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار الخالق البارئ المصور.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾

فبعد أن ينزه المولى سبحانه وتعالى نفسه عما لا يليق به في بداية السورة وذلك بلسان الحال ولسان المقال عندما يخبرنا سبحانه أن كل ما في السموات والأرض يسبحونه، فإنه جل وعز يختم الآية الأولى بتقرير بأنه سبحانه الغالب فوق عباده لأنه عزيز، والمتقن لخلقه لهم ولأمورهم بتدبيره لأنه الحكيم.

وتشير السورة بعد هذا التسبيح والتنزيه إلى ما حققه تعالى، ويحققه دائماً للمؤمنين، من نصر لهم على أولئك الكافرين من اليهود، وهنا بنو النضير منهم، وذلك عندما قام الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بطردهم من ديارهم المجاورة للمدينة بسبب تآمرهم بقيادة زعيمهم كعب بن الأشرف على المسلمين مع كفار قريش.

ذلك أنه على أثر موقعة أحد، وما لحق بالمسلمين من الهزيمة في نهايتها بسبب مخالفة الرماة أمر الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام، فقد حدثتهم نفوسهم الحاقدة للتآمر ضد الرسول عليه وآله وصحبه السلام مع أعدائه كفار قريش على أمل أن يجدوا مما حل بالمسلمين فرصة تعينهم في النصر ضد المسلمين والقضاء عليهم.

ولكن الله تعالى الذي وعد المسلمين بالنصر، إن صدقوا الله ورسوله عليه وآله وصحبه السلام، قد سلّم فأرسل رسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى محمد بن مسلمة ليغتال زعيمهم كعب بن الأشرف الذي كان يشكِّل الدعامة الأساسية لهم، ونفَّذ رضي الله عنه الأمر، فدبَّ الرعب في قلوبهم حتى قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم «نصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر» فكيف وبنو النضير الذين نقضوا العهد لا يبعدون عن المدينة، مركز دولة الرسول عليه وآله وصحبه السلام، أكثر من ميل واحد؟!

وهكذا فقد أخذوا برعبهم يهدمون بيوتهم من الداخل، وفي نفس الوقت يهدمها المسلمون من الخارج، وطلبوا مهلة للخروج ظناً منهم أن يتحرك خلالها المنافقون لنصرتهم، ولكنهم وقد رأوا تقاعسهم عن ذلك فقد يئسوا منهم وعرضوا الصلح على الرسول عليه وآله وصحبه السلام.

وبالفعل صالحهم الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم على أن يخرجوا إلى خيبر بشرط ألا يحملوا معهم إلا ما أقلَّت إبلهم فقط.

وبالفعل أخرجهم عليه وآله وصحبه السلام ليستقروا في خيبر حيث طردهم بعدها عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى نجد وأذرعات وغيرهما جزاء نقضهم للعهد مع أنهم كانوا من المنعة بحيث شك المسلمون في القدرة عليهم، ولكن الله تعالى طمأنهم عندما ذكر في السورة بأن عذابه نازل بهم من حيث لم يعلموا عندما جاءهم بقتل زعيمهم وإلقاء الرعب في قلوبهم.

وهكذا جاء هذا النصر عبرة لأولي العقول.

وتشير السورة بعدها إلى قضاء الله تعالى وحكمه فيهم بالجلاء عن ديارهم، وأن ذلك قد أنقذهم مما هو أشد من ذلك بهزيمة أشد وعذاب أشد في الدنيا قبل ما ينتظرهم في الآخر، ذلك لأنهم أصروا على معاداة الله تعالى ورسوله عليه وآله وصحبه السلام عندما رفضوا الإيمان وأخذوا بالكيد ضد رسوله عليه وآله وصحبه السلام والمسلمين.

وتطمئن السورة المسلمين بعدها بأنهم ما قطعوا من شجرة صغيرة من نخلهم أو

كبيرة، ولا تركوا أخرى دون قطع إلا بأمر من الله تعالى الذي حكم بذلك وأمر بإيقاع الخزي والهزيمة عليهم لفسقهم ونقضهم العهد.

ثم تنبِّه المسلمين ألا يلتفتوا إلى كلام اليهود بأنهم يفسدون في الأرض بقطع هذا النخيل، لأن ذلك ما كان إلا من باب التوهين لهم وإثارة المزيد من الرعب في نفوسهم.

وتتحدث السورة بعدها عن الفيء وأحكامه فتقول:

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

بأن ما أفاءه الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بالنصر الذي تحقق لهم من أموال بني النضير دون حرب ولا مشقة، وإنما بالصلح، فقد حكم الله تعالى بهذا الفيء للنبي خاصة، وهو عليه وآله وصحبه السلام يضعه حيث يشاء، الأمر الذي جعله ينظر في أمر المسلمين من مهاجرين وفقرهم وأنصار وغناهم فيقسمه فقط بين المهاجرين، وذلك بسبب ما كانوا عليه من الحاجة، ولم يعط منه شيئاً للأنصار إلا لاثنين أو ثلاثة هم أبو دجانة وسهل بن حنيف والحارث بن الصمة.

فانظروا إلى نصر الله تعالى لكم عليهم بما دبَّه من رعب في نفوسهم، وإلى ما جرَّه ذلك النصر عليكم من الخير، لا لأنكم أيها المؤمنون قد خضتم معهم قتالاً، وتحملتم في ذلك مشقة، ولكن لأنه تحقق لكم من مجرد محاصرتهم، فكان نصراً لكم من الله تعالى على أعدائه دون قتال.

فاعلموا أيها المؤمنون أن ما يأتي به مثل هذا النصر هو فيء لا يقسم كالغنائم،

وإنما يأخذ الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام منه حاجته. وبالفعل كان يأخذ منه مؤونة سنة له ولعياله، ثم يجعل الباقي في مصالح المسلمين.

واذكروا بأنه عند الغنائم التي تغنم بعد قتال ومعارك فليس للرسول عليه وآله وصحبه السلام فيها إلا الخمس، والخمس مردود بعد موته إليكم أيها المؤمنون، ويوضع في مصالحكم، ولا يورث منه شيء لأحد من أقاربه عليه وآله وصحبه السلام، وأما الأخماس الأربعة الباقية فهي تقسم بين المقاتلين منكم.

وانظروا أيها المسلمون في أمر توزيع الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام هذا الفيء بين المهاجرين دون الأنصار.. إنه لكي لا يزداد الفقير فقراً والغني غنىً، وإنما لكي يغني المهاجرين الفقراء، فيتحقق وجود التوازن المالي في المجتمع الإسلامي بين فئتيه من المهاجرين والأنصار.

إنه حكم الله تعالى الذي ألغى به ما كانت عليه الجاهلية، والتي كان يأخذ فيها الرئيس ربع الغنيمة، مما كانوا يسمونه المرباع، ثم يختار منها أيضاً ما يشاء فوق المرباع.

إنه أمر الله تعالى أن يأخذوا ما يعطيهم الرسول عليه وآله وصحبه السلام من مال الفيء أو الغنيمة وينتهوا عما ينهاهم عنه من غلول وغيره، وهو من الله تعالى أمر يشمل كل أمر ونهي وليس في الأموال فقط، وكذلك نجده عز وجل يأمرهم بأن يخافوا عذابه ولا يتعرضوا لشديد عقابه بمخالفة كل ما أمر به سبحانه ونهى عنه.

وانظروا إلى من يعطى من الفيء والغنائم.. إن أمر الله تعالى قد بدأ بذكر المهاجرين الفقراء ممن يشملون ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل على الأغلب بسبب تركهم ديارهم وأموالهم وأهليهم حباً في الله ورسوله، وبكل الصدق والإخلاص.

وانظروا في أمره تعالى بعد ذلك كيف عقب بعدها بذكر الأنصار المقيمين في المدينة من قبل هجرة المهاجرين إليها، وهم الذين اعتقدوا الإيمان مع رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وأخلصوا فيه.

انظروا إليهم وهم يحبون للمهاجرين أن يأخذوا كل ما يعطيه الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام لهم، ودون أدنى حسد.

بل أكثر من ذلك.. ها هم يؤثرونهم على أنفسهم، فيشاركونهم في أموالهم ودورهم وحتى نسائهم إذ كان الأنصاري يتخلى لأخيه المهاجر عن إحدى زوجاته بتطليقها ليتزوجها هو من بعده.

انظروا إلى ما في كتاب الله تعالى وهو يمدحهم ويثني عليهم ومن على شاكلتهم ممن يتجنبون الاتصاف بالشح ويؤثرون إخوانهم على أنفسهم لا طلباً لقضاء مصلحة أو مغنم دنيوي زائل بل طلباً للمغنم الباقي عند الله تعالى.

انظروا إلى آثار ذلك على المهاجرين وقد بسط الله تعالى بذلك عليهم المزيد من الرزق فتمكنوا من ردِّ ما كان إخوانهم الأنصار قد قدموه لهم، وبالذات بعد أن اتسع رزق الله تعالى عليهم بعد غنائم خيبر.

وانظروا إلى من تذكرهم السورة بعد الأنصار في قائمة التوزيع للفيء والغنائم.. إنهم التابعون ومن يدخل في الإسلام بعدها إلى يوم القيامة.. ولكن كيف وهم لم يشتركوا ولم يحضروا النصر بقتال أو بغير قتال؟

ها هو حكم الله تعالى في ذلك، أيها المؤمنون، بالإبقاء على الأموال غير المنقولة، من عقار وأرض، دون تقسيم بين المقاتلين، كما رآى وفعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما بادر لتنفيذ ذلك في أرض العراق.

وهكذا تبقى هذه العقارات بأنواعها في أيدي أصحابها، ويدفعون عليها الخراج كما يدفعون على أنفسهم الجزية ما بقوا على دين غير دين الإسلام وأصبحوا من أهل الذمة الذين يحتكمون إلى شريعة الإسلام كجزء من ديار الإسلام والدولة الإسلامية.

وأما أن يجمع بين الخراج والجزية في البلد الواحد، وفي ظل دولة الخلافة، فإن ذلك يعود إلى خليفة المسلمين فيما يتبناه لرفع الخلاف في ذلك وفقاً لقوة الدليل ومصلحة المسلمين في السياسة الحربية.

وإن كانت الجزية تبقى كرسوم تؤخذ من المقاتلين الكفار بعد أن يصبحوا ذميين، والخراج هو ضريبة تؤخذ من أصحاب الأرض المفتوحة عنوة.

وهناك بالإضافة للجزية والخراج ما يدفعه الكفار من مال مصالحة عند إنهاء إرادة القتال بالصلح مقابل شروط معينة منها دفع أموال سنوية لخليفة المسلمين.

وهنا لا بد من بيان أن أصحاب الأرض الخراجية لهم الحق بالانتفاع بها بعد أن يصبحوا مسلمين بملكيتهم لها ملكية منفعة لا ملكية رقبة.. وتفصيل ذلك في كتب الفقه واضح.

وتعرض السورة بعدها أمر المنافقين، وتواطأهم مع الكفار ضد المسلمين.. فتقول:

﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ
لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ
أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ
﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا
إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾
كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

فتكشف عن اغترار اليهود بوعد المنافقين لنصرتهم، فخذلوهم عندما تخلوا عن بني النضير وبني قريظة، وفضح تعالى كذبهم وخذلانهم لأنهم يخافون من المسلمين أكثر من خوفهم من الله تعالى.

ثم تخبر السورة المسلمين عن جبن اليهود، وأنهم لا يقاتلونهم إلا في حصون منيعة ظناً أنها تمنع عنهم الهزيمة أمام المسلمين مع أنهم مهزومون سلفاً بتفرقهم وجهلهم لمعنى نصرة الله للمسلمين.

وأنهم في ذلك يشبهون يهود بني قينقاع الذين هزموا قبل بني النضير، ويشبهون كفار قريش في هزيمتهم يوم بدر، وهم كالشيطان المخادع لأتباعه بوعوده وأكاذيبه ولكنه يتبرأ ممن يستجيب له يوم الدين، حين ينتهون جميعاً إلى جهنم جزاء الكفر والطغيان.

فانظروا أيها اليهود في أمر شياطينكم من المنافقين المتآمرين معكم ضد الإسلام والمسلمين، واعلموا أنهم لن ينفعوكم متى جاء نصر الله تعالى، وستدور عليكم جميعاً دائرة الخزي والعار في الدنيا وسينتظركم عذاب الهوان والندم الشديد يوم القيامة.. وما أشبه اليوم بالأمس بعون الله.

وتخاطب السورة بعدها المؤمنين بما يجب أن يكونوا عليه أمام فتن الحياة في الحرب والسلم.. فتقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ

﴿ ١٨ ﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾

فعليكم أيها المؤمنون أن تخشوا الله تعالى في كل أمره ونهيه، والتزود ليوم القيامة بالصالحات، واذكروا أن الله تعالى عليم بكم وخبير بكل ما كان ويكون منكم، وإياكم أن تقصِّروا في طاعة ربكم أو تكونوا من العصاة المستحقين لعذاب الله تعالى.

واذكروا البون الشاسع بين من يكون من أصحاب الجنة وبين من يكون من أصحاب النار في الفضل والرتبة والتكريم عند الله لأصحاب الجنة والوقوع في سخطه وعقابه لأصحاب النار.

وتختم السورة خطابها للمؤمنين بتذكيرهم بالخشوع لذكر الله تعالى، وبتوثيق صلتهم بالقرآن والسنة.. فتقول:

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾

فتؤكد للرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام والمؤمنين معه بأن الجبال كانت ستتشقق من خشية الله تعالى لو أنزل عليها هذا القرآن، فعلى هذا الإنسان الذي أعدَّه الله تعالى لمهمة الإيمان به وطاعته ودعوة الناس لذلك أن يقدر نفسه حق قدرها بعد أن كرَّمه تعالى بحمل هذه الأمانة.

وعليه أن يتذكر دائماً بكل عقله مدى ما يجب أن تكون عليه صلته بربه من الوثوق والقوة وهو يعلم ويؤمن أنه سبحانه عالم الغيب والشهادة معاً، ومالكه والوجود كله، والمنزَّه عن كل شرك، والخالق المدبر لكل خلقه.

عليه أن يتذكر ذلك كله ويحرص على صلابة صلته بالله تعالى مهما تعرَّض إلى محن وابتلاء يستحق منه النصر والتأييد.

دليل سورة الحشر ـ ٥٩

- إنها سورة مدنية - وأنزلت في ٢٤ آية.. وهي الثانية من المسبِّحات.

- تتحدث عن إجلاء يهود بني النضير من المدينة إلى خيبر بسبب نقضهم للعهد.

- قام محمد بن مسلمة بقتل رئيسهم كعب بن الأشرف فخضعوا للجلاء بعد أن خربوا بيوتهم بأيديهم.

- تبين حكم الفيء والفرق بينه وبين الغنائم.

- تكشف تواطؤ المنافقين مع اليهود ضد المسلمين.

- تدعو المؤمنين لدوام مخافة الله تعالى والحرص على الصلة بالقرآن.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ إن نقض العهد من ديدن اليهود في كل العصور بدءاً من عهد موسى عليه السلام وهو رسول الله تعالى إليهم فكيف بسيدنا محمد عليه وآله وصحبه السلام وهم لا يعترفون به رسولاً بل يعادونه؟ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

٢ ـ إن إرسال الرسول عليه وآله وصحبه السلام لمن قتل رئيسهم كعب بن الأشرف دليل على جواز مثل هذا الأمر الحربي لأن الحرب خدعة ولأنه يحقن بالفعل الدماء.

٣ ـ إن حكم الفيء الذي يكسب بغير قتال أن يتولى الرسول عليه وآله وصحبه السلام وخلفاؤه كرؤساء للدولة الإسلامية بوضعه حيث يشاء، فقد وزَّعه على المهاجرين ولم يعط منه إلا اثنين أو ثلاثة من الأنصار لفقرهم بعد أن أخذ منه حاجته مما يحقق التوازن المالي في المجتمع.

٤ ـ إن حكم الغنائم التي تكسب في القتال أن يأخذ منه الرسول عليه وآله وصحبه السلام الخمس الذي يوزَّع بعد الرسول عليه وآله وصحبه السلام على مصالح المسلمين، وتوزَّع الأربعة أخماس الأخرى على المقاتلين.

٥ ـ إن توزيع الفيء وخمس الغنائم قد حددت أولوياته السورة فجعلتهما للفقراء المهاجرين أولاً ثم أنصار المدينة ثانياً ثم التابعين ومن يليهم في الإسلام إلى يوم القيامة ولكن مع إبقاء الأموال غير المنقولة من أراض وعقارات وغيرها دون توزيع على المقاتلين وإبقائها بأيدي أصحابها مع دفع ضريبة الخراج عليها كما يدفع المقاتلون منهم ضريبة الجزية ما استمروا غير مسلمين وإن كان الجمع بين الخراج والجزية في البلد الواحد عائد لرأي الخليفة.

٦ ـ مشكلة تواطؤ المنافقين مع اليهود ومع أيِّ عدو للمسلمين ستبقى إلى قيام الساعة مما يستدعي الحذر منهم وعدم الثقة بهم ﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾.

٧ ـ حث شديد للمؤمنين بدوام الصلة بالقرآن ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ﴾.

سورة الممتحنة (٦٠)

التقديم

سميت هذه السورة بالممتحنة أي: المختبرة لأنها نزلت في حق أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، زوجة عبد الرحمن بن عوف التي ولدت له إبراهيم عندما جاءت مهاجرة فرفض الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ردها.

والسورة تبدأ بموضوع آخر هو موضوع حاطب بن أبي بلتعة عندما أرسل امرأة تدعى سارة، وهي من موالي قريش، أرسلها بكتاب إلى قريش بمكة ليطلعهم على بعض تحركات الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم الحربية، فنزل جبريل عليه السلام وأعلم الرسول عليه وآله وصحبه السلام بما حصل من حاطب.

وبالفعل أرسل الرسول عليه وآله وصحبه السلام من لحق بتلك المرأة وأخذ منها الكتاب، ثم جاء بحاطب فاعترف بما فعل موضحاً بصدق سبب ما فعله، كما سيرد فيما بعد، فعذره الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام لأنه من أهل بدر، ولأنه كان صادقاً في بيانه لسبب فعلته، ولأنه لم يترتب عليها أذى بعد بالإسلام والمسلمين.

فالسورة تنهى عن موالاة الكفار، مهما كان المبرر قوياً، سراً كان ذلك أو جهراً، وتذكّر المؤمنين بما وقع من أبيهم إبراهيم الخليل عليه السلام عندما وعد أبيه بالدعاء له على أمل أن يفي له بوعده فيؤمن، ولكنه تبرأ منه عندما تبين له أنه مات على الكفر، فتذكّرهم بذلك وتدعوهم للإقتداء برفض وتجنب أيِّ موالاة للكفار مهما كان السبب.

ولكن المولى عز وجل يرخص بصلة من لم يعاد المؤمنين ولم يقاتلهم وبخاصة إذا كانوا من ذوي القربى، وأما من عادى المؤمنين وقاتل في صفوف أعدائهم وشارك في إيقاع الأذى بهم وذلك بإخراجهم من ديارهم وأموالهم وأهليهم، كما فعل أهل مكة

بالرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام وبالمهاجرين، فإنه سبحانه وتعالى يشدد في النهي عن موالاته مهما كان قريباً.

وتشير السورة بعدها إلى شيء من آثار صلح الحديبية، وخاصة فيما يتعلق بهجرة المؤمنات من مكة، دار الكفر إلى المدينة، دار الإسلام، وتبيِّن عدم جواز إعادتهن للكفار، وتحمل مسؤولية ذلك ولا سيما بعد الاطمئنان على أنهن مؤمنات حقاً وليست هجرتهن لأيِّ سبب الآخر.

وتختم السورة بذكر أمره تعالى إلى نبيه صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم كرئيس دولة، بمبايعة المؤمنات على مجموعة من الالتزامات الشرعية، ومبايعة المؤمنين على مثل ذلك.

فهل من حق أحد أن يعترض على مثل هذه البيعة لرئيس دولة الخلافة؟؟

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ
ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِيۚ
تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾
إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ
أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ
فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ
لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ
وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ
ٱلْأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ۞عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم
مَّوَدَّةًۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾

فانظروا إلى الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وهو يبعث عدداً من

الصحابة، هم علي والزبير والمقداد رضوان الله عليهم أجمعين، ليأتوا بالكتاب الذي بعثه حاطب بن أبي بلتعة مع سارة، إحدى موالي قريش، لتسلمه لقريش في مكة، فتنقل به بعض أخبار تجهيز الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام فيخبره ربه بخبر ما فعله حاطب فيأمر باللحاق بتلك المرأة وإحضار الكتاب منها.

وانظر إليهم رضي الله عنهم وهم عائدون بالكتاب، فيستدعي الرسول عليه وآله وصحبه السلام حاطباً ويستنطقه فيعترف بذلك، فيعفو الرسول عليه وآله وصحبه السلام عنه لأنه من أهل بدر الذين نظر الله تعالى إليهم فقال لهم اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم... ولأنه لم يفعل ذلك ردة عن الإسلام وإنما ليجد لدى قريش سبباً بذلك يحمي به أهله وماله بمكة وهو رجل من أهل اليمن ولا سند له بمكة.

وانظروا في أمر المولى عز وجل وهو ينهى عن ذلك الفعل الذي اعتبره بصريح النص موالاة للكفار.

إنه كتاب من كتب التجسس في مصطلح العصر الحاضر.

إنه نقل لجانب من أمن الدولة الإسلامية إلى الكفار المحاربين، أيها المسلمون، فكيف بمن يتعاون مع يهود فلسطين ويقرُّ باسم الصلح التعاون معهم في كل شيء؟! بل أيُّ صلح يجوز معهم ليقرَّ لهم ملكية البلاد وحق العباد في أرض فلسطين الشام، أرض الميعاد.. أرض المحشر؟!

انظر إلى أمره تعالى وهو يحرم هذا الفعل الذي أقدم عليه أحد الصحابة دون مجاملة له في محبته لرسوله ولا لصدقه في الجهاد يوم بدر في سبيله!

صحيح أن الرسول عليه وآله وصحبه السلام قد وجد في ذلك كله مبررات للعفو عنه ولكن هل ألغى تعالى التحريم في موالاة الكفار بسبب شيء من ذلك؟!

لقد جعل لرسوله، كرئيس دولة أن يعفو عنه أو يعاقبه تبعاً لمستوى جرمه وإفساده في الأرض، ولكنه سبحانه وتعالى بيَّن لرسوله علة التحريم عن موالاة الكفار في ذلك الفعل أو غيره بأنه لكونهم كفاراً محاربين وقد أخرجوا الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام والصحابة مما أخرجوهم منه بدافع كفرهم وعتوهم وطغيانهم، أخرجوهم من مكة لسبب إسلامهم وإيمانهم.

فالحذر الحذر يا مؤمنون من موالاة الكافرين ما دمتم قد هاجرتم طلباً لمرضاة الله تعالى وتحملتم كل تلك التضحيات من أجل ذلك فقط.

واذكروا أن الله تعالى يعلم سرَّكم وجهركم، ويؤكد لكم مدى شناعة خطأ من

يفعل ذلك أو مثله منكم في أيِّ وقت ومكان، ويؤكد لكم بأن أولئك الأعداء لو أتيحت لهم الفرصة لأعملوا فيكم الضرب والقتل ولحرصوا على فتنتكم عن دينكم.

فاذكروا ذلك دائماً، واذكروا أن أرحامكم وأولادكم الذين قد تجدون في صلتهم والبر لهم مبرراً لفعلكم لن ينفعوكم شيئاً يوم الحساب، ذلك أن الله تعالى سيفصلكم عنهم فيدخل المؤمن منكم الجنة والكافر النار.

اذكروا ذلك واعلموا أنه سبحانه وتعالى عالم بحق وتأكيد بكل ما تعملون.

اذكروا ذلك واقتدوا بأبيكم إبراهيم الخليل عليه السلام عندما تبرَّأ هو والمؤمنون معه من قومهم وأهليهم الذين أصرُّوا على الكفر وعبادة الأصنام، وأنهم لم يكتفوا من التبرؤ منهم بل عادَوهم حتى يؤمنوا.

وحتى إبراهيم عليه السلام قد تبرَّأ من والده عندما تأكد له أنه قد مات على كفره بعد أن كان وعده بالاستغفار له ظناً منه أنه قد آمن قبل أن يموت.

اذكروا ذلك واقتدوا بإبراهيم وأتباعه في عدم موالاة الكفار ولو من قومهم وأهليهم، والتبرؤ منهم، والدعاء إلى الله تعالى بالتوكل عليه والرجوع إليه والرجاء به ألّا يظهر عدوهم عليهم فيفتنوهم ويعذبوهم، وأن يغفر لهم ذنوبهم يوم القيامة.

اذكروا الاقتداء والبراءة من موالاة الكفار.

واذكروا أن الصلة الجائزة بهم لا يسمح بها إلا لتكون عربون إسلام من يراد الصلة به.

واذكروا أن العديد من كفار مكة قد أسلموا بمجرد فتح مكة تأثراً بصلة المسلمين لهم.

ولكن السورة تستكمل بيان الرخصة عند الموالاة.. فتقول:

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾

مؤكدة الترخيص في صلة من لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم كخزاعة وبني الحارث والنساء والأطفال من أمر الرسول عليه وآله وصحبه السلام ببرِّهم بل إعطائهم شيئاً من الأموال على وجه الصلة لا الموالاة.

وأما الكفار المحاربون كعتاة مكة فلا رخصة في الصلة بهم بكل أنواعها.

وتعرض السورة بعدها بعض آثار معاهدة الحديبية.. فتقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

فكان مقتضى هذا النهي عن موالاة الكفار الهجرة عن بلاد الشرك وديار الكفر إلى ديار الإسلام.

وانظروا إلى التزاوج، كأهمِّ دوافع الموالاة، فإن صلح الحديبية فرض إعادة المهاجر إلى المدينة مسلماً إلى مكة، دون تحديد رجلاً كان أو امرأة، ولكن الله تعالى استثنى إعادة النساء المسلمات إذا هاجرن عن مكة دار الكفر إلى المدينة دار الإسلام، فرفض لذلك الرسول عليه وآله وصحبه السلام إعادة سعيدة بنت الحارث الأسلمية التي لحقت بالرسول عليه وآله وصحبه السلام وهو بالحديبية وكان زوجها كافراً، كما رفض عليه وآله وصحبه السلام إعادة أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط عندما جاءت مع أخويها فأعادهما ولم يعدها، كما رفض إعادة أميمة بنت بشر.

انظروا إلى ذلك أيها المسلمون، وتذكروا أن الرفض في الإعادة لديار الكفر كان مرتبطاً بالتأكد من إسلام المرأة وبقاء زوجها على الكفر، مما يحرِّم الزوجية بينهما.. فكان الرسول عليه وآله وصحبه السلام يستحلفها على ذلك، فيرسل مهرها إلى زوجها مع كل ما أنفقه على الزواج منها إذا طالب بذلك الزوج الكافر، وإذا كان مهرها مالاً محترماً لا خمرة فيه ولا خنزير، فيدفع ذلك من بيت المال إذا لم تتزوج مسلماً في دار الإسلام لأنها إن تزوجت فالزوج عليه أن يدفع ذلك كله بعد انتهاء عدتها وتحديد مهر جديد لها.

وأما إذا ارتدت عن الإسلام فلا يجوز أن يتزوجها مسلم، ولا يجوز بقاء عقد الزوجية مع مسلم إذا كانت وثنية، ولكن العقد يبقى إذا كانت من أهل الكتاب.

وأما إن لحقت امرأة مؤمنة بدار الكفر، وهنا مكة، ولا عهد بينهم وبين المسلمين، وزوجها مسلم في دار الإسلام، فعلى الدولة الإسلامية أن تدفع من بيت

المال، قسم الغنائم، المهر الذي دفعه بشرط أن يدفع من الغنائم قبل أن تخمس كما فعله الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام.

وقبل نهاية السورة تتحدث السورة عن مبايعة الخليفة أو من ينيبه للنساء المؤمنات أو للرجال المؤمنين، وتبيِّن متى يكون ذلك، وتوضح مضمون تلك البيعة، فتقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

فتبيِّن السورة أن ما حصل عندما فتح رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم مكة وجاء نساء أهل مكة ليبايعنه، فإنه عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام قد أمره ربه سبحانه وتعالى أن يأخذ عليهن أن لا يشركن ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يرتكبن أيَّ منكر ولا يعصينه عليه وآله وصحبه السلام في أيِّ أمر معروف من الشريعة.

وانظروا إليه عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام وهو يبايع النساء بالكلام وعمر رضي الله تعالى عنه كان يجلس أسفل منه عليه وآله وصحبه السلام على الصفا وكان يصافحهن، كما روي في إحدى الروايات عن هذه المبايعة.

وروي أيضاً عن أم عطية بأنها قد قبضت يدها في إحدى الروايات عن هذه المبايعة.. مما يدل على أنها قد مدتها للمصافحة سواء كان ذلك مع الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام، التي تنفي ذلك عائشة رضي الله تعالى عنها بقدر علمها، أو مع عمر رضي الله عنه.

وانظروا إليه عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام وهو يبايعهن على عدم الشرك وعدم الردة عن الإسلام، وعلى عدم السرقة، مما جعل هند بنت عتبة، زوج أبي سفيان تطلب الإذن بالأخذ من ماله لأنه شحيح، فيأذن لها عليه وآله وصحبه السلام بقوله «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف» مما يؤكد أن ذلك ليس من السرقة ما دامت في هذه الحدود.

كما كان عليه وآله وصحبه السلام يبايعهن على عدم الزنا، وعدم وأد بناتهن أو إسقاط الأجنَّة مهما كان السبب، وعلى عدم إلحاق أيِّ ولد بأزواجهن ما دام ليس منهم، وعلى عدم العصيان في المعروف فلا ينحن ولا تخلو منهن امرأة إلا بذي محرم،

وعلى ألا يقدمن على أيِّ مخالفة لأمر معروف من أوامر الله تعالى وأوامر رسوله عليه وآله وصحبه السلام.

واذكروا أن هذا هو مضمون بيعة النساء وأما الرجال فإن الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام قد أخذ عليهم كما أخذ على النساء: لا شرك بالله، ولا سرقة، ولا زنا، ولا قتل الأولاد، ولا سحر، ولا عصيان في معروف من أوامر الله ورسوله، وختم مبايعته لهم بقوله «فمن وفَّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فهو إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له».

انظروا في ذلك واذكروا أن هذه المبايعة جزء من سياسة الإسلام في التحرك من ديار الكفر إلى ديار الإسلام متى وجدت دولة الخلافة، وأن المبايعة هذه ندب لا فرض.

وتختم السورة بتأكيد تحريم موالاة اليهود بالذات.. فتقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ١٣﴾

مبيِّنة أنه بعد النهي عن موالاة الكفار والمشركين عامة جاء التأكيد على تحريم هذه الموالاة لليهود بخاصة، ومنبِّهة بأن ما كان يفعله بعض فقراء المسلمين من صلة معهم بقصد تحصيل شيء من ثمارهم حرام، وما ذلك إلا لأن اليهود قد يئسوا بكثرة جرائمهم وبعدهم عن الإيمان الحق من ثواب الآخرة كما يئس أحياء الكفار من عودة موتاهم إليهم.

فكيف بهذه الموالاة وعقد الصلات مع يهود اليوم وهم أشد إجراماً وأذى وحقداً من يهود الأمس.

فاحذروا ذلك يا مسلمون.

دليل سورة الممتحنة ـ ٦٠

- إنها سورة مدنية، وأنزلت في ١٣ آية، وسميت المختبرة.

- تبدأ بذكر أمر تجسس حاطب بن أبي بلتعة لقريش على الرسول عليه وآله وصحبه السلام، والعفو عنه لاعترافه وصدقه ولعدم ترتب أذى من فعلته ولأنه من أهل بدر.

- ثم تحذر من موالاة الكفار مهما كانوا أقارب.

- ثم تشير إلى أثر من آثار صلح الحديبية وهو هجرة المؤمنات إلى المدينة ورفض إعادتهن بعد اختبارهن والتأكد من إيمانهن وبالتالي مبايعتهن على التزامات شرعية معينة.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ تحريم التولي والمودة مع الكفار مهما كان المبرر مما يجزم بحرمة أعمال التجسس مع العدو الصهيوني وكل عدو مساند له، ويفرض معاقبة من يفعل ذلك حسب الأذى الذي يوقعه وبتقدير من الرئيس المسؤول ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ﴾.

٢ ـ جواز التعامل مع من لا يقاتل المسلمين من ديار الكفر ولم يخرجوهم أو يساندوا على إخراجهم من ديارهم، الأمر الذي يحرم التعامل مع أمريكا وبريطانيا بخاصة اللتين تساندان الآن اليهود في الحرب ضد المسلمين في فلسطين كما تعلنان التحالف معاً في الحرب لما يسمى ضد الإرهاب وهو في الحقيقة ضد المسلمين ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾.

٣ ـ عدم جواز التقيد بنصٍّ معاهدة يخالف الشرع، فلا تعاد المؤمنة المهاجرة إلى زوجها الكافر بل تبايع على مقتضيات الإيمان ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾.

سورة الصف (٦١)

التقديم

بعد تنزيه الله تعالى نفسه، وتعليماً لعباده، عما لا يليق به، تشنِّع السورة على من يقول ما لا يفعل، مهما كان العمل الملتزم به بسيطاً ما دام مشروعاً.

وانظروا إلى المولى عز وجل وهو يقرن بين الإيمان بالله ورسوله وبين الجهاد في سبيله تعالى بالأموال والأنفس.

وانظروا إليه تعالى وهو يوبخ من يقولون ما لا يفعلون.. بالطبع هذا إذا كانوا مؤمنين، أما إذا كانوا منافقين فأيُّ عمل هم مطالبون أن يقرنوه بالقول؟!

وانظروا إلى المؤمن وهو تظهر منه عظمة الوفاء بكل ما يلتزم به سواء كان في رغبة أو رهبة، وسواء كان محموداً أو مذموماً ما دام مشروعاً.

وانظروا إليه وهو بدافع الربط بين القول والفعل يثبت في معارك الجهاد في سبيل الله حتى الشهادة.

وانظروا إلى بني اسرائيل، من يهود الأمس أو يهود اليوم، عندما أمروا بالتوحيد، فخالف منهم من خالف وأطاع من أطاع.

فاذكروا يا مؤمنون يا مسلمون، ذلك واحذروا عقاب الله تعالى لو فعلتم ذلك.

واذكروا أن عقوبة من يكذب على الله تعالى، وهو يرى كل المعجزات المقنعات بين يديه، وأمام سمعه وبصره، فيرفض الإيمان بالإسلام، ويواصل إصراره على نشر الأكاذيب ضد الإسلام وأهله بهدف تثبيط الناس عن الدخول في حظيرة الإسلام، عقوبة مثل هذا الكاذب المفتري في سعير جهنم يوم الدين، وأما في الدنيا فللإسلام معه شأن آخر.

وعلى من يجرؤ على ذلك بأيِّ مبررات من الأكاذيب الممتدة مع العصور أن يتذكر بأن الله تعالى سينصر هذا الدين رغماً عنه.

وبعدها تأتي السورة لتدل المسلمين من أمثال عثمان بن مظعون رضي الله عنه، ممن استهواهم التنسك والتبتل والانقطاع للعبادة والذكر، تدلُّهم إلى التجارة الرابحة عند الله تعالى بحق وحقيق، وأنها هي الإيمان بالله ورسوله جنباً إلى جنب مع الجهاد في سبيله بالمال والنفس ليتحقق من ذلك نصر دين الله تعالى في الأرض بدءاً من إعادة حكم الإسلام وانتهاء بحمل هذا الحكم شريعة الله دعوة للناس كافة.

واذكروا بهذا الصدد ما فعله حواريو السيد المسيح عندما دعاهم لنصرة دينه فنصرهم الله تعالى على من كفروا به.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ

مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾

فاذكروا أيها المؤمنون الذين قعدتم تتذاكرون أيَّ الأعمال أحب إلى الله تعالى لتعملوها، فنزلت آية الجهاد تبيِّن لكم ذلك، فترددتم وكرهتم ذلك في بداية الأمر.

فماذا حل بكم؟!

لقد ابتلاكم المولى عز وجل يوم أحد ففررتم.. فنزلت السورة يعيركم المولى عز وجل فيها بترك الوفاء، وتنبِّه عليكم بأن كل من ينتحل عملاً لم يعمله ممقوت عند الله تعالى، وتذكّركم بأن ذلك من النفاق.

كما تذكّركم بأن كل من يلتزم شيئاً فقد لزمه شرعاً ما دام مشروعاً، سواء كان نذر قربة، كالصلاة والصوم والصدقة، وأنه من الواجب عليه الوفاء به، أو كان نذراً مباحاً وعلِّق بشرط رغبة، كتقديم صدقة عند تحقق عمل له، أو علِّق بشرط رهبة، كتقديم صدقة عند كف شرٍّ عنه، فواجب عليه الوفاء به عند الإمامين مالك وأبي حنيفة، وليس بواجب الوفاء به، ويبدو أنه رأي مرجوح، عند الإمام الشافعي في أحد قوليه لا قوله الواحد النهائي.

وأما إن كان وعداً بهبة مطلوبة فله أن يتراجع عنها قبل تقديمها، كما له أن يتراجع عن تسديد دفع الدين عن الغرماء الذي كان قد التزم به وإن كان الوفاء بذلك كله يعتبر من المروءة ومكارم الأخلاق.

فانظروا في الآية وهي توجه التوبيخ لمن يقول ما لا يفعل حتى لا يقع في الكذب إذا أورد كلامه بصيغة الماضي، وفي الخلف إذا أورده بصيغة المستقبل.

وانظروا إلى الإمام الشافعي رضي الله عنه وهو يرى من ناحية أخرى وجوب الوفاء في حالة الالتزام بأيِّ عهد في حالة الغضب، وذلك من باب الخوف من الوقوع في مقت الله تعالى.

وانظروا في السورة وهي تذكِّر بأن من الوفاء بالقول هو أن يثبت المسلم في الجهاد في سبيل الله كثبوت البنيان القوي، وأن يثبت في الصف وحيث حدد له قائده إلا لضرورة أوامر القائد أو منفعة الجهاد ولو كان للمبارزة، وذلك من باب خشية أن تكون رياء، فعليه أصلاً ألا يبادر إليها وإنما ينتظر حتى يطلبها خصمه الكافر... وهذا ما جرى في بدر وخيبر.

وتتحدث السورة بعدها عما انتهى إليه طلب موسى وعيسى عليهما السلام من بني إسرائيل لدخول الإيمان.. فتقول:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾

فذكّر يا محمد قومك وأمتك بما حصل مع موسى وعيسى عليهما السلام عندما أمرا بني إسرائيل بالتوحيد والجهاد في سبيل الله، فخالفوهما، فحل بهم العقاب جزاء ذلك.

وذكّرهم بما حصل مع موسى عليه السلام أولاً عندما آذوه بقذفه بأنه آدر أي: فاقد الخصي، وبأنه فجر مع امرأة دسَّها إليه قارون، وبأنه قتل هارون عليه السلام!!

وكيف أنهم طلبوا منه أن يجعل لهم إلهاً كالصنم، وأن يدخل فلسطين وحده ويحارب سكانها العماليق مع ربه.

وكيف أنه دعاهم للإيمان والعمل معه، وهم على يقين بأنه رسول الله إليهم، ولكنهم مالوا عن الحق، وابتعدوا عن العدل، فكانوا من الفاسقين.

وذكّرهم بما حصل مع عيسى عليه السلام ثانياً عندما اتهموه بالسحر عندما دعاهم للإيمان به كرسول الله تعالى إليهم، وأنه جاء مصدقاً بالتوراة التي جاء بها موسى من قبله إليهم، ومبشراً بمجيء الرسول محمد عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام من بعده.

ذكّرهم يا محمد بذلك، وبأن الإنجيل سماك أحمد.

وقل لهم: «اسمي في التوراة أحيد، لأنني أحيد أمتي عن النار، واسمي في الزبور الماحي، محا الله بي عبدة الأوثان، واسمي في الإنجيل أحمد واسمي في القرآن محمد، لأني محمود في أهل السماء والأرض».

وقل لهم: «لي خمسة أسماء: أنا محمد وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي

الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب» فلكل اسم من هذه الأسماء معنى عملي يتصل بمهمته عليه وآله وصحبه السلام كرسول.

فاذكروا يا مشركي العرب ما حصل مع موسى وعيسى عليهما السلام، ومصير قومهما بسبب ما افتروه عليهما من الكذب وما أوقعوه عليهما من الأذى، واحذروا من الإصرار على الشرك ومحاولة منع الإيمان أو الإسلام من الانتشار.

واعلموا أيها المشركون أن الله تعالى الذي يأمر بالإيمان بهذا الإسلام هو تعالى الذي أرسله وهو تعالى الذي تكفَّل بنصره على كل الأديان بالرغم من كل أذاكم.

وتخاطب السورة المؤمنين بعدها مبيِّنة لهم التجارة الرابحة التي يتساءلون عنها.. فتقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾

فاذكر يا عثمان بن مظعون، أنت وكل من يفكر تفكيرك بتطليق زوجته والانقطاع للعبادة والاختصاء وتحريم أكل اللحم والصيام المتواصل والقيام الدائم.

اذكروا أن ذلك كله ليس من الإسلام في شيء.

واذكر ما قاله لك الرسول عليه وآله وصحبه السلام وأنت تستأذنه لتفعل ذلك: «إن من سنتي النكاح، ولا رهبانية في الإسلام، إنما رهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله، وخصاء أمتي الصيام، ولا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم، ومن سنتي أنام وأقوم وأفطر وأصوم، فمن رغب عن سنتي فليس مني».

اذكروا أن أحب التجارات إلى الله تعالى هي الجهاد في سبيله بالأموال التي تنفق أولاً وبالأنفس التي تبذل ثانياً.. وأن الخير يأتي من ذلك.

واذكروا ما وعدكم الله تعالى به إن صدقتم الجهاد من النصر في الدنيا وعظيم

الأجر في الآخرة.. إنها جنات عدن التي تجري من تحتها الأنهار... وأن هناك السعادة الدائمة العظيمة التي يتطلع إليها كل مسلم.

اذكروا ذلك، وذكّروا المسلمين جميعاً ليكونوا خير الأعوان الثابتين لرسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، ولكل خليفة يأتي من بعده، فيقفوا معهم بسيوفهم حتى الرمق الأخير.

كونوا لهم أنصاراً كما فعل حواريو السيد المسيح عندما قال لهم متسائلاً من أنصاري إلى الله؟ فردوا: نحن ننصرك.

واذكروا كيف انقسم الناس في زمن السيد المسيح عليه السلام إلى طائفتين، المؤمنين به والمكذبين به، ولكن أتباعه انقسموا في رفعه إلى السماء إلى مؤمنين به بأنه رسول الله عليه السلام، وإلى كافرين به لقول بعضهم بأنه الله سبحانه، وقول البعض الآخر بأنه ابن الله، سبحانه، وقول البعض الثالث بأنه ثالث ثلاثة والله سبحانه، أحد هؤلاء الثلاثة.

وماذا كانت النتيجة في ذلك الوقت مع انقسامهم بين مؤمن به كرسول وكافر به؟

لقد أيَّد الله تعالى المؤمنين به على الكافرين به ونصرهم عليهم.

ولكن هل استقر الأمر للمؤمنين حتى جاءهم الإسلام ورسول الإسلام المطلوب منهم الإيمان به والدخول في دينه؟

لا، لم يستقر، بل عبث التغيير والتحريف في عقيدة التوحيد والإيمان بعيسى أنه عبد الله ورسوله حتى أفسد كل نقاء وصفاء لإيمانهم حتى جاء الإسلام فنصره الله تعالى على الشرك والتحريف والكفر كله.

فاذكروا ذلك كله يا مسلمون واستمروا على إيمانكم والدعوة لدينكم والله ناصركم.. ولن يخذلكم ما دمتم على الحق ثابتين.

دليل سورة الصف ـ ٦١

- إنها سورة مدنية، وأنزلت في ١٤ آية، وهي الثالثة بين المسبِّحات.

- تشنع السورة القول دون فعل شرعي.. فلا بد من ربط الجهاد في سبيله تعالى بالإيمان بالله ورسوله، ولا بد من الوفاء بكل ما يلتزم به مهما كان نوعه ما دام مشروعاً.

- تهديد الكاذبين على الله ورسوله لإبعاد الناس عن الإسلام بجهنم يوم الدين بعد العقوبة المناسبة في الدنيا.

- تأكيد أن التجارة الرابحة عند الله تعالى هي الإيمان بالله ورسوله مع الجهاد الحربي بالمال والنفس في سبيله تعالى وذلك في المرحلة المدنية بعد أن يكون الجهاد الفكري بهما قد حقق إقامة حكم الله في الأرض.

فتبرز الأمور التالية :

١ ـ إن من أكبر الأمور المكروهة عند الله تعالى أن يقول المسلم قولاً لا يعمل به ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾.

٢ ـ وإن من أفضل الأمور المحبوبة عند الله تعالى أن يدعو الإنسان للجهاد الفكري ثم الحربي حسب قدرته تبعاً لمرحلة الدعوة من مكية إلى مدنية ثم يقوم بالعمل الذي تفرضه دعوته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾.

٣ ـ إن تواطؤ الكفار والمنافقين لهزيمة الإسلام والمسلمين لن يحقق هدفه إلا مؤقتاً تبعاً لابتلاء الله تعالى بالنتائج لأسبابها ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾.

٤ ـ إن الجهاد الوارد في الآية ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ لا يقف عند الجهاد الحربي في المرحلة المدنية وإنما يسبقها إلى الجهاد الفكري في المرحلة المكية.

سورة الجمعة (٦٢)

التقديم

قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة».

وقال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم عن يوم الجمعة أيضاً بمناسبة تسمية هذه السورة به «.. فاليوم ـ الجمعة ـ لنا، وغداً لليهود، وبعد غد للنصارى».

فبعد التقرير بأن كل ما في السموات والأرض يقدس الله تعالى وينزهه عما لا يليق به يمنُّ المولى عز وجل على العرب الأميين بأن أرسل إليهم رسولاً منهم ليبلغهم القرآن والسنة والفقه فيهما، وليقوم بتبليغ ذلك مؤمنون يأتون من ذرية الصحابة والتابعين ومن بعدهم حتى يعم فضل الله تعالى بهذا الإسلام البشرية كلها.

وتنبه السورة بعدها المؤمنين ليحرصوا على حمل هذه الرسالة حمل فهم وفقه لا حمل تقليد خشية أن يصيبهم شيء من الانحراف في الفهم والوقوع في تكذيب هذه

الرسالة كلها أو شيئاً منها، كما وقع في بني إسرائيل عندما كذبوا أوامر الله تعالى ونواهيه التي جاءهم بها موسى وعيسى عليهما السلام، والتي ظهرت عليهم وهم يحملون التوراة في صدورهم كما يحمل الحمار الكتاب على ظهره، لا يعلمون ولا يفقهون منها شيئاً كما لا يفقه الحمار ولا يعلم من الكتاب الذي يحمله على ظهره شيئاً.. وما أسهل الانحراف مع الجهل!

وبعدها تستنكر السورة على اليهود زعمهم بأنهم أصحاب الفضيلة والولاية والمحبة عند الله تعالى، وهو منهم براء، فتدعوهم لتلزمهم الحجة بهذا الزعم ليتمنوا الموت إن كانوا في هذا الزعم صادقين.. فهل تمنوه؟ لا، لم يجرؤوا على ذلك، لأنهم كانوا يعلمون أن الموت سينزل بهم.

وأخيراً تدعو السورة المؤمنين المسلمين للحرص على أداء صلاة الجمعة بتلبية النداء والأذان لها وذلك بترك كل ما يلهي عنها من بيع وتجارة وأيِّ شيء آخر، ما دام المسلم مقيماً لا عذر لديه من الشرع عن التخلف.

وتبيِّن لهم أن لهم أن يطلبوا الرزق بعد أدائها إذا رغبوا في ذلك بشرط عدم مغادرة المسجد قبل أدائها مهما كان السبب إلا لعذر شرعي.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾

فتذكّر المؤمنين بدوام تنزيه المولى سبحانه وتعالى عما لا يليق به بتنبيههم إلى أن كل ما ومن في السموات والأرض يقومون بذلك دائماً، كيف لا وهو سبحانه مالك كل شيء، وهو سبحانه المبارك العزيز فلا يغالبه شيء في ملكه والحكيم فلا يدانيه شيء في تدبير خلقه، وهو سبحانه الذي يلزمهم بذلك بأن لا ينسوا دائم التسبيح والتنزيه له عما لا يليق به من الشرك والولد.

فاذكروا أيها المؤمنون أنه تعالى قد تفضل عليكم وأنتم الأميون لكونكم لستم بأهل كتاب ولا تعرفون في أكثريتكم لا الكتابة ولا القراءة، تفضَّل عليكم بإرسال رسول إليكم منكم تعرفونه حق المعرفة بأن الصادق الأمين.

أرسله إليكم ليبلغكم القرآن وما فيه من الآيات والأحكام والبراهين والقصص والمواعظ، فيطهركم بذلك من الدنايا التي كنتم غارقين فيها وذلك بمقدار تمسككم به وتعلمكم لكل ما فيه كتابة وقراءة، حفظاً وتعلماً، كما تفعلون ذلك بسنة نبيكم المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وما فيهما من علم وفقه.

فاذكروا أنكم بعد أن كنتم لا تعلمون من هذا الهدى والرشاد شيئاً فإنكم قد أصبحتم على علم وبينة من ذلك بأفضل ما يكون.

فاذكروا ذلك واحملوا هذين الكتاب والسنة، وما تتوصلوا منهما من العلوم الفقهية، دعوة إلى الناس كافة حتى تشمل المعمورة بزواياها الأربع.

اذكروا ذلك واعلموا أن من فضل الله تعالى ونعمته ورحمته عليكم وعلى الناس أجمعين أن أرسل رسوله محمداً صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بدلالة قوله تعالى ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: ٢٨].

وتحذر السورة بعدها المؤمنين المسلمين من أن يقعوا فيما وقع فيه بنو إسرائيل من حمل التوراة دون فهم ولا دراية... فتقول:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٦ وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٧ قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨﴾

فاحذروا أن تكونوا كاليهود الذين كلفوا بالإيمان بالتوراة والعمل بما فيها فحملوها حمل الحمار الذي لا يعلم شيئاً مما على ظهره.

تعلموا القرآن والسنة واعملوا بهما عن علم وبينة لتأمنوا الانحراف والزلل.

واحرصوا على حفظهما بكتابتهما والتعلم والتفقه بما فيهما لتحسنوا العمل بهما وحملهما للناس كافة.

وعندها تستحقون هذا الفضل والنعمة وتكونون نعم القوم لا كاليهود الذين كانوا بئس القوم واستحقوا عذاب الدنيا والآخرة.

واذكروا أيها المؤمنون أن الله تعالى عندما اختبرهم بإثبات زعمهم بأن يتمنوا الموت كدليل على صدقهم بأنهم أحباء الله تعالى من دون الناس فإنهم رفضوا هذا التمني لأنهم كانوا على يقين أن الله تعالى سيميتهم جميعاً لو فعلوا ذلك.

واذكروا أنهم لو كانوا يعلمون أنهم على حق لتمنوا ذلك دون خوف ولا وجل ولكن علمهم بسوء أفعالهم ورفضهم الإيمان بمحمد عليه وآله وصحبه السلام ورسالته المدعوين إليهما جعلتهم يظلمون أنفسهم أشد الظلم ويتهربون من تمني الموت.

وذكّرهم يا محمد بأنهم لن يهربوا من الموت مهما تجنبوه بل سيموت كل منهم بأجله ثم سيبعثون للحساب الشديد يوم القيامة، وويل لهم من ذلك اليوم!!

وتختم السورة دعوتها للمؤمنين بالحرص على صلاة الجمعة بالذات.. فتقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٌ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٌ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾

فاذكروا أن صلاة الجمعة فرض على كل مكلف من الرجال دون عذر شرعي من مرض أو سفر أو خوف ضرر أو غيرها، بغض النظر عن العدد.

واذكروا أن عليكم بمجرد سماع الأذان الأول أن تتركوا كل ما يلهيكم عن الصلاة من بيع وغيره وتذهبوا للمساجد لأدائها بدءاً من الخطبة وانتهاء بالصلاة.

واذكروا أنه لا يجوز أن تخرجوا من المساجد إلا بعد أدائها وسماع خطبتها لأن ما فعله الصحابة من الخروج كان اجتهاداً خطأً لأن الصلاة كانت قبل الخطبة فظنوا بجواز الخروج لتلقي قافلة التجارة القادمة من خارج المدينة.

واعلموا أن لكم طلب الرزق بعد الصلاة إذا رغبتم وإن كان ذلك على الإباحة لا على الفرض على أحد.

واذكروا قول الرسول عليه وآله وصحبه السلام «الجمعة إلى الجمعة كفارة ما بينهما ما لم تغش الكبائر» فاحرصوا عليها.

واذكروا أن في الحرص على التبكير في الذهاب للمساجد يوم الجمعة خيراً كثيراً وثواباً عظيماً سواء بالاستماع لدرس من دروس الفقه أو لتلاوة سورة أو أكثر من سور القرآن الكريم.

واذكروا أخيراً أن في الاستماع الجيد لخطبة الجمعة خيراً أكثر وأكثر ما كان الخطيب حريصاً على إثارة المشاعر والأفكار الإسلامية.. وبيان حكم أو أكثر من أحكام الشريعة الإسلامية.

دليل سورة الجمعة ـ ٦٢

- إنها سورة مدنية، وأنزلت في ١١ آية، وهي الرابعة بين المسبِّحات.

- تبين أن العرب للسانهم العربي القرآني هم أول المتلقين والمتفقهين في الدين، ولذلك عليهم وعلى ذرياتهم تحمل هذه المسؤولية كفضل من الله تعالى اختصهم به.

- ثم تحذر المؤمنين من حمل الدعوة الإسلامية حمل تقليد دون فهم ودراية وفقه في الأفكار والأحكام لكي يتجنبوا الوقوع في الانحراف الذي وقع فيه بنو إسرائيل نتيجة الجهل والرغبة في الدنيا ومتاعها.

- ثم تستنكر على اليهود زعمهم بالأفضلية والمحبة عند الله تعالى فتدعوهم لاثبات ذلك بتمني الموت ولكنهم يرفضون ذلك لمعرفتهم كذب زعمهم وادعائهم.

- وأخيراً تدعو المؤمنين للحرص على تأدية صلاة الجمعة بالذات وترك كل ما يلهي عنها من بيع وتجارة للمقيم غير المعذور خاصة.. وتبين لهم جواز طلب الرزق بعد أدائها.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ تأكيد أن المسلمين العرب بالذات في كل زمان مطالبون بفهم الإسلام والدعوة إليه ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ﴾ لسهولة فهمهم مما يحمل هذه المسؤولية لكل من يسهل عليه الفهم والعمل من غير العرب المسلمين.

٢ ـ التشديد على الفهم والتفقه في الدين لحمله للآخرين حتى لا يحصل الخروج عن الحق بسبب التقليد الجاهل فيصبح المسلم ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۚ﴾.

٣ ـ الأمر بالتوجه إلى المساجد لأداء صلاة الجمعة وترك البيع المشغل عن ذلك ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَۚ﴾ يؤكد فرض ذلك على المقيم غير المعذور كما بينت

السنّة والتي وضحت أن علة ترك البيع تنسحب على كل ما يلهي عن الصلاة مهما كان نوعه.

٤ ـ ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ تدل على أن ترك الصحابة للمسجد قد حصل عندما كان الرسول عليه وآله وصحبه السلام قائماً بعد الصلاة في الخطبة التي كانت أولاً بعد الصلاة مما لا يسمح بالطعن عليهم لأنهم أدوا الصلاة واجتهدوا في ترك الخطبة الذي لا يؤثر على صحة أداء الصلاة وإن كان ينتقص من الثواب.

سورة المنافقون (٦٣)

التقديم

تتحدث السورة عن أخطر فئة كانت تعيش في قلب الأمة الإسلامية منذ بدء نشأتها في المدينة، تتحدث عن المنافقين من بدايتها حتى نهايتها، تتحدث عمن لم يألوا جهداً في التواطؤ والتآمر مع اليهود ومع كفار قريش ومع العرب المشركين عموماً ضد الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة السلام لا كرسول فقط وصاحب رسالة ولكن كرئيس دولة أقامها منذ الأيام الأولى من دخوله مهاجراً إلى المدينة من مكة.

تتحدث عن هذه الفئة التي كانت تعيش في قلب المجتمع الإسلامي وكان ينظر لها في البداية بأنها جزء من تركيبته، واستمرت هذه النظرة إليها حتى تكشفت حقيقتها بما ارتكبت من تواطؤ وما حاكته من مؤامرات ضد الدولة الإسلامية وقائدها ورئيسها المصطفى عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام وعلى المسلمين المؤمنين معه.

تتحدث عن هذه الفئة التي كان يرأسها رأس النفاق في المدينة عبد الله بن أبيّ بن سلول الذي كانوا يعدون له قبل هجرة الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام إليها تاج الملك والحكم على الأوس والخزرج، على سكانها من العرب، فجاءت هجرة الرسول عليه وآله وصحبه السلام إليها كالصاعقة التي تنزل بالإنسان ولا تقتله وإنما تخبله وتفقده توازنه العقلي والنفسي فيصبح لا همّ له إلا كيف يتآمر ليتخلص ممن أخذ الحكم والسلطان منه.. كما كان يتصور بحكم فهمه وعقله الملتصق بالدنيا وسلطانها وأبّهتها ومراكزها.

تتحدث عن ما كانت هذه الفئة تقوله ضد الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام، وكيف كانوا يتصرفون سواء بالحلف والأيمان للتغطية على أعمالهم التآمرية ضد الإسلام ورسوله عليه وآله وصحبه السلام، أو بالكلام اللين المخادع للتظاهر بالإسلام، أو بالتصريح برفض طلب الاستغفار عن ذنوبهم، أو برفضهم الإنفاق على

أصحاب الرسول عليه وآله وصحبه السلام أملاً أن يتخلوا عنه، أو بالتحريض لطرد الرسول عليه وآله وصحبه السلام وأصحابه من المدينة.

وتدعو السورة أخيراً المسلمين المؤمنين لكي لا يكونوا على شاكلة أولئك المنافقين في الانشغال بتكثير الأموال والأولاد على حساب طاعة الله تعالى والجهاد في سبيله، وأن عليهم أن ينفقوا بسخاء قبل أن يوافي أحدهم الأجل فيخسر أفضل جزاء لأفضل عمل وهو الجهاد والإنفاق في سبيل الله تعالى.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾

فاحذر يا رسول الله أن تصدق هؤلاء المنافقين عندما يأتون إليك ليشهدوا أمامك بأنك رسول الله، سواء بالحلف والأيمان على ذلك، لأن الله تعالى يعلم أن قولهم هذا مجرد تلفظ بألسنتهم ولا علاقة له بإيمان قلوبهم وقناعة عقولهم، وأنه تعالى يشهد أنهم كاذبون فيما يقولونه وشهدوا به وحلفوا عليه.

واعلم ذلك يا محمد سواء استخدموا الحلف أو غيره إذ ما هو إلا مجرد ستارة وتغطية لما في قلوبهم الكافرة، وما يصدر عنهم من الإعراض والصد عن الإيمان والجهاد في سبيل الله وغيرها من الأعمال السيئة الخبيثة.

واعلموا أن الشارع الحكيم يجري عليهم حكم المؤمنين بظاهرهم الذي يراه ويعلمه الناس ويؤجل كشف كفرهم القلبي والعقلي إلى حينه، وعندها يعلم بهم رسوله عليه وآله وصحبه السلام من سيماهم ومن أسلوب كلامهم.

وليعلم هؤلاء المنافقون بأن الإيمان الحق هو الإيمان العقلي الذي يصدقه الإيمان بالقول والعمل، وأن هذين لا قيمة للإيمان بهما إذا كانا مناقضين لما في العقل والقلب: فكرياً ونفسياً.

فعلى المنافقين أن يعلموا ذلك ويخلصوا عقولهم وقلوبهم من الكفر ويملأوها بالإيمان.

وليعلموا أن الإعجاب بشكل أجسامهم، ووسامة ملامحهم، وحسن هيئتهم، وتنميق كلامهم لا قيمة لها بجانب حقيقة عقولهم وقلوبهم المناقضة لذلك كله.

وليعلموا أنهم في رعب دائم بسبب خراب قلوبهم لخلوها من الإيمان، وخراب عقولهم لبيعها للشيطان، حتى باتوا يظنون أن كل نداء أو صرخة تصدر من المسلمين ضد عدوهم هي ضدهم هم بالذات.

فاحذرهم يا محمد لافتراءاتهم وأكاذيبهم، وإياك أن تخدع بمظهرهم الذي يشبه مظهر الخشب الجيد المنظر الخرب الجوهر.

إنهم لا يسمعون ولا يتعلمون.

إنهم أشباح بلا أرواح.

إنهم أجسام بلا أحلام.

انظر إليهم كيف يأبون أن يتوبوا إليك من نفاقهم من بعد أن افتضح أمرهم، ويرفضون أن تستغفر لهم من ذنوبهم استكباراً وعلواً.

فاطمئن يا محمد بأنه لا مغفرة لهم عند ربك مهما استغفرت لهم لإصرارهم على الفسق وعلى العناد في الباطل.

وانظر إليهم وهم يحرضون بلسان زعيمهم ابن سلول الأنصار ليكفوا عن الإنفاق والمساعدة لأصحابك ليتخلوا عنك وعن الإسلام، وكأنهم لا يعلمون أن الرزق في السماء والأرض كله إلى الله تعالى وحده.

واسمع إليهم وهم يرددون بلسان زعيمهم ابن سلول بأنهم عندما يصلون من غزوة بني المصطلق إلى المدينة سيقومون بإخراج الرسول عليه وآله وصحبه السلام الذي يصفونه بإفكهم بأنه الأذل، ويصفون أنفسهم بأنهم الأعز.

إنهم سيخرجونه عليه وآله وصحبه السلام من المدينة، وكأنهم لا يعلمون بأن العزة والمنعة والقوة كلها لله تعالى وليس لهم، وأنه سبحانه وتعالى يمدُّ بها رسوله والمؤمنين ولا يمدُّ لهم أي: المنافقين إلا ليزدادوا إثماً على إثم ويلزمهم الحجة.

ويختم المولى عز وجل السورة بتحذير المؤمنين من التأثر بأولئك المنافقين مهما كان مظهرهم براقاً.. فيقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١١﴾

فإياكم أيها المؤمنون أن تتأثروا بأخلاق المنافقين وتصرفاتهم فتشتغلوا بتكثير أموالكم كما اشتغلوا، وتبخلوا بها كما بخلوا، وتظنوا أن أولادكم مهما كثروا يغنونكم عن طاعة الله تعالى والنصرة به سبحانه، وتتصوروا أن الأموال والأولاد بديل عن ذلك.

واعلموا أن من يفعل ذلك فينشغل عن طاعة الله تعالى من أجلهما فإنه سيؤول إلى الخسران المبين يوم لا ينفع مال ولا بنون.

فعليكم أيها المؤمنون أن تقبلوا بكل الصدق والكرم على الإنفاق في طاعة الله وسبيله مما رزقكم هو سبحانه.

عليكم أن تنفقوا قبل أن يوافيكم الأجل فتندموا أشد الندم.

واذكروا أن القول والرجاء والدعاء لن تنفعكم في ذلك لتأخير أجل الواحد منكم لحظة واحدة بقصد أن يحاول تعويض ما فاته من البخل بماله والانشغال في جمعه وتكديسه، كما لن ينفعكم الانشغال والإكثار من الولد.

واعلموا أن مثل ذلك الرجاء والدعاء سيكون من الأعمال الصالحة التي أفسدتموها بوضعها في غير محلها ووقتها فجاءت عليكم بالخسران.

فاعلموا أيها المؤمنون علم اليقين أن الله تعالى لا يؤخر أجل إنسان إذا حانت ساعته لحظة واحدة أخرى.

فاعملوا في طاعة الله تعالى والجهاد في سبيله والإنفاق في سبيله قبل موافاة الأجل فتحصلوا على خير الجزاء.

دليل سورة المنافقون ـ ٦٣

- إنها سورة مدنية، وأنزلت في ١١ آية.

- تتحدث السورة من أولها إلى آخرها عن فئة المنافقين لخطورتها في كل زمن على المجتمع الإسلامي.

- وتبيِّن كيف تواطؤوا مع اليهود ومشركي العرب ضد الرسول عليه وآله وصحبه السلام والمسلمين معه ظناً منهم القدرة على النيل منهم ودولتهم في بدايتها.

- وتشير لأثر فقدان ابن سلول رأس النفاق العرش الذي كان يأمله قبل قيام الدولة الإسلامية في المدينة، مما جعله يحاول الإقدام على كل منكر ضد الرسول عليه وآله وصحبه السلام وأصحابه بأمل أن يسترجع السلطان الضائع.

- وتكشف أساليبهم الماكرة ضد الرسول عليه وآله وصحبه السلام وأصحابه واستخدامهم الأيمان الكاذبة لإخفاء مكائدهم، واللجوء للخداع في الكلام اللين والتظاهر بطلب المغفرة، دون أن ينسوا الأعمال الشنيعة الصريحة من رفض المشاركة في الإنفاق والتحريض لطرد الرسول عليه وآله وصحبه السلام وأصحابه من المدينة.

- وأخيراً تدعو المؤمنين لعدم تقليد أولئك المنافقين في الانشغال بتكثير الأموال والأولاد وترك الجهاد في سبيل الله بالكلمة ثم بالمدفع مع الحرص على السخاء في الإنفاق في سبيل الله.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ من المعروف البديهي أن العدو الكافر المكشوف يسهل الحذر منه والتخلص من خطره على المجتمع الإسلامي ولكن من الصعب بالمقابل ذلك من المنافقين لأنهم مختفون وراء أقنعة كثيرة ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾.

٢ ـ ها هي الصليبية بكل أطيافها تتواطأ مع الصهيونية سواء باسم الإرهاب أو غيره ضد الإسلام والمسلمين لمجرد أن الصحوة الإسلامية قد بدأ يشتد عودها ويظهر عليهم خطرها.

٣ ـ إن ما وقع لأبن سلول من فقدان توازنه العقلي عندما فقد عرشاً كاد يعقد له تاجه على عرب المدينة قبل الهجرة إليها يحصل مع كل حكام المسلمين وبالذات الضالعين مع اليهود وسندهم أمريكا.

٤ ـ إن العلمانيين بجميع أصنافهم يكشفون وجوههم الحاقدة بقدر ما تسمح لهم

به المناسبات عن الكيد والمكر والخداع والتحريض ضد كل شخص وجماعة إسلامية يخشى منها على وجودهم ونفوذهم.

٥ ـ لابد لرجال الدعوة والفكر الإسلامي من بذل كل جهد مستطاع في الجهاد بالكلمة في هذه المرحلة المكية جنباً إلى جنب مع السخاء المالي والإنفاق في سبيل الله ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾.

سورة التغابن (٦٤)

التقديم

فبعد التسبيح والتنزيه لله تعالى من قبل كل ما في السموات والأرض من مخلوقات تورد السورة حقيقة بأن الله تعالى هو خالق البشر جميعاً من مؤمنين وكافرين، وهو خالق السموات والأرض، وهو مصور البشر في أحسن صورة من بين مخلوقاته، وهو تعالى العالم بما في السموات والأرض، وهو تعالى العالم بكل ما يصدر من الإنسان في السر والعلن محذرة من الكفر به وعصيانه.

وتخاطب السورة بعدها كفار قريش مذكرة لهم بما حصل مع الأقوام السابقين ومحذرة لهم من نفس المصير بسبب تكذيب رسل الله تعالى إليهم.

وتشير بعدها إلى ما يقوله الكفار من إنكارهم يوم القيامة، يوم التغابن، يوم النقص الذي لا يستدرك، يوم لا يستطيع من ضاع عليه خير من إيمان وعمل صالح أن يعوضه فيه، يوم يعرف المؤمن الصالح في الدنيا بأنه هو صاحب الجزاء غير الناقص في الآخرة، يوم يعرف الكافر المكذب بأنه هو صاحب النار.. وأيُّ نقص أكبر من ذلك؟!

وتذكّر السورة بعدها المؤمنين بأن كل ما يحل بهم من مصيبة سواء في الأنفس أو الأموال هي مما لا يملك الإنسان لها دفعاً ولا جلباً، هي من قضاء الله تعالى وقدره، هي مما يجب عليه أن يسلّم به ويمضي في طريقه، طريق الإيمان والهدى، طريق الخير والبناء والإعمار ولا يبالي بأقوال المشركين والمشككين في ذلك، فيهوّن المصيبة على نفسه ويشتغل بدلاً من التوجع بها والتفكير بآثارها، يشتغل بطاعة الله وطاعة رسوله.

وتحذّر السورة المؤمنين أخيراً من أمر طالما كان وبالاً على الكثير منهم، إنه خطورة صلاتهم وارتباطاتهم بأسرهم، فتحذرهم من عداوة بعض أزواجهم وأولادهم لهم، عداوة في الدين لا في شؤون الدنيا.

عداوة مفهومها العمل لإقعادهم عن طاعة الله تعالى، سواء بمنعهم من الهجرة من

دار الكفر إلى دار الإسلام، أو تثبيطهم عن الجهاد في سبيل الله تعالى، أو غيرهما من الطاعات الجامعات وفي رأسها حمل الدعوة الإسلامية وتحمل أعبائهما.

وتدعوهم للعفو عما حصل من ذلك والتذكر دائماً أن من أموالهم وأولادهم ما هو اختبار لهم حتى لا يسمحوا لشيء منها أن يقعدهم عن التزام تقوى الله تعالى وطاعته وحمل دعوته وعن الإنفاق في سبيله.

التفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾

فاحرصوا أيها المؤمنون على تسبيحه تعالى وتنزيهه عما لا يليق به إذ أن كل ما في السموات وما في الأرض من مخلوقات تقوم بذلك وتحرص عليه.

كيف لا وهو سبحانه مالك ذلك كله، والمستحق للحمد والثناء على ما أنعم من نعم كثيرة على مخلوقاته،

وهو سبحانه وتعالى القادر على خلق كل شيء، وهو تعالى الذي خلق كل كافر من البشر وكل مؤمن،

وهو تعالى البصير بكل ما يعمله الكافر وكل ما يعمله المؤمن،

وهو تعالى الذي يجازي المؤمن طيب الجزاء على أعماله ويجزي الكافر ما يستحق من العقوبة على سوء أعماله، وهو تعالى العادل بحكمه وقضائه، وهو تعالى الذي يعفو بفضله ورحمته عن الكثير من أعمال المؤمن،

وهو تعالى الذي حذر الكافر وأنذره من سوء أفعاله فأصرَّ على كفره وضلاله وإفساده بمحض اختياره وإرادته، ورفض تحذير المولى وإنذاره، واستخف بوعيده له بالعذاب سواء في الدنيا أو في الآخرة، وهو تعالى الذي يعاقب الكافر على عمله السيء

لا بعلمه بما يعمل وإنما بعمل الكافر الذي يعلم به قبل أن يعمله لأن علمه تعالى محيط بكل شيء، بكل زمان ومكان،

وهو تعالى الذي يجازي المؤمن على عمله الطيب لا على علمه بأنه يعمل هذا العمل لأن علمه به قائم قبل أن يعمله وبعد أن يعمله، وهو تعالى العالم بكل ما في السموات والأرض من مخلوقاته، والعالم بكل ما يصدر عنهم من أقوال وأفعال، بل بكل خواطر نفوسهم وخفايا صدورهم، والعالم بكل ما يبدونه وبكل ما يعلنونه، وبكل دافع يدفعهم لهذا أو ذاك، وهو تعالى الذي بفضله ورحمته ومنته وكرمه لا يحاسب المؤمن على خواطر نفسه وخلجات قلبه وعابر أفكاره إلا بعد أن يترجمها إلى أعمال في واقع حياته، فإن كانت من الحسنات كافأه الحسنة بعشر أمثالها إلى أضعاف وأضعاف، وإن كانت سيئة فبمثلها ويعفو عن كثير، وإن كان هذا الإنسان كافراً فليس من حساب بعد الكفر.

وتعود السورة وتنبِّه كفار قريش، ومن على شاكلتهم عن يوم الدين، بما حصل مع الأمم الماضية عندما كفروا وطغوا فعوقبوا في الدنيا كل بالعقوبة المناسبة المنزلة عليهم في الدنيا والمناسبة المعدة لهم في الآخرة.

إنها تحذرهم وتحذرهم من ارتكاب ما وقع من تلك الأمم من جرائم الكفر والتكذيب لرسل الله تعالى وكتبه إليهم والإعراض عن كل ما ورد فيها من المواعظ والحجج والبراهين والدلالات الواضحة.

وتحذرهم من تكذيب أن يكون الرسول المرسل إليهم من البشر، ورفضهم لطاعة الله تعالى بكفرهم وتكذيبهم مع تحذيرهم بأن الله تعالى غني بسلطانه وملكه المحيط بكل شيء عنهم وعن إيمانهم وهم المحتاجون إليه.

وتحذرهم أيضاً من زعمهم بأنهم لن يبعثوا يوم القيامة للحساب بإنكارهم يوم القيامة والجزاء.

فقل لهم، لمشركي قومك، يا محمد بأن يحذروا أن يكونوا على شاكلة أولئك الأقوام، وأن ينكروا يوم البعث والحساب على أعمالهم، وأن يستعدوا لذلك، وليذكروا أن الإعادة أسهل من البداية.

وأن عليهم أن يقيموا طاعاتهم وأعمالهم كلها على الإيمان بالله تعالى ورسوله ورسالته القرآن، وأن في ذلك الجزاء الطيب لهم في الدنيا وفي الآخرة من رب لا إله إلا هو خبير عارف بكل ما يعملون، وفي ذلك تقول السورة:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ
رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن
لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ
ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾﴾

وتعود السورة وتذكِّر كفار قريش بأن الله تعالى سيجمعهم يوم القيامة هم وجميع الخلائق للحساب وأن ذلك سيكون يوم يحصل التغابن، النقص، فلا يستطيع أحد أن يستدرك ما نقص من إيمانه ولا أعماله ولا الاثنين معاً، فلا الكافر لديه مجال ليؤمن ويعمل الصالحات، ولا المؤمن لديه مجال لزيادة في طاعاته وأعماله الصالحة.

فالمؤمن الذي التزم الطاعات سيجد الغفور برحمته مكفراً له عن سيئاته، وسائقاً له إلى جناته، وفي ذلك الفوز العظيم، والكافر الذي أصرَّ على التكذيب سيجد النار بانتظاره بعد إنكاره لها والحساب بها ليخلد فيها مهاناً وبئس المصير.

فهلّا كنتم من المؤمنين الطائعين لا الكافرين العاصين لتحسنوا لأنفسكم.. إذن اسمعوا ما تقوله السورة لكم:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾

فاذكروا أيها المؤمنون ما يقوله الكفار لكم بأنكم لو كنتم على الحق لما وقعت بكم مصائب الدنيا، فردوا عليهم بأن كل مصيبة في المال أو النفس مما لا يمكن جلبه ولا دفعه هي من قضاء الله تعالى وقدره مهما كان فيها من غم وهمّ، والله تعالى أعلم بمواقع الخير فيها من الشر، وأن على المؤمن أن يصدق ويسلم بذلك وينطلق في أعماله متوكلاً على ربه وصابراً على الابتلاء، ومطمئناً بجانب الله تعالى، فينال على ذلك أعظم الثواب.

كيف لا وهو تعالى عالم بكل من ينقاد لأمره سواء بالرضى أو الكره.. وأنه تعالى يدعوه ليهوّن على نفسه المصائب ويشتغل بطاعة الله والعمل بكتابه والتزام سنة نبيه عليه وآله وصحبه السلام.

ولهذا نجد السورة تدعوه للتوكل والعمل الدؤوب في الطاعات فتقول:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾

وتواصل السورة حث المؤمنين على الحذر ممن يعاديهم من أزواجهم وأولادهم في طاعة الله فتقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

مذكرة لهم بأن أمثال عوف بن مالك الأشجعي الذي شكا إلى النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم جفاء أهله وولده ومحاولتهم منعه من الخروج للجهاد بحجة أنه ليس لهم من يعيلهم غيره، بأن أمثاله من الأزواج أو الزوجات أو الأولاد هم أعداء لأزواجهم يجب الحذر منهم وعدم طاعتهم على حساب طاعة الله تعالى ورسوله عليه وآله وصحبه وسلم.

وليذكروا أن مثل هذا العمل الذي يدعونه إليه لا يعمله إلا عدو الله ورسوله وبدافع تزيين الشيطان للمعصية، وأن عليهم أن يذكروا أن الحذر من النفس ووساوسها يشمل الحذر من الضرر في البدن والضرر في الدين، بل ذاك الذي في الدين هو الأخطر.

كما عليهم أن يعرفوا حكم الله تعالى في ذلك قبل الوقوع فيه ويرفضوا الاستجابة للزوج والولد للقعود عن طاعة الله تعالى في الجهاد أو غيره، لأن في ذلك معصية لله تعالى.

كما عليهم أن يعفوا عمن استغل المحبة في القربى في ذلك ويصفحوا عن خطئه ويغفروا زلّته، ويذكّروهم التذكير الجميل لالتزام طاعة الله تعالى وطلب مرضاته بمساندتهم لهم والوقوف بجانبهم في طريق طاعتهم لربهم.

وتختم السورة تحذيرها من الأموال والأولاد فتقول:

﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟

﴿وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

فاذكروا أيها المؤمنون أن أموالكم وأولادكم التي رزقكم الله تعالى بها هي بلاء واختبار لكم قد تحملكم على كسب الحرام أو عدم إخراج حقه منه، فاحذروا طاعتهم في معصية الله تعالى واحرصوا على مثوبة الله تعالى ورضاه، وما أعظمه من أجرٍ.

واذكروا أن الله تعالى عندما أمركم بتقواه حق تقاته أمركم بالجهاد في سبيله وبطاعته بقدر استطاعتكم، كالهجرة إلى دار الإسلام لمن يقدر على ذلك، وأما من لا يقدر فقد عذره الله تعالى.

فاحذروا أن تسمحوا لفتنة الأموال والأولاد أن تقعدكم عن الهجرة من دار الشرك أو العمل لرفع راية الإسلام والجهاد في سبيل بقائها مرفوعة دائماً.

واسمعوا ما يأمركم به الله تعالى ورسوله، ولا تترددوا في الإنفاق في الجهاد الفكري والحربي، لأن في ذلك الخير كل الخير لأنفسكم بتخليصها من الشحِّ وبفوزها عند الله تعالى.

واذكروا أن العمل لإعادة الحياة الإسلامية في الأرض والإنفاق بسخاء في ذلك لا يقل ثوابه عند الله تعالى عمن يجاهد في سبيل الله ليموت شهيداً، لأن ذلك العمل هو الأصل الذي يقوم عليه هذا الفرع.

واذكروا أنكم في ذلك كله أمام علّام ما غاب وما حضر، أمام الغالب القاهر، أمام المدبر لخلقه كل التدبير.

دليل سورة التغابن ـ ٦٤

- إنها سورة مدنية، وأنزلت في ١٨ آية، وهي الخامسة والأخيرة من المسبِّحات.

- تذكّر البشر في بدايتها بأن الله تعالى خلقهم على شكل قد يختار بعضهم الإيمان وبعضهم الكفر.

- وتذكّرهم بأنه تعالى خلقهم في أحسن صورة بين المخلوقات فهل شكروا هذه النعمة بدلاً من إسرار الكفر وإعلانه؟

- ثم تحذر مشركي قريش من حصول ما حصل للأقوام المشركين السابقين، وتهددهم بيوم القيامة عندما يجمعون للحساب فيعرف المؤمن جزاءه الكامل ويعرف الكافر جزاءه الناقص لأنه أضاع أعماله في الكفر والشر.

- ثم تدعو المؤمنين للحذر من أقوال المرتابين والمشركين بحق مصائبهم في الأنفس والأموال، وأنها من قضاء الله تعالى وقدره التي لا تقعد المسلم عن العمل بل تدفعه للعمل.

- ثم تحذرهم من خطورة علاقاتهم بأسرهم من أزواج وأولاد وتقديمها على علاقاتهم وتضحياتهم في سبيل الله تعالى..فلا يسمحون لأحد منهم أن يقعدهم عن طاعة الله ورسوله سواء بالهجرة أو الجهاد الفكري في المرحلة المكية والجهاد الحربي في المرحلة المدنية.. وليذكروا أن أموالهم وأولادهم تشكل أقوى امتحان لهم ليحرصوا على النجاح فيه.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ لا تعني أن منهم من خلق كافراً ومنهم من خلق مؤمناً وإنما أنه تعالى قد خلقهم وفي كل منهم الاستعداد للكفر والاستعداد للإيمان فكفر من كفر عندما رجح استعداده نحو الكفر بالهداية التي بلغت إليه، وآمن من آمن غيره.

٢ ـ ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ تعني تميز البشر في صورهم عن بقية المخلوقات سواء من حيث استقامة الشكل أو وضع الرأس موضع العقل والإدراك في القمة.

٣ ـ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ تعني إضاعة المشرك حسن الإيمان والعمل على نفسه يوم يجري الحساب، فبدلاً من أن جزاءه من الحسنات كاملاً غير منقوص يجده قد ضاع وفرغ من الحسنات وامتلأت كفة ميزانه بالسيئات.

٤ ـ ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ تؤكد أن المقصود بالإذن هنا هوالقضاء والقدر.

٥ ـ ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ تؤكد خطورة تأثير بعض الزوجات والأولاد على الأزواج والآباء إقعادهم عن طاعة الله تعالى والسير على طريق رسوله عليه وآله وصحبه السلام في المرحلتين المكية والمدنية.. فتحذرهم من ذلك.. ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾.

سورة الطلاق (٦٥)

التقديم

تغطي هذه السورة جميع جوانب مسألة الطلاق، مسألة أبغض الحلال عند الله، مسألة آخر الدواء الكي.

فالطلاق يتمُّ لمرة واحدة لكل زوجة تحيض، وذلك أثناء طهرها لا حيضها، وبشرط أن يكون الزوج المطلِّق قد تجنَّب معاشرتها في ذلك الطهر، وبشرط أن لا يكون قد حصل قبله طلاق في الحيض، وأن لا يكون قد تبعه طلاق في الطهر التالي له، وبشرط أن يخلو الطلاق من العوض... ذلك أن الطلاق لا يقع أثناء الحيض.

هذا ويجب الحرص على معرفة الوقت الذي وقع فيه الطلاق حتى يعرف الوقت الذي يمكن أن تحل فيه المطلقة للأزواج من بعده، وذلك بعد أن يمرَّ عليها ثلاثة قروء أي: أطهار وليس حيض.

ولا يجوز إخراج المطلقة من بيتها أثناء عدتها إلا للحاجة إذا أرادت الخروج.

ولابد أن يلاحظ أنه عند اقتراب عدتها من الانتهاء فلا بد من المراجعة بالمعروف أو تركها تكمل عدتها وتملك نفسها، بشرط وجوب الإشهاد في ذلك دفعاً للتخاصم، سواء كان الإشهاد للرجعة أو الطلاق والفراق أو للاثنين معاً.

ولابد أن يعلم أن العدة هي ثلاثة أشهر لكل امرأة يئست من الحيض أو للصغيرة التي لم تحض بعد أن تزوجت ووقع الطلاق.

وأما الحامل فعدتها أن تضع حملها، وأن عليها ألا تخرج من بيتها إذا كانت تشك في انقضاء العدة حتى تتأكد من ذلك.. وأما إذا تأخر حيضها بسبب المرض بالذات فعدتها تسعة أشهر ثم ثلاثة، وأما لو تأخر بغير مرض ولا رضاع فعليها أن تنتظر سنة لا حيض فيها، أي: تسعة أشهر ثم ثلاثة، وأما من جهلت حيضها لاختلاطه مع الاستحاضة فعليها أن تعتد ثلاثة قروء وبانفصال دم الحيض عن الاستحاضة بمعرفتها لعادتها.

ولا بد من أن يعلم بأن سكن المطلقة ونفقتها يلاحظ فيه سعة الزوج المالية ووضع الزوجة ووضع ولدها المالي معاً.

وأما الحامل والمرضع فللحامل السكنى والنفقة، وللمرضع أجرة الرضاع حسب المعروف وسعة الزوج المالية معاً.

وليحذر من تجاوز حدود الله تعالى هذه حتى لا يحل عليه من العذاب ما حل

بالسابقين، وحتى ينال طيب الجزاء في الدنيا والآخرة عند طاعته والتزام أمره تعالى ونهيه.

التفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا (١) فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥) ﴾

فاذكر يا محمد، أنت وكل مؤمن من أمتك مسألة الطلاق، سواء بخصوص ما حصل معك عندما طلقت زوجك حفصة رضي الله عنها، وأمرك ربك بإعادتها لأنها من زوجاتك في الجنة بسبب أنها صوّامة قوّامة، أو بسبب تطليق عبد الله بن عمر رضي الله عنه زوجته وهي حائض تطليقة واحدة وأمرك له بإعادتها حتى تطهر وتحيض ثم تطهر، وعندها له أن يطلقها قبل أن يجامعها، أو بسبب آخر، فكل ذلك من خصوص السبب الذي لا عبرة له في الأحكام أيها المسلمون إذ العبرة بعموم اللفظ وشموله لجميع المسلمين وإلى يوم الدين.

واذكر يا سيدي يا رسول الله أنك بغّضت في الطلاق كثيراً حتى لا يتعجل أحد من المسلمين في الوقوع فيه فقلت: «إن من أبغض الحلال إلى الله تعالى الطلاق» وقلت: «تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتزّ منه العرش» وقلت: «لا تطلقوا النساء إلا من ريبة، فإن الله عز وجل لا يحب الذواقين ولا الذواقات» وقلت: «ما حلف بالطلاق ولا استحلف به إلا منافق».

وانظروا في قول كثير من الفقهاء ومنهم مالك رضي الله عنه، بأنه لا يجوز الاستثناء في الطلاق، وإلى قول ابن عباس رضي الله عنه بأن في الطلاق وجهي حلال ووجهي حرام: أما الحلال فهو الطلاق وهي طاهرة ولم يسبقه في الطهر جماع، والطلاق وهي حامل مستبينة الحمل، وأما الحرام فهما الطلاق وهي حائض، والطلاق في طهر جامعها فيه زوجها ولا يدري حملت منه فيه أم لا.

واذكروا أن العدة للمطلقة قد نزلت حين طلقت أسماء بنت يزيد الأنصارية ولم يكن للمطلقة قبلها عدة.

هذا وقد أوردنا الشروط السبعة للطلاق السنّي في المجمل، والمأخوذة مما حصل مع ابن عمر رضي الله عنهما عندما طلق زوجته وهي حائض فأمر بمراجعتها.

واذكروا أن التطليق بالثلاث أو الواحدة سواء وإن اختلف الفقهاء في الثلاث، فلم يوقعه جماعة من التابعين منهم سعيد المسيب.

والمهم أن الطلاق لا يقع في فترة عدَّة الزوجة ولا في طهرها، ولا في حيضها، وللمدخول بها فقط، بحيث يمكنه أن يراجع فيما دون الثلاث قبل انقضاء العدة، ويكون بعدها كأحد الخطاب، وأما في الثلاث فيكون بعد الزوج الآخر فقط.

واذكروا أنه لسلامة ودقة هذه الأوقات والمواعيد فلا بد من الإحصاء والحفظ لوقت وقوع الطلاق حتى يعرف بالضبط الوقت الذي تحل فيه للأزواج بعد مرور القروء الثلاثة، وهذا بالطبع يرجح أن العدة هي بالإطهار لا بالحيض... وليعلم الزوج والزوجة أنهما مطالبان بهذا الإحصاء دون غيرهما وذلك للفصل في المنازعة بينهما إذا حصلت.

واحذروا أن تخرجوا المطلقة من مسكن الزوجية طيلة فترة العدة، وأن لا تخرج هي إلا لضرورة ظاهرة، وأن يكون ذلك في النهار لا في الليل وخاصة إذا كانت مبتوتة، وأما إذا كانت رجعية فلا يرى الشافعي لها خروجاً لا بليل ولا بنهار، وهذا ما حصل مع فاطمة بنت قيس.

كما لا يجوز إخراجها من مسكن الزوجية إلا إذا ارتكبت فاحشة ظاهرة كالزنا والسرقة والبذاء على الأهل.

فاحذروا يا مؤمنون من التجاوز لهذه الحدود وإلا فمن يفعل ذلك يظلم نفسه ويوقعها في الإثم الشديد.

واحذروا عند الطلاق من إيقاعه ثلاثاً، لأن في ذلك ضرراً يوقعه الزوج بنفسه عند الندم على الفراق والرغبة في الارتجاع، فلا يجد له رجعة مع الثلاث.

واذكروا أيها المرتكبون لفعلة الطلاق الرجعي بأنه عند اقتراب العدة من نهايتها

يمكنكم المراجعة بالمعروف، ودون مضارة بتطويل العدة أو بالترك وذلك حتى تنقضي العدة وتملك نفسها وتتزوج من تريد.

واذكروا أن عليكم الإشهاد على الرجعة أو الفرقة، وذلك تجنباً للتخاصم، وبشرط أن يكون الإشهاد باثنين من المسلمين، وأن في ذلك موعظة وخيراً لكم كما فيه مخرج بالرجعة أثناء العدة للطلقة الواحدة، وإلا فبعدها كخاطب أو بعد الزوج الآخر إذا كانت مبتوتة.

واذكروا أن بالتقيد في ذلك الخير والرزق الطيب لكم سواء من الزوجة وما تلد أو من تيسيره تعالى لنعم الدنيا والأخرى عليكم.. كيف لا وأن من يفوض أمره إلى الله تعالى فإنه يكفيه ما يهمه.

واعلموا أن عدَّة من لا ترى الدم لأنها صغيرة لم تحض من قبل، أو لأنه انقطع حيضها، أو لأنها حبلى، أو لاختلاط الدم بين الحيض والاستحاضة.. فإذا حصل الشك في الحكم لاختلاف وضع الزوجة عند طلاقها فعليها وهي مرتابة في حيضها أن تنتظر سنة كاملة من يوم طلاقها منها تسعة أشهر استبراء، وثلاثة عدَّة، سواء حاضت حيضة أو حيضتين أثناء العدة ثم ارتفع الحيض فلم تكمل الحيضات الثلاث فيبقى عليها أن تنتظر ثلاثة أشهر من يوم طهرها من حيضتها، ثم بعدها تحل للأزواج الآخرين إذا لم يراجعها زوجها المطلق.

وأما المتوفى عنها زوجها فعدَّتها بعد الأشهر التسعة أربعة أشهر وعشراً، وأما الشابَّة والتي إما أن تكون حاملاً، فأجلها وضعه، وإما لا، فعدَّتها ثلاث حيضات ولو بعد حيضة واحدة فقط في عمرها السابق كله إلا إذا يئست بكبر سن فعدَّتها ثلاثة أشهر فقط، وأما إن تأخر حيضها لمرض فعدَّتها تسعة أشهر ثم ثلاثة، وهي كالمرضع في ذلك. وأما لو تأخر الحيض لغير مرض ولا رضاع فإنها سنة لا حيض فيها أي: تسعة أشهر ثم ثلاثة أيضاً. وأما لو جهل حيضها بالاختلاف مع الاستحاضة فهي أيضاً سنة كالسابق تسعة أشهر ثم ثلاثة أشهر إلا إذا كان دم المستحاضة ينفصل مما يجعلها تعرف موعد حلول وانتهاء حيضتها وعندها تعتد ثلاثة قروء.

وأما الصغيرة التي لم تحض فعدَّتها ثلاثة أشهر ما دامت لم تر الدم فإن رأته أثناء هذه الشهور الثلاثة انتقلت للاعتداد بالدم، وهذا هو حال المسنة إذا اعتدت بالدم ثم ارتفع فإنها تعتد بالأشهر.

وأما الحامل فعدَّتها في الطلاق مثل عدَّتها في الوفاة وهي وضع حملها بشرط أن يكون ولداً لا مجرد علقة أو مضغة.

فاذكروا ذلك أيها المؤمنون والتزموا هذه الأحكام ليكفِّر من سيئاتكم ويزيدكم من فضله في الدنيا والآخرة.

وتأتي السورة بعدها إلى موضوع السكن والنفقة في شأن المطلقة... فتقول:

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾

فعلى المطلِّق أن يغادر المنزل ويتركها فيه إذا طلقها ثلاثاً بائنة، ولها السكن دون نفقة كما قال مالك والشافعي، ولها السكن والنفقة كما قال أبو حنيفة وأصحابه، وليس لها سكن ولا نفقة كما قال أحمد وإسحاق وأبو ثور بدليل قوله عليه وآله وصحبه السلام «إنما السكنى والنفقة على من له عليها الرجعة».

ولكن عمر رضي الله عنه لم يأخذ بهذا الحديث لأنه منقول عن فاطمة بنت قيس فقط والتي روت أن الرسول عليه وآله وصحبه السلام قد قال لها عندما أخبرته أن زوجها طلقها ثلاثاً «بل لك السكنى ولك النفقة».

وأما مقدار النفقة فيراعى فيه مقدرة الزوج المالية كما يراعى مستوى من هو مثلها وبشرط عدم المضارة عليها لا في السكن ولا في النفقة ولا في التلاعب بالرجعة.

وأما إن كانت المطلقة ثلاثاً حاملاً فإن وجوب النفقة والسكنى لها مثل الرجعية، ويستمر ذلك حتى تضع حملها.

وعلى الزوج أن يدفع لها أجرة الإرضاع إذا أرضعت وليدها وولده كأنه يستأجر أجنبية، وإن كان أبو حنيفة لا يرى الاستئجار إلا عند البينونة، ولكن الشافعي يراه جائزاً للرجعية أيضاً، وعلى الوالدين أن يتفقا على ما فيه خير المولود، ولكن إذا اختلفا فله أن يستأجر غير أمه إذا رفضت الإرضاع إلا إذا امتنع الوليد عن غيرها فتلزم هي بإرضاعه، وإذا اختلفا على أجرة الإرضاع فيحكم لها بأجر المثل وإن أعسر الأب فتجبر بإرضاع ولدها.

وأما بالنسبة لإنفاق الزوج على زوجته وولده الصغير بدون النظر إلى موضوع الطلاق فإن المولى عز وجل يلزمه بالإنفاق عليها وفقاً لاستطاعته المالية وبحسب مجرى الحياة اليومية، فتراعى حالة الزوج وحالة الزوجة معاً ودون تحديد لمقدار النفقة سلفاً،

وإن رأى الشافعي التحديد، لأن هذا التحديد لايراعي الكفاية المختلفة من زمان إلى زمان، ومن مكان إلى مكان، وقوله عليه وآله وصحبه السلام لهند بنت عتبة زوج أبي سفيان «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف» بيان حاسم في ذلك بمراعاة الكفاية وليس بمقدار معلوم محدد لامجال لتجاوزه. وأما مقدار هذه الكفاية فترجع لاجتهاد الإمام.

والمهم أن النفقة للولد على الوالد، وليس على الأم إلا إذا عدم وجود الأب أو أعسر بشكل دائم.

وتذكّر السورة بعدها بعاقبة من يخالف أمر الله تعالى ورسوله عليه وآله وصحبه السلام بما حصل في الأقوام السابقين فتقول:

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ
أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدْ أَنزَلَ
ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ
ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ
قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ
ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾

محذرة في خاتمتها المسلمين حتى قيام الساعة مما حصل من العذاب الشديد لتلك الأقوام السابقة التي عصت ورفضت العمل بأوامر الله تعالى ونواهيه، فكانت عاقبة كفرها وإعراضها الهلاك في الدنيا والجحيم في الآخرة.

فيا أصحاب العقول من المسلمين الذين آمنوا بالله ورسوله وكتابه، عليكم بالأخذ بمقتضى إيمانكم والتزموا بأوامر الله تعالى ونواهيه، وعندها يحق لكم أن تخرجوا من ظلمات الجهل في هذه الدنيا إلى نور المعرفة واليقين، ومن ظلمات الجحيم وعذابها في الآخرة إلى نور الجنة ونعيمها.. حيث تستمتعون بالخلود الأبدي برزق الله تعالى ونعيمه وفضله جزاء طاعاتكم.

واذكروا أنكم مأمورون بطاعة خالق السموات السبع والأرضين السبع ومن فيهن، وعليهن، وبينهن، بطاعة من قدر على خلقهن والقادر على بعثكم للحساب على أعمالكم يوم القيامة حين يكافؤكم بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً وحين يعفو عن الكثير من ذنبوكم إن صدقتم الإيمان وأحسنتم التوبة والندم.

واذكروا أن الله قد أعطاكم بقضائه وقدره القدرة على الاختيار وتحمل المسؤولية

على ما تختارونه، وأنه تعالى لم يسلبكم كل الاختيار، بل حتى حيث سلبكم هذا الجزء من الاختيار فإنه سبحانه وتعالى قد كافأكم بفضله ورحمته ومنته عندما يصبر المؤمن منكم على ابتلائه له بالثواب العظيم.

فلم يبق للمؤمن من خيار بعد أن علم أحكام الله تعالى في هذا المجال، مجال الطلاق كما علمها غيره، إلا أن يصبر على الابتلاء حيث يصيبه القضاء والقدر بأيِّ ابتلاء ويحتسبه لله تعالى وينطلق في حياته طالباً رضى الله تعالى في مجالات اختياراته الرحبة دون أن ينسى أن الله تعالى على علم تام بكل صغيرة وكبيرة تصدر عنه وأنه تعالى قادر على كل شيء سواء بسواء.. فمثل هذا الإيمان يحقق القناعة العقلية والاطمئنان النفسي.

دليل سورة الطلاق ـ ٦٥

- إنها سورة مدنية، وأنزلت في ١١ آية.
- تبين هذه السورة مختلف جوانب مشكلة الطلاق.
- فالطلاق السنّي يقع في طهر لم يحصل فيه جماع وبلفظ الطلاق الواحد، وأما الطلاق البدعي فيحصل بلفظ الثلاث أو في الحيض أو في طهر مع جماع.
- وتبين أن الطلاق بعوض هو الخلع مما اعتبره بعض العلماء طلاقاً لمرة واحدة واعتبره غيرهم طلاقاً بائناً بينونة كبرى.
- وتدعو للحرص على معرفة وقت الطلاق لتعرف العدة ومتى تحل للأزواج أو يمكن لزوجها المطلِّق أن يعيدها، وكيف يعيدها، وتحديد موضوع خروجها أو إخراجها من بيتها مع الإشهاد.
- وتدعو للتدقيق في معرفة العدَّة حسب كل امرأة.
- كما تأمر الزوج بالإنفاق على المطلقة وتهيئة سكن لها حسب قدرته المالية ووضعها وولدها.
- كما تبين بما للحامل والمرضع من السكنى والنفقة والأجرة.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ إبراز الطلاق المعتبر شرعاً كطلاق بأن يكون بلفظ المرة الواحدة وأثناء طهر لم يحصل فيه جماع، وإذا نقض أمر من هذه الأمور الثلاثة فقد خرج عن الطلاق المعروف بالطلاق السنّي إلى الطلاق البدعي ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾

٢ ـ للمرأة في الأصل العوض عند الطلاق ولكن أن تدفع هي للزوج مقابل أن يطلقها فهذا هو أن تخلع نفسها من عقد الزوجية، وهذا ما وضحته الأحاديث الشريفة.

٣ ـ إن النقطة الفاصلة في وقوع الطلاق ونفاذه ومترتباته مرتبطة بالعدة، مما يفرض الدقة في معرفتها لكل أصناف النساء .﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾.

٤ ـ حال الزوج المالي وحال المطلقة وولدها المالي لهما تأثير على الواجب في الإنفاق والسكنى لكل طرف ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾.

٥ ـ اعتبار الالتزام بأحكام الطلاق خروجاً من الظلمات إلى النور ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

سورة التحريم (٦٦)

التقديم

تسمى هذه السورة بسورة (النبي) لأنها تتحدث عن عدم جواز تحريم ما أحل الله تعالى للنبي عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام سواء في أكله أو شربه أو قربه من زوجاته.. وتبين أن مثل هذا التحريم هو مجرد يمين يمكن أن تحله الكفارة، سواء له عليه وآله وصحبه السلام أو لأيٍّ من أبناء أمته وإلى يوم القيامة.

وتقف السورة مع ما أسرّه الرسول عليه وآله وصحبه السلام إلى زوجه حفصة رضي الله عنها من تحريم زوجه مارية على نفسه، ونقلها الخبر إلى زوجه عائشة رضي الله عنها مع أنه عليه وآله وصحبه السلام قد طلب منها الكتمان.

كما أنها نقلت إليها خبره عليه وآله وصحبه السلام لها بأن والديهما سيليان الأمر من بعده، وأن الله تعالى قد استتابهما من هذا الخطأ وحذرهما من العودة لمثل هذا التظاهر على الرسول عليه وآله وصحبه السلام، وأنه تعالى قد حذَّرهن من طلاقهن واستبدالهن زوجات أخريات له عليه وآله وصحبه السلام في الدنيا خير منهن.

وتخاطب السورة بعدها عامة المسلمين بأن يحفظوا أنفسهم وأهليهم من نار جهنم يوم القيامة بالحرص على الإقبال على الأعمال الصالحات والطاعات الكثيرات، وتنذر الكافرين، بالمقابل، بأنه لا أمل لهم في النجاة من العذاب يوم القيامة مهما اعتذروا عن ذنوبهم وكفرهم لأن ذلك الوقت وقت حساب وجزاء بعد أن انتهى في الدنيا وقت التكليف والأعمال.

وتعود السورة بعدها لتحث المؤمنين على التوبة الصادقة النصوح من كل الذنوب، صغيرها وكبيرها، كما تحث الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام بالتشديد في حرصه على الجهاد في سبيل الله تعالى بالسيف جنباً إلى جنب مع الدعوة والتبليغ المبين.

وتضرب السورة في نهايتها مثلاً من الكفار بامرأتي نوح ولوط عليهما السلام، وكيف أنهما خانتاهما بكفر الأولى وتواطؤ الأخرى مع قومها على الفحشاء، فدخلتا النار، ولم ينفعهما أنهما زوجتا نبيين.

كما تضرب مثلاً آخر من المؤمنين بامرأة فرعون آسية بنت مزاحم، التي آمنت فعذبها زوجها حتى كادت تموت فنجاها الله تعالى باستجابته لدعائها، وبمريم بنت عمران، التي حافظت على عفّتها، ولكن الله تعالى أكرمها بولادة ولدها عيسى دون زوج.

وأن في ذلك التحذير لحفصة وعائشة من المخالفة والوقوع في مثل ذلك التظاهر على رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم الكثير من الترغيب لهما بالطاعة والثبات على طاعة الله تعالى وطاعة رسوله عليه وآله وصحبه السلام كما فعلت امرأة فرعون وبنت عمران.. كما فيه التحذير والترغيب لجميع نساء المؤمنين إلى يوم الدين.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾

داعية الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بأن لا يحرم على نفسه أكل

شيء، كالعسل، أو القرب من زوجة من زوجاته، لأن ذلك مما أحله الله تعالى له، وأنه ليس له أن يقدم على شيء من ذلك طلباً لرضى أحد كائناً من كان سواءٌ من زوجاته أو غيرهن، وأن الأولى به عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام أن يلتزم الأخذ بتحليل ما أحله الله تعالى له ولا يسترضي أحداً في ذلك خلافاً للتحليل.

وتذكّر السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن تواطؤ عائشة مع حفصة رضي الله عنهما لتجعلاه لا يشرب العسل عند زينب رضي الله عنها، ثم لتجعلا بقية نسائه، كلهن أو بعضهن، ينفِّرنه من شرب العسل بحجة أن رائحته غير طيبة لأن رائحة المغافير تصدر عنه، بأن ذلك لا يبرِّر له أن يحلف بأن لا يقربه ثانية ولا سيما أنه عليه وآله وصحبه السلام حريص على الرائحة الطيبة لمناجاة الملك.

وتذكّره أيضاً بأن عليه وآله وصحبه السلام ليس له أن يحرِّم على نفسه القرب من أم ولده مارية بأن يحلف لحفصة على ذلك عندما استثارته لأنه دخل بها في بيتها أثناء وجودها، أي: حفصة، في بيت أبيها، وذلك عندما تعرف ذلك فتشتكي إليه بأنه لولا هوانها عنده لما فعل ذلك في بيتها، فيحرم القرب من مارية لأجل ذلك ويطلب منها ألا تخبر عائشة بالأمر.

فقد اعتبرت السورة ذلك يميناً منه عليه وآله وصحبه السلام، وبيَّنت تحليله بالكفارة، وإن كان اللفظ قد جاء في شأن مارية صريحاً بالحلف إذ قال عليه وآله وصحبه السلام «والله لا أقربها بعد اليوم».. وهكذا عاتبه الله تعالى على فعل خلاف الأولى.

وقد فهم الفقهاء الأمر في الحكم الشرعي من هذه الواقعة على أنها حسب النية: فإما أن يكون يميناً أو طلاقاً لمرة واحدة أو ظهاراً، وكل هذا بسبب عدم وجود النص في ذلك لا في الكتاب ولا في السنة، ولهذا ذهب عامة الفقهاء إلى أنه يمين وعليه كفارة، وأن التحريم المشار إليه في الآية هو بشأن حفصة عندما خلا الرسول عليه وآله وصحبه السلام بجاريته مارية في بيتها، وأنه يشمل تحريم شرب العسل في نفس الوقت عندما ألزم عليه وآله وصحبه السلام نفسه بعدم شربه بقوله «لن أعود له»، فكان هذا تحريماً له.

وهكذا دعاه ربه سبحانه وتعالى لعدم العودة لفعل ذلك ثانية طلباً لرضى نسائه، وأعلمه بأنه تعالى قد غفر له ما عاتبه عليه لتركه الأولى وليس لأنه ارتكب صغيرة أو كبيرة.

وتبيِّن السورة بعدها أن الكفارة تحلِّل هذا اليمين، سواء كان في أكل وشرب أو في القرب من النساء.

والمعروف أن الرسول عليه وآله وصحبه السلام قد كفّر عن يمينه فعلاً بعتق رقبة وذلك بشكل خاص لاتصال الكلام الصريح في اليمين بمارية نفسها.

وأما ما أسرَّه صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم لحفصة بأنه حرَّم على نفسه مارية، واستكتمها الأمر، كما أسرَّ إليها أن أباها وأبا عائشة سيخلفانه على الأمة بعد وفاته ولكنها أي: حفصة أخبرت عائشة بذلك، فإنه هو ما أظهره الله تعالى عليه، فعرَّف بعضه فقط وذلك بأن أعرض عن ذكر موضوع الخلافة من بعده حتى لا يشيع في الناس، وأخبرها ببعضه الآخر مما يتصل فقط بموضوع مارية ولم يخبرها بموضوع الخلافة.

وعندما سألته عمن أخبره بذلك، وأنه علم ما قالته لعائشة، أخبرها بأن الله تعالى العليم بكل خفي الخبير بكل عمل هو الذي أخبره.. ولذلك سرِّي عنها لأنها خشيت أن تكون عائشة هي التي نقلت إليه الخبر.

وتتحدث السورة هنا عن حث كل من حفصة وعائشة بالذات، لأنهما تواطأتا لمنعه عليه وآله وصحبه السلام من شرب العسل، ولأن حفصة كانت سبب حلفه عليه وآله وصحبه السلام ذاك اليمين على عدم القرب من جاريته مارية، حثهما على التوبة عما فعلتاه مع خلاف ما تقتضيه محبتهما للرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام، وأن لهما في هذه التوبة الخير.

وتحذر السورة زوجتيه حفصة وعائشة رضي الله عنهما أيضاً بأنهما إن عادتا لمثل هذا التواطؤ على رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم فإن الله تعالى ينصره على ذلك ويحميه من وقوع أيِّ ضرر من تظاهرهما عليه.. كما حذرهما المولى عز وجل من أن جبريل عليه السلام وجميع أصحابه رضوان الله عليهم سينصرونه.

وعرف أن الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام قد اعتزل نتيجة ذلك جميع نسائه لمدة تسع وعشرين يوماً.

ومما عرف أيضاً أن عمر رضي الله عنه قد حاول في نهاية المدة أن يسرِّي عن الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن أخبره أن المسلمين يتحدثون أنه عليه وآله وصحبه السلام قد طلقهن جميعاً، ولكن الرسول عليه وآله وصحبه السلام قد نفى ذلك وأكد أنه مجرد الاعتزال لهن.

وتأتي السورة لذكر تهديد المولى عز وجل لهن بأنه تعالى قادر على أن يزوجه بدلاً منهن إذا طلقهن عليه وآله وصحبه السلام بأزواج أخريات في هذه الدنيا خيراً منهن

بحيث يتصفن بالإخلاص في التسليم لأمر الله تعالى ومحبة رسوله عليه وآله وصحبه السلام، والصدق في التقيد بالأمر والنهي، وبالطاعة التامة في كل أعمالهن وأقوالهن وبالرجوع في كل رغبة إلى ما يحبه رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وبالإكثار من العبادات، وبالسياحة والإكثار من طاعة الله تعالى، وبأن يكنَّ ثيبات كما يكون منهن الأبكار.

وقد حمل لهن هذا التحذير بأنه تعالى قد يزوجه في الآخرة من هن خير منهن.

وتحث السورة المؤمنين بعدها على الحفاظ على أنفسهم وأهليهم من النار.. فتقول:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦﴾

ليحرص كل إنسان، وكل أب وكل زوج خاصة، على أن يحمي نفسه وأهله من النار وذلك بالتزام أوامر الله تعالى ونواهيه فيدعو أهله دائماً لذلك ويذكرهم.

كيف لا والرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام يحملهم مسؤولية هذه الرعاية بقوله: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام الذي على الناس راع وهو مسؤول عنهم، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عنهم»،

وبقوله «حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويعلمه الكتابة ويزوجه إذا بلغ»،

وبقوله «ما نحل والد ولداً أفضل من أدب حسن»،

وبقوله «مروا أبناءكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرِّقوا بينهم في المضاجع»،

وبقوله عندما سألوه عن أهليهم «تنهونهم عما نهاكم الله وتأمرونهم بما أمر الله»

والله تعالى يقول ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ﴾.

فليحرص الآباء بالذات على ذلك لأن العمل به يحقق وقاية النفس والأهل من نار جهنم في الآخرة كما يحميهم من المعاصي والفساد والشقاء في الدنيا.

وتدعو السورة بعدها الكافرين والمؤمنين لصدق التوبة في الدنيا.. فتقول:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٧ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّـٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ

﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾

فتأمر الكافرين بالكف عن زعمهم الاعتذار عن ذنوبهم وكفرهم يوم القيامة، يوم الجزاء لا يوم العمل، لأنه لا مجال لقبول اعتذار في ذلك اليوم، وقد أنذروا بذلك في الدنيا.

وتحذر المؤمنين من الانزلاق فيما هم عليه الكفار من المعاصي، وأن يقبلوا على التوبة الصادقة النصوح، ولا يجعلوا لذلك وقتاً بل في كل وقت وبعد كل ذنب، وأن يذكروا أنهم يجدون الله تعالى عند كل توبة وندم صادقين غفاراً لذنوبهم.

كيف لا وقد أوجب المولى عز وجل على نفسه أن يكفِّر السيئات لمن تاب توبة نصوحاً،

وأكد لهم ذلك الرسول عليه وآله وصحبه السلام «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»، وأنه تعالى يدخلهم متى كفّر عنهم سيئاتهم وقبل توبتهم جنات النعيم في ذلك اليوم الذي لا يعذب الله تعالى فيه نبيه ولا المؤمنين معه، فتراهم ونور أعمالهم وإيمان قلوبهم تضيء لهم الطريق إلى الجنة، وهم لشدة طمعهم في رحمة الله وفضله يطلبون منه تعالى المزيد من هذا النور والتمام من المغفرة وهم مطمئنون بقدرة الله تعالى على ذلك وهو سبحانه القادر على كل شيء.

وتعود السورة بعدها وتشدد على الرسول عليه وآله وصحبه السلام والمؤمنين معه بالجهاد في سبيل الله تعالى ضد الكفار سواء كان ذلك بالسيف أو بالوعظ الحق أو بالدعوة والتبليغ المبين،

وتطلب منهم أن يشتدوا في التعامل مع المنافقين بالغلظة وإقامة الحجة وهم يبينون لهم ما ينتظرهم من سوء العذاب يوم القيامة، وما سيكونون عليه من الظلمة وفقدان النور الذي يحتاجونه لاجتياز الصراط مع المؤمنين، وما سيلاقونه بنتيجة ذلك من السقوط إلى قعر جهنم والدرك الأسفل من النار، وفي ذلك تدعو السورة النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم فتقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾

ثم تأتي السورة إلى خاتمتها فتضرب مثلاً للذين كفروا ومثلاً آخر للذين آمنوا من عالم النساء..فتقول:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾

محذرة من أن أحداً لن يغني عن أحد يوم القيامة مهما كان قريباً له أو نسيباً ما داما قد افترقا في الدين.

فانظروا أيها الكفار إلى امرأة نوح وإلى امرأة لوط ماذا حل بهما بنتيجة خيانتهما لزوجيهما عندما كفرت امرأة نوح وتآمرت امرأة لوط على الفحشاء مع قومها ضد زوجها:

فماذا كانت عاقبة كل منهما؟

لم يستطع، ولن يستطيع، لا نوح ولا لوط عليهما السلام، مع كرامتهما على الله تعالى، أن يدفعا عذاب الله تعالى عنهما عندما أغرق الأولى وخسف الثانية في الدنيا، ولن يستطيعا ذلك في الآخرة.

وفي ذلك دليل على أن طاعة الله تعالى وحدها هي التي تدفع العذاب في الدنيا والآخرة.

وانظروا أيها المؤمنون إلى مريم ابنة عمران، إلى صبرها على أذى اليهود واتهامهم لها بالزنا ورفض ما قاله الإنجيل وأكده القرآن بأن جبريل عليه السلام قد نفخ بأمر الله تعالى في جيبها لا في فرجها، نفخ فيه من روح الله تعالى عيسى عليه السلام، فجاء معجزة دون أب، تكريماً لها وتعظيماً، وهي الصادقة المصدقة لكل كلمة قالها وليدها وهو في المهد وعند الكبر، والمصدقة بكتب الله تعالى السابقة، وللتوحيد والطاعة والاطمئنان بجانب ربها، فكانت من المطيعين المخلصين.. يا نساء المؤمنين.

فهلّا تذكّرتن يا نساء المؤمنين هذه الأمثلة من النساء لتكنَّ من المؤمنات لا الكافرات.

دليل سورة التحريم ـ ٦٦

- إنها سورة مدنية، وأنزلت في ١٢ آية، وتسمى سورة النبي.

- وتبين للرسول عليه وآله وصحبه السلام عدم جواز تحريم ما أحله الله تعالى له من أكل أو شرب أو قربه نسائه وأن ذلك مجرد يمين تحله الكفارة..وهذا للمسلمين إلى يوم الدين.

- ثم تحذر زوجاته وبالذات حفصة وعائشة رضي الله عنهما اللتين إستتابهما من خطأ إرتكبتاه وأنه تعالى سيأمر بطلاقهما واستبدالهما بزوجات أخريات إن كررتا ذلك.

- ثم تدعو المسلمين لحفظ أنفسهم وأهليهم من جهنم بالإقبال على الطاعة وتنذر المشركين من الخلود في النار مهما اعتذروا عن ذنوبهم.

- ثم تحث المؤمنين للتوبة الصادقة من كل الذنوب مع الحرص على الجهاد مع الرسول عليه وآله وصحبه السلام.

- وأخيراً تضرب السورة مثلاً من الكفار بامرأتي نوح ولوط وأنهما دخلتا النار لخيانتاهما لزوجيهما فلم تنفعهما الحياة الزوجية، كما ضرب مثلاً آخر من المؤمنين بامرأتين أخريين هما امرأة فرعون ومريم بنت عمران وكيف أن كفر وطغيان زوج الأولى لم يمنعها من دخول الجنة لصدقها في إيمانها وأن مريم مع إيمانها حافظت على عفتها فجاءت بالسيد المسيح دون أب معجزة..و في هذين المثلين تحذير عملي لحفصة وعائشة من التظاهر على الرسول عليه وآله وصحبه السلام ولكل امرأة مسلمة من مثل هذه المخالفة.

فتبرز الأمور التالية :

١ ـ إن أي تحريم لشيء مما أحله الله تعالى لايحرمه وإنما تعتبر يميناً تنهيه الكفارة ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾.

٢ ـ دعوة الأزواج للتمهل في طلاق الزوجات عند ارتكابهن أي خطأ مهما كان وإعطائهن فترة للتوبة ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ لأن الإصرار على الذنب يقود للنار ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾.

٣ ـ دعوة المؤمنين للحرص على تكرار التوبة عند كل ذنب لشرط التوبة النصوح الصادقة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾.

٤ ـ إلزام النبي عليه وآله وصحبه السلام وكل خليفة له بالجهاد ضد الكفار والمنافقين، مع الشدة في الجهاد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾.

٥ ـ تأكيد أن القرابة أو النسب لا تنقذ أحداً من النار عند الكفر فلا نوح نفع زوجته ولا لوط ولا أثر زعم اليهود واتهامهم لمريم بالزنا مع صدقها وإخلاصها لله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾.

سورة الملك (٦٧)

التقديم

تسمى هذه السورة الواقية والمنجية لقوله عليه وآله وصحبه السلام «هي المانعة، هي المنجية تنجيه ـ من يقرأها ـ من عذاب القبر».

وقد بدأت بالإشارة إلى قدسيته تعالى ودوامه الذي لا أول له ولا آخر، وإلى ملكه للسموات والأرض، وسيطرته على كل شيء من الإنعام على من يستحقه والانتقام ممن يستحقه.

وخلقه تعالى الموت والحياة في كل المخلوقات، وللإنسان المكلف بالذات وذلك ليقهره ويختبره، بدليل قوله عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام «إن الله تعالى أذل بني آدم بالموت، وجعل الدنيا دار حياة ثم دار موت، وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء».

وخلقه تعالى سبع سموات طباقاً لا اعوجاج فيها ولا تباين ولا عيب لكل ناظر مهما دقق النظر، وتزيينه للسموات بالكواكب لإضاءتها، وبالشهب لقذف الشياطين الذين يصعدون يسترقون السمع فيها.

وتشير بعدها للكافرين واستقرارهم في جهنم، حيث يعلو شهيقهم وزفيرهم من شدة العذاب بعد اعترافهم بما كذبوه من الرسل والرسالات في الدنيا.

وإلى ذلك تلفت نظر مشركي مكة وأمثالهم، وتؤكد لهم بأن الله تعالى يعلم سرهم وجهرهم وما تخفي صدورهم فليعجلوا في الإيمان والطاعة خيراً لهم.

وتذكّرهم بأن ذلك واجب عليهم وعلى كل عاقل يرى نعم الله تعالى عليه والتي فيها هذا التسيير في الأرض لعيشهم.

وتحذّرهم من عذابه تعالى إن أصروا على الكفر والعصيان بخسف الأرض بهم أو برجمهم بالحجارة من السماء.

وتذكّرهم بقدرته تعالى عليهم وهم يرون تسيير الهواء في السماء للطير كما يسر لهم ولسيرهم الأرض، وبأنه لا مانع يمنعهم من الله تعالى ولا رازق يرزقهم غيره.

وتذكّرهم بالبون الشاسع بين المسلم الواضح السبيل والكافر المظلمه، وتدعوهم للإيمان بالله تعالى الذي أنعم عليهم بوسائط المعرفة من سمع وبصر وعقل مما يلزمهم بالشكر له تعالى لا بالكفر.

وتذكّرهم بما يقرون به بأنه هو تعالى الذي خلقهم في الأرض وأنه تعالى غداً يحاسبهم على أعمالهم، وتؤكد لهم بأن أحداً لا يعلم موعد يوم الحساب إلا هو سبحانه، وبأنه متى اقترب ذلك اليوم يدب الرعب فيهم وقد تحققوا من صدق ما وعدوا به.

وتدعو الرسول عليه وآله وصحبه السلام أن يذكرهم بأنه لا نجاة لهم يوم الحساب من عذاب الله تعالى إلا منه سبحانه، وأنه لا رازق لهم بالماء ولا بغيره إلا هو سبحانه.

فليحذروا عذابه وليرجو رحمته وجنته.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ
أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ
فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾
وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟
بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ
ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ
ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ
﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾

فقد بدأ المولى عز وجل السورة بأن بارك وقدس ونزه نفسه سبحانه عما لا يليق به، معلماً للبشرية ذلك.

وهو سبحانه الذي له وحده الديمومة في الوجود وكل ما غيره هالك، وله السيطرة على جميع خلقه فيعز منها ما يشاء ويذل ما يشاء.

وهو سبحانه الذي يحيي ويميت وليس لأحد غيره في ذلك أثر.

وهو سبحانه الذي يغني والذي يفقر فيبسط الرزق ويضيقه لمن يشاء ومتى يشاء.

وهو سبحانه الذي ينعم والذي ينتقم على من يشاء وممن يشاء.

وهو سبحانه الذي خلق الموت لقهر العباد به، وخلق الحياة ليختبر المكلفين فيها.

وهو سبحانه الذي جعل في الموت حافزاً دائماً للتسابق مع الزمن في العمل والإنتاج، وجعل في الحياة التكليف على الأعمال بما منح خلقه من البشر من عقل وإدراك وقدرة على التمييز بين الخير والشر، بين الهدى والضلال، والقدرة على الاختيار ومباشرة هذا الاختيار بينهما.

وهو سبحانه الذي أنزل الكتب على رسله ليبينوا لخلقه المكلفين من الجن والإنس ما خلقهم من أجله ألا وهو العبادة.

وهو سبحانه الذي بين في كتبه لخلقه وعلى ألسنة رسله الأوامر والنواهي الواجب طاعته فيها والعمل في كل شأن وفقاً لها ورتب الجزاء وفقاً لمدى الالتزام بها، وجعل للمحسن في ذلك الحسنى يوم القيامة وللمسيء الحساب بقدر إساءته.

وهو سبحانه الذي أنذر الكفار والفجار والعصاة من سوء عاقبتهم في الدنيا والآخرة، وبشر المؤمنين والأتقياء والطائعين بحسن عاقبتهم في الدنيا والآخرة.

وهو سبحانه الذي يذكّر كل ذي عقل وعينين، ويحرص على استخدامها لمعرفة الحق واتباعه، بأنه هو تعالى خالق هذه السموات السبع بشكل جاءت متطابقة بعضها فوق بعض، ودون أي اختلاف ولا تناقض ولا شقوق، وأن للناظر منهم بعينين مدققتين لمرات ومرات أن يرى مدى دقته تعالى في خلقه وهو يرى هذا الإتقان في النظام الكوني الذي يسيّر به هذا الكون، فيستولي عليه الإكبار والخشوع ويشعر بالصغار أمام عظمة خالق هذا الخلق.

فانظروا يا ذوي الألباب والأبصار في السماء الدنيا وما زينت به من النجوم والكواكب المضيئة والشهب المترصدة للمتلصصين من الشياطين، شياطين الجن الذين يصعدون طلباً لاستراق السمع فتتبعهم فتقضي عليهم.

وانظروا إلى ما ينتظر تلك الشياطين وأتباعهم من الإنس من الحريق في نار جهنم حيث يسمع شهيقهم وزفيرهم بعد أن استقبلتهم بغيظها عليهم وهم الذين لا يملكون أمام صدق ما أنذروا إلا التصديق والإقرار بما كانوا ينكرونه من رسل الله تعالى إليهم، وهم الذين يأخذون في التمني أن لو سمعوا لدعوات الإنذار التي وجهت إليهم واتبعوها لينقذوا أنفسهم من هذا العذاب الذي لا قبل لهم بدفعه.

وتنبه السورة بعدها إلى حقيقة الإيمان المطلوب بالله تعالى الخالق العالم الرازق المنتقم الجبار.. فتقول:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ
بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا
فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا
هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدۡ
كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا
ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا
فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ
وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٢﴾﴾

فاذكروا يا عباد الله أن من يخاف الله تعالى ويخشى عذابه الذي لاشك بقدومه يوم القيامة هو من سينال عفو الله تعالى عما وقع من ذنوب سابقة ويدخله جنته.

واحذروا أن تنخدعوا بإخفاء ما يصدر منكم من قول، فإن الله تعالى يعلم كل سر منكم كما يعلم كل جهر، وأنه تعالى محيط بخفايا صدوركم وخواطر نفوسكم، كيف لا وهو سبحانه خالقكم وخالق كل شيء والخبير بكل ما كان ويكون منكم.

واذكروا أنه تعالى هو الذي خلق هذه الأرض وجعلها سهلة ميسرة لحركتكم وطلب معاشكم، وما عليكم إلا أن تمشوا في فجاجها لتجدوا رزق ربكم مطلوبكم.

وأن تذكروا أنكم سترجعون إليه تعالى بعد بعثكم من موتكم ليحاسبكم على إحسان طلب الرزق والتصرف فيه.

وانظروا في السماء وأنتم تركضون في مسارات الأرض، وتأكدوا أنكم لا تأمنون نزول العذاب بكم إذا عصيتم الرازق وأنتم تقرون به خالقاً لكم، ولكل شيء، وقادراً على كل شيء، وأنه قادر أن يرسل عليكم من الملائكة من يخسف بكم هذه الأرض التي يسرها لكم تماماً كما خسف بقارون.

وتأكدوا بأنه تعالى قادر إذا أصررتم على غيكم وعصيانكم أن يرسل إليكم ملكاً من السماء فيحصبكم بالحجارة كما حصب قوم لوط وغيرهم.

فعليكم أن تستجيبوا لدعوة نبي ربكم محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وتصدقوا توحيد ربكم والطاعة له في كل أوامره ونواهيه ولا تنتظروا نزول عقاب الله تعالى عليكم في الدنيا وفي الآخرة وأنتم تستخفون بكفركم بنزوله بكم.

ويكفيكم أن تذكروا ما حل بالأمم السابقة من أمثال قوم نوح وعاد وثمود ولوط ومدين وغيرهم، وكيف أنهم بسبب تكذيبهم لرسل الله تعالى إليهم وطغيانهم حكموا على أنفسهم بالعقاب الذي نزل بهم.

واذكروا أنكم إذا كان قد أغشي على أبصاركم فلم تبصروا ما بين أيديكم من دلائل النبوة وبراهين التوحيد في الأرض فانظروا في السماء لتروا كيف أن الله تعالى قد ذلل هواءها لحركة الطير وطلب الرزق عندما جعل ذلك جزءاً من النظام الكوني البديع.

وانظروا إلى الطيور وهي تهاجر بين أقطار الأرض في صفوف منتظمة، وتخفق بأجنحتها يمنة ويسرة، وتتغير في حركتها بين العلو والهبوط، فتروا قدرة الله تعالى التي أودعها فيها وخصها بها وهو سبحانه العالم بما تحتاجه.

وانظروا في أمركم وأنتم تقرون بالله تعالى خالقاً لكم وسترون أنكم لن تجدوا جنداً ينصرونكم ويمنعونكم من عذاب الله تعالى وعقابه إذا قضى بإنزاله بسبب عصيانكم.

واحذروا أن تغركم وتخدعكم شياطين الإنس والجن بما توسوس به إليكم وتزينه من شهوات الدنيا ومتعها، فكلها لا حساب لها عند الله تعالى بدل حسابكم وأنتم وحدكم الذين ستتحملون جزاء أعمالكم.

وانظروا وأنتم معترفون بالله تعالى خالقاً لكم، وأنه تعالى القادر عليكم وعلى كل شيء، وأنه تعالى الرازق لكم، فعليكم معه بالاعتراف الأكيد بأنه هو وحده الرازق لكم وأن أحداً لن ييسر لكم الوصول إلى منافع الدنيا من مطر وغيره إلا الله تعالى الذي لو أراد أن يمنعها عنكم فلن تصلوا إلى شيء منها.

فاحذروا من هذا الإصرار على الباطل والتمادي فيه والنفور من الحق والتعدي عليه.

واذكروا أن من يمشي ورأسه منكسة، لا يرى من شماله ولا يمينه ولا أمامه شيئاً، فإنه لا يأمن من الوقوع على وجهه بأي عثرة يتعثر بها، فكيف به وقد سلك الطريق المعكوس، طريق العصيان والتمرد على الله ورسوله، فأي عثرة تنتظره، وأي جحيم هو يقبل عليه باختياره؟! وهل هو كمن سلك طريق الهدى والنور، وسار في هذه الدنيا على طريق سوي قويم؟!

وتنبه السورة أخيراً الرسول عليه وآله وصحبه السلام والمؤمنين معه إلى مجموعة من البراهين على عظمة الله تعالى وقدرته في خلقه.. فتقول:

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ
فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ
وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ
﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ
ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن
يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾

فاعلموا بأن الله تعالى هو الذي خلقكم، وخلق لكم السمع والبصر والعقل لتدركوا عظمته وتؤمنوا به وتشكروه.

وأنه تعالى قد خلقكم في هذه الأرض ويبعثكم منها للحساب، وأنه تعالى العالم بيوم الحساب وحده، وأن وجوه الكفار تصبح فيه سوداء وهم يوبخون لتكذيبهم به.

وأنه تعالى هو الذي يمنع الهلاك عنكم برحمته لو شاء بقضائه فكيف بكم وأنتم تكفرون به وتكذبون رسوله؟!

فاعلموا بأننا على إيمان يقيني بالله الرحيم بنا والذي عليه توكلنا وإليه نفوض أمورنا، وسترون غداً من منا على الحق والباطل!

فاحذروا يوم الحساب، واذكروا يا معشر قريش بأن الله تعالى وحده الذي يسر لكم ماء زمزم وأنتم تقرون بأنه وحده القادر على إعادته لو غار عنكم، فلماذا تشركون به من لا يقدر على ذلك؟!

دليل سورة الملك ـ ٦٧

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ٣٠ آية، وتسمى الواقية والمنجية والمانعة..
- تبين أنه تعالى خلق الموت والحياة للأحياء ليقهر الإنسان ويختبره.
- وتذكر كيف أن الله تعالى قد زين السماء الدنيا بالكواكب لإضاءتها وبالشهب لحراستها.
- وتصور ما يكون عليه الكافرون في جهنم من ضيق الشهيق والزفير، وماتكون عليه الأرض في حياتهم ميسرة للتنقل في معاشهم.
- وتذكّرهم بقدرته تعالى عليهم في الحياة والرزق وأن ذلك يستدعي الشكر منهم.

- كما تؤكد لهم أن منافذ المعرفة التي خلقها تعالى فيهم تفرض عليهم التدبر والشكر.

- ومع النهاية تؤكد لهم أن أحداً لن يعلم موعد يوم الحساب وأن أحداً لن ينجو من العذاب ما دام لم يتخل عن كفره ولم يحسن أعماله.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ لقد قدم سبحانه ذكر خلق الموت للإنسان قبل الحياة ليلفت نظر الإنسان لأكثر شيء يخافه ليستعد له ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

٢ ـ تلفت نظر الإنسان لهذا التناسق البديع في خلقه تعالى للسموات السبع وفي تزيين السماء الدنيا بالكواكب المضيئة والشهب الثاقبة ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾.

٣ ـ يمنّ المولى سبحانه على الإنسان بما يسر له من الحياة على الأرض، وبما منحه من وسائط المعرفة ليشكره سبحانه لا ليكفره ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾.

٤ ـ تحذير مشركي مكة وكل المشركين من يوم الحساب القادم لا محالة ليتخلصوا من كفرهم لأن أحداً لن يفلت من العذاب الشديد لكفره، كما لن يضيع عمل صالح وإيمان صادق دون مغفرة ورحمة واسعة ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

سورة القلم (٦٨)

التقديم

يقسم المولى عز وجل بعد الافتتاح بـ (ن) بالقلم وكتابته بأن رسوله المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ليس بمجنون، وأن أجره في تحمله هذا الاتهام عظيم، وأنه بتحمله لعلى خلق عظيم.

وتشير السورة بعدها إلى أنه عليه وآله وصحبه السلام سيرى وترى قريش معه من هو المفتون بالشيطان من غيره، ومن الضال من المهتدي.

وينهى المولى عز وجل رسوله عليه وآله وصحبه السلام بعدها عن مجاملة المشركين لأنهم تمنوا عليه الكفر واللين في الهجوم على معتقداتهم، ونهاه عن طاعة الأخنس بن شريق وأمثاله من الكذابين المغتابين النمامين البخلاء الآثمين الغلاظ الطاغين الذين يظنون أن بكثرة أموالهم وأولادهم المبرر لتكذيب القرآن ونعته بالأساطير والأباطيل.

وتتوعدهم السورة، وبالذات الوليد بن المغيرة، بأن الله تعالى سيوقع عليهم المهانة والذلة في الدنيا والآخرة كمن يوسم على أنفه ليتحدث الناس بمهانته وذلته.. وقد وسم الوليد فعلاً في بدر.

وتشير بعدها السورة إلى ما تعرض له أهل مكة من ابتلاء بالجوع والقحط عندما بطروا لكثرة الأموال والأولاد التي أنعم الله تعالى بها عليهم.

وتضرب مثلاً لذلك بأصحاب البستان المعروف خبره عندهم، والذي كان بأرض اليمن قرب صنعاء، وكان صاحبه يحسن للمساكين، ولكن أولاده الثلاثة الورثة قرروا منع المساكين منه فأحرقه الله تعالى جزاء كفرهم النعمة فندموا وتابوا وصدقوا في الدعاء والإنابة فقبل تعالى توبتهم وأبدلهم ببستان آخر أفضل منه.

فاعتبروا يا أهل مكة قبل أن يحل بكم عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، وخذوا من قصة البستان عبرة لكم.

واذكروا ما للمؤمنين الطائعين من جنات النعيم عند رب العالمين مهما حرموا منها في الدنيا، وأن مثل هذا الحرمان أو الضيق في الرزق ما هو إلا ابتلاء بقضاء الله تعالى وقدره الذي يعطي الدنيا لطلابها ويحرمهم من الآخرة ونعيمها ما داموا ينكرونها.

واذكروا أن أحداً من المشركين المكذبين لا يملك الدليل على صحة زعمه بأن له في الآخرة كما له في الدنيا، وأن عليهم أن يعلموا أنهم سيكونون في ذل وصغار بحيث لا يستطيعون حتى السجود لله رب العالمين.

وعليهم أن يعلموا بأن من يكذب بالقرآن هو موضع استدراج بما يأتيه من نعم ليحسن أو ليسيء الظن في الله تعالى المنعم باختياره فيتحمل مسئولية ذلك إذا لم يتخلص من كفره وتكذيبه.

وليعلموا أن الرسول عليه وآله وصحبه السلام لا يطالبهم بأجر مقابل ما يبلغهم به من الهدى حتى لا يستثقلوا قبوله، فعليهم بالاستجابة وهم لا يعلمون من الغيب شيئاً.

وتطلب السورة من الرسول عليه وآله وصحبه السلام أن يصبر على أذاهم ولا يعجل لهم بطلب العذاب ولا يكون في ذلك مثل يونس الذي أنقذته رحمة الله تعالى من بطن الحوت ثم قبل توبته وأرسله لقومه فاستجابوا له.

وتذكره عليه وآله وصحبه السلام بمدى حقدهم عليه وهم يحاولون قتله بعيونهم كرهاً للقرآن، وما القرآن إلا ذكر وهدى من الله تعالى لعالمي الإنس والجن.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿نٓۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾

فبعد الافتتاح بحرف ﴿نٓۚ﴾ يقسم المولى عز وجل بالقلم وما يكتبه من علم الأولين والآخرين، إجلالاً للكتابة والعلم وتأثيرهما في حياة البشر بما تحدثه من خير ما دامت خيرة أو من شر ما دامت شريرة.

يقسم المولى عز وجل بذلك بأن الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام قد أرسله صدقاً وحقاً بنعمته ورحمته ورسالته إلى العالمين، وأنه بعيد كل البعد في كل ما يبلغه عن الجنون، وأن ربه تعالى الذي أرسله به قد أعد له أعظم الأجر والثواب جزاء تبليغه لهم، وأنه عليه وآله وصحبه السلام بما عرف فيما بينهم من الخلق السامي في صدق قوله وأمانة عمله لا يمكنه أن يكذبهم في تبليغ رسالة ربه إليهم، وأنه عليه وآله وصحبه السلام سيعلم ويعلم مشركو العرب ومن على شاكلتهم يوم القيامة حين يظهر الحق والباطل من هو المجنون الذي فتنه الشيطان.

وأن عليهم أن يعلموا أن الله تعالى الذي يؤكد لهم ذلك يعلم من حاد عن دينه ومن اتبعه فاهتدى، وأنه سيجازي المهتدي خير الجزاء كما يجزي الضال الجزاء العادل لعمله.

فأحذر يا محمد من طاعة أولئك المكذبين في طلبهم منك الميل إليهم ومسايرتهم لأنهم يتمنون ذلك ليظهروا لك الميل لا إيماناً ولكن كذباً ونفاقاً.

واحذر من طاعة كثير الحلف والكذب من أمثال الأخنس بن شريق والأسود بن عبد يغوث وعبد الرحمن بن الأسود والوليد بن المغيرة، فكلهم لا همّ لهم إلا اللمز والطعن بالناس والمؤمنين بالذات، والمشي بينهم بالنميمة للإيقاع بينهم، ومنع العون

عنهم، والاعتداء عليهم بالظلم والإثم، ومعاملتهم بالغلظة والقسوة والفظاظة ظناً منهم بأن ما لديهم من أموال وأولاد تعطيهم الحق بالتطاول على الناس وتكذيب القرآن ورميه بأنه من قصص السابقين الباطلة.

وعليهم أن يعلموا بأن الله تعالى سينزل على الواحد منهم من الذلة والهوان كمن يكوى على أنفه بما يفضح سوء عمله ويكشف عن قبح وشناعة معصيته.

فليذكروا ذلك وليبادروا للتخلص من سيء أعمالهم وقبيح أفعالهم لعل الله يتوب عليهم.

وتذكّر السورة بعدها كفار مكة بما حصل مع أهل ذلك البستان الذين بطروا النعمة.. فتقول:

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

فاذكروا يا أهل مكة ما حصل في ذلك البستان من أرض اليمن بجوار صنعاء الذي تعرفون قصته خير المعرفة.

وأذكروا كيف أن الله تعالى يسر لصاحبه النماء والخصب فشكر النعمة وأحسن للفقراء فزاده الله نماء وخصباً، ولكن أولاده الثلاثة الذين ورثوه بطروا بخصبه ونمائه وقرروا كفر النعمة ومنع العطاء منه عن المساكين، وأقسموا أن يقطفوا ثماره في جنح الليل بعيداً عن أعين المحتاجين.

فماذا كانت العاقبة؟!

لقد أرسل الله تعالى لبستانهم ملكاً في تلك الليلة فأحاله كالليل المظلم والرماد الأسود عندما قطع أشجاره وحرقها حتى أنهم عندما غدو لقطفها في صمت وهدوء، ودون أن يفطن لفعلتهم أحد من المساكين، وظناً منهم بأنهم على قدرة تامة لفعل ذلك وهم مطمئنون، فوجئوا بما رأوه من دمار قد حل بالبستان، وحرق أتى على آخر أشجاره.

فماذا فعلوا أمام هذه الصدمة؟!

لقد اعترفوا بأن هذا الدمار كان جزاء سوء هدفهم، وشر مقصدهم، وخبيث نيتهم، فجاء الحرمان التام من بستانهم.

فيا أهل مكة، أنتم تذكرون هذه القصة، وما دار من حوار بين الاخوة عندما ذكّرهم أخوهم الأوسط بأن يتجنبوا هذا القصد في أعمالهم، وأن يعزموا على التوبة عما فعلوه، وأن يعطوا المساكين من أرزاقهم تماماً كما كان يفعل أبوهم، وأن يشكروا الله تعالى على نعمه عليهم.

وتذكرون أنهم بعد وقوع تلك الكارثة ببستانهم وإدراكهم لظلمهم أنفسهم عادوا إلى عقولهم واعترفوا بذنبهم وندموا على ما وقع منهم وأخذوا يلومون بعضهم بعضاً على سيء فعلتهم وطغيانهم.

وتذكرون أنهم توجهوا إلى الله تعالى بالتوبة والرجاء أن يعوضهم عن بستانهم الهالك بخير منه جزاء صدقهم وإخلاصهم في ندمهم وتوبتهم.

وتذكرون أن الله تعالى قد استجاب لهم وأبدلهم جنة أفضل من جنتهم حتى كان عنقود العنب منها لا يحمله إلا بغل واحد.

فاذكروا ذلك يا مشركي مكة ولا تبطروا بأموالكم وأولادكم، فتضيع دنياكم وأخراكم.

واذكروا أن ما حصل مع أصحاب البستان هو عذاب الدنيا وأما عذاب الآخرة فهو أشد منه.

فاذكروا ذلك واذكروا ما حل بكم من قحط وجدب وما سيحل بكم من مصائب أخرى.

وتوبخهم السورة بعدها لتسويتهم بينهم وبين المسلمين في نعيم الله في الآخرة.. فتقول:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ
لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ
لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾
يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟

يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾

فاعلموا أيها المشركون بأن الله تعالى قد أعد للمؤمنين الطائعين عنده جنات النعيم مهما قلت حظوظهم من دنياكم بينما قد أعد لكم العذاب المقيم في الجحيم، فكيف تتصورون أن يجعل الله تعالى المسلمين مثلكم أنتم أيها المجرمون يوم القيامة؟! ومن أين أتيتم بهذا الحكم الأعوج؟

وهل لديكم كتاب تجدون فيه المطيع كالعاصي، وأن لكم فيه ما تخيرون وتحبون؟

وهل لكم عند الله تعالى من عهود يدخلكم بها الجنة؟

فاسألهم يا محمد، من يضمن تقوّلهم وزعمهم هذا، وفيما إذا كان لديهم من شهود تشهد لزعمهم وكذبهم، وليأتوا بهم ليشهدوا على ذلك لو كان هناك ذرة من الصدق في أقوالهم.

وذكّرهم يوم يكشف عن ساق فتظهر شدة العذاب يوم القيامة فيدعون إلى السجود مع عباد الله فلا يستطيعون ذلك لأنهم يكونون في حالة من الذلة والهوان بحيث يعجزون عن رفع رؤوسهم كما يفعل المؤمنون الذين تظهر وجوههم أشد بياضاً من الثلج بينما تكون وجوههم هم أشد سواداً من الزفت والقطران.

فذكّرهم بذلك يا محمد ودعهم مع كذبهم وتكذيبهم للقرآن.

وليعلموا أن الله تعالى يستدرجهم بإعطائهم المزيد من النعم ليظهروا على حقيقتهم أمام أنفسهم وغيرهم فيلزمهم الحجة لأنهم بغلاظة قلوبهم وإقفال عقولهم يرفضون الحق وشكر النعم.

وعليهم أن يذكروا كم من مستدرج بالإحسان، وكم من مفتون بالثناء، وكم من مخدوع بالستر.

وليعلموا أن الله تعالى لن يتركهم لكيدهم ومكرهم.. وويل لهم مما يكيدون ويمكرون.

وتنتهي السورة بتوبيخهم ودعوة الرسول عليه وآله وصحبه السلام للصبر على حكم الله تعالى فيهم مهما تفننوا في الكيد.. فتقول:

﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن

كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾
فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ
لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

فليؤمنوا دون طلب أجر على دعوتهم، وليكفوا عن الزعم بعلم الغيب أنهم أفضل منكم.

واصبر يا محمد على أذاهم ولا تعجل بعذابهم فالنصر آتيك عليهم.

ولا تكن كيونس الذي استبطأ العذاب على قومه لأذاهم له فهرب عنهم فأنقذه تعالى من بطن الحوت فرماه للبر سقيماً بدعائه فتاب عليه واختاره للعودة إلى قومه فآمنوا به جميعاً.

فاصبر يا محمد على أذى قومك ومحاولتهم قتلك بأعينهم حسداً وكرهاً ومنع الناس من الإيمان معك باتهامك بالجنون.

واذكر يا محمد أنك مرسل بالقرآن، ذكر وشرف لعالمي الإنس والجن في الدنيا والآخرة.

دليل سورة القلم ـ ٦٨ء

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ٥٢ آية.
- يحلف في بداية السورة سبحانه بالقلم بأن رسوله عليه وآله وصحبه السلام ليس بمجنون فيما يبلغ عن ربه.
- وتهدد كفار قريش بفضح أمور ضلالهم.
- وتدعو الرسول عليه وآله وصحبه السلام بعدم مسايرتهم في عقائدهم الباطلة مهما كثرت أموالهم وأولادهم.
- وتذكّرهم بما تعرضوا له من جوع وقحط وكيف يتوب الله تعالى عليهم عندما يحسنوا التوبة كما حصل مع الأخوة أصحاب بستان في اليمن.
- وتذكّرهم بما يمكن أن يحل بهم من ذل وصغار كماحصل بأولئك إذا استمروا على شركهم وتكذيبهم بالقرآن.
- وتؤكد دعوة الرسول عليه وآله وصحبه السلام للصبر على أذاهم ولا يكون كيونس الذي غضب من قومه لأذاهم وإن كانت رحمة الله تعالى قد شملته فأرجعه إلى قومه ليستجيبوا لدعوته.

فتبرز الأمور التالية :

١ ـ أن للقلم وكتابته تكريم الله تعالى وتعظيمه ﴿نٓۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾.

٢ ـ أن مسايرة الكفار والطغاة في أفكارهم وعقائدهم لا يجر إلا إلى تعنتهم وطغيانهم ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾.

٣ ـ أن العاقل من يعتبر بغيره وبنفسه أكثر ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾.

٤ ـ أن يؤكد لطلاب منافع الدنيا بأن دعوته إليهم لا يبتغى منها منفعة منهم بل هي خالصة لله تعالى ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾.

٥ ـ أن الله تعالى يمهل الكافر الفاجر الظالم ويملي له حتى إذا أخذه لم يفلته ﴿وَأُمْلِى لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ۝١٨٣﴾.

٦ ـ أن الصبر مؤكد ومطلوب طيلة المرحلة المكية ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾.

سورة الحاقة (٦٩)

التقديم

تبدأ السورة بالاستفهام المتكرر عن الحاقة، عن يوم القيامة، وذلك تفخيماً لذلك اليوم وتخويفاً من أهواله.

وتأتي بعدها لذكر من كذّب بذلك اليوم من الأمم السابقة، وتخص بالذكر قوم صالح وهم ثمود، وقوم هود وهم عاد.

وتذكر ما حل بكل من هذين الفريقين من الهلاك بسبب تكذيبهم وطغيانهم فتذكر أن عاداً لم يبق منهم أثر بعد عين.

ثم تذكر فرعون وقومه، وتشير إلى من قبلهم من المكذبين، وإلى قرى لوط المؤتفكة، وما حل بكل منهم من الغرق للأولين والدمار والرجم للآخرين.

وتعود إلى الإشارة إلى قوم نوح وغرقهم عقوبة لهم على تكذيبهم وطغيانهم.

ثم تشير إلى يوم الحاقة، يوم ينفخ في الصور النفخة الأولى فيموت جميع الأحياء، ثم تسوى الجبال بالأرض، وتتصدع السماء، وينزل منها الملائكة ويبقى حملة العرش الثمانية.

ثم ينفخ في الصور النفخة الثانية فيبعث الأموات من قبورهم ومن أماكن تواجد جثثهم حتى لو كانت في أعماق البحار والأرض أو كانت رماداً ذرته الرياح.

ويعرض المخلوقات بعدها للحساب.

فمنهم من يأخذ كتاب أعماله بيمينه فيعبر عن سروره بما وعده به ربه من النعيم المقيم.

ومنهم من يأخذه بشماله فيعبر عن حزنه وألمه بما يرى من توعد ربه له وإنذاره من عذاب جهنم الأليم.

ويقسم المولى عز وجل بكل مخلوقاته بعدها بأن القرآن يبلغه للبشر رسول كريم هو محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

وأنه ليس بقول شاعر ولا قول كاهن وإنما أنزله الله تعالى على رسوله بالملك جبريل عليه السلام الذي أوصله بكل أمانة ودقة وصدق إلى رسول رب العالمين.

وتبين السورة كجزء من جواب هذا القسم بأن القرآن نزل تذكرة لكل من يخشى الله تعالى، وإن كذب به من كذب ليكون عليه حسرة يوم الحساب.

وما عليك يا محمد ومن اتبعك إلا أن تنزهوا رب العالمين منزل هذا القرآن عن كل سوء ونقص.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ
فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ
وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ
﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا
طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾

فما هي هذه الحاقة؟ وما شأنها؟

إنها القيامة التي ستأتي بكل تحقيق وتأكيد.

إنها اليوم الذي يرى فيه كل مكلف جزاء أفكاره ومعتقداته وأعماله.

إنها اليوم الذي لا ظلم فيه من رب عادل إلى عباد ظالمين لأنفسهم.

إنها يوم الحق والعدل والجزاء الوفاق.

فيا محمد، هل تعلم شيئاً عن ذلك اليوم؟

إنك لم تعاينه ولكنك تعلمه بدون شك، فاذكر لقومك، مشركي مكة والعرب جميعاً ومن على شاكلتهم إلى يوم الدين، ما حصل مع بعض الأقوام السابقين بسبب تكذيبهم بمجيء هذا اليوم.

ذكّرهم بأنه يوم القارعة الذي سيحل فيه العذاب بكل منهم وبأمثالهم من الكافرين المكذبين.

ذكّرهم يا محمد بما حل بقوم صالح ثمود وقد أهلكهم الله تعالى بالطاغية، بالصيحة المريعة، بالصاعقة الكاسحة جزاء كفرهم وتكذيبهم لرسول الله تعالى صالح عليه السلام إليهم.

ذكّرهم يا محمد بما حل بقوم هود عاد وقد أهلكهم الله تعالى بريح صرصر شديدة البرودة عنيفة وحادة الصوت، وشديدة الهبوب، واستمرت عليهم سبع ليال وثمانية أيام حاسمة قاصمة حتى استأصلتهم فلم ينج منهم أحد فاصبحوا جثثاً على الأرض كجذوع النخل الجوفاء، وحملتهم فألقتهم في البحر ﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

ذكّرهم يا محمد بفرعون وقومه، وقرى لوط وما فيها من مرتكبي الفواحش، وكيف نال كل منهم جزاءه العادل لتمردهم على رسل الله تعالى وتكذيبهم بيوم الحاقة.

ذكّرهم يا محمد بقوم نوح عندما أنجاه تعالى بالسفينة وأغرقهم، وأبقاها بعد ذهاب الطوفان شاهدة بألواحها على ما حل بهم.

فهلّا تذكرتم يا عرب مكة ومن حولها من المكذبين الضالين ما حل بتلك الأقوام، وما يحل بكل مكذب ضال من بعدهم.

وهلّا أدركتم ما يتوعدكم به ربكم إن أصررتم على ضلالكم وتكذيبكم؟!

فاسمعوا ما تعرضه السورة بعدها من صورة يوم القيامة وجزاء المؤمنين والكافرين فيه... فتقول:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ
(١٥) وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ
(١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ (١٨) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ
(١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ

﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ
أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى
سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ
كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا
مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾

فاذكروا ما يجري عندما ينفخ إسرافيل عليه السلام النفخة الأولى يوم القيامة.

لن يبقى أحد حياً.

واذكروا عندما تأتي النفخة الثانية فيبعث من في القبور، وأما الأرض والجبال فإنها تدك كأن زلزالاً شديداً قد هزها هزة عنيفة واحدة فتسوى الجبال بالأرض، فلا يرى فيها الناظر إليها عوجاً على وجهها من صعود الجبال وسفوحها ولا أمتاً من تتابع السلاسل الجبلية والهضاب والسهول.

وعندها تكون قد وقعت الواقعة وقامت القيامة وتفطرت السماء وانشقت وظهرت صدوعها ومواطن ضعفها، والملائكة ينزلون منها وهم يحيطون بجميع أنحائها فلا يبقى إلا ثمانية منهم يحملون عرش الرحمن، فمن هم هؤلاء الثمانية؟

هل هم ملائكة ثمانية أم صفوف ثمانية من الملائكة؟ وما هي حال كل منهم؟ كل حقيقة ذلك لا يعلمه إلا الله تعالى.

والمهم بحق المكلفين من المخلوقات في ذلك اليوم أنهم يعرضون للحساب على أعمالهم لينال كل منهم جزاءه من رب عادل حكيم، من علام الغيوب، ممن لا يخفى عليه من خلقه قول و فعل ظاهر وباطن، لا يخفى عليه شيء منهم.

وهناك ترى هؤلاء المكلفين منهم من يعطى كتاب أعماله بيمينه، دليلاً على نجاته من العذاب.

فيقول لمن حوله بلسان حاله ومقاله فرحاً مستبشراً برضى الله تعالى عنه وفضله:

خذوا وانظروا في كتابي واقرءوا ما فيه، لقد كنت واثقاً من رحمة ربي وفضله بأنه سينجيني من النار يوم الحساب.

فيساق إلى الجنة ليعيش فيها العيشة الهنيئة المنعمة الطيبة الرضية، فيصدق فيه وفي أمثاله قوله عليه وآله وصحبه السلام «إنهم يعيشون فلا يموتون أبداً، ويصحون فلا يمرضون أبداً، وينعمون فلا يرون بأساً أبداً، ويشبّون فلا يهرمون أبداً».

إنهم في جنة الخلد بما لها من عظمة في النفوس، حيث قطوف ثمارها في متناول اليد، وحيث يأكلون ويشربون هنيئاً مريئاً، جزاء أعمالهم الطيبة في الدنيا.

كما ترى هناك من المكلفين من يعطى كتاب أعماله بشماله، فينظر عمن حوله من أصحابه ويقول لهم:

كم أتمنى لو لم أعط هذا الكتاب، ولم أدر ما فيه من حساب، وكم أتمنى لو لم أعش كل حياتي لأصل إلى هذه العاقبة.

فانظروا أين المال الذي كنت أجمعه بحرام قبل حلال، وأتمتع به، ماذا ينفعني اليوم من عذاب الله؟

وانظروا أين الجاه والملك والسلطان التي كنت أعيشها، ماذا يغنيني منها من عذاب الله؟

وهنا تبتدره ملائكة العذاب فتربط يديه إلى عنقه وتشدها بالأغلال وتلقيه في الجحيم ليحترق وهو مقيد بسلسلة طويلة طويلة، ذلك لأنه كان كافراً بوجود الله العظيم الخالق المدبر، ولا يدعو لإطعام المسكين لا من ماله ولا بحث القادرين الآخرين عليه.

إنه محروم من وجود صديق قريب منه يتعاطف معه، ويفرح بفرحه ويحزن لحزنه، كما هو محروم من أي طعام طيب وطعامه فقط من أخبث وأبشع أنواع الطعام مما لا يتناوله إلا الآثمون المذنبون المشركون.

ويختم المولى عز وجل السورة بتحذير مشركي مكة ومن على شاكلتهم، من اتهام الرسول عليه وآله وصحبه السلام بالشعر والكهانة.. فتقول:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾

فالمولى عز وجل يقسم بكل ما يراه الناظرون، وما لا يرونه، من خلقه بأن هذا القرآن الذي يبلغهم إياه رسوله هو كلام جبريل عليه السلام عن ربه إلى محمد عليه وآله وصحبه السلام إليهم.

فمبلغه رسول مكرم مبجل عند الله تعالى، وهو لا يفعل فعلاً إلا بأمره.

وهو ليس بشاعر، لأنه لو صدقتم لقلتم إن ما يقوله ليس بشعر، ولا بكهانة، لأنه لو تذكرتم ما يقوله الكهان لعلمتم أن ما يقوله ليس بكهانة، وإنما هو فقط ما ينزله رب العالمين، رب الإنس والجن، على رسوله محمد عليه وآله وصحبه السلام ليبلغه بدوره لكم.

تأكدوا يا عرب، يا بشر، إنه رسول أمين لا يمكن أن يخفي عنكم منه شيئاً، ولا يضيف إليه من عنده شيئاً، لأنه لو فعل وأضاف ولو شيئاً قليلاً لمنعناه بقدرتنا عن ذلك وأهلكناه كما نهلك المفترين، ولن يجد أحداً منكم مانعاً يمنعه منا ومن عقابنا.

فاطمأنوا بأن هذا القرآن قد أرسل ليذكّر المؤمنين الطائعين بعظمة الله تعالى وقدرته ورحمته وفضله كما يذكّر العصاة بعقابه وجبروته.

فاحذروا وكونوا من أولئك المتقين، ولا تكونوا ممن نعلمهم من المكذبين به العاملين على الصد عنه، لأنه سيكون في هذا اليوم العصيب، يوم الحاقة، يوم القيامة، حسرة وغمّاً وكرباً على كل كافر به ومكذب به ومنكر له.

فاحذروه وعودوا إلى رشدكم قبل فوات الأوان، واذكروا أن هذا القرآن حق حق، ويقين يقين، وتأكدوا بأن أحداً لا يملك إلا أن يعترف بذلك لو صدق مع نفسه وخلصها من شياطين إنسه وجنه.

ولا تبال يا محمد بمواقفهم وتكذيبهم واتهامهم واستمر في تنزيه ربك عن كل ما ينسبونه إليه من السوء والنقيصة فإنه تعالى لا شك ناصرك عليهم.

واعلم يا محمد بأن نصر الله تعالى لابد آتيك مهما كذّب المكذبون وأرجف المرجفون وشكك المشككون.

فاطمأنوا يا أتباع محمد إلى يوم الدين.

دليل سورة الحاقة ـ ٦٩

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ٥١ آية.

- تبدأ السورة بالاستفهام المتكرر عن يوم القيامة بما فيه من أهوال.

- و لكنها تشير إلى ماحصل للمكذبين المفسدين في الأرض قبل ذلك اليوم من أمثال عاد وثمود ثم فرعون ونوح.

- فتتهدد المشركين المصرِّين على شركهم بالموت مع النفخة الأولى ثم البعث مع

الثانية وبعدها يعطَون كتب أعمالهم بشمائلهم ليجدوا الألم والحسرة بانتظارهم بينما سيرون كيف يعطى المؤمنون كتبهم بأيمانهم ليجدوا النعيم المقيم أمامهم.

- ثم يقسم المولى سبحانه بكل ما يرونه من المخلوقات وما لا يرونه بصدق محمد عليه وآله وصحبه السلام في كل ما يبلغه لهم وأنه ليس بشاعر ولا بكاهن.

- ثم تدعو الرسول عليه وآله وصحبه السلام أن ينزِّه ربه العظيم عن كل ما ينسبونه إليه .

فتبرز الأمور التالية :

١ ـ إن أسلوب التأكيد بالتكرار مؤثر ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ .

٢ ـ إن العبرة لا بد متحققة من أخبار ما حل من صفوف العقاب بالأقوام السابقين ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾ .

٣ ـ إن التذكير بأهوال يوم الحساب بصورة الأسلوب المؤثر له قيمته في الدعوة إلى الله تعالى ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣﴾ .

٤ ـ إن تأكيد أثر الحلف على العقول والنفوس يستدعي اللجوء إليه كلما يلزم ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩﴾ .

٥ ـ إن دعوة الرسول عليه وآله وصحبه السلام لتسبيح الله تعالى مع الصبر على الأذى دليل على لزوم الحرص على ذلك من رجال الدعوة الإسلامية ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ .

سورة المعارج (٧٠)

التقديم

تبدأ السورة باستثارة النفوس للسؤال عن العذاب الذي سيوقعه تعالى، صاحب المعارج، بالكفار يوم القيامة، ذاك اليوم الذي يقدِّره الخلق تبعاً لشدته وهول ما فيه بخمسين ألف سنة.

ثم تدعو الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ليصبر على أذى المشركين الذين يستبعدون يوم القيامة، ويرونه إن وجد بعيداً بعيداً مع أنه قريب منهم قريب مهما بعد.. وما ذلك إلا لأن وقوعه أمر مؤكد وحتمي.

وبعدها تصف السورة حال السماء والجبال والكفار في ذلك اليوم.

وتؤكد لهم بأنه من المستحيل قبول الفداء منهم لا لشيء إلا لأن الجزاء الوفاق الذي أنذروا به ورفضوه هو عذاب جهنم.

وبعدها تتحدث السورة عن الكافر وشدة حرصه على الحياة الدنيا بما فيها من شهوات ومتاع.

وتؤكد أن أحداً لن يستثنى من ذلك إلا أولئك المصلون الذين كانوا لصفاتهم الطيبة والتزاماتهم بطاعاتهم يؤكدون ما يهدفون إليه.

إنه الجزاء بالجنة ومتاعها بديلاً عن هذه الحياة الدنيا ومتاعها.

وشتان بين متاع دائم ومتاع زائل.

وتشير بعدها السورة إلى كفار قريش والعرب وما كانوا يتظاهرون به من التجمع للاستماع من الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.. ولكن لا للإيمان ولكن للسخرية والتكذيب.

وتأتي السورة إلى خاتمتها والمولى عز وجل يقسم على أنه قادر على استبدالهم بمن هم خير منهم.

يقسم بمشارق الأرض ومغاربها تعظيماً لجميع أركان الأرض وجهاتها التي يطرقونها في صيفهم وشتائهم، في ليلهم ونهارهم.

إنه سبحانه وتعالى يسلّي رسوله المصطفى محمداً صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بذلك ويطمئنه وهو يأمره بأن يدعهم في غيّهم وعنادهم ليلاقي كلُّ مصرٍّ منهم على ذلك، ويوافيه الأجل وهو على ذلك.

يلاقي عندما يخرج من قبره ويسرع للحساب.

يلاقي الذل والهوان والصغار تجلله وهو يرى بحق مجيء يوم الحساب، اليوم الذي كان يكذب مجيئه ويصرُّ على ذلك.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ﴿١﴾ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ﴿٤﴾ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ﴿٧﴾ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ﴿١٠﴾

يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾

فاذكر أيها السائل، سواء كنت النضر بن الحارث أو الحارث بن النعمان الفهري أو أبو جهل أو غيرهم.

اذكر عندما سألت النبي عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام هذا السؤال عن العذاب الذي سيحل بالكافرين ولا يملكون دفعه عنهم عندما يوقعه تعالى ذو المعارج، ذو العلو ومراتب الإنعام على خلقه، وهو تعالى ذو العظمة والقدرة على كل شيء.

عندما يوقعه في ذلك اليوم عليهم.

في ذلك اليوم الذي ترى فيه الملائكة تصعد وبينهم جبريل عليه السلام لتلقي أوامر ربهم.

في ذلك اليوم الذي من شدته وهوله يقدره الإنسان كأن طوله خمسين ألف سنة.

فلتعلم أيها السائل كم يكون عليه ذلك اليوم عصيباً على الكفار والمشركين، فاحذر أن تكون من بينهم.

واعلم أن طول ذلك اليوم من حيث مدته هو ألف سنة، إذ تبعد السماء الدنيا عن الأرض خمسمائة سنة، وصعود الملائكة ونزولهم يستغرق هذه الألف سنة..وذلك كما ورد في سورة السجدة.

وأنت يا محمد، عليك بالصبر الجميل الذي لا شكوى فيه إلا لله تعالى على أذى أولئك الكفار وتكذيبهم لك والصدِّ عنك، وإنكارهم ليوم القيامة، واستبعادهم لمجيئه.

وليعلموا أنهم لو آمنوا به واطمأنوا لمجيئه لكان بالنسبة لهم في حساب السنين قريباً مهما طال وكأنه بين أيديهم.

وليذكروا أن السماء ستصبح في ذلك اليوم مظلمة كعكر الزيت الأسود، وتصبح الجبال كالصوف المنفوش وهي في طريقها لتسوَّى بالأرض.

إنه لا يستطيع أحد في ذلك اليوم أن يسأل أيَّ صديق عن صديقه ولا قريب عن قريبه مهما كان عزيزاً عليه أو محبوباً عنده.

وسيرى الكفار في ذلك اليوم مكانهم من النار قبل أن يدخلها أحدهم أو يقذف فيها، وعندها يتمنى لو يستطيع أن يفتدي نفسه من ذلك العذاب بأعزِّ الناس عنده،

بأبنائه، بزوجته، بوالديه، بأهله الآخرين، الذين يشكلون له عزوة وحماية من الأذى، بكل من في الأرض.

ولكن هيهات هيهات أن تقبل منه أيَّة فدية في ذلك اليوم.. لماذا؟

لأنه يوم حساب له هو وجزاء بعد أن أعطي مهلة عمره في الدنيا كلها للتكليف والابتلاء.

لا، لا فدية تقبل منك مهما بالغت فيها.

وانظر إلى ما ينتظرك من العذاب الأليم في جهنم الملتهبة، جهنم التي تنزع من هولها ليس فقط جلدة الرأس بل إنها تفري اللحم والجلد عن العظم.

ها هي تدعوه بنفسها وبخزنتها بعد أن أدبر عن طاعة ربه، وتولى عن الإيمان به، أن أقبل إلى جزائك الذي طالما أنذرت به طيلة فترة حياتك في الدنيا، ولم تصدق ذلك الإنذار، بل سخرت منه، وهَزَأت بالبشير الذي كان يبشرك بالجنة ونعيمها لو آمنت وصدقت وأطعت.

فخذ ما تستحق من الجزاء الذي ظلمت به نفسك أشد الظلم بعد أن كان كل همك في الدنيا هو جمع الأموال وخزنها في أوعيتها، وعدم إعطاء حق الله تعالى فيها، فكنت بحق جموعاً منوعاً.

وتصف بعدها السورة الكافر وما يكون عليه حاله عند وقوع الشر والخير عليه.. فتقول:

﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

انظر يا محمد، يا أتباع محمد، يا جميع البشر، كيف أن الإنسان الكافر شديد الحرص على هذه الحياة الدنيا لأنه قصر همَّه عليها فقط، فإذا أصيب بأيِّ شيء يكرهه،

والذي بطبعه يفسره بالشر، فإنه ما أسرع ما يجزع لذلك ويغتمُّ وينزعج ولا يصبر ولا يحتسب كما يفعل المؤمن الصابر على الابتلاء الشاكر عند الخير.

وانظروا إليه إذا حل به أيُّ خير ونعمة، فإنه يبخل بها ويمنعها عن الناس، فيصدق فيه قوله عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام «شر ما أعطي العبد شح هالع وجبن خالع».

انظروا إلى الإنسان بعامة، وإلى الكافر خاصة، أمام نزول ما يصفه بالخير والشر تبعاً لما يلحقه منه من النفع والضر، أمام نزول ذلك به.. فماذا تجدون غير ذلك؟

لا شيء غير هذا، ولكن يستثنى من ذلك العموم من رحمه ربك فكان من المصلين الدائمين على صلاتهم وأدائها في أوقاتها.

وكان ممن يؤدي حق ماله بدفع الزكاة المفروضة عليه للسائل والمحروم.

وكان ممن يؤمن بحتمية مجيء الحساب، ويستعد له بالطاعات.

وكان ممن يخشى عذاب الله تعالى ويتقيه مهما قدَّم من صالحات لأن أحداً لن يدخل الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله تعالى برحمته وفضله لكثرة ما تقع منه من سيئات لا يرجى معها العفو.

وكان ممن يحافظ على فرجه بحرصه في الحلال بزوجه أو جاريته ولا يتجاوزهما ليعتدي على حد الله تعالى.

وكان ممن يراعي أمانته وعهده في التعامل مع الناس وفي تقيده بأحكام دينه.

وكان ممن لا يخل بالشهادة مع أحد مهما كان قريباً.

وكان ممن يحافظ على صلاته فلا ينقص من شروطها وأركانها وسننها شيئاً، فكان بحق مستحقاً التكريم من رب العالمين بإدخاله جنة النعيم.

وتوبِّخ السورة بعدها الكافرين لتظاهرهم الكاذب بالاستماع للرسول عليه وآله وصحبه السلام وما يهدفون إليه منه، فتقول:

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾

فما هذه السرعة في الالتفاف حول الرسول عليه وآله وصحبه السلام؟! أهو الاستماع الحق لما يقوله أم التظاهر بالصدق وأنتم تقصدون الهزء به والسخرية منه؟!

وما هذه التجمعات المتفرقة المتعددة التي تلتفون فيها عن يمين الرسول عليه وآله وصحبه السلام وعن شماله؟!

هل تطمعون أن يدخل أحدكم بهذا الاستماع المجرد عن كل صدق وحسن نية وإخلاص طوية الجنة؟!

اعلموا أن ذلك لن يكون مطلقاً، إذ لا يليق بكم التكبر عن الإيمان بالله تعالى وأنتم تعلمون أن الواحد منكم قد خلقه تعالى من نطفة قذرة.

وبالمناسبة يروى أن ابن الشخير قد رأى المهلب بن أبي صفرة يتبختر في جبة من الخزِّ فقال له: يا عبد الله، ما هذه المشية التي يبغضها الله؟! فقال له: أتعرفني؟ قال: نعم، أولك نطفة قذرة وآخرك جيفة قذرة وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة.. فمضى المهلب وترك مشيته.

وتنتهي السورة بتهديد الكافرين بالعذاب وبدعوة الرسول عليه وآله وصحبه السلام ليتركهم بعنادهم وكبرهم لحسابهم فتقول:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾

فيقسم المولى عز وجل بربوبيته للمشارق والمغارب بأنه قادر على أن يهلك هؤلاء الكفار المعاندين المكذبين ويأتي بدلاً منهم بمن هم خير منهم، وأنهم لن يعجزوه في ذلك وهم يعلمون أنه خالقهم والقادر عليهم.

فدعهم يا محمد في خوضهم بالباطل والعبث في الدنيا حتى يأتيهم يوم القيامة الذي رفضوا الاعتراف به والاستعداد له، وأنهم متى رأوه عندما يبعثون من قبورهم يسرعون تلبية لنداء الحشر والجمع والتغابن وكأنهم يتذكرون سرعتهم في عبادة أصنامهم فيشعرون بالخزي والمهانة وهم يرون بأعينهم مجيء ذلك اليوم الذي طالما كذبوا به.

دليل سورة المعارج ـ ٧٠

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ٤٤ آية.
- تبدأ السورة بالإشارة لهول يوم القيامة وشدته وكأنه بطول خمسين ألف سنة.

- ثم تدعو الرسول عليه وآله وصحبه السلام كغيرها في المرحلة المكية للصبرعلى أذى المشركين المستبعدين ليوم القيامة.

- ثم تقف مع وصف ذاك اليوم وحال السماء والجبال والإنسان فيه وخاصة الكفار.

- وتهددهم باستحالة قبول الفداء منهم في ذلك اليوم بعد أن أفنوا دنياهم في الشهوات ونسوا آخرتهم.

- وتشجعهم للتوبة وهي تتحدث عن المصلين ونعيم الجزاء الذي ينتظرهم وتنذرهم من الاستمرار في السخرية والتكذيب بالرسول والرسالة.

- وتنتهي بقسم أن الخالق القادر يمكنه أن يستبدلهم بقول أفضل منهم، فليعجِّلوا بالتوبة.. ويطمئن رسوله عليه وآله وصحبه السلام بأنهم سيلاقون جزاء إصرارهم على الباطل.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ إن أسلوب الاستثارة بالسؤال له نجاعته في الدعوة ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ﴾.

٢ ـ إن دوام الدعوة للصبر على الأذى من الأمور اللازمة طيلة المرحلة المكية ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥﴾.

٣ ـ أن يحرص حامل الدعوة على التزود بحفظ مثل هذا التصوير القرآني ليوم الحساب لما به من تأثير على النفوس ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ﴾.

٤ ـ إن الحث على التوبة العاجلة سواء باستحالة قبول الفداء من الكافر أو العاصي سبيل خير في الدعوة ﴿يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ﴾.

٥ ـ إن ذكر المصلين وصفاتهم فيه الكثير من الدعوة للحرص عليها في المرحلة المكية بالذات.

٦ ـ وإن دوام تطمين الرسول عليه وآله وصحبه السلام لمصير المكذبين وبالطبع بالمقابل لمصير المؤمنين يبعث المزيد من الروحانية وطاقتها في النفوس السائرة على طريق التضحية لنصرة دين الله تعالى ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ﴾ بعد ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ۝٣٥﴾.

سورة نوح (٧١)

التقديم

قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم «أول رسول أرسل نوح، وأرسل إلى جميع أهل الأرض» ذلك أنه لما كفروا أتى الطوفان على أهل الأرض جميعاً، ولم يبق منهم إلا من آمن معه وركب في السفينة ونجا من الغرق وقيل: إن عددهم كان ثمانين شخصاً فقط.

والسورة هنا تعرض قصة نوح في إيجاز شديد كأول رسول أرسله الله تعالى للناس كافة في عصره، إذ كانوا كلهم قومه، فدعاهم باستمرار ليلاً ونهاراً، ولكنهم رفضوا الاستجابة لدعوته بالرغم من أنه طمأنهم أنهم لو استجابوا وآمنوا وأصلحوا فإن الله تعالى سيرفع عنهم كل ما كان قد أنزله عليهم من القحط وقطع النسل.

وتركِّز السورة بعدها على لفت نظرهم إلى دلالات القدرة الإلهية في خلق السموات السبع والشمس والقمر والأرض وما فيها من حياة ونبات.

ثم تؤكِّد لهم بأن الله تعالى من قدرته سيعيدهم للحياة بعد الموت عندما يخرجهم من قبورهم للحساب على ما عملوا في تكاليفهم.

ثم تذكّرهم بنعمة الله عليهم من تمهيد الأرض لسهولة حركتهم طلباً لمعاشهم.

ولكنهم أمام هذا التذكير والتأكيد ولفت النظر ماذا فعلوا؟

إنهم لم يكتفوا بالرفض لما دعاهم إليه حتى اتبعوا كبراءهم وأغنياءهم في الشرك والضلال، وأخذوا يكيدون ضده بجميع أنواع المكائد، وحرَّضوا الرعاع عليه بحجة حماية آلهتهم.

فماذا كانت العاقبة؟

لقد أغرقهم الطوفان الذي طالما سخروا من احتمال وقوعه.

أغرقهم بعد أن أعلم رسوله عليه السلام بأنه لن يؤمن من قومه إلا من آمن، وأنه لا أمل له في مواصلة دعوتهم.

لقد أذن له ربه بالدعاء عليهم ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ١٠﴾ [القمر: ١٠] دعاه أن يهلكهم جميعاً، صغيراً وكبيراً.

كما دعا لنفسه ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات بالمغفرة.

فما أروع هذا الدعاء بتعليم رب الأرض والسماء.. فهل من معتبر؟!

التفسير

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ﴿٥﴾ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ﴿٩﴾ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ﴿١٠﴾ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ﴿١١﴾ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ﴿١٢﴾﴾

فانظروا يا مشركي العرب، وانظري أيتها البشرية، انظروا جميعاً إلى يوم قيام الساعة لتعرفوا ما حصل مع أول رسول أرسله الله تعالى إلى الناس كافة.

إنه بشهادة رسولنا ورسول البشرية الخاتم محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم الذي قال «أول رسول أرسل نوح، وأرسل إلى جميع أهل الأرض» ماذا كانت النتيجة؟ عندما كفروا وطغوا إنهم أغرقهم الله تعالى جميعاً، بحيث لم يبق على قيد الحياة بعد الطوفان إلا من ركب معه في السفينة.. والذين مكث معهم بعدها حوالي نصف قرن.

انظروا إلى نوح عليه السلام وهو ينذر قومه، وهم أهل الأرض جميعاً في زمانه.

ينذرهم من عذاب الله تعالى في الدنيا وفي الآخرة إذا أصروا على عدم الإيمان بالله تعالى ورفض طاعته.

انظروا إليه وهو يحببهم في الإيمان بإغرائهم بالمغفرة من الله تعالى عما سلف من ذنوبهم إذا آمنوا، وأنه تعالى لا يعاجلهم بعذاب في الدنيا وإنما يؤخرهم لآجالهم التي لا يعلم إلا الله تعالى إلى متى كانت تطول، ثم يحاسبهم يوم القيامة على أعمالهم.

انظروا إليه وهو لا يوفِّر من وقته في الليل ولا في النهار وقتاً دون أن يدعوهم فيه.

فماذا كانوا يفعلون أمام هذا الترغيب والترهيب؟

لقد كانوا يهربون من دعوته، ويقفلون آذانهم عن الاستماع لكلماته ومواعظه، ويعرضون عنه بكل تجبُّر وتكبُّر.

إنه لم يوفِّر من جهده لا في السر ولا في العلن جهداً وهو يدعوهم للاستغفار من ذنوبهم، وأنهم متى فعلوا ذلك وجدوا مغفرة الغفار الرحيم بانتظارهم بحيث تشملهم فتنزل عليهم رحمته تعالى فيزيل عنهم ما أنزله بهم من قحط في الأرض وعقم في الأرحام، إذ يُنزل عليهم الأمطار الغزيرة ويمددهم من الأموال والأولاد بالأرزاق الوفيرة.

وتتحدث السورة بعدها عما عرضه عليهم من نماذج من قدرة الله تعالى ورحمته بعباده ليؤمنوا.. فيقول:

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾

فلماذا لا تخافون عظمة الله تعالى وقدرته بإنزال العقوبة بكم؟

ولماذا لا ترجون المثوبة على عبادتكم وطاعتكم الله تعالى؟

ألا ترون أنه تعالى قد خلقكم في أطوار النطفة فالعلقة فالمضغة فالطفولة فالشباب فالهرم، وفي أطوار الفقر والغنى والصحة والمرض؟

ألا ترون أنه خلق السموات السبع في طباق متتالية، وخلق الشمس فيهن كسراج يبعث الحرارة والضوء، وخلق القمر فيهن يبعث النور الذي يعكسه من ضوء الشمس، وجعل لكل من الشمس والقمر المنافع الكثيرة في جميع شؤون حياتكم؟

ألا ترون كيف خلق تعالى أباكم آدم من أديم الأرض ثم جاء نسله من التزاوج بين الذكر والأنثى كما يجيء النبات، وأنكم ستعودون بالموت إلى هذه الأرض ثم يبعثكم تعالى للحساب والجزاء يوم القيامة؟

ألا ترون كيف بسط الله تعالى لكم الأرض وسهَّلها لتسعوا في طرقها وفجاجها طلباً لمعاشكم؟

فهلموا للإيمان بهذا الرب الرحيم الذي خلقكم ودبَّر حياتكم.

فماذا أجابوا نوحاً عليه السلام؟ تقول السورة:

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾
وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ
الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾
وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا
فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ
الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾

ها هم يصرُّون على الكفر واتِّباع زعمائهم وأثريائهم المتكبرين بأموالهم وأولادهم ليجدوا الخسران المبين في الآخرة بسبب ذلك.

ها هم يشتطون في طغيانهم ومكرهم بجميع صنوف المكر به، ودعوتهم لسفلتهم ليدافعوا عن آلهتهم!

وا عجباً لعقول ترى آلهة تحتاج لهؤلاء ليدافعوا عنها؟!

إنها مجموعة من الأصنام التي زيَّن لهم الشيطان عبادتها فتحجَّرت عقولهم على تقليدهم الباطل لآبائهم فظلموا أنفسهم فجاءهم الطوفان ليهلكهم عن آخرهم، وتنتظرهم نار جهنم لتكون الجزاء الوفاق لهم.

انظروا إلى نوح، وربه يخبره بأنه لن يؤمن من قومه آخرون، وأن صبره نفد، وأنه يتوجه بالدعاء إلى ربه ليقضي عليهم صغيراً وكبيراً بعد أن عتوا وبغوا واستكبروا.

انظروا إليه وهو يدعو على الطغاة المستكبرين.

ثم يدعو لنفسه ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات بالمغفرة والرحمة.

اللهم كما استجبت لرسولك الأول للبشرية نوح عليه السلام فاستجب لنا واغفر لنا ولوالدينا وللمؤمنين والمؤمنات، وأهلك الظالمين والطغاة المستبدين المتغطرسين.. إنك سميع قريب مجيب الدعاء... آمين.

دليل سورة نوح ـ ٧١

- إنها سورة مكية،و أنزلت في ٢٨ آية.
- تبدأ السورة وتنتهي مع وقفة نوح عليه السلام مع قومه وعنادهم في الباطل.
- فقد داوم في كل الأوقات من الليل والنهار على دعوتهم فرفضوا الاستجابة.

- وتؤكد لهم بأدلة كثيرة من خلق السموات والأرض قدرته تعالى على حسابهم.

- وتذكّرهم بنعمه تعالى عليهم من تسهيل الأرض لحركتهم لينتهوا من إصرارهم على الباطل ويعودوا للحق.

- وتؤكد رغم ذلك استكبارهم عن الاستجابة والكيد ضد نوح عليه السلام فنالوا جزاءهم بالغرق في الطوفان بعد أن أذن له ربه بالدعاء عليهم.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ إن الأمر بعبادة الله تعالى يقتضي الإيمان به والتزام طاعته ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾.

٢ ـ إن للداعية أن يجأر بالشكوى إلى الله تعالى من إصرار واستكبار من يدعوهم عن الاستجابة له ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾﴾.

٣ ـ إن لطلب المغفرة من الذنوب في الدعاء مردود طيب وفير من الأموال والأولاد في الدنيا والجنات في الأخرى ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾.

٤ ـ إن دوام الاستدلال بقدرة الله تعالى بالأدلة المحسوسة في الأرض والسموات أكبر مؤثر على النفوس والعقول السليمة ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾

٥ ـ لقد أذن سبحانه لرسوله نوح عليه السلام بالدعاء على قومه الكافرين بالهلاك ولكنه سبحانه لم يأذن بذلك لرسوله محمد عليه وآله وصحبه السلام لرسالته الخاتمة وعلمه المطلق بأن الكثير منهم سيدخل حظيرة الإيمان ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ ولكن الرسول عليه وآله وصحبه السلام قال: «لا، إني لأرجو أن يخرج من أصلابهم من يوحد الله».

اللهم أنقذ هذه الأمة الإسلامية من العتاة المفسدين.. يا حي يا قيوم.. آمين.

سورة الجن (٧٢)

التقديم

سورة الجن مكية، نزلت في ثمان وعشرين آية، وتشمل ما يلي:

تبدأ السورة بأمر المولى عز وجل لرسوله المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم لتبليغ أمته بأن الله تعالى قد أوحى إليه بما نقل إليه جبريل عليه السلام رسول رب العالمين بأن مجموعة من الجن قد استمعوا إليه وهو يتلو القرآن، وأنهم قد

آمنوا بالله الواحد الأحد، ولم يأبهوا بتضليل إبليس اللعين لهم لإبعادهم عن الإيمان عندما أخذ يزين لهم الكفر والكذب على الله تعالى واستخدام لجوء الإنس إليهم طلباً للمنافع وسيلة لإقناعهم ولكنهم رفضوا حججه خشية من أن يزدادوا إثماً وكفراً وبعداً عن الإيمان بالله تعالى وبيوم القيامة.

وتشير السورة بعدها لما قاله الجن بمناسبة بعثة الرسول عليه وآله وصحبه السلام.

وكيف أن الحراسة على السماء الدنيا قد تم تشديدها ضد استراق السمع، وأنهم لم يكونوا يعلمون سبب هذا التشديد حتى تأكدوا من بعث الرسول عليه وآله وصحبه السلام، وإن كانوا لا يدرون ما في هذا من خير ولا سيما مع وسوسة إبليس وجنوده لهم لإبعادهم عن الإيمان.

وبمقياس ما استمعوا إليه من الحق فقد علموا أن منهم الصالح في إيمانه ومنهم غير الصالح جزئياً أو كلياً، كما تأكدوا أنهم لن يستطيعوا أن يخرجوا عن سلطان الله تعالى وقدرته المحيطة بالوجود كله، وأن المؤمن المهتدي منهم لا يخشى نقص ثوابه لكونه على الطريق الرشيد السليم بينما القاسط الجائر على نفسه بشركه وكفره فإنه بانتظار جهنم ليكون لها حطباً.

وأن مردود السير على الطريق القويم الرزق الوفير، وبالعكس مردود ترك ذلك العذاب الشديد، وأن المساجد ببيوتها المعهودة، أو حيثما كان من الأرض أو بالسجود على أعضاء السجود السبعة فإنها كلها لله تعالى يجزل المثوبة على من يخلص فيها العبادة لله تعالى وحده، وأنهم أي: الجن قد تجمعوا بكثافة على الرسول عليه وآله وصحبه السلام عندما سمعوه يقرأ القرآن وهو يصلي بمكان نخلة بين مكة والطائف ليعلموا منه ما يقول، وأنه عليه وآله وصحبه السلام قد علّمهم عبادة الله الواحد الأحد، وأنه لا يقدر على جلب نفع ولا دفع ضر عن أحد منهم إن قضاه الله تعالى وقدَّره عليهم، وأنه يملك تبليغ ما أرسل به إليهم وإلى الإنس، وأن أحداً لن يستطيع رد عذاب الله تعالى عنه لو استحقه، وأنه لن يلجأ منه إلا إليه، وأنه مجرد مبلِّغ لهم ولا يملك فرض الكفر أو الإيمان عليهم، فمن يكفر فباختياره وله نار جهنم ومن يؤمن فباختياره وله نعيم الجنة، وأنه عليه وآله وصحبه السلام لا يعلم متى تقوم الساعة، وعلم ذلك عند الله تعالى وحده ولا يعلم الغيب إلا ما يعلمه الله بشيء منه كما يعلم رسله كدليل على نبوتهم، وأن ما يعلّمه لرسوله محمد عليه وآله وصحبه وسلم فيه التأكيد بأن إخوانه الرسل السابقين قد بلغوا رسالات ربهم، وأن الله تعالى محيط علمه بهم جميعاً.

فهذا هو شأن الجن يا مشركي العرب والأرض قاطبة وقد استجابوا للإيمان...
فلم تعاندون؟؟!

التفسير

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا ٣ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا ٤ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ٥ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا ٦ وَأَنَّهُمۡ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ أَحَدٗا ٧ وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ٩ وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠﴾

فتبدأ السورة ببيان أمره تعالى إلى رسوله المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بأن يقول لأمته بأنه قد أوحي إليه بأن جماعة من الجن قد استمعوا إليه وهو يصلي ويقرأ القرآن بصوت عال وذلك في موضع ما بين مكة والطائف يدعى نخلة.

فماذا فعلوا؟

لقد سارعت تلك الجماعة إلى الاستجابة لما سمعوه من هداية بعد أن أدركوا إعجاز هذا القرآن، وأنه رسالة الله إلى عالمي الإنس والجن معاً، وأنهم آمنوا بالله تعالى الواحد الأحد الذي لا شريك له، وأنه سبحانه قد تعالت وسمت عظمته وجلاله عن اتخاذ الزوجة والولد.

ويذكر أن هذا الاستماع هو غير ما يعرف بليلة الجن، تلك الليلة التي صاحب فيها ابن مسعود رضي الله عنه الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم والتي فيها التقى الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة السلام بالجن عند الحجون وقرأ عليهم القرآن، وحدد لهم العظم زاداً لهم وأنهم ما إن يتناولوه حتى يعود مكسواً باللحم والشحم، كما حدد لهم البعر طعاماً لدوابهم ولذلك نهى عن الاستنجاء بهما.

وتنقل السورة بعدها شيئاً عن أولئك النفر من الجن الذين استمعوا وآمنوا، وأن ما قالوه بأن سفيههم إبليس هو وكل أتباعه من الشياطين والعصاة كانوا يوسوسون لهم

بالمزيد من الشرك والكفر، وأما هم فلم يكونوا يظنون قبل إيمانهم ومعرفتهم بذلك بأن أحداً من الإنس والجن قد يكذب على الله تعالى ويجرؤ على رفض هدايته، وينسب إليه الصاحبة والولد، وأنهم قد كانوا يعرفون بأن هناك رجالاً من الإنس يلجأون إلى رجال من الجن لطلب العون والخير منهم، ولكنهم على العكس كانوا باستجابتهم لهم يزدادون إثماً وخطيئة.

إنهم كانوا يظنون بسبب وسوسة الشياطين والعصاة أن الله تعالى لن يبعث الخلق للحساب يوم القيامة، كما لن يبعث إليهم رسولاً ليبلغهم رسالته تعالى ويقيم عليهم الحجة كما بعث محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم الآن لقريش وللناس والجن كافة.

إنهم قد لاحظوا أنهم عندما طلبوا خبر السماء، كما كانوا معتادين، وجدوها على غير ما اعتادوا عليه من قبل.

وجدوها قد شدِّدت عليها الحراسة بالملائكة كما أعدَّت فيها الشهب الكثيرة ليقذف بها كل من يقترب من الجن ليلتقط الأخبار، وأنهم كانوا في السابق يقعدون في أماكن معينة تمكنهم من سماع ما تتحدث به الملائكة فيما بينهم مما يتعلق بأوامر الله تعالى، وأن الحال الآن قد تغير تماماً، فلم يعد أحد منهم يحاول أن يقترب إلى السماء في موضعه السابق حتى يقذف بشهاب يترصد اقترابه.

إنهم كانوا يضيفون إلى ما يلتقطونه أضعافاً مضاعفة لها من الأكاذيب، وكانوا ينقلونها إلى الكهان الذين يستخدمونها في كهانتهم وتنجيمهم... الأمر الذي كان يجعلهم من المستبعد جداً أن يصدقوا مهما أصابوا بسبب ذاك الخليط من الأكاذيب الكثيرة مع القليل النادر من الصدق.

إنهم لم يكونوا يدرون فيما إذا كانت هذه الحراسة المشددة للسماء قد أريد بها الشر بأهل الأرض أم الخير، وأنهم قد عرفوا أن في ذلك الخير لهم، وأنهم مع علمهم ببعثة الرسول محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم قد علموا أن ذلك بكل تأكيد فيه الخير والهدى لهم وللإنس جميعاً.

وتنقل السورة بعدها المزيد من قول الجن المؤمنين، وما يقوله المولى عز وجل لخلقه من بيان للهدى والرشاد... فتقول:

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾

وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟
لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن
ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ
ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ
لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَـٰغًا مِّنَ
ٱللَّهِ وَرِسَـٰلَـٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا
يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ
رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ
يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ
كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾

فالجن المؤمنون يقولون بأنه بنتيجة إيمانهم بالإسلام ورسوله عليه وآله وصحبه السلام قد أصبح فيهم الصالحون والأقل صلاحاً، والكافرون والأشد كفراً وطغياناً، بحيث توزعوا على فرق شتى.

وأنهم ظنوا ظن اليقين بعد أن تأكدوا بالاستدلال والتفكر في آيات الله تعالى بأنهم لن يستطيعوا الخروج من إطار سلطان الله تعالى ولا الهروب من قضائه وجزائه، وأنهم قد آمنوا بالإسلام وهداية رسوله عليه وآله وصحبه السلام بمجرد استماعهم للقرآن.

إنهم على ثقة تامة بأن من يؤمن بالله تعالى فلن يخشى نقصاً في ثوابه ولا زيادة في سيئاته.

وأنهم بعد إيمان المؤمنين منهم قد أصبحوا يتوزعون بين مسلمين وقاسطين كافرين، مسلمين ساروا على الهدى والرشاد، وقاسطين ساروا على الباطل والفساد، فكان لأولئك نعيم الجنة ولهؤلاء جحيم النار.

فانظروا إلى دعوته عليه وآله وصحبه السلام بعدها لغير من آمن من الجن بأنه كان حرياً بهم الإيمان كزملائهم واتباع الهدى كما يجب أن يفعل غير المؤمنين من الجن والإنس الآخرين.

وأنه عليه وآله وصحبه السلام يبشر من يؤمن منهم بعاقبة طيبة كما يبشرهم بالرزق

الوفير في الدنيا، وأن في ذلك اختباراً لمن يعطي حق الأموال ابتغاء مرضاة الله تعالى، وأن من يعرض عن إعطائها له العذاب في الدنيا والآخرة.

وانظروا إلى بيانه تعالى بأن المساجد لله تعالى حيثما وجدت، بشكلها المعهود أو غيره، وبالسجود المخلص في كل مكان له تعالى، وأن هذه المساجد يجب القصد منها رضى الله تعالى وحده، وأن ذلك وحده يحقق الخير كله لكل صادق الدعوة فيها لله وحده وليس لمن يشرك معه غيره ولو كان في المسجد نفسه.

وانظروا إلى الجن وهم يزدحمون في نخلة حول الرسول عليه وآله وصحبه السلام حتى كادوا يركبون فوق ظهره، والرسول عليه وآله وصحبه السلام يعلن لهم ولكل الإنس والجن معهم أمر ربه بأنه إنما يدعو للإيمان بالله تعالى وحده، وإلى طاعته وحده، والإخلاص في العبادة له وحده، ويذكّر برفضه لكل ما تعرَّض له عندما عرضت عليه قريش استعدادها لنصرته إن رجع عن دينه ودعوته إلى دينهم.

وعليهم أن يعلموا أنه لا يملك القدرة على أن يدفع عنهم أيَّ ضر، ولا يجلب لهم أيَّ خير، إنساً كانوا أو جناً، مما كان الله تعالى قد قضاه وقدره عليهم.

وعليهم أن يعلموا بأنه مكلف بتبليغ رسالة ربه إليهم وأنهم هم المطالبون بالاستجابة لما يدعوهم إليه فيهتدوا، أو رفضه فيضلوا، وعندها عليهم هم أن يتحملوا اختيارهم ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]. .

وأنه عليه وآله وصحبه السلام يؤكد لهم أنه لن يحميه ولن ينصره ولن يمنعه أحد من عذاب الله تعالى لو استحقه، وأنه لن يجد ملجأ يلجأ إليه لو وقع عليه أيُّ ابتلاء بقضاء الله تعالى وقدره إلا الله تعالى وحده.

وأنه لا يملك أن يبلغهم إلا ما أمره به تعالى ولا أن يعمل إلا بما أرسله به تعالى، وأنه لن يجد ملجأ يلجأ إليه إذا لم يبلغ رسالة ربه بلاغاً مبيناً.

وأن عليهم أن يعلموا أن لكل من يرفض طاعة الله تعالى ورسوله عليه وآله وصحبه السلام نار جهنم حيث يخلد فيها دائماً وأبداً، وأنهم عندما يشاهدون مشاهدة العين ما يتوعدون به من عذاب جهنم في الآخرة، ومن الهزيمة كهزيمة بدر، فإنهم سيكونون على علم تام بمدى ضعفهم.

وأنه عليه وآله وصحبه السلام يؤكد لهم بأنه لا يعلم موعد قيام الساعة، ولا موعد

نزول العذاب بهم في الدنيا، وأن تحديد ذلك كله إلى الله تعالى وحده، إنه تعالى علّام الغيوب ولا يعلم من غيبه أحد إلا من يطلعه على شيء من ذلك من الرسل كدليل نبوته.

وأنه تعالى يحمي ما يوحيه إلى رسوله من عبث الشياطين بملائكة يحولون بين أيِّة زيادة أو نقص.

واعلموا أيها الجن والإنس بأن محمداً عليه وآله وصحبه وسلم عالم بما أوحى إليه ربه بأن الرسل من قبله قد بلغوا ما أرسلوا به، وأن الله تعالى محيط بذلك.

وأن عليكم يا كفار قريش أن تدركوا وتتدبروا حالكم وأنتم تعلمون مقال الجن وحال الجن هذا واستجابتهم للإيمان بالله ورسوله.

فأي مبرر لكم يا مشركون للبقاء على الكفر وأنتم ترون الجن ودخولهم في حظيرة الإيمان؟!

دليل سورة الجن ـ ٧٢

-تخبر السورة بما قاله الجن من أن السماء قد ملئت بالحراس والشهب بعد البعثة النبوية.

- ثم تورد مجموعة من أقوال الجن المؤمنين بشأن صفات المؤمن والكافر.

- ثم تشير إلى تجمعهم على الرسول عليه وآله وصحبه السلام بنخلة، مكان بين مكة والطائف، وهو يقرأ القرآن في صلاته، وأنه قد علمهم العبادة وغيرها من جوانب العقيدة.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ إن سورة الجن تؤكد لمشركي العرب بأن من هم أقوى منهم وهم الجن قد دخلوا في الإسلام بمجرد سماعهم القرآن مما يستنكر عليهم موقفهم المصرَّ على الشرك.

٢ ـ و إن إخبار السورة بما لمسه الجن من حراسة السماء بعد البعثة النبوية ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾﴾ يؤكد تميز الرسالة الخاتمة على ما سبقها.

٣ ـ و إن إبليس كان يلاحق المؤمنين من الجن ليردهم عن دينهم حتى قالوا ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾.

٤ ـ ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ تؤكد أن ليس من حق أحد من البشر أن يمنع الدعوة إلى الله وحده في أيِّ مسجد وتحت أيِّ مبرر.

سورة المزمل (٧٣)

التقديم

تتحدث السورة عن خطاب المولى عز وجل إلى رسوله المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم عندما نزل إليه الملك جبريل عليه السلام، فأصابته رعدة شديدة عندما رآه.

فماذا فعل؟ لقد أسرع إلى بيته وأهله ليخبرهم بما حصل معه وبما يشعر به وأنه لذلك قد رغب أن يتزمل ويلتف في ثيابه.

وتذكر السورة بعدها ما أمره به ربه سبحانه وتعالى كأول أمر في هذه السورة ألا وهو الصلاة وفي الليل بالذات.

ثم يأمره المولى عز وجل أن يضيف للصلاة في الليل ترتيل القرآن وتلاوته.

ولكن لماذا؟ لقد كان إعداداً له لتلقي ما سيوحيه إليه من الرسالة التي قد اختاره لتحمل مسؤولية تبليغها لعالمي الإنس والجن كافة.

وبالأمر بالصلاة وتلاوة القرآن، وفي الليل بالذات، الإعداد الروحي الأساسي لتحمل مثل هذه المسؤولية، مما ينبه كل من يريد أن يتصدى لهذه المسؤولية أن يعد نفسه مثل هذا الإعداد وإلا فلن يستطيع أن يتصدى بنجاح للصعوبات المادية والمشاق الاضطهادية التي سيلاقيها.

وبالطبع مع هذا الإعداد الروحي لابد من التنبيه على أهم مرتكزاته بعد الصلاة وتلاوة القرآن، فماذا كانت؟

إنه الصبر على الأذى في سبيل الله تعالى.

وهذا في حق المؤمنين الذين يتصدون لهذه المسؤولية، وأما في حق المكذبين والذين يقفون ضد الإسلام ودعوته فإن المولى عز وجل يتوعدهم بما ينتظرهم من العذاب الشديد بسبب ذلك سواء في الدنيا أو في الآخرة.

ويخفف المولى عز وجل عن رسوله عليه وآله وصحبه السلام ما فرضه أولاً من قيام الليل كله إلى نصفه أو ثلثه.

ولكن لماذا التخفيف؟ إن ذلك كان تبعاً لأحواله الصحية وطلبه الرزق ومباشرته الجهاد في سبيل الله تعالى.

التفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾

تخاطب السورة الرسول المصطفى عليه وآله وصحبه السلام على أثر تأثُّره الشديد من رؤية جبريل عليه السلام عندما نزل عليه بالوحي، وأحب أن يراه على حقيقته، وبعد أن رجع إلى أهله وطلب منهم «زملوني، دثروني».

فالمولى عز وجل يأمر رسوله عليه وآله وصحبه السلام بأسلوب الخطاب الأنيس والبعيد عن عدم الرضى أن يا محمد، يا من تزمَّل بردائه، مستقبلاً تحمل مسؤولية النبوة والرسالة.. عليك أن تباشر في إعداد نفسك لحمل هذا العبء.

عليك أن تبدأ بالصلاة طيلة الليل، وإن لم تستطع فيكفي نصف الليل أو أقل من النصف قليلاً أو أكثر منه قليلاً.

واعلم أن ذلك فرض عليك من دون أتباعك من المؤمنين.

واعلم أن عليك أن تحرص على قراءة القرآن في الصلاة وخارجها بأسلوب الترتيل الواضح المفهم.

إنك بذلك يا محمد تصبح مستعداً استعداداً روحياً لتحمل عبء الرسالة التي سينزل عليك بها الوحي بما فيها من تكاليف ثقيلة.

واعلم يا محمد بأن ربك يعلم بأن للقيام بالليل صلاة وتلاوة ميزتين اثنتين ليستا للنهار: فهو وقت الراحة مما يستثقل العمل فيه، وهذه ميزة سلبية، وهو وقت الهدوء والسكينة مما يستقيم معه القول أخذاً وعطاءً، وهذه ميزة إيجابية.

واعلم يا محمد بأن ربك يعلم بأن النهار هو مجال السعي للرزق والكدِّ علماً وعملاً، عبادة وطاعة، وأن فيه متَّسعاً طويلا لذلك.

واعلم أن ما عليك إلا أن تحرص استمراراً للإعداد الروحي والنفسي والعقلي والمادي في الليل والنهار على أن تربط ذلك كله بأوامر الله تعالى ونواهيه باستمرار ومع كل حركة وسكنة، ولاسيما وأنت على يقين من إحاطة علم ربك بالخلق كلهم في جميع مشارق الشمس ومغاربها.

عليك يا محمد أن تفوض أمورك كلها لله تعالى.

عليك أن تعتمد عليه في تأييدك ونصرك على كل الصعاب والعقبات.

عليك أن تصبر على كل ما يصدر من المشركين من تكذيب وبذاءة في القول والعمل، ولا تقابل السيئة بمثلها، فتلفت نظرهم إلى ما تدعوهم إليه.

عليك أن تدع حساب هؤلاء السادرين في غيِّهم والذين أعماهم المال وكثرة الأتباع، وتدع حسابهم على ربك فعقابه بانتظارهم مهما تأخر.

وتعرض السورة بعدها جانباً من عذاب يوم القيامة لأولئك العتاة المكذبين فتقول:

﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ
ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ
فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ
مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾

فانظروا إلى وضع الأغلال في أيديهم وأعناقهم ليساقوا إلى الجحيم حيث يأكلون الطعام الخانق ويقاسون العذاب الأليم.

واذكروا ذلك اليوم الذي ترتجف الأرض فيه عندما تتزلزل وتنسف الجبال بعد أن تتحول إلى رمال منهارة متحركة.

فهل هذا ما تستبعدونه أيها المكذبون؟!

ها قد أرسل المولى عز وجل إليكم محمداً رسولاً تعرفونه من وسطكم ليشهد عليكم وعلى تصديقكم وسلامة أعمالكم يوم القيامة كما أرسل تعالى موسى إلى فرعون وقومه الذين عرفوه حق المعرفة.

احذروا أن تكونوا كفرعون الذي رفض الإيمان وطاعة الرحمن فاكتسحه وقومه الغرق.

احذروا عذاب يوم القيامة الأشد إيلاماً من غرق فرعون حتى ليشيب الطفل من هوله إذا عاندتم وأصررتم على الكفر.

واذكروا كيف تتشقَّق السماء يوم القيامة فتنزَّل الملائكة من أرجائها ويحل وعيده تعالى بالكافرين ووعده للمؤمنين.

فاذكروا ذلك وعودوا إلى رشدكم وأنقذوا أنفسكم قبل فوات الأوان.

ويختم المولى عز وجل السورة بالإشارة إلى قيام الليل وعلة تخفيفه.. فيقول:

﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْۖ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾

فاذكر يا محمد أن ربك قد فرض عليك قيام الليل صلاة وتلاوة.

واعلم أن ذلك كان إعداداً دائماً لك لتحمل عبء رسالة الإسلام، المطالب بتبليغها للناس كافة.

تذكّر بأن الله يعلم بأنك وأصحابك تقومون أقلَّ من ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه.

وتذكّر بأنه تعالى يعلم مدى قدرتكم على ذلك من الليل والنهار، مع مسؤولياتكم الأخرى من طلب الرزق والجهاد في سبيل الله وتحمل المرض وغيره.

وتذكّر بأنه تعالى يعلم أنكم بسبب ذلك كله يصعب عليكم ذلك القيام دائماً، ولذلك فقد خفف عنكم وندبكم إليه بعد أن كان فرضاً عليكم فقوموا بما تستطيعون من الليل صلاة وقراءة بالإضافة لفروض الصلاة الخمسة الأخرى في الليل والنهار.

وقوموا بأداء الزكاة المفروضة وما يمكن من الصدقات النافلة مما هي فرض لله تعالى ليعطيكم عليه أعظم الأجر.

واحرصوا على طلب المغفرة من ربكم الغفور الرحيم على كل تقصير منكم.

دليل سورة المزمل ـ ٧٣

- إنها سورة مكية، أنزلت في ٢٠ آية، وفي بدايتها يأمر المولى سبحانه رسوله المصطفى عليه وآله وصحبه السلام وبعد أن رأى الملك جبريل عليه السلام، بأداء الصلاة وفي الليل بخاصة.

- ثم تأمره عليه وآله وصحبه السلام بترتيل القرآن في الصلاة وخارجها لما في ذلك من الإعداد الروحي لحمل الرسالة.

- ثم تؤكد طلب الصبر على أذى القول والفعل من المشركين.

- ثم تهدد المشركين بالعذاب الشديد إن استمروا على الإصرار في الكفر والبغى.

- ثم يخفف المولى سبحانه قيام الليل كله على رسوله إلى النصف أو الثلث تبعاً لمسؤوليات الحياة والدعوة.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ إن الخطاب ب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ فيه تحبب للمخاطب مما يشجع على استخدام هذا الأسلوب في الدعوة فيحرص على مخاطبة الإنسان بالاسم الذي يحبه.

٢ ـ إن الأمر بالصلاة وترتيل القرآن وبخاصة في الليل فيه تأكيد على أهمية ذلك لحملة الدعوة في المرحلة المكية بالذات لما فيها من مشقات تستدعي الصبر عليها وتجاوزها ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾.

٣ ـ إن الإشارة إلى فرعون وما فعله بموسى عليه السلام وما حل به من العقاب فيها إثارة لليهود والمشركين العرب المتأثرين بهم ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾.

٤ ـ إن الظروف الصحية وطلب الرزق والجهاد في سبيل الله كلها أحوال تخفف من قيام الليل في الصلاة ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾.

سورة المدثر (٧٤)

التقديم

قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وهو يحدِّث عن فترة الوحي في حديثه «فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالساً على كرسي بين السماء والأرض» قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم «فجئثت ـ أي ذعرت ـ منه فرقاً، فرجعت فقلت زملوني زملوني، فدثروني»، فأنزل الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ قال «ثم تتابع الوحي».

والسورة تخاطب الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام بأسلوب الخطاب الأنيس الذي خاطبه به المولى عز وجل في مطلع سورة (المزمل).

يخاطبه المولى عز وجل بحاله، بصفته، ولم يخاطبه باسمه وذلك ليستشعر اللين والملاطفة من ربه، وفي ذلك بداية للإعداد النفسي والروحي لتحمل مسؤولية تبليغ رسالة ربه لعالمي الإنس والجن جميعاً.

و بعد أن دعا المولى عز وجل رسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم للقيام بتبليغ ما أمره به مما ينزل به على الوحي ركَّزت في معظمها على موقف الوليد بن المغيرة من الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام، ومن دعوته عليه وآله وصحبه السلام له، وكيف أنه استخدم جميع أساليب الصد عن الاستجابة له والتي منها اتهامه بالسحر.

وتبعاً لذلك يأتي تهديد المولى عز وجل لهذا الباغي المكذب بأنه سيلقيه يوم القيامة في نار سقر حيث يجد جزاءه على سوء أعماله.

وما سقر هذه؟

إنها نار سقر التي يتولى تسعة عشر من الملائكة الذين ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] مسؤولية القيام عليها كخزنة لها.

وأخيراً يقسم المولى عز وجل بعدد من خلقه على أن كل ما يتوعد به أولئك الكافرين الطغاة من العذاب الأليم هو صدق وحق وعدل، وأن عليهم إذا أرادوا أن ينقذوا أنفسهم من ذلك أن يؤمنوا بهذا القرآن ويستجيبوا لأمره تعالى ونهيه.

فهل يملك عاقل متدبر إلا أن يستجيب لدعوة الإيمان والإسلام.. ولكنه الكبر والعناد!!

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾

فعليك يا حبيب ربك، يا محمد، يا من التف بملابسه خوفاً من رؤية جبريل عليه السلام على هيئته الأصلية.

عليك أن تبادر إلى إنذار الناس، بدءاً من قومك.

إنذارهم من عذاب الله تعالى إن لم يؤمنوا بما تدعوهم إليه من توحيده تعالى، وبنبوتك أنت رسوله الذي يتولى دعوتهم، وبرسالة ربك إليهم.

وعليك أن تبدأ دعوتك بالإعلان عن أن الله تعالى هو الأكبر والأعظم من كل شيء.

وعليك أن تعمد إلى ثيابك فتطهِّرها من كل دنس وأنت تقف بين يدي ربك للصلاة، كما تطهِّر نفسك من كل رذيلة وأنت تمتثل طاعة ربك.

وعليك أن تحرص على هذا التبليغ كما تحرص على الإنفاق في سبيل الله تعالى وطلباً لمرضاته تعالى وحده وليس لأيِّ مقابل من غيره تعالى.

وعليك أن تصبر على الأذى مهما كان نوعه والذي تتعرض له وأنت تحمل دعوتك وتبلغ رسالة ربك، وأن يكون صبرك ابتغاء مرضاة ربك ليس غير.

ويعرض المولى عز وجل بعدها في السورة جانباً من يوم القيامة فيقول:

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾

فاسمعوا لإسرافيل عليه السلام وهو ينفخ النفخة الثانية في صوره، نفخة البعث والنشور بعد النفخة الأولى نفخة الموت والفناء.

وانظروا إلى الخلق وهم ينسلون من قبورهم مسرعين ومشدوهين لهول ما يرون ويسمعون في ذلك اليوم، يوم الحساب، يوم العسر والشدة على الكافرين.

ولكن أيَّ كافرين؟

إنهم هم الكافرون الذين يعلمون ما اقترفوه في حياتهم من الكفر والعصيان والطغيان.

هم الكافرون الذين أعرضوا عن كل تحذير وإنذار بما ينتظرهم في هذا اليوم من الشدة والعسر.

هم الكافرون الذين سخروا مما كانوا يبشرون به من النعيم في الجنة عندما يقلعون عن كفرهم ويدخلون حظيرة الإيمان والعمل الصالح.

وتقف السورة بعدها مع الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام بشأن الوليد بن المغيرة.. فتقول:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾

﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩﴾

فتتوعد الوليد بن المغيرة، ذلك الدعيَّ الذي كان يرى نفسه الوحيد بين الناس في الأموال والأولاد والقوة والسطوة والنفوذ.

تتوعده بأن الله تعالى سينزل به من العذاب الذي يستحقه لغطرسته، لتجبره وطغيانه، لإنكاره أن الله تعالى قد منحه كل هذه الأموال وهؤلاء الأولاد، وهذه المكانة.

وأنه كان عليه بدلاً من طغيانه أن يشكر المنعم ويقبل على الندم لما فرّط في حق نفسه من ظلم الشرك والطغيان.

كان عليه أن يكف عن هذا التعالي والتكبر والإصرار على قومه بالكفر، وطلب المزيد من الأموال والأولاد.

يتوعده تعالى بأن المزيد قد انتهى وأن النقص قد بدأ.

انظروا إلى أرزاقه وهي تتلاشى بين يديه وإلى مكانته وسطوته وهي تتبخر من الناس.

انظروا إليه وهو ينتظر من ربه العذاب الشديد في آخرته.

انظروا إلى آخرته وقد ألقي به في قعر جهنم وأصبح يصعد جبلاً ويهبط جبلاً في نار جهنم.

انظروا إليه ولسان حاله يعضُّ أصابعه ندماً عندما رفض الاستجابة لنداء الفطرة السليمة، عندما هتف بكلمات صائبة، هتف بها من أعماقه وهو يسمع القرآن من الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام فقال: (كلام ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وما يقول هذا بشر).

لقد قال هذا وهو ينطق بالحق ولكن ما أسرع ما عاد إلى كفره وباطله مستجيباً لطلب قومه وتعييرهم له.

إنه لم يقف عند التراجع عن هذا القول الحق بل أخذ يفكر ويفكر في عقله الخبيث ليصل إلى قراره الذي يعجب قومه.

لقد رأى أن ما سمعه من القرآن من الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام ما هو إلا سحر مأثور، وكلام بشر مخلوقين، وليس وحياً من رب العالمين!! يا للردة والافتراء بعد لحظة الإيمان والصدق!!

فما الجزاء؟

إنه الإنذار والتهديد الرباني بأن سقر وجحيمها بانتظاره حيث يحترق فيها، يحترق بشكل لا يبقي عليه لحماً ولا عظماً، ثم يعود من جديد فيحترق وهكذا.

وتتحدث السورة أخيراً عن خزنة جهنم وما ينتظره هؤلاء المشركون المكابرون من عذاب على أيديهم فيها فتقول:

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا
هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ
﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ
الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ
﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّى أَتَانَا
الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾
فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَل لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ
﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى
وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾

فسواء كان عدد خزنة جهنم تسعة عشر فرداً أو جماعة فإن عددهم هذا يبقى اختباراً للكافرين، فأهل الكتاب يطمئنون لهذا العدد لأنه يتطابق مع ما في كتبهم، والمؤمنون يزدادون اطمئناناً أكثر فأكثر بسبب إيمانهم الجازم ولكن الكافرين والمنافقين هم الذين من عادتهم الشك والعناد، وهم الذين يستنكرون هذا العدد، فيزدادون ضلالاً على ضلالهم.

إنهم بمحض إرادتهم واختيارهم يرفضون قول رب العالمين بسبب فشلهم في التفكير وبعدهم عن السلامة فيه إلى العوج، فيقعون في البعد عن الإيمان القويم.. علماً بأن هذا العدد لا يعلم حدوده إلا الله تعالى، وأن ذكره هنا ما هو إلا تذكير للناس بقدرة الله تعالى وعظمته.

وما أكثر ما تدل مثل هذه الأرقام على الكثرة ودون تحديد.

فانظروا إليه تعالى وهو يقسم بالعديد من مخلوقاته الدالة على قدرته، يقسم بالقمر والليل والصبح، يقسم بكل ما لها من مظاهر الثبات والتغيير والدالة على عظمته وتدبيره تعالى لخلقه.

يقسم بها ليقول لمخلوقاته بأن يوم القيامة الذي تشكّون به لا بد قادم، وأن أحداً منكم متى ظلم نفسه بكفره وألقاها في نار جهنم فإنه لا يستطيع مقاومة خزنتها وهم يدفعونه فيها، وأن هذا التأكيد الجازم يشكل إنذاراً شديداً لكل عاقل يودُّ أن يقود نفسه للخير ويبعدها عن الشر.

فاعلموا أيها البشر أن كل إنسان منكم مرهون بأعماله يوم القيامة، وأن جزاءه جهنم إذا اختار الضلال ورفض الهدى، وأن له الجنة إذا اختار الهدى ورفض الضلال.

وانظروا إلى أهل اليمين وهم يتساءلون في الجنة عما حصل للمجرمين الكافرين المتكبرين، وسبب دخولهم سقر.

فيأتيهم الجواب لأنهم كانوا لا يصلّون ولا يطعمون المساكين ويطعنون بالرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام ويكذبون بيوم القيامة، وأن الأجل وافاهم وهم على ذلك، وأنهم بذلك حرموا من الشفاعة.

وانظروا إليهم وهم يعرضون عن الإيمان ويهربون منه كما تهرب الحمير من الأسد، وهم يطلبون كاليهود كتاباً كل صباح يذكر فيه أعمالهم.

فليعلموا أنهم لن يعطوا ذلك ولينتظروا ما أعدَّ لهم من العذاب جزاء سخريتهم من يوم القيامة.

وليتذكروا قبل فوات الوقت أن الله تعالى يتقبل التوبة والندم من العاصي، فليرجعوا إلى ربهم وليتوبوا إليه ليجدوه تواباً رحيماً.

دليل سورة المدثر ـ ٧٤

- إنها سورة مكية،وأنزلت في ٥٦ آية.

- تخاطب في بدايتها الرسول عليه وآله وصحبه السلام بصفته ليستشعر ملاطفة ربه له فيستعد روحياً لتبليغ رسالته سبحانه.

- ثم تطلب منه عليه وآله وصحبه السلام القيام ببعض الأعمال جاء الصبر في خاتمتها.

- ثم تشير إلى يوم القيامة، يوم الحساب، يوم الشدة على الكافرين.

- ثم تتحدث عن موقف الوليد بن المغيرة من الصدِّ عن الرسول وتهديده بنار سقر.

- ثم يقسم المولى سبحانه بعدد من خلقه متوعداً الكفرة الطغاة بالعذاب الأليم إذا أصروا على عدم الاستجابة للقرآن.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ من الواضح أن سورة المزمل تتحدث في بدايتها عن صلاة قيام الليل بينما هنا تتحدث سورة المدثر عن الأمر بالقيام ببعض الواجبات اللازمة في بداية تبليغ دعوته مما يرجح أنها جاءت قبل تلك في التنزيل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾.

٢ ـ جاء الأمر بالإنذار قبل التبشير مما يدل على أهمية ذلك في الدعوة ورفض زعم القائلين لعدم الحاجة لما يسمُّونه بتعقيد الناس وبالذات المبتدئين منهم كالأطفال والتخويف ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾.

٣ ـ ثم جاء الأمر بتكبير الرب سبحانه في الدعوة مما يجزم بعدم التساهل في تعظيم الله تعالى وتوحيده في جو الشرك والوثنية.. وفي كل جو مهما كان نمط شبهة به ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾.

٤ ـ ثم جاءت الأوامر الأربعة الأخرى لتحديد معالم الطريق أمام الرسول والداعية من بعده فيطهِّر ثيابه وعقله وقلبه ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ ويلازم الصبر ضد الأذى ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾.

٥ ـ إن تحديد عدد ملائكة سقر بتسعة عشر ليس للرقم وإنما للكثرة المخيفة، فليست لأحد من أصحاب الحسابات والأقاويل أن يحتج بذلك على شيء ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فليتجنبوا هذه الفتنة بحساباتهم.

٦ ـ التأكيد بأن كل إنسان مرتبط بما كسبه باختياره من العقائد والأعمال ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨﴾ وإن وضع التقصير في أداء الصلاة في رأسها ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾.

سورة القيامة (٧٥)

التقديم

أجمع المفسرون على أن معنى ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ الواردة في أول السورة هو «أقسم»، ورأى بعضهم أن «لا» جاءت للرد على منكري البعث والقيامة، فجاء القسم بالرد عليهم لقولهم: لا والله لا أفعل، فلا الأولى جاءت لرد كلام قد مضى مثل: لا والله إن القيامة حق، فكأنك أكذبت قوماً أنكروه.

وفائدتها توكيد القسم في الرد، ورآى بعضهم لام التأكيد قد دخلت على أقسم لأن العرب تقول: لأقسم بالله.

وسواء هذا أو ذاك فهو تأكيد قسم لا نفي قسم كما قد يتوهم القارئ العادي.

فبعد قسم المولى عز وجل بيوم القيامة، تعظيماً له وتخويفاً، وبالنفس الكثيرة اللوم على ما فرطت في حياتها وقبل وقوفها بين يدي ربها للحساب يوم القيامة، بعد هذين القسمين يؤكد سبحانه وتعالى جواباً لهما على أن القيامة حق رغم أنف أبي جهل وأمثاله من المكذبين بها لأن الله تعالى قادر على البعث كما هو قادر على الخلق والإحياء من العدم أو من التراب، ورغم أنف كل كافر ومشرك يستبعد قيامها.

وتمضي السورة بعدها في عرض مشاهد من يوم القيامة، من مثل خسف القمر وطمس نوره، وكسف الشمس والذهاب بضيائها، ووقوع الإنسان في حيرة شديدة من هولها.

ثم تشير إلى أن الإنسان عالم نفسه وما عملت في دنياها ولو مهما اعتذر وتبرر لغيره عن أفعاله.

ثم يخاطب المولى عز وجل رسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم مبيناً له كيفية استقبال الوحي بالقرآن، وأن عليه ألا يحرك به لسانه متعجلاً حفظه.

ثم تعود وتخاطب الإنسان محذرة ومنذرة من الاستغراق في محبة الدنيا وتركه للآخرة،

وتذكّره بذاك الوقت حين يتوزع الناس بين أصحاب الوجوه المشرقة وأصحاب الوجوه الكالحة،

وتذكّره بما كان عليه من ترقب الموت في الدنيا الذي لا يقدر على دفعه والذي سيساق بعده للحساب بين يدي خالقه ليجد نفسه إن كان كافراً وقد ألقي بها في جهنم جزاء عدم تصديقه بالقرآن وبكل ما فيه، وجزاء إعراضه عن الإيمان بالله، وجزاء تكبره

وتبختره ونسيان ما كان أولى به أن يذكره ويعمل به وله في الدنيا والآخرة ما له جزاء ذلك، وكأنه يظن بأن الذي قدر على إماتته يتركه في قبره ولا يبعثه ليحاسبه على أعماله.

إنه عدل الله تعالى المطلق إذ لم يخلق الخلق عبثاً ولم يكلفهم هملاً.

التفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (٦) فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (١٥)﴾

فقد أقسم المولى عز وجل بيوم القيامة، وأنه لا بد قادم.

وأقسم بالنفس الكثيرة اللوم لذاتها لتفريطها في حياتها الدنيا.

أقسم وأكَّد هذين القسمين بحرف لا على أن يوم القيامة لا بد قادم، وأن ظن الإنسان بعدم قدومه ظن خاطئ، وأن العاقل المتدبر للحياة والموت لا يمكن أن يستبعد قدومه، وأن لهذا العاقل خير دليل على ذلك من أن الله تعالى الذي قدر على خلق الإنسان وإماتته قادر على إعادة إحيائه وبعثه بعد أن يجمعه جزءاً جزءاً من قبره.

فلتكف أيها الإنسان الكافر، والمنافق، عن التكذيب بيوم القيامة واستبعاد قدومه.

ولتذكر بأن من علاماته أن يستولي الذهول على الإنسان وهو يشاهد ما يشاهد من أمارات ذلك اليوم، من مثل طمس نور القمر وضوء الشمس، فيصبح الإنسان في حيرة من أمره، فلا يدري أين يهرب، وكأن هناك مجالاً للهرب!

إنه لا ملجأ في ذلك اليوم من حساب الله تعالى إلا العودة إليه سبحانه وبكل الإذعان والتسليم، وهناك يجد كل إنسان الخبر اليقين بكل ما قدمه من طاعات، إذا كان مؤمناً، وما بخل به أي: أخره من صدقات إذا كان كافراً، فيتذكر ما قال المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: «سبع يجري أجرهن للعبد بعد موته وهو في قبره:

من علَّم علماً، أو أجرى نهراً، أو حفر بئراً، أو غرس نخلاً، أو بنى مسجداً، أو ورَّث مصحفاً، أو ترك ولداً يستغفر له بعد موته».

فليضع كل إنسان في حسابه قبل موته أنه سيكون يوم القيامة ذاكراً لكل ما قدم وأخَّر من حسنات وسيئات، وأنه إن استطاع أن يجد لنفسه عذراً أو مبرراً فلن يجد أمام ربه ذلك وهو سبحانه وتعالى العالم المحيط بكل ما صدر عنه بل بكل خطرات نفسه قبل موته.

فاطمئن أيها الإنسان أن نقصاً لن يلحق صالح أعمالك يوم الحساب، ولذلك ما عليك إلا أن تكثر منها فتصلح دنياك قبل موتك.

وتذكر بأن الندم لن ينفعك بعد موتك لتقصيرك في حياتك.

وتذكر بأن الرجوع عن أيِّ ذنب قد ينفعك في الدنيا وقبل الموت ولكنه لن ينفعك بعده.

وتذكر قوله عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام «من أصاب من هذه القاذورات شيئاً فليستتر بستر الله، فإن من يبد لنا صفحته نقم عليه الحد».

وتنقلنا السورة إلى ما تخاطب به المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وشأن تلقيه القرآن.. فتقول:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾

فتنبِّه الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بأن الله تعالى على علم بنفسه، وبمدى قدرته على الحفظ لكتابه، وأنه هو عليه وآله وصحبه السلام يعلم من نفسه ذلك، وأن عليه أن يطمئن أن الله تعالى كفيل بتثبيت حفظه لكتابه تثبيتاً يضمن بقاءه في ذهنه، وأنه لا حاجة به لذلك أن يتعجل الحفظ من خلال تحريك لسانه وتسميعه لنفسه، وأن عليه أن يعيده على نفسه بعد أن ينتهي جبريل عليه السلام من قراءته عليه كله لا آية آية، وأن عليه أن يبين للناس ما فيه من حدود وأحكام الحلال والحرام، وما فيه من وعد ووعيد، حتى يكونوا على بينة من رسالة ربهم فلا يبقى لهم عذر يعتذرون به.

وتبيِّن السورة بعدها حال الناس الكافرين بالذات يوم الحشر فتقول:

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ
بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾
وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ
ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾
أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ
ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾

فانظروا أيها البشر إلى الطبيعة التي خلقكم الله تعالى عليها عندما خلقكم من تراب، وأودع فيكم حب المال والشهوات العديدات المرتبطة بهذه الأرض والعيش عليها.

فماذا ترون؟

إنكم ترون أنكم قد جبلتم، قد فطرتم، على محبة هذه الدنيا، ولذلك فإن الله تعالى الذي خلقكم على هذه الفطرة، وخلق فيكم القدرة على تهذيبها وتشذيبها وتوجيهها إلى محبة ما هو أهم منها، إلى محبة الأشياء الباقية بدلاً من الإغراق في محبة هذه الأشياء الفانية، فلم يطمس فيكم المحبة بل مكّنكم من توجيهها إلى حيث تستحق أن توضع دون عنت ولا إكراه.

إنه عز وجل يقول لكم إنكم تحبون هذه الدنيا فأذكّركم بأنها فانية منتهية وعلى عجل مهما طال عمر أحدكم فيها، وأذكّركم بذلك حتى لا تتركوا الآخرة التي تأتي يوم بعثكم وحشركم للحساب على أعمالكم في هذه الدنيا، أذكّركم حتى تعملوا لهذه الآخرة القادمة لأنها باقية خالدة ولا تفنى كما تفنى الدنيا.

أذكّركم بذلك وها هو القرآن بين أيديكم يتابع هذا التذكير صباح مساء.

أذكّركم بما ستكونون عليه يوم الحساب إذ تنقسمون بين أصحاب الوجوه الناعمة المشرقة التي تنظر إلى ربها في ذلك اليوم فتشعر بغاية الغبطة والسعادة، وبين أصحاب الوجوه الكالحة المسودّة التي ترى هول ما يحل بها مما يحطّم الظهر وفقراته ولا يقف عند إذابة اللحم والشحم من على عضلاته.

فهلّا اعتبرتم بالموت قبل أن يحل بكم؟

وانظروا إلى الميت منكم وهو يحتضر والروح منه تغرغر، وقد عجزتم عن الدواء

والشفاء، وتحقق وقوع الموت ومفارقة الدنيا واشتد الكرب ولم يبق إلا أن يوسَّد الميت في قبره ثم يبعث يوم القيامة ليساق إلى حساب ربه.

فماذا ينفعك يا أبا جهل ويا عدي بن ربيعة ويا الأخنس بن شريق ومن على شاكلتكم في تكذيب مجيء يوم القيامة؟

ماذا ينفعكم هذا التكذيب بيوم القيامة وقد كنتم تكذبون بيوم الدين وتكذبون معه بالقرآن وتعرضون عن طاعة الله تعالى في صلاة وغيرها؟!

ماذا ينفعكم وأنتم تتكبرون عن كلام الله تعالى وعن الإيمان به؟!

إنكم ستجدون جزاء ذلك أشد العذاب.

وكيف يقر أحدكم بالله خالقاً ورازقاً ومدبراً ثم يعبد الأصنام لتقربه من الله سبحانه؟! وكيف يظن أن الله تعالى الذي يميته لن يبعثه من قبره ليحاسبه على أعماله؟!

اعلموا أن القرآن يبشركم بالجنة ونعيمها للمؤمنين وينذركم بالنار وجحيمها للكافرين المكذبين.

فاذكروا ذلك واذكروا أن الواحد منكم كان قطرة من منيٍّ الرجل ثم ألقاها في رحم زوجته فتشكل الجنين ليستوي إلى إنسان سوي بعد أطوار نموه التي قضى الله تعالى عليه بها وقدر، وجعل منه الذكر والأنثى ليعيدوا بالتزاوج الكرة مرة أخرى بهبة الله تعالى وحده.

فاذكروا ذلك واعلموا أن من فعل ذلك كله بقدرته وقضائه قادر على بعثكم بعد إماتتكم ومحاسبتكم على أعمالكم.

دليل سورة القيامة ـ ٧٥

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ٤٠ آية.
- تبدأ السورة بالقسم بأن القيامة حق لا ريب فيه.
- ثم تعرض مشاهد من يوم القيامة مؤكدة قدرته تعالى على كل شيء.
- وبعدها تؤكد أن الإنسان عالم بنفسه وما يعتقد ويعمل مهما تبرر واعتذر.
- وتدعو الرسول عليه وآله وصحبه السلام بعدها ليتمهل في استقبال الوحي ولا يتعجل حفظ القرآن.
- وتحذر الإنسان من الاستغراق في محبة الدنيا ليكون من أصحاب الوجوه المشرقة يوم الحساب.

- وتنذره من الإصرار على الكفر والإعراض عن الإيمان بالله تعالى وبيوم الحساب ليكون من أهل الجنة.

فتبرز الأمور التالية :

١ ـ إن معنى ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ تأكيد للقسم وليس نفياً له.

٢ ـ إن القسم الثاني ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ حث وتحريض ليكون المؤمن من أصحابها على الأقل.

٣ ـ إن ذكر البنان وتسويته يوم القيامة ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾ جانب من الإعجاز الرباني في خلق الإنسان.

٤ ـ ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ۝١٤ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾ على إسقاط للتبرير والأعذار .

٥ ـ ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦﴾ دعوة للتمهل في حفظ القرآن وتركيز حفظه حتى لا ينسى بسرعة.

٦ ـ ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ۝٢٣﴾ استدلال بالرؤية غير دقيق لأن ذلك يستدعي تجسيد الرب لينظر إليه ويرى مجسداً اللهم إلا إذا غيّر المولى سبحانه قدرة الإنسان البصرية.. ثم إن كلمة ﴿نَاظِرَةٞ﴾تتحدث عن النظر والناظر ولا تذكر شيئاً عن المنظور إليه، هذا بالإضافة إلى الإجماع على رفض فكرة التجسيد أصلا.

سورة الإنسان (٧٦)

التقديم

تبدأ السورة بسؤال تقريري عن وقت وجود الإنسان بين الخليقة على الأرض، وأنه قد مضى عليه وقت طويل منذ خلقه الله تعالى.

وهل الحين في هذا التساؤل يقصد به زمن طويل أو سنوات معدودة؟

هذا ويفهم من أقوال المفسرين أنها سنوات طويلة هي نهاية خلق جميع المخلوقات، ولكن ماذا يفهم من ذكر الإنسان؟

هل هي معرفة المخلوقات الأخرى بوجوده مجرد وجود أو تكريمه وتمييزه عليها بحيث صارت تذكره وتشير إليه؟

إن ما يقرره القرآن الكريم أنه هو المخلوق الذي ارتضى حمل الأمانة الربانية من

بين جميع المخلوقات لتدل على أن الذكر، وأصبح مذكوراً، تشمل الأمرين معاً.. الوجود والدراية.

فقد خلقه تعالى بهذه القابليات والقدرات التي جعلته أهلاً لحمل أمانة التكليف، وأرسل إليه الرسل فبلغوه هذا التكليف، وأمره بالاختيار بين الشكر وبين الكفر وتحمل مسؤولية هذا الاختيار.

لقد عرض عليه بشكل واضح لا غموض فيه بيان هذا الاختيار وجزاءه، وأنه إن آمن بربه الذي خلقه وأطاعه في كل ما أمره به ونهاه عنه فقد أحسن الاختيار وأحسن العمل، وله جزاء الجنة ونعيمها، وإن أساء الاختيار والعمل فله جزاء النار وجحيمها.

وتوضح له السورة ما في النار وما في الجنة ليحسن الاختيار ويتحمل مسؤولية الاختيار ويلزم الحجة ولا يعذر على اختياره وأعماله بعدها.

وتذكّره بأن المولى سبحانه قد أنزل القرآن الكريم على رسوله المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم رسالة هدى ورشاد لكل من يختار الالتزام بها وإلّا فليتحمَّل سوء اختياره ويدسَّ نفسه في جهنم جزاء ظلمه لنفسه.

وتنتهي السورة بعد توبيخ أهل مكة الكفار منهم على سوء اختيارهم بإصرارهم على الضلال وعبادة الأصنام إلى دعوتهم للتخلي عن ذلك للهدى وإلا فسيزجُّوا في عذاب جهنم.

وتنتهي السورة أخيراً لإثارة العقول لحسن الاختيار.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ
نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ
سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا
عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾

بدأت مؤكدة أن الله تعالى قد خلق الإنسان، جنس الإنسان، بعد أن لم يكن له أيُّ وجود، وبعد أن خلق جميع مخلوقاته الأخرى.

وكأنه سبحانه وتعالى وقد خلقه في أحسن تقويم بالنسبة للمخلوقات الأخرى فقد جعله مسك الختام، وانتهى خلقه بهذا الشكل ليكون مذكوراً ومعروفاً ومشهوراً ومكرماً بين جميع المخلوقات لأنه خلق بهذا الشكل وفي هذه الحال.

فما هذا الشكل؟

إنه الشكل الذي أودع فيه من الخصائص والقدرات ما يمكنه من إدراك ما يعرض عليه إدراكاً عقلياً بحيث تختزن هذه المدركات في عقله ويسترجعها متى أراد وبالقدر الذي مازال يذكرها وتستطيع ذاكرته أن تسعفه لذكرها، وبحيث يستطيع أن يجري بينها المقارنات فيصل إلى الاختيار بينها في ضوء ما يظنه الخير كل الخير لنفسه، على الأقل في اللحظة التي تجري فيها المقارنات، حتى إذا ما جاءته لحظة أخرى تبيَّن له بمقارنات أخرى في ضوء ما استجد لديه من معلومات يستطيع إعادة النظر في اختياره ليعدِّل ويبدِّل ويغيِّر فيه أو يستقر عليه فلا يمسُّه بأيِّ تعديل ولا تبديل ولا تغيير.

فقد خلق المولى عز وجل الإنسان من خليط من سائل الرجل وسائل الأنثى بعد أن خلق أصله آدم من التراب.

ومن التمازج بين منيِّ الرجل وبويضة الأنثى يتكون الجنين في نطفة تحمل مجموعة من الخصائص المتوارثة عن الأبوين القريبين والبعيدين، هذه الخصائص تمكّنه عندما يصبح بعد ولادته سليماً معافى، تمكّنه بعد نضجه من أن يكون موضع تكليف واختبار بما يطلب منه من أوامر ونواه.

لقد منح الإنسان أول ما منح من تلك الخصائص السمع لما يقال له أو يصله بأيِّ وسيلة كانت، فيعمل بما سمعه عقله، فيدركه في ضوء ما لديه من معلومة واحدة أو أكثر عما سمعه، فيميزه، فيقرر ويحدد موقفه منه بالأخذ للتعامل معه بشكل من الأشكال النافعة له، أو بالترك وعدم التعامل معه ولو مؤقتاً وريثما يعود ويعرف عنه ما يعيده للتعامل به.

ومع السمع منح البصر الذي يرى به ما يعرض عليه أو يمر به من مخلوقات أخرى، فيقبل عليها أو يعرض عنها بناءً على معلوماته السابقة عنها وإصداره حكمه بحقها وبمدى ماله من نفع أو عدم نفع فيها.

وهكذا فقد يسَّر المولى عز وجل للإنسان في داخل ذاته وجود وسائط المعرفة وهي الحواس التي تنقل من الخارج إلى داخله كل ما يمرُّ به إما بهذه الحاسة أو تلك أو بأكثر من واحدة منها، فينقل هذا الشيء المحسوس إلى مركز الإحساس ألا وهو الدماغ مركز العقل والإدراك حيث تختزن المعلومات السابقة، فيقوم هذا المركز الموجود في

الدماغ السليم بالربط بين الواقع المحسوس الجديد والمعلومات السابقة المختزنة عنده ويصدر الحكم في حق الشيء الجديد بالأخذ أو الترك.

ولكن بالنظر لقصور هذه العملية إذ لا حكم بدون معلومات سابقة فلابد أن يعطى هذه المعلومات سلفاً، وهنا جاءت الآية الثالثة لتقول: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ فبدون هذه الهداية بإعطائه المعلومات التي في ضوئها يجري الربط ويصدر الحكم فلا مجال لصدور هذا الحكم وإجراء تصرف الأخذ أو الترك، الأخذ بالشكر والترك بالكفر.

وقد شحن الخالق سبحانه وتعالى نظر هذا الإنسان بالعديد من المعجزات والدلالات والبراهين الحسية التي ما إن يقع عليها سمعه وبصره حتى تنقل بالحواس إلى دماغه فيجري هناك عملية الربط ويصدر الحكم عليها بأنها دالة كل الدلالة على وجود خالق ومدبِّر لها.

وكل ذلك في ضوء ما لديه من مخزون سابق من معلومات، ولو لم يكن هذا المخزون موجوداً فلن يجري أيُّ ربط ولا حكم ويبقى الأمر مجرد أشياء وقعت عليها حواسه ويمرُّ عنها كما يمرُّ أيُّ مخلوق آخر ليس لديه العقل المفكر.

ولهذا أعطى المولى عز وجل المعلومات الأولى لآدم عليه السلام ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[البقرة: ٣١] التي بها أصبح قادراً على الحكم على الأشياء التي يحسُّ بها وتنقلها حواسه إلى دماغه، ثم أخذ ينزل هدايته بالوحي إما بالإلهام المباشر في اليقظة أو في المنام أو برسول يرسله إلى الإنسان فيتقبل الهداية أو المعلومة التي يريده الخالق أن يتقيد بها إما بالعمل أو بعدم العمل، أو بأن يكلمه الخالق سبحانه من وراء الحجاب فيفهم ويدرك ما يسمعه فيختزنه في دماغه ويعود ويتعامل معه.

وهنا التكليف والاختبار والابتلاء، هنا بعد إدراك ما يعطى له والقدرة على الحكم عليه، وبدون هذا الإدراك والعقل والفهم فلا تكليف ولا ابتلاء ولا اختبار.. ولذلك إذا كان الإنسان مجنوناً فقد سقط عنه التكليف والاختبار.

ولتحقق هذا الإدراك والفهم والعقل لما ينزله تعالى من الهداية لا بد من قوة عوامل الإدراك لديه، وهنا يأتي دور الحجج والبراهين العقلية التي تعرض على عقل هذا الإنسان أو ذاك، أو التي تصلح لعقل الإنسان كإنسان وليس لفرد واحد من بني الإنسان.

وهداية الخالق جاءت لبني الإنسان كلهم وليس لفرد من دون غيره.

وهكذا جاءت الهداية من الخالق سبحانه تربط دائماً بين الأوامر والنواهي من جهة وبين ما في هذا الوجود من مخلوقات تدل على وجود خالق ومدبر لها، هذا

الخالق يحدد بأوامره ونواهيه كيفية طاعته وعبادته، ويحدد معها جزاء المطيع وجزاء العاصي، جزاء المؤمن وجزاء الكافر.. جزاء من اختار الإيمان وبالتالي الطاعات، وجزاء من اختار الكفر وبالتالي المعاصي.

وبقدر ما يتوفر للإنسان العوامل المؤثرة في صغره فتجعله يتلقف الإيمان مبكراً، ويقويه من خلال العلم والمعرفة في كبره، بقدر ما يسهل عليه اختياره الإيمان والطاعات. وأما إذا لم يتوفر له ذلك في الصغر فهنا تأتي عوامل المعرفة والعلوم في الكبر: فإما أن تساعده أو يسعى من خلالها للوصول إلى الإيمان والطاعات وإما لا، وإما أن توصله إلى الإيمان الصحيح أو لا، وبالتالي الطاعات الصحيحة أو لا.

ومتى كان الإنسان غير متحجِّر على تقاليد آبائه، بغضِّ النظر عن صحتها أو خطئها، كان قادراً على الاختيار بيسر وسهولة متى عرضت عليه الهداية عند رشده ونضجه العقلي بشكل مثير وملفت للنظر.

وأما إذا عرضت بشكل مثير ومؤثِّر في اتجاه ولم تعرض بنفس الشكل في اتجاه آخر، فإنه قد يختار الاتجاه الأول ويترك الآخر وذلك تبعاً لقناعة عقله واطمئنان نفسه بما سمعه وعرض عليه بغض النظر عن مدى صحته أو خطئه.

وهنا جاء حرص القرآن للأدلة والدلالات، للأدلة العقلية والدلالات الحسية بشكل مثير ومؤثِّر ليجعل العقل غير المتحجر سهل الإقناع والاستجابة. وأما العقل المتحجر فإنه يحتاج للكثير الكثير من عرض تلك الأدلة والدلالات، وهكذا كثر وتكرر مثل هذا العرض، وبأشكال مختلفة، في القرآن والسنة، ليصل العقل إلى القناعة والاختيار.

ونرجع ونقول: إن المولى عز وجل قد خلق في الإنسان قابليات السمع والبصر وغيرها من الحواس، وخلق معها العقل في الدماغ وقابليته للإدراك والفهم والتمييز، جنباً إلى جنب مع اختزان المعلومات لتكون جاهزة عند الطلب للربط بينها وبين المستجدات وبالتالي إصدار الأحكام بالأخذ أو بالترك.

فقد جعلها إذاً على حال يستطيع الإنسان بها الاختيار بين السير في هذا الطريق الذي يحقق الإيمان ويلزم بالطاعات التي يقررها هذا الإيمان، أو السير في الطريق الآخر الذي يرفض هذا الإيمان وإنما يأخذ بإيمان آخر وبالتالي بطاعات أخرى.

ومتى اختار طريق الإيمان فقد اهتدى وسار في طريق الشكر للخالق الذي آمن به واعترف بنعمه عليه وفضله، ولكنه متى اختار غير هذا الطريق فقد ضلَّ وسار في طريق الكفر بالخالق والكفر بنعمه وأفضاله عليه.

وتذكر السورة بعدها ما أعدَّه الله تعالى، الخالق المدبر، للإنسان الكافر والإنسان المؤمن وذلك عندما يبعثه يوم القيامة ليحاسبه على اختياراته، فتذكر بأنه تعالى قد أعدَّ للكافر النار وما فيها من القيود والسلاسل والجحيم، بينما أعدَّ للمؤمن البار الطائع الجنة وما فيها من الشراب الطيب اللذيذ.

وبذلك فإن المولى عز وجل ينذر صاحب الاختيار الكافر من عاقبة اختياره لكي يعيد النظر في اختياره وإلا فليتحمل مسؤوليته، وقد أعذر من أنذر.

وتواصل السورة عرض بعض مشاهد أهل الإيمان والطاعات وما أعدَّ لهم من الجزاء الطيب فتقول:

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا
نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ
شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا
يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ
وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا
فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ
نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا
طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾

فانظروا يا من اخترتم الإيمان بالله تعالى خالقاً ومدبراً، وأقبلتم على طاعته وفقاً لما أمر ونهى، كيف أنكم تستحقون عنده ذلك الجزاء الطيب المبارك.

فأنتم توفون نذوركم في طاعته تعالى وابتغاء رضوانه، وتخشون عذابه يوم الحساب، ذلك اليوم الذي يمتد تدميره بأمر الله تعالى حتى لا تنجو منه السموات ولا الأرض ولا كل شيء فيهن ولا بينهن.

كما أنكم لا تترددون في إطعام الطعام لكل ذي حاجة مهما كانت حاجتكم إليه كبيرة أو تتقاسمونه معه سواء كان مسكيناً سائلاً لفقره أو يتيماً معوزاً لمعيله أو أسيراً محبوساً لفعله،

وأنكم لا تبغون من ذلك الإطعام أيَّ مقابل ولا شكر ممن تطعمونه وإنما الجزاء الطيب من رب العالمين،

وأنكم إنما تفعلون ذلك كله خوفاً من عذاب الله تعالى ربكم الذي يصيب به الكثير من الناس الذين اختاروا الكفر أو النفاق أو الفسوق على الإيمان وعلى الإخلاص والطاعة وذلك في ذاك اليوم الذي يشتد هوله وكربه من الحساب فيه حتى يتمنى الكافر أن يفتدي فيه نفسه بالأرض وما فيها لو ملكها، بينما ينجي الخالق سبحانه وتعالى فيه المؤمنين من كل عذاب ويمنحهم النضرة والبهجة والسرور، ويجزل عليهم الجزاء الخير بصبرهم على التكليف والاختبار والأذى والابتلاء في الطاعات وفي التبليغ،

فيدخلهم جنة النعيم ويكسوهم بالحرير من أنعم الثياب مقابل أخشن الصبر وأقساه، حيث يتوفر لهم من المقاعد الفخمة المريحة ما يستمتعون بها في جلوسهم وهم متقابلون دون أن يشعر أحدهم بحرٍّ ولا برد كما كان في الدنيا،

وحيث يجدون الثمار تتدلى عليهم قطوفها فتكون في متناول أيديهم وتحت رغباتهم،

وحيث لا يتكلفون البحث عن الطعام والشراب وإنما يقدمه لهم الولدان الخالدون في آنية من فضة وأكواب وقوارير منها الفضي ومنها الذهبي، ناهيك عن الشراب المطعم بالزنجبيل على أحسن ما تشتهيه النفس وهو نابع من عين السلسبيل في الجنة، أولئك الولدان المنتشرون كاللؤلؤ المنثور بانتظار رغبة وطلب المؤمنين فيتمتع بذلك كله المؤمنون وبأكثر منه مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وانظر إلى المؤمنين وهم يلبسون الحرير الناعم الأخضر والحرير الخشن ويتزيَّنون بأساور من الفضة والذهب.

إنه جزاؤهم بفضل الله تعالى عليهم بعد اختيارهم الطيب وعملهم الصالح.

وتنبِّه السورة مع خاتمتها إلى ما يأمر به تعالى رسوله عليه وآله وصحبه السلام والمؤمنين معه ومن بعده فتقول:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ
رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ
وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ
هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾

فانظر يا محمد كيف نزلنا عليك هذا القرآن منجماً حسب الوقائع ولم تأت به من

عندك، كما يزعم المشركون، وأنك قد علمت جزاء حسن الاختيار لمن يختار الإيمان والطاعات، وأنه ما عليك إلا أن تصبر كل الصبر أنت ومن معك ومن بعدك في الطاعات وعلى الابتلاءات وتوطّدوا أنفسكم على تحمل الأذى بصنوفه.

وعليكم أن تحذروا أن تطيعوا أيَّ آثم أو كفور من أمثال عتبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة وغيرهما ممن يدعونكم لترك ذلك لمال أو نساء يعرضونها عليكم فإنهم غارقون في الكفر والإثم والضلال.

واحرصوا على تقوية صلتكم بربكم بأداء الصلوات الخمس المفروضة وغيرها من النوافل.

وإياكم أن تبالوا بهؤلاء الكفار الذين أنستهم متعهم أنفسهم وتركوا العمل لآخرتهم مع أنهم خلقوا في أحسن خلقة ومنحوا قدرات الاختيار ولكنهم رفضوا الخير لأنفسهم بإغراء من شهواتهم وشياطينهم.

واحذروا غضب الله تعالى من الميل إليهم وهو القادر على إهلاكهم والمجيء بمن يطيعه بدلاً منهم.

واذكروا أن ما خلقكم الله تعالى عليه وخلقه لكم، ومحذِّركم منه، كل ذلك تذكرة لكم بين يدي عذاب شديد لمن أصرَّ على اختيار غير طريق الهدى ورفضه وسار مع الهوى.

واعلموا أنه تعالى قادر بأن يتدخل بقضائه وقدره فيفرض عليكم ما يشاء ولكنه تعالى قد حكم بقضائه وتدبيره أن يجعل لكم الإرادة والاختيار ليتحمل كل منكم مسؤولية اختياره.

فقد أحسن تعالى خلقكم وتمييزكم عن غيركم من خلقه، فاحذروا لعلمه بكل أعمالكم وأقوالكم وأنه محاسبكم على ذلك، فللمحسن الثواب والرحمة وللمسيء العذاب الأليم.

فعدله تعالى لا تحدُّه حدود ولكن رحمته بمحسني الاختيار غلبت عدله.

فهل من متدبر؟!

وهل من حريص على حسن الاختيار؟!

دليل سورة الإنسان ـ ٧٦

ـ إنها سورة مدنية، وأنزلت في ٣١ آية.

- تبدأ السورة بتقرير سؤاليٍّ أن وجود الإنسان ومعرفته ودرايته بالأشياء قد جاء بعد وقت طال أو قصر من خلق المخلوقات الأخرى.

- ثم تشير إلى خلق الإنسان بقابليات الهدى والضلال ليتمكن من حمل أمانة التكليف ويكون أهلاً للمحاسبة عن اختياراته.

- ثم تعرض عليه ليحسن الاختيار ما في الجنة وما في النار ليلزم الحجة.

- وتؤكد أنه لا هدى إلا بما في القرآن وسنة المصطفى عليه وآله وصحبه السلام.

- وتنتهي بتوبيخ مشركي مكة لسوء اختيارهم بإصرارهم على الشرك، وتدعوهم للتخلي عن ذلك للهدى وحسن الاختيار.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ فللإنسان الاختيار بين الشرك والكفر وبالتالي الحساب على ذلك فلا جبر ولا تفويض وذلك بعد أن وضعت الهدى بين يديه فعرفه وعرف الضلال لأن الشيء بالضد يعرف.

٢ ـ صحيح بأن النذر لا يستخرج إلا من بخيل مما يستدعي النهي عنه ولكن إذا ألزم إنسان نفسه بنذر لوجه الله تعالى فيجب الوفاء به لأنه يكون موضع مدح من الله تعالى ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾.

٣ ـ ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ صورة جذابة للجنة إذ لا حرَّ فيها ولا برد، وهذا مما يدل على أن العذاب في النار منه أصناف بالنار وحرِّها ومنه أصناف بالجليد وزمهريره.

٤ ـ ما زال الأمر بمتابعة أداء العبادات وعلى رأسها الصلاة والتسبيح مستمراً للمرحلة المدنية كما كان في المرحلة المكية دون انقطاع مما يجزم بحاجة المسلم للشحن بالقوى الروحية العالية في المرحلتين لأن لكل متاعبها وتضحياتها ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ۝٢٦﴾.

٥ ـ ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝٢٩﴾ فللإنسان المشيئة في اختيار العمل بهذا القرآن فينال جزاء الجنة أو اختيار رفضه وله جزاء النار بغضِّ النظر أن مشيئته كإنسان مخلوق لا تخرج ولا تضادُّ مشيئة الله الخالق ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ لأنه سبحانه قادر على التدخل في كل لحظة وفرض قضائه على الإنسان وإلغاء مشيئته.

سورة المرسلات (٧٧)

التقديم

قال ابن مسعود: نزلت ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ۝١﴾ على النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ليلة الجن ونحن معه نسير حتى آوينا إلى غار بمنىً فنزلت.

تبدأ السورة بالرياح على أوضاعها المختلفة، ثم تأتي للقسم بالملائكة التي تبلّغ كتب الله تعالى لأنبيائه، إعذاراً لخلقه وإنذاراً.

تقسم السورة بذلك ليؤكد المولى عز وجل للبشر جميعاً بأن يوم القيامة لا بد واقع بعلاماته القاطعة في السماء وفي الأرض.

وتشير السورة إلى الموعد الذي أجلت إليه رسل الله تعالى وأنباؤه للفصل بينهم وبين أممهم.

وتنتقل بعدها لتذكير العرب، وما هم عليه من الكفر، بما حل بالأمم السابقة من الهلاك بسبب تكذيبهم وطغيانهم، وإنذارهم بأن ذلك هو ما يحل بالمجرمين ممن هم على شاكلتهم.

وتقف ملية مع تذكيرهم بشكل ملفت للنظر بحقيقة الواحد منهم عندما خلق من ماء النطفة الحقير. . . فكيف يتعالى على خالقه ويستكبر على الإيمان به وطاعته؟!

وتذكّرهم بمصير كل منهم إلى الموت والدفن في هذه الأرض ثم الإحياء يوم القيامة والحشر والحساب يوم الحساب.

وتذكّرهم بقدرة الله تعالى على ذلك وهو الذي خلق هذه الأرض وجعل فيها هذه الجبال الراسيات والأنهار الجاريات. . . وأن من يكذّب بذلك فلينتظر النار وعذابها يوم الحساب.

وتسلط الضوء على هول يوم القيامة والنار التي يزج فيها الكافرون المكذبون في ذلك اليوم الذي لا كلام فيه ولا شفاعة إلا بإذن الله تعالى، يوم الجمع بين الخلائق وأنبيائهم.

يوم الفصل بين الخلائق بالحكم بينهم وإظهار المحق من المبطل، يوم يتمتع المتقون فيه بأشكال من النعيم الخالد، ويحترق الكافرون بأصناف من العذاب الأليم المقيم.

وتنتهي السورة إلى توجيه الإنذار للمكذبين إذا استمروا في التكذيب ورفض الإيمان.

فهل بعدئذ من إعذار؟!

التفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (٧) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠) وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (١١) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (١٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٥)﴾

فانظروا أيها المكذبون بيوم الدين، بيوم القيامة، انظروا إلى المولى عز وجل وهو يقسم بالرياح وتتابعها، بالرياح وهبوبها الشديد، بالرياح ونشرها للسحاب، بالرياح وأمطارها، بالرياح وتفريقها للسحاب والأمطار بين البلاد والعباد.

بالملائكة وإلقائها إلى الأمم ما أنزله تعالى على رسله ليكون إعذاراً من الله تعالى وإنذاراً من عذابه تعالى للعصاة منهم.

انظروا إلى هذه الأيمان بما يلفت النظر، ويستشعره الحس، ويدركه العقل، ويذكر أهميته وفضله.

انظروا إليها وهي تؤكد بأن ما يتوعدهم الله تعالى به من يوم الحساب لابد واقع، واقع في ذلك اليوم الذي يرون فيه كيف أن العلي القدير يطمس نور النجوم فلا يعد يرى لها وجود، ويشق السماء ويطويها على غير ما كانت عليه، وينسف الجبال فيزيلها تماماً من على وجه الأرض.

في ذلك اليوم الذي حدده للجمع بين الرسل وأممهم ليفصل بين كل منهم في موعده.

في ذلك اليوم الذي يرون فيه هول الفصل بين العباد، فيرى المكذبون ما وعدوا به من العذاب الأليم سواء بوادي الويل أو غيره من صنوف العذاب في جهنم.

في ذلك اليوم الذي لا يملك الكافرون المكذبون إلا الإقرار به بعد تكذيب.

وبعدها يتوالى التهديد والوعيد للكفار فيقول المولى عز وجل:

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾

فانظروا يا أصحاب العقول إلى ما حصل في الأمم السابقة من الهلاك جزاء كفرهم وتكذيبهم لرسلهم وطغيانهم.

انظروا في ذلك لتروا أن الله تعالى لم يستثن أمة منهم فعلت ذلك، فاحذروا يا مشركي مكة ذلك.

احذروا الهلاك بعذاب من عند الله تعالى أو بأيدي المؤمنين في الدنيا، وأما يوم القيامة فالعذاب سيكون أشد وأنكى.

وانظروا إلى ما خلق الله تعالى الواحد منكم منه؟

لقد جاء من نطفة حقيرة يلقيها الرجل في رحم زوجته حيث تبقى في ظلماته فترة الحمل ثم يخرج من بطن أمه مخلوقاً كاملاً قد قضى الله تعالى عليه ما قضى من الأعمال التي لا يملك جلبها ولا دفعها، كما قضى وقدر فيه الكثير من الخاصيات والقابليات والقدرات التي تمكّنه من استقبال التكليف والاختيار وتحمل عبء الأمانة التي رضي بحملها لأنه خلق على هذا الشكل من القدرة على الاختيار بين طريق الهدى وطريق الضلال، والويل كل الويل لمن يختار الضلال على الهدى.

وانظروا كيف جعل الله تعالى الأرض تضم الأحياء على ظهرها والأموات في باطنها، وثبتها بهذه الجبال العالية، وأنزل عليها وعلى بقية مناطق الأرض الأمطار العذبة ليستقي منها الأحياء بدءاً بكم أيها البشر ومروراً بأغنامكم وانتهاء بمزروعاتكم، فكيف تكفرون بهذا المنعم المتفضل عليكم بكل هذه النعمة وتكذبون برسالته إليكم؟!

هاهو يوم الحساب الذي كنتم تكفرون به وتنكرون احتمال قدومه قد جاء، فهلموا إليه، وانظروا إلى ظل النار ودخانها وهي تنفث به في شعب ثلاث وأنتم لا تجدون ما يظلكم ولا يحميكم من ذلك اللهب شيئاً، وأنتم تجدون فيه شرر النار الذي يتطاير بعيداً رغم ضخامة حجمه، انظروا إليه لتروا لونه الأسود من شدة حرارته.

فهلا أنقذتم أنفسكم من هذا المصير المشؤوم الذي ينتظر الكافرين المكذبين، وانتهيتم عن هذا التكذيب بالله ورسوله وبهذا اليوم الذي لا يسمح فيه لأحد منكم أن يتكلم ليعتذر عن كفره وعصيناه، أو يطلب الشفاعة من أحد، وإنما سيكون بانتظاره الويل والعذاب الشديدان جزاء كفره وتكذيبه ورفضه سماع التحذير والإنذار من هذا كله.

انظروا لتروا كيف أن الله تعالى يفصل في هذا اليوم بين الحق والباطل، بين أهل الإيمان وأهل الكفر ليس فقط في أمتكم بل في جميع الأمم السابقة واللاحقة..

انظروا لتروا كيف يجري توبيخ الواحد منكم على مكره وكيده في الدنيا، فيقال له: أين مكرك، أين كيدك، فلتأت بهما لينجياك مما انتهيت إليه؟ !

إنه الويل والعذاب الشديدان بانتظاركم إذا أصررتم على الكفر والتكذيب.

ويختم المولى عز وجل السورة بالمقارنة بين ما للمتقين والمجرمين يوم الدين من نعيم وعذاب.. فيقول:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

فانظروا أيها المؤمنون المتقون الصالحون إلى ما ينتظركم يوم الدين؟

إنكم ستجدون ظل رحمة الله تعالى تحفُّ بكم أثناء الحساب بحيث لا تشعرون بهوله.

وانظروا إلى الكافرين والشمس تقترب من رؤوسهم فيشعرون بحرارتها الشديدة وهي تكويهم.

وانظروا أيها المؤمنون وأنتم تتمتعون بالمياه الجارية من عيون الجنة العذبة، وفواكهها الشهية اللذيذة، فكلوا وتمتعوا بذلك أيَّة متعة،

وانظروا أي: الكافرون إلى ما يتمتع به أمثالكم من المياه الحارة التي تغلي في البطون، وبثمار الزقوم الشديدة المرارة، فأيَّة متعة هذه وأيُّ نعيم سعيتم إليه بإجرامكم وتكذيبكم؟!

إنه الويل والعذاب الذي اخترتم بكفركم وطغيانكم.

انظروا أيها المجرمون إلى حالة من يؤمر في الدنيا بالصلاة طاعة لله تعالى دون هذه الأصنام والمعبودات الباطلة التي تعبدونها ولكنه يرفض ذلك ويصرُّ على عبادة أصنامه ومعبوداته الزائفة،

وانظروا إليه وهو يرفض جميع الطاعات التي حددها رب العالمين له ويصرُّ على طاعة أهوائه وشهواته.

وهو يصدُّ غيره عن طاعة الله ويتفنن في تعذيبه.

إنه يجد الآن الويل والعذاب الأليم بانتظاره جزاء منكر وشنيع أفعاله.

فكفوا عن ذلك يا مشركي العرب، يا مشركي البشرية، وآمنوا بالله تعالى ورسوله وكتابه واليوم الآخر تفتدوا أنفسكم من هول ما ترون.

دليل سورة المرسلات ـ ٧٧

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ٥٠ آية.
- يقسم المولى سبحانه في بداية السورة بالرياح والملائكة بأن يوم القيامة آت لا محالة.
- ثم تذكّر مشركي العرب بما حل بالأقوام السابقين من هلاك نتيجة كفرهم وإفسادهم ليحذروه.
- وتذكّرهم بحقيقة خلق الواحد منهم من نطفة ضعيفة مما يستنكر عليهم الكفر بخالقهم.
- و تذكّرهم بمصير كل منهم إلى الموت ثم البعث والحساب لتدعوهم للاستعداد لذلك.

- وتذكّرهم بقدرته تعالى على ذلك كله وقد خلق الأرض وجبالها وأنهارها فلم التكذيب؟

- وتنذرهم بهول عذاب يوم الحساب لكل كافر مكذب وتبشر بالنعيم كل مؤمن تقي.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ تؤكد السورة ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ بيوم الحساب بإيراد الكثير من أهوال ذلك اليوم الذي يفصل فيه بين العباد فيرى الحق والباطل في كل ما عمله.

٢ ـ كادت السورة تكون كلها لولا تمهيدها إنذاراً وتحذيراً من يوم القيامة فما تكاد تذكّر المشرك بشيء من المخلوقات وما هي عليه من الضعف والهوان حتى تهدد من يكذب بيوم الحساب ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾.

٣ ـ إن المقارنة بين حال جهنم ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ وحال الجنة ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾﴾ تستثير كل ذي لبٍّ ليختار ويحسن الاختيار.

٤ ـ إن في مثل هذا الوقوف مع يوم القيامة وأهواله دعوة حارة للإيمان به من جهة ولرجال الدعوة لبيانه والإنذار به من جهة أخرى بقول ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾﴾.

سورة النبأ (٧٨)

التقديم

تبدأ السورة بالإشارة إلى تساؤل قريش فيما بينهم عن خبر يوم القيامة الكبير، وانقسامهم بصدده بين مصدق ومكذب.

وتذكّرهم بعدها بقدرة الله تعالى على البعث كما هو سبحانه وتعالى قادر على الخلق.

وتذكّرهم بإقرارهم بأنه تعالى هو الخالق لهذا الوجود كله، فكيف ينكرون أنه قادر على بعثهم؟!

وتقف بشكل مثير للعقول للتفكير والتدبر مع ما خلق تعالى مما يرونه بعيونهم ويلمسونه بحواسهم ويعيشونه في حياتهم فتقول لهم:

انظروا في هذه الأرض كيف مهدها لكم خالقكم وجعل لكم فيها هذه الجبال، وخلقكم في أصناف مختلفة، وجعل لكم الراحة في النوم والكدِّ والعمل في النهار.

وانظروا في هذه السماء وقد جعلها سبعاً وخلق فيها الشمس وسخرها تعالى بضوئها ودفئها لخيركم، وأنزل منها المطر لمنافعكم الكثيرة.

وتأتي السورة بعدها لتذكّر البشر كلهم بأن هذه الأرض وهذه السموات وما فيها وما بينهما كله إلى فناء ونهاية يوم القيامة، يوم الفصل المحدد عند الله تعالى وحده، يوم يساق الناس جماعات للحساب، يوم تتغير السموات وتختفي الجبال بقدرته تعالى.

يوم تكون جهنم بالمرصاد والترقب للكافرين، ومرجعاً ومآباً للطاغين، حيث يتأبدون فيها بعذاب دائم جزاء كفرهم وتكذيبهم.

يوم تكون الجنة بانتظار المتقين الصالحين، حيث يخلدون في أنواع كثيرة من نعيمها.

يوم لا يملك أحد الكلام ولا الشفاعة إلا بإذن الله سبحانه وتعالى إذا كان مؤمناً.

وينهي المولى عز وجل السورة بالإنذار الشديد لكفار قريش ومشركي العرب ومن على شاكلتهم إلى يوم الدين بالعذاب القريب، عذاب جهنم المحتوم.

عذاب من الشدة يتمنى معه الكافر أن لو لم يكن هو موجوداً.

فأيُّ إنسان يملك القدرة على التفكير والاختيار يرضى لنفسه هذا المصير المشؤوم؟!

وأيُّ عاقل يستمر على تكذيبه وطغيانه مفضلاً بهما الجحيم على النعيم؟!

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ (١) عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ (٢) ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ
(٥) أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا (٦) وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩)
وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا
(١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا (١٤) لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا (١٦)﴾

فانظروا يا كفار قريش عن أيِّ شيء تتساءلون فيما بينكم؟

وهل تتساءلون عن الخبر العظيم، عن النبأ الكبير، عن يوم البعث؟

فلماذا تنقسمون في شأنه بين مصدق به ومكذب؟

اعلموا علم اليقين بأن يوم القيامة قادم لا محالة، فدعوا تكذيبكم به، وأقبلوا على الإيمان به، واستعدوا بحسن الأعمال والطاعات له.

واذكروا ما تؤمنون به بأن الله تعالى قد خلقكم، وخلق هذه الأرض وما جعل فيها من خيرات وعليها من سهولة للسير وطلب الرزق.

اذكروا أنه تعالى قد خلق فيها هذه الجبال لتكون أوتاداً مثبتة لها من أن تميد أو تتحرك بكم.

اذكروا أنه تعالى قد خلقكم على أصناف متعددة من الجنسين الذكور والإناث، ومن الأطوال، والألوان، والألسنة، وخلقكم على هذه القابلية للنوم لترتاح أجسادكم في الليل وتسعى وتكد وراء طلب الرزق في النهار.

اذكروا أنه تعالى قد خلق من فوقكم هذه السموات السبع وعلى هذا الشكل المحكم الدقيق، وخلق فيها الشمس سراجاً متَّقداً يقدم لكم المنافع الكثيرة بضوئه ودفئه، وأنزل منها المياه العذبة يوزعها بالسحب على الأرض فتزرعون وتستقون منها، وتنبتون العديد من النباتات والكثير من المزروعات، وتشرب أغنامكم منها كما تشربون، وتأكل من الزرع والنبات كما تأكلون.

فاذكروا أنكم إذا كنتم تقرون بالله تعالى خالقاً ومدبراً لهذا كله فكيف لا تقرون بقدرته تعالى على إعادة إحيائكم وبعثكم وحسابكم؟!

ويعرض المولى عز وجل بعدها في السورة مشاهد مذهلة من يوم الحساب، وما فيه من النعيم المقيم للمتقين، والعذاب الأليم للكافرين.. فيقول:

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا
﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ
أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟
لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ
إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ
فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ ۖ لَا
يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا

﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ
مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴿٤٠﴾

فانظروا أيها المشركون إلى ما يجري يوم القيامة؟

إنكم ترون ما إن ينفخ في الصور نفخة البعث حتى تنشق الأرض فيخرج منها الموتى ليساقوا جماعات إلى الحشر والحساب، فيفصل بينهم تعالى بين أصحاب الحق وأصحاب الباطل.

إنكم ترون في ذلك اليوم كيف تنشق السماء كأنها كلها أبواب وتنتشر الملائكة على أرجائها.

إنكم ترون كيف تنسف الجبال وتسوَّى بالأرض، ويساق الخلق بيسر للحساب، وتقتصُّ الأنعام من بعضها ثم تحال إلى تراب.

إنكم ترون كيف تترصد جهنم كل المخلوقات المكلفين وهم يمرُّون عليها فيتلقف خزنتها الكافرين ويلقونهم في قعرها بينما يمرُّ عنها المؤمنون إلى جنات النعيم.

إنكم ترون أن جهنم هي مرجع ومأوى لأولئك الطاغين الفاسقين الذين يمكثون فيها من حقب إلى حقب أبد الآبدين دون أن يجدوا ما يذوقونه من نوم ولا طعام ولا شراب غير الماء الحار والقذر الخانق جزاء أعمالهم السيئة ومعتقداتهم الفاسدة الباطلة وصدهم عن الإيمان وعن طاعة الله ورسوله.

كيف لا وهم الذين كانوا لا يخافون بل لا يأبهون بعذاب يوم الحساب ولا يعترفون به ويكذبون بكل ما أورده المولى عز وجل من الآيات والدلالات والبراهين والأحكام والمعجزات.

لقد كانوا يظنون أن الله تعالى لا يعلم سرَّهم ونجواهم مع أن الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم قد أنذرهم من ذلك كله وبشرَّهم في نفس الوقت بالجزاء الطيب لمن يتجنب هذه المفاسد من المعتقدات والأعمال.

إنكم عندها ترون كم كان تبعاً لذلك حرياً بهم أن يُعملوا عقولهم ليصلوا للحق الواضح البين الذي لا مراء فيه، ولكنهم استمروا على إصرارهم وعنادهم فأوقعوا أنفسهم في هذا العذاب، في هذا العقاب العادل والمتفق مع كفرهم وطغيانهم.

وانظروا إلى المتقين الفائزين بجنات النعيم وهم يتمتعون بما فيها من حدائق وبساتين، وجنات من الأعناب والفواكه، ونساء من الحور العين مع نسائهم من الدنيا،

وكلٌّ في سن الثلاثة والثلاثين، ويتمتعون بكؤوس الخمر الخالية من كل غول وتأثيم، ولا يسمعون ولا يقولون إلا الكلام الحق.

فلماذا كل هذا؟

إنه جزاء لهم وعطاء كثير بقدر طيب أعمالهم من خالق السموات والأرض الذي لا يملك أحد الكلام عنده ولا الشفاعة إلا بإذنه وذلك عندما يصطف الملائكة وفيهم جبريل صامتين إلا من يأذن له بقول الحق والتوحيد.

في ذلك اليوم الواجب الاستعداد والعمل له بالإيمان والطاعات.

ذلك اليوم الذي ينذر فيه تعالى بالعذاب الشديد الأكيد لكل متكبر جبار.

ذلك اليوم الذي يرى فيه الكافر أعماله السيئة فيتمنى لو لم يخلق من قبل.

دليل سورة النبأ ـ ٧٨

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ٤٠ آية.

- تبدأ السورة بتقرير مجيء يوم القيامة الحتمي بدلالة قدرته تعالى على ذلك بخلق وتدبير السموات والأرض ومن وما فيهما.

- ثم تؤكد بأن كل هذه المخلوقات إلى فناء قبيل يوم القيامة، يوم حساب الكافرين للخلود في الجحيم والمؤمنين للخلود في النعيم.

- وتنتهي السورة بإنذار مشركي العرب بالعذاب الشديد الذي يجب على كل عاقل مفكر التخلص من الوقوع فيه.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ إن النبأ قد يلحقه التصديق أو التكذيب ولكن نبأ حتمية مجيء يوم القيامة لا يلحقه إلا الصدق لأن المولى سبحانه وتعالى يقطع بحتمية حدوثه ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢﴾.

٢ ـ إن الاستدلال بحركة النبات من حبوب إلى نباتات وبالعكس يعطي الشواهد المحسوسة على البعث ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥﴾.

٣ ـ إن عدل الحكم يظهر بأجلى صوره عندما يتطابق العقاب مع نوع الذنب ﴿جَزَاءً وِفَاقًا ۝٢٦﴾.

٤ ـ ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ و﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢﴾ فالروح في الأولى هو جبريل عليه السلام فلا غرابة أن يصطفَّ مع الملائكة يوم الحساب وأما ربك

في الثانية فكيف يتصور تجسيد الرب ولو بجسم من نور يشبه ما عليه الملائكة المخلوقة؟ إنه لا شك أن المقصود هو اصطحاب نور من الرب دال على عظمته وهو الذي يجيء بصحبة الملائكة.

٥ ـ ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ فيرى المؤمن والكافر حصيلة سعيه المتمثلة في كتابه الذي يحمله إما في اليمين وإما في الشمال، ولذلك يتمنى عندها الكافر أنه من نوعية الدواب التي تحال إلى تراب بعد الحساب بدلا من الإدخال في جهنم كإنسان كفر وعصى فاختار بسوء اختياره هذا المصير المشؤوم.

سورة النازعات (٧٩)

التقديم

تبدأ السورة بالقسم من المولى عزل وجل بمجموعة من مخلوقاته، وله سبحانه أن يقسم بما شاء.

يقسم بالملائكة التي تنزع الأرواح بشدة وتقوم بذلك بهمة ونشاط طاعة لله تعالى، وتحملها سابحة بها في ملكوت الله تعالى، فتسبق بعضها بعضاً.

يقسم المولى عز وجل بذلك ليؤكد لخلقه قدرته على بعث الخلق بعد أن أماتهم، وبعد أن نزعت الملائكة الموكلة بهم أرواحهم.

يؤكد لهم ذلك وهو يدعو الكافرين للكف عن إنكاره وتكذيبه.

وتنتقل السورة بعدها لتسلية الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام بسبب تكذيب قريش والعرب له.

إنها تذكّره بما وقع مع أخيه موسى عليه السلام وتكذيب فرعون وقومه له وطغيانهم في التكذيب والعصيان على أوامر الله ونواهيه حتى أغرقهم الله تعالى جزاء إجرامهم وطغيانهم.

وتأتي السورة من ثم إلى تهديد أهل مكة لكفرهم وطغيانهم بأنهم مهما تعالوا واستكبروا فإن الله تعالى سيميتهم ثم يبعثهم للحساب يوم القيامة.

إنهم أمام قدرة الله تعالى أقل بكثير في إماتتهم وبعثهم من خلقه عز وجل للسموات والأرض وما فيها.

فليتذكروا ذلك وليعتبروا.

وتواصل السورة وعيدَ المولى عز وجل فينبِّه سبحانه وتعالى إلى ما سيحل بالكفار لكفرهم يوم القيامة عندما يساقون إلى جهنم.

إنها تنبِّه إلى الفرق في ذلك بينهم وبين المتقين الذين يساقون إلى الجنة بأعمالهم وبرحمة من الله تعالى وفضل.

و يختم المولى عز وجل السورة بالإجابة على تساؤل مشركي مكة استهزاءً بموعد القيامة وبقدومها الحتمي، وبالتأكيد لهم بأن علم ذلك إلى الله تعالى وحده.

إنها تؤكد لهم بأنهم لا حاجة بهم لتكرار طلب معرفة موعدها، وأنه يكفيهم أن يعلموا أنها متى قامت وهم قد ماتوا على كفرهم وطغيانهم فإنهم سيرون الدنيا بسنواتها التي عاشوها كأنها يوم واحد.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا
﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ
أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ
زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾

فتبدأ السورة بقسم المولى عز وجل بالملائكة الذين ينزعون بشدة أرواح الكافرين، وينشطون في ذلك أيَّما نشاط كجزء مما يستحقونه لكفرهم.

انظروا إليهم وهم يسبحون بأرواح المؤمنين برفق ومودَّة وإن كانوا يتسابقون فيسبق بعضهم بعضاً في سرورهم بحملها كجزء طيب مما ينتظرهم بإيمانهم.

إنها ملائكة تقوم في ذلك بأمر الله تعالى الذي أوكل لها هذه المهمة، مهمة نزع أرواح الفئتين على خير ما يكون عليه الأمر والتدبير.

بهذا القسم يؤكد المولى عز وجل لخلقه عامة وللكافرين خاصة بأنه متى حان موعد البعث فإنه سبحانه وتعالى يحدثه فيعيد كل تلك الأرواح إلى أصحابها سواء كانوا مؤمنين أو كافرين ثم يبعثهم من قبورهم ويساقون بعده للحساب.

فانظروا أيها الناس إلى شيء مما يجري في ذلك اليوم:

إن الأرض لترتجف بزلزالها، فتتشقق القبور عن أصحابها بعد الصيحة الثانية، وبعد أن يكون قد هلك كل من عليها بعد الصيحة الأولى.

وانظروا إلى حال الخلق وقد سيقوا للحشر والحساب.

فماذا ترون؟

ترى قلوبهم كلهم وقد كادت تنخلع من مواضعها خوفاً وهلعاً.

ترى أبصارهم وقد انكسرت ذلاً ورعباً.

كيف لا وقد رأوا بأعينهم ما أنذروا به وكذبوه في دنياهم عندما كانوا يستبعدونه إذا بليت عظامهم، ولكنهم الآن باتوا يتأكدون صدقه ويرددون ما ينتظرهم من خسران وعذاب الجحيم جزاء فعلتهم.

كم كان أولى بهم لو صدَّقوا كلام الرسول الذي لم يعهدوا عليه الكذب.

ها هم يبعثون وهم يتوقعون كالمؤمنين هذه الصيحة وما يتبعها من حساب.. ولكن.

وتتحدث بعدها السورة عن جانب من قصة موسى عليه السلام مع الطاغية فرعون... فتقول:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾﴾

فانظر يا محمد إلى ما حصل مع أخيك موسى عندما دعاه ربه وهو بالواد المقدس في سيناء للذهاب إلى الطاغية فرعون في مصر.

ها هو يعرض عليه أن يطهِّر له نفسه بالهداية والإيمان والتقوى.

فماذا فعل؟

لقد كذَّب الدعوة ورفض الاستجابة للإيمان بالله تعالى ولم يبال بالبينات والمعجزات التي عرضها عليه من اليد والعصا في البداية ثم بسبع معجزات أخرى فيما بعد.

ولم يكتف بذلك حتى أخذ يحشد كل طاقاته وسحرته ليعلن لقومه بأنه لا إله

غيره، وأن كل ما يدعوهم إليه موسى كذب، وأنهم ما أسرع ما كانوا يعودون إلى كفرهم بعد كل ابتلاء يرفعه تعالى عنهم.

ها هم كعادتهم يعدون أن يؤمنوا إذا رفع العذاب عنهم.

ولكنهم يعاندون ويصرُّون على الكفر والطغيان حتى يأخذهم تعالى بالغرق عن آخرهم ويجعلهم عبرة وأيَّ عبرة لكل من يتعظ ويعتبر.

فهلّا أدرك المشركون أن قدرة الله تعالى على فرعون وطغيانه قريبة من أمثاله من المشركين والكفار العتاة.

فاطمئن يا محمد لقدرة ربك وتدبيره، وأنه لا بد ناصرك عليهم.

وتعود السورة لتخاطب مشركي مكة ومن على شاكلتهم إلى يوم القيامة فتقول:

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾

فهل أنتم يا مشركون أقوى وأعظم في خلقتكم التي خلقكم تعالى عليها من هذه السماء التي بناها دون عمد ترونها، وجعلها بهذا العلو والبعد الشاسع، وبهذا النظام الكوني البديع؟!

انظروا لتروا الليل كيف يظلم عليكم، ويتبعه النهار الذي يملأ الدنيا نوراً عليكم وذلك بفعل سنة الله تعالى في دوران الأرض حول نفسها، وتروا الفصول الأربعة من صيف فخريف فشتاء فربيع بفضل سنة الله تعالى في دوران الأرض حول الشمس.

وانظروا إلى هذه الأرض التي خلقها تعالى بهذا الشكل الذي ييسِّر بانبساطها وتتابع تضاريسها عليكم الحركة عليها للوصول إلى خيراتها سواء كانت مما ينبع من ينابيع منها أو يكسوها من مروج وأعشاب وخضار وأشجار يعجز الإنسان عن إحصائها.

إنكم سترون هذه الجبال التي خلقها عليها لتستقر على حركة ثابتة دائمة تحفظ عليها مناخاتها وبالتالي إحياءها حسب توزيعها الجاري مما يحقق اليسر لكم والتمتع الدائم بها، وبأنعامها وبمختلف أنواع خيراتها.

فكيف ترون بعقولكم أيها المشركون أن قدرة الله تعالى على ذلك كله تعجز عن بعثكم ومحاسبتكم؟!.

وتأتي السورة بعدها لعرض مشهد يوم الحساب.. فتقول:

﴿فَإِذَا جَاءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾

مبينة أنه ما إن تجيء الداهية العظمى التي يكون معها البعث بعد النفخة الثانية حتى يتذكر الإنسان كل ما عمل من أعمال في حياته، خيراً أو شراً، ويستحضر الجحيم التي تظهر وهي تتلظى أمام كل مبصر فيعرف الكافر مصيره، ويدرك المؤمن نعمة الله العظمى عليه بإنقاذه منها، وهو يرى أن كل كافر أعرض عن رسالة الإيمان والطاعة، وفضل على ذلك متع الحياة الدنيا الفانية، يهوى به في الجحيم، بينما يرى كل من آمن وعمل بإيمانه، والتزم طاعة ربه، وحكَّمها في هوى نفسه، يأوي إلى الجنة.

وصدق الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في حق زماننا عندما قال لأصحابه: أنتم في زمان يقود الحق الهوى، وسيأتي زمان يقود الهوى الحق.

وهانحن في هذا الزمان والعياذ بالله مما يجري فيه، وممن هم سبب ذلك كله.

والجدير بالذكر أن هذه الآيات وإن نزلت في حق مصعب بن عمير رضي الله عنه وأخيه عامر الكافر، فإنها تنطبق على كل من هو على شاكلة مصعب الذي كان يحكّم الشرع في الهوى بينما كان أخوه عامر الكافر يحكّم الهوى في الشرع.

ويختم المولى عز وجل السورة بالإشارة إلى سؤال المشركين للرسول عليه وآله وصحبه السلام عن وقت الساعة، فتقول:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾

هاهم يسألونك يا محمد، صلى الله وسلم عليك وعلى آلك وأصحابك، عن موعد مجيء الساعة، يوم القيامة، يسألونك عن ذلك لا سؤال المستفسر ليعلم وإنما سؤال الساخر المستهزئ.

وها أنت يا رسول الله، عليك وآلك الصلاة والسلام، تكرر السؤال لربك ليعلمك بذلك، فأخبرهم يا محمد بأن موعدها لا يعلمه إلا الله تعالى وحده، وأنه لا عليك يا رسول الله من ذكرها والسؤال عنها، فدعك من ذلك مهما أكثروا عليك من السؤال والإلحاح فيه.

واعلم أن مثل هذا التشديد منهم في السؤال مستنكر عليهم وهم يعلمون أنك لاتعلمها، وأن إلى الله تعالى وحده منتهى علمها، وأنه لا يوجد عند غيره علم بها ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾[الأعراف: ١٨٧] و﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾[لقمان: ٣٤].

وقل لهؤلاء المشركين يا محمد، بأنك ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ وأنك لست إلا منذراً ومخوِّفاً لمن يخشى مجيئها، لأنه هو الوحيد المنتفع بهذا الإنذار وإن كان الناس جميعاً منذرين بها.

واعلم يا محمد بأنهم متى رأوها فإنهم لن يروا للحياة الدنيا التي عاشوها مدة لأكثر من ليلة أو نهار لشدة هول ما يرون.

دليل سورة النازعات ـ ٧٩

– إنها سورة مكية، وأنزلت في ٤٦ آية.

– فتبدأ السورة بيمينه تعالى بعدَّة من مخلوقاته مؤكداً أن البشر سيموتون ثم يبعثون للحساب

– وتذكّر بما حدث مع موسى عليه السلام عندما كذبه فرعون في كل ما أتاه من الأدلة العظمى فكان جزاؤه الغرق عبرة لمن يعتبر.

– ثم تذكّر بقدرته تعالى على فعل ذلك كله وهو سبحانه الذي خلق ماهو أكبر من ذلك من السماء وليلها ونهارها ومن الأرض وخيراتها.

– ثم تؤكد مجيء يوم القيامة، يوم الداهية العظمى، وعندها يرى الكافر مأواه في الجحيم، ويرى المؤمن مأواه في النعيم.

– ثم تؤكد قطعية حدوث الساعة التي لا يعلم موعدها إلا الله تعالى .

فتبرز الأمور التالية :

١ ـ لقد انصبَّ القسم الرباني على ما يناسب جواب القسم، انصب على ملائكة الموت ليؤكد البعث ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ أي: على وجه الأرض.

٢ ـ بعد عودة موسى عليه السلام لفرعون بأنه سيزكيه من كفره وطغيانه لو استجاب له ويهديه إلى الطريق السليم فإنه طرح عليه أدلته مما يوضح سبيل الدعوة إلى الله تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾.

٣ ـ ما زال الاستدلال بالمحسوس هو سيد السبل في الدعوة لأن الإنسان مهما

كبر يبقى كالطفل مع جهله في الحقائق وبالتالي يحتاج للمحسوس الذي لا يشك فيه ولا يختلف على الاستدلال به ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾ ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾.

٤ ـ التحذير من مجيء يوم الحساب دون استعداد له بالإيمان والطاعات ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾.

٥ ـ إن اختيار الإنسان لسبيل الطغيان والهوى مصيره الجحيم بينما اختياره لسبيل التقوى ولجم النفس عن الهوى مصيره الجنة فليعتبر العاقل قبل فوات الأوان ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

٦ ـ إن السخرية والهزء بتأكيد مجيء يوم الحساب لن تنفع المشركين عندما يأكلهم الندم وهم يرونها ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

سورة عبس (٨٠)

التقديم

روى جميع أهل التفسير أن قوماً من أشراف قريش كانوا عند النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وقد طمع في إسلامهم، فجاء عبد الله بن أم مكتوم، فكره رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم أن يقطع عبد الله عليه كلامه، فأعرض عنه، ففيه نزلت بداية السورة التي جاءت يعاتب فيها المولى عز وجل نبيه عليه وآله وصحبه السلام في إعراضه وتوليه عن عبد الله.

ويقال إن أشراف قريش كانوا ثلاثة هم عتبة وشيبة ولدا ربيعة وأبي بن خلف، ويقال إنهم كانوا أكثر من ذلك.

ويروى أن ابن أم مكتوم وهو أعمى جاء النبي عليه وآله وصحبه السلام وهو لا يعلم بالأمر مما عنده فقال: يا رسول الله علمني مما علمك الله، وجعل يناديه ويكثر النداء حتى ظهرت الكراهة في وجه الرسول عليه وآله وصحبه السلام لقطعه كلامه، فعبس وأعرض عنه، فنزلت الآية.

فكان صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بعد ذلك إذا رأى ابن أم مكتوم يبسط له رداءه ويقول «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي» ويقول «هل من حاجة؟» واستخلفه على المدينة مرتين في غزوتين.

وقال أنس: فرأيته يوم القادسية راكباً وعليه درع ومعه راية سوداء.

فبعد أن عتب المولى عز وجل على رسوله عليه وآله وصحبه السلام لعمله خلاف الأولى عندما أقبل على مجموعة من أشراف قريش رجاء إسلامهم ومن خلفهم، وأشاح بوجهه عن ابن أم مكتوم الذي لم يكن يعلم ما عليه الرسول عليه وآله وصحبه السلام بسبب كونه أعمى، فإنه سبحانه وتعالى يؤكد أن هذا القرآن الذي يبلغه للناس هو تذكرة لمن كان له عقل، فيجعله بما فيه من حجج وبراهين يؤمن ويوحِّد ويلزم نفسه طاعة ربه الذي آمن به ووحَّده.

وبعدها تلعن عتبة بن أبي لهب الذي ارتد عن الاسلام، كما تلعن أمثاله، وتبيِّن لهم قبح هذه الفعلة النكراء.

ثم تدعو كل عاقل للتفكير في نعم الله تعالى قبل أن يوافيه الأجل فتضيع فرصة العمل والتكليف ويأتي وقت السؤال والحساب والجنة أو العذاب.

فيا أصحاب الألباب والنهى سارعوا إلى الإيمان والطاعات.

سارعوا إلى جنة عرضها السموات والأرض أُعدت للمؤمنين المتقين.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾

لقد عبست يا محمد في وجه عبد الله بن أم مكتوم وأعرضت عنه عندما جاءك يطلب منك أن تعلمه المزيد مما علمك الله، وهو لا يدري بسبب ما هو عليه من العمى ما أنت منهمك فيه من حرصك على دعوة عدد من صناديد قريش للإسلام، ورجائك إسلام من خلفهم بإسلامهم، وأنت لم تكن تعلم فيما إذا كان له في ذلك المزيد من العلم الخير والتذكير والعظة أم لا.

تذكّر يا محمد بأنه كان الأولى بك ألا تقبل على الأغنياء الكافرين مهما كان مركزهم وسطوتهم وتعرض عن الفقراء البسطاء مهما كان حالهم وبؤسهم.

واذكر أن المؤمن الفقير خير وأعظم عند الله تعالى من الكافر الغني.

فاحذر أن تقبل على صاحب الثروة والغنى، فأنت غير مسؤول عن كفره الذي اختاره ويصرُّ عليه بمحض إرادته، وإنما عليك فقط تبليغه، فهو وحده صاحب الاختيار بين الإيمان والكفر، وهو وحده الذي يتحمل وزر اختياره.

واحذر أن تعرض عمن يأتيك طالباً الإيمان والعلم في الله والخشية منه والطاعة له.

واذكر يا محمد بأن هذه السورة تذكرة لك وموعظة وتبصرة، كما هو القرآن كله، وأن فيه ذلك للخلق جميعاً، واذكر أن من يختار منه العظة والاعتبار فله الخير ومن يختار غير ذلك فيعرض عما فيه من العظة والاعتبار فعليه شر اختياره.

واعلم يا محمد بأن هذه السورة وسور القرآن كلها موضع تكريم عند الله تعالى وعند ملائكته الذين يطهِّرونها من كل عبث، ويوصلونها عند التبليغ بكل أمانة وهم ينقلونها لرسل الله تعالى.

ثم تنتقل السورة للتشنيع على الكافر موقفه وسوء تقديره لنعم الله تعالى عليه.. فتقول:

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾

فليعلن الكافر المرتد عتبة بن أبي لهب، ومن على شاكلته، الذين يرتدُّون عن الإيمان ويكفرون بالقرآن بأنهم قد خلقوا من ماء مهين، وأن الله تعالى الذي مكّن للواحد منهم البقاء لوقت محدود في رحم أمه، حيث مُنح جميع الخاصِّيات الموروثة المقدرة عليه، ومن حيث خرج إلى الدنيا ليقضي فترة محددة من ربه هي حياته في هذه الدنيا.

وهل يدرك أن الله تعالى هو الذي يميته متى جاء أجل نهاية حياته، ثم ينتهي

الحال إلى قبره، حيث يرقد حتى يحييه ربه يوم القيامة ويبعثه من قبره ليساق للحساب وهو لم يؤدِّ بحق ما أمر به من الإيمان وطاعة ربه الرحمن واتباع رسوله الأمين؟

وهلّا نظر هذا الإنسان نظر تدبر وتأمل إلى نعم الله تعالى عليه بدءاً من طعامه، وكيف جاء النبات منه على أثر سقوط الأمطار من السماء إلى الأرض، فكان منها القمح والشعير والذرة، ومنها الفواكه الكثيرة، ومنها الأشجار الخشبية والدهنية والحدائق الملتفَّة ومطاعم الحيوان المتعددة.

فهل فكَّر بذلك وشكر المنعم المتفضل كما يقتضي العقل والفضل؟!

ويختم المولى عز وجل السورة بتهديده للكافر إن استمر على كفر اختياره بما ينتظره يوم الحساب. . .فيقول:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾

فهلّا فكرت أيها الكافر بأمر معادك كما فكرت بأمر معاشك لتتزود له بالصالحات في الأعمال والنفقات؟

واذكر أنه متى دعيت مع الأحياء يوم القيامة بتلك الصرخة المدوية للحشر والحساب فإنك لن تجد أحداً ينصرك ويدفع العذاب عنك إذا لم تكن قد قدمت ذلك في دنياك لآخرتك.

واذكر أنه لن ينفعك أخوك، ولا أمك، ولا زوجتك، ولا بنوك، فلكل واحد منهم شأنه الآخذ عليه مجامع قلبه ونفسه لهول ما يرى ويسمع.

واذكر أن الناس يتوزعون هنا بين ذوي الوجوه النيرة المشرقة لإيمانها وبين ذوي الوجوه المغبَّرة المسودَّة لكفرها وفجورها.

فمن تختار أنت أن تكون؟!

دليل سورة عبس ـ ٨٠

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ٤١ آية.
- نزلت بداية السورة في عبد الله بن أم مكتوم عندما ألحَّ على الرسول عليه وآله

وصحبه السلام لكي يعلمه مما علمه الله تعالى دون أن يدري بما ينشغل فيه من دعوة وفد من أشراف مكة لأنه أعمى.

- فعاتبه ربه لأنه أعرض عنه وكره إلحاحه فكان عليه وآله وصحبه السلام يسترضيه ويلاطفه.

- ثم يؤكد المولى سبحانه أن هذا القرآن يستثير عقل العاقل وتفكير المفكر.

- ثم تلعن المرتدين عن الإسلام لشناعة تلك الفعلة النكراء.

- ثم تدعو العاقل والمفكر للتفكير في نعم الله تعالى فيقبل على الإيمان قبل فوات الفرصة.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ إن فعل الرسول عليه وآله وصحبه السلام لم يكن اجتهاداً في حكم من أحكام الرسالة وإنما هو الحرص على تبليغها وتحقيق أهدافها بكسب الرجال المتنفذين لنصرتها فكان مما يسمى بخلاف الأولى ليس غير ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾.

٢ ـ استثارة العقلاء بتذكيرهم بسوء أعمالهم وتصرفاتهم التي لا تدل على سلامة العقل والتفكير ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾.

٣ ـ تأكيد الاستدلال بالمحسوسات من أصناف طعام الإنسان في كيفية مجيئها ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾.

٤ ـ تأكيد دعوة الإنسان للإيمان بيوم القيامة، يوم الصرخة المدوية للحشر، وما يكون عليه وجه الإنسان المؤمن ووجه الإنسان الكافر ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

سورة التكوير (٨١)

التقديم

بعد عرض مجموعة من أحوال يوم القيامة، مما يحصل للشمس والنجوم والجبال والعشار أو النوق الحوامل والوحوش والبحار والنفوس والموؤودة وصحف الأعمال والسماء والجحيم والجنة.

بعد هذا العرض يأتي الجواب بأن كل إنسان سيعلم في ذلك اليوم يوم القيامة، ما

فعله من خير وشر وذلك من خلال ما ورد في صحيفة أعماله التي تسلم له إما في يمينه وإما في شماله.

وبعدها تورد السورة ما أقسم به المولى عز وجل من النجوم والكواكب والليل والنهار بأن ما يبلغ للبشر هو قول رسول كريم، وأن محمداً صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم الذي يبلغه لهم ليس بمجنون وإنما ينقل إليهم الحق والصدق عن رب العالمين.

وأن من أراد الحق والصدق فعليه باتِّباعه، وفي ذلك الخيار القويم، ومن أراد غير ذلك فذلك بالعكس هو الخيار السقيم.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾
وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾
بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ
أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾

فماذا يحصل عندما يذهب ضوء الشمس، وتتناثر النجوم، وتختفي الجبال، ويتعطل حمل النوق الحوامل لهول الموقف، وتحشر الوحوش بجميع أنواعها، وتفجر البحار وتشتعل ويختلط عذبها ومالحها، ويقرن بين كل مؤمن أو كافر أو منافق ومن على شاكلته، وتسأل المدفونة حية عن سبب دفنها وهي بريئة، وتنشر صحف أعمال الناس فيعطونها باليمين أو بالشمال بعد طويها عند الوفاة، وتزال السماء عن حالها وتذهب عن وضعها، وتحمى الجحيم من حمرة إلى بياض فسواد، وتقرَّب الجنة من المؤمنين تشريفاً لهم ولرؤية أماكنهم فيها، فماذا يحصل عندما يجري ذلك كله؟

إن العلم الأكيد يتحقق لدى كل امرئ من أعماله الطيبة والسيئة التي عملها في الدنيا، والتي يجدها حاضرة بين يديه في كتابه الذي أعطي له، فيتأكد من مصيره.

وتنقلنا السورة أخيراً إلى عدَّة مواضيع من القسم الرباني على الأشياء العظيمة...فتقول:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ
رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ
رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾
إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

فيقسم تعالى بالنجوم والكواكب الثابتة والمتحركة التي يختفي ضوؤها في النهار ويظهر في الليل، وبالليل في بدايته ونهايته، وبالصبح عندما يسفر بنوره.

يقسم بأن القرآن الذي يبلغ إليهم هو قول جبريل عليه السلام رسول رب العالمين المكرَّم عنده وصاحب القوة الكبيرة من لدنه سبحانه والمطيع لأمره تعالى بتوصيل ما يأمره به لرسله على الأرض بكل صدق وأمانة.

إنه القرآن المأمور بتبليغه إلى رسول الله تعالى محمد عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام، المرسل إليكم يا مشركي العرب خاصة وإلى الناس عامة بل إلى الإنس والجن كافة.

وهو الرسول البريء من تهمة الجنون التي ترمونه بها، وأن كل ما حصل له من إغمائه كان بسبب هول ما رأى من ضخامة جبريل عليه السلام عندما رآه بناء على طلبه قد ملأ الأفق وهو على حقيقته الأصلية، فاطمئنوا لذلك.

واعلموا أن محمداً عليه وآله وصحبه السلام حريص على تبليغ رسالة ربه كاملة، وبكل الدقة والصدق اللذين بلغته بهما.

وأن ما يبلغه إليكم وللناس والجن كافة هو كلام رب العالمين وليس بقول شيطان رجيم ملعون.

فإلى أين تنصرفون عن قوله عليه وآله وصحبه السلام وطاعته بالتزام أمر ربه ونهيه؟!

هذا هو الطريق القويم لمن أراد منكم أن يسير على الصدق ويختار الإيمان، وأما من يريد الضلال ويختار الكفر فليتحمل وزر إرادته وعاقبة اختياره.

واذكروا أن الله تعالى قد بيَّن لكم كافة طريقي الهدى والضلال ﴿وَهَدَيْنَهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ وجعل لكم الإرادة والاختيار بينهما، فكانت مشيئته هي قضاؤه، وهو سبحانه القادر في كل لحظة أن يوقع ما يشاء بقضائه وقدره بحيث لا يخرج عندها شيء عن مشيئته وإذنه وإرادته.

دليل سورة التكوير ـ ٨١

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ٢٩ آية.

- تبدأ السورة بعرض مجموعة من مشاهد يوم القيامة لتنذر وتحذِّر.

- ثم يقسم المولى سبحانه بعدد من مخلوقاته مؤكداً أن محمداً عليه وآله وصحبه السلام رسول الله تعالى بحق وصدق.

- ثم يدعو البشر لاتباع رسوله تعالى على الإيمان والاستقامة.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ ما زال تأكيد الاستدلال بالمحسوسات حتى من أحوال يوم الحساب هو الأسلوب المتبع لتأثيره الحتمي في استثارة العقول والنفوس ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾﴾.

٢ ـ إن استخدام الجمل الشرطية في عرض المشاهد ليس من باب الافتراض والاحتمال ولكنه من باب إثارة السؤال ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾.

٣ ـ تأكد استخدام القسم بلفظ ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ لأنه مألوف معروف لدى العارفين باللغة العربية وأساليبها ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾﴾.

٤ ـ تأكيد أن القرآن ليس مجرد رسالة للبشر والجن فقط بل هو ذكر وشرف واعتبار لكل من يؤمن به ويلتزمه ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾.

٥ ـ تأكيد عدم تعارض مشيئة الله تعالى لعمل يختاره الإنسان مع مشيئة هذا الإنسان وإلا لما جاءت ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ مباشرة بعد إسناد المشيئة إلى الإنسان أو الجني ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾.

سورة الانفطار (٨٢)

التقديم

بعد إيراد أربعة أشياء مما يجري عند قيام الساعة مما يتعلق بالسماء، والكواكب،

والبحار، والقبور يؤكد المولى عز وجل بأن كل إنسان سيعرف يوم القيامة كل عمل عمله في الدنيا سواء كان طيباً أو سيئاً وذلك من خلال كتاب أعماله الذي يعطى له في ذلك الوقت، والذي إما أن يأخذه في يمينه، فيعلم أن أعماله الطيبة هي الغالبة، أو في شماله، فيعلم العكس بأن أعماله السيئة هي الغالبة.

وتسأل السورة بعدها المنكر للبعث عن سبب هذا الغرور الذي يشعر به نحو ربه فلا يؤمن بوحدانيته، ولا يلتزم بطاعته في كل أمره ونهيه مع أنه يعترف به خالقاً ومصوراً ورازقاً.

ويجيب المولى عز وجل على السؤال: إنه التكذيب بيوم الحساب، التكذيب بأنه سيحاسب يوم القيامة على أعماله في حياته الدنيا.

وهنا يؤكد المولى عز وجل لمنكر الحساب بأن عليه ملائكة يراقبون كل حركة وسكنة منه، ويسجلونها عليه، فإن أحسن في أعماله وأقواله كان بارّاً عند ربه، وله النعيم جزاء، وإن أساء كان له الجحيم جزاء، فهلّا أحسن لنفسه وأنقذها من الجحيم وأدخلها النعيم يوم يكون الأمر كله لله وحده القهار؟!!

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ ﴾

فاعلم أيها المغرور بنفسك بأنه عندما تتصدع السماء لنزول الملائكة ولهيبة الله تعالى، وعندما تتساقط الكواكب فلا يبقى أثر منها، وعندما تتفجر البحار فيختلط حلوها بمالحها وتشتعل، وعندما تقلب القبور فتلقي ما فيها من الأجساد إلى وجه الأرض أحياء بعد أن كانوا أمواتاً.

اعلم بأنك عندها ستعلم وكل إنسان غيرك سيعلم بكل ما فعلتم من أعمال خير ومن أعمال شر في حياتكم الدنيا، لأن أعمال العباد كلهم تقفل سجلاتها بظهور أشراط الساعة المذكورة ويختم عليها ثم تقوم القيامة ويساق الناس للحساب، فيعطى كل إنسان كتاب أعماله فيأخذه إما باليمين وإما بالشمال.

فيا أيها الإنسان العاقل المدرك أن الله قد خلقك، ولا خالق غيره، والمدرك أن الله هو المتفضل عليك بنعمه ولا أحد له عليك نعمة غيره، ما الذي يدعوك لإنكار البعث للحساب؟!

هل كرمه عليك بإمهالك وعدم معاجلته لك بالعقاب جعلتك تقع في هذا الإنكار؟

إنك تقر وتعترف بأنه تعالى قد خلقك من هذا الماء المهين ثم جعلك سوياً معدلاً في أحسن تقويم بما منحك من صفات وقدرات ميَّزك بها عن غيرك من مخلوقاته، وركَّبك على صورة تشبه الأب أو الأم أو الخال أو العم.

اعلم أن اختيارك السيِّء الذي اخترت بإرادتك عندما كذبت بيوم الحساب فجررت على نفسك أشد العذاب هو سبب ذلك... فعاجل نفسك بإنقاذها قبل موتك.

وتتحدث السورة في نصفها الثاني عن صنفي البشر: الأخيار والأشرار، فتقول:

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾

فاعلم أيها المغرور أن الله تعالى لم ولن يتركك، ولا يترك غيرك، بعد أن هيأكم وخلقكم لمهمة العبادة، دون أن يحاسبكم على أقوالكم وأعمالكم، وهل أحسنتم أم أسأتم بها؟

واذكروا أن الله قد حذَّركم وأنذركم من ذلك، وأخبركم بأنه قد جعل على كل منكم ملائكة تراقبه وترصد كل أقواله وأعماله، وتسجلها عليه في كتاب يعطى للمؤمن في يمينه وللكافر في شماله، فإن كنت ممن يأخذون كتبهم باليمين فأنت من الأبرار الصالحين وأصحاب جنة النعيم، وإن كنت ممن يأخذون كتبهم بالشمال فأنت من الأشرار الفجار الطالحين وأصحاب نار الجحيم.

فهل أنت ممن اختار لنفسه الأعمال والأقوال الصالحة والنعيم المقيم في جنات النعيم، أم ممن اختار لنفسه الأعمال والأقوال السيئة والجحيم المقيم في نار الجحيم؟

تأكد أنك لن تملك يوم الحساب أن تفرَّ أو تهرب من سجل أعمالك وأقوالك، وأنك لابد ستتسلمه وتساق إلى الجنة أو إلى النار، وفي ذلك اليوم الذي يكون الحكم فيه كله لله تعالى وحده، وهو القاهر فوق عباده وأنت لا تملك إلا أعمالك لتدافع عنك.

دليل سورة الانفطار ـ ٨٢

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ١٩ آية.

- تأكيد المولى عز وجل معرفة كل إنسان عمله يوم القيامة بما يعطى له من كتاب في يمينه أو شماله.

- توبيخ منكري البعث لتعاليهم عن توحيد ربهم وطاعته مع اعترافهم بأنه الخالق المصور الرزاق.

- تقرير أن ذلك بسبب التكذيب بيوم الحساب.

- فيؤكد المولى سبحانه بأن مراقبة ملائكة كل إنسان لا يفلت منها عمل من أعماله ولا قول من أقواله فله الجنة عند الإحسان وله النار عند الإساءة.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ إن كلمة ﴿إِذَا﴾ في بداية السورة تعني الظرفية (عندما) أو (متى) ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾.

٢ ـ الخطاب العام بكلمة ﴿إِنسَٰنٍ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦﴾ تشمل كل كافر.

٣ ـ الإيمان والكفر بيوم الحساب موقف مصيريٌّ في حق الإنسان لأن الهدف من الأعمال يتحدد به ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩﴾.

٤ ـ هنا ﴿كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ۝١٢﴾ وهناك ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ۝١٨﴾ مما يؤكد أن أيَّ فعل أو قول سيحاسب عليه الإنسان المؤمن وأما الكافر فليس بعد الكفر ذنب.

٥ ـ تأكيد هول يوم الحساب بتكرار ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٨﴾.

سورة المطففين (٨٣)

التقديم

تشير السورة في بدايتها إلى ما كان عليه أهل المدينة عند الهجرة إليها وإقامة دار

الإسلام فيها بدلاً من دار الكفر، فقد كانوا يطفِّفون الكيل والميزان، فحرَّم ذلك عليهم، فصاروا أحسن الناس كيلاً ووزناً، وإلى يومنا هذا.

وتتحدث السورة بعدها عن الفجار وسجل أعمالهم السجّين بسبب تكذيبهم بيوم الدين، بيوم الحساب بالذات، وما ينتظرهم من الجحيم جزاء أعمالهم.

ثم تتحدث عن الأبرار وسجل أعمالهم المرفوع في علِّيِّين بسبب ما كانت عليه أعمالهم في الدنيا من الخير وما ينتظرهم بها من جزاء النعيم، الجزاء بشراب الرحيق المختوم ومسك التسنيم.

وتنتهي السورة بالإشارة إلى ما يفعله المجرمون الكاذبون من هزء وسخرية بالمؤمنين وما سيجدونه يوم القيامة جزاء ذلك من ضحك المؤمنين لعذابهم.

فهذه السورة بما فيها من آيات مكية تؤكد أنها كانت تنبُّه المجتمع المكي الجاهلي إلى ما سيكون عليه عندما ينتقل إلى المجتمع المدني الإسلامي.

إنها كانت تعد الناس بدعوتهم إلى الإسلام لينتقلوا من ذلك الظلم الذي كان يلحقهم ويحل بهم بسبب حكم الجاهلية وطاغوتها، لينتقلوا منه إلى العدل الذي ينتظرهم بل عليهم أن ينتظروه ويتوقعوه عندما يعيشون في ظل حكم الإسلام وعدله.

لقد اجتمع في هذه السورة العهدان المكي بما كانت تدعوهم إليه من التحذير من البقاء على تطفيف الكيل والميزان بما فيه من الفجور والبعد عن الحق وما ينتظره من جزاء الجحيم وبئس المصير.. والعهد المدني بما كانت تبيِّن لهم بالمقارنة الملموسة بين مصير الأبرار والفجار ومصير الكفار والمؤمنين.

فهذه السورة تحضّر المجتمع الجاهلي في مكة للمجتمع الإسلامي في المدينة.

هذه السورة تحذّر من التعجل في الدعوة الإسلامية لممارسة الأعمال المادية، أعمال الدولة، وتدعو للحرص بأسلوبها المباشر على العمل الفكري قبل الانتقال من الدعوة إلى الدولة.

هذه السورة فيها بيان لحملة الإسلام ودعوته في الأرض لكي لا تدفعهم أحداث القهر والاضطهاد للخروج عن الصراع الفكري والكفاح السياسي إلى الجهاد الحربي قبل وقته.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾
أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾

فاعلموا أيها المطففون المخسرون للكيل والميزان بأن عذاباً شديداً ينتظركم يوم الدين، فعليكم لتتخلصوا من ذلك أن تكملوا الكيل والميزان فلا تنقصوهما لغيركم كما لأنفسكم.

واذكروا أن تأخير الحساب على ذلك إلى يوم الحساب يفرض عليكم الحذر من ذلك أكثر ولا سيما وأنتم تعلمون أن الجنة للمؤمن المتقي غضب الله والموفي للكيل والميزان، وأن النار للشقي الكافر المخسر لهما.

وما أروع أهل المدينة الذين استجابوا لهذا التحذير فانتهوا عما كانوا يفعلونه من التطفيف في الكيل والميزان وأصبحوا ومازالوا أحسن الناس كيلاً وأوفاهم وزناً.

فهنيئاً لهم ولكلٍّ من اقتدى ويقتدي بهم إلى يوم الدين ما داموا على هذا الطريق المستقيم.

وتعرض السورة بعدها حال من فجر وعصى وتكبَّر، وحال من آمن وأطاع وخضع... فتقول:

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ
﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ
لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ
أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ
﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ
فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟

مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ
﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

فاحذروا أيها المؤمنون من تطفيفكم الكيل والميزان،

واعلموا أن من يفعل ذلك يقع في عمل الكفار العصاة الذين تسجل عليهم أعمالهم الخبيثة هذه في كتاب، ويوضع في موضع السافلين كالمسجون.

واذكروا أن من يفعل ذلك ويكون من المكذبين بيوم الحساب، ذلك اليوم الذي يعرف فيه كل إنسان عمله، فإنه يحكم على نفسه بما يقتضيه العقل والحكمة بأنه كان واقعاً في الإثم والذنب، بعد أن كان يجرؤ على وصف آيات الله تعالى وبيِّناته ومعجزاته بالخرافات القديمة.

فاحذر أيها العاقل من هذا حتى تنقذ نفسك من الذنوب، وتجعل نفسك مستعدة للتأثر بالحق، ولا تحجب عنها يوم القيامة أعظم النعم وهي رؤية (نور) الرحمن الرحيم، فإن لم تفعل ذلك فقد ألقيت بنفسك في حريق الجحيم الذي كنت تكذِّب به كلما دعيت إلى التصديق به.

واذكر أن حال المتقين الطائعين يختلف عن ذلك تماماً، فإن أعمالهم الطيبة تسجل في كتب توضع في أعلى موضع عند ربهم، وتشهد عليها الملائكة الأطهار المقربون، وينتهون يوم القيامة إلى جنات النعيم حيث يتمتعون برؤية (نور) ربهم سبحانه ووجوههم تطفح بشراً ونضرة وإشراقاً، وشرابهم من الرحيق الصافي الذي ختم بالمسك، والذي طيب ومزج بالتسنيم، تلك العين التي لا يشرب منها إلا المقربون من الله تعالى.

واذكر ما يجري بين أولئك العصاة المجرمين بعد الحساب وبين هؤلاء الطائعين المتقين، فإن الكفار بعد أن كانوا يسخرون ويضحكون من المؤمنين في الدنيا، حتى كانوا يعيبون عليهم إيمانهم ويهزأون منهم في بيوتهم وأهليهم، ويعتبرونهم ضالين لإيمانهم بالله ورسوله ورسالته، ويعلمون أنهم لا سلطة لهم على أعمالهم وأحوالهم، ويدركون أن كبرهم وتعاليهم على الحق وأهله هو الداعي لكل تصرفاتهم، فإن هؤلاء الكفار الذين كانوا يعيشون هذه الأحوال ضد المسلمين، انظروا إليهم الآن وقد انتهوا إلى الجحيم ما هي أحوالهم؟

هاهم ينظرون إلى المؤمنين من بعيد فيجدونهم يسخرون ويضحكون مما هم فيه

من العذاب جزاء أعمالهم ضد المؤمنين، المؤمنين الذين باتوا يتربَّعون على تلك المقاعد الوثيرة، ويتنعَّمون جزاء أعمالهم بأطيب أنواع النعيم بينما يذوق أولئك المكذبون جزاء سوء أعمالهم أسوأ أنواع العذاب الأليم.

فهلّا أحسنت الاختيار أيها العاقل بين أن تكون في مصافِّ المتقين المصدِّقين، وما يتنعَّمون به من جنات النعيم، وبين أن تكون مع الفجار المكذبين، وما يكتوون فيه من عذاب الجحيم؟!!

دليل سورة المطففين ـ ٨٣

- إنها سورة في أغلبها مدنية، وأنزلت في ٣٦ آية.
- تحريم تطفيف الكيل والميزان.
- بيان سجل أعمال الأبرار من الخيرات والطاعات وجزاء النعيم الذي ينتظرهم.
- وبيان سجل أعمال الفجار من التكذيب والصدِّ عن الطاعات .

فتبرز الأمور التالية :

١ ـ بتحريم التطفيف النظري منذ المرحلة المكية تهيؤ السورة للمجتمع المدني وبالأخذ على أيدي المطففين في المجتمع المدني تبيِّن للقريب والبعيد نمط المجتمع الإسلامي وعدله ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾.

٢ ـ وبالمقارنة بين الأبرار والفجار في الحال والمآل تدعو الجميع ليكونوا من الأبرار مما يعطي صورة المجتمع المدني الشكل الزاهي الجذاب. .﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧﴾ ثم ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨﴾.

٣ ـ تقديم صورة الفجار على صورة الأبرار يؤكد أهمية التحذير والتخويف والإنذار في الدعوة.

٤ ـ التركيز على عقوبة يوم الحساب في المجتمع المكي أكثر منه في المجتمع المدني الذي تتولى فيه الدولة الإسلامية إنزال العقوبات المحددة لكل مخالفة.. هذا التركيز يرتبط بتركيز الإيمان بيوم الحساب وأهميته في عقيدة المسلم ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣﴾ بعد عقوبة الفجار ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾.

٥ ـ ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾ تؤكد الحجب عن الله تعالى فلا يرون نوره، وأما رؤيته تعالى ذاته فهي لن تتحقق للإنسان إلا إذا منحه تعالى مميزات جديدة تخرجه عن إنسانيته المحدودة العاجزة عن رؤية ذات الله تعالى.

سورة الانشقاق (٨٤)

التقديم

بعد أن أورد المولى عز وجل في السورة أمارتين من أمارات قيام الساعة إحداهما في السماء والأخرى في الأرض خاطب سبحانه وتعالى الإنسان مذكراً له بضعفه أمام الأعمال في حياته من باب الحث له ليعود إلى ربه، فيكون ممن يؤتى كتابه بيمينه لا ممن يؤتاه من وراء ظهره.

وبعد أن أقسم ببعض مخلوقاته يؤكد للإنسان بأنه لابد أن يمرَّ في أطوار مختلفة تنتهي إلى الموت، وبعده البعث للحساب، وأن عليه أن يقرَّ بذلك وهو يقرُّ بقدرة الله تعالى على الخلق والتدبير ويتوقف عن عصيانه لله تعالى وينتهي من العناد في الكفر والتكذيب ليرى ما أعد له من حسن الجزاء.

التفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤)
وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ
بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ
ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ
(١٤) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٥)﴾

فلينظر الإنسان عندما تتصدَّع السماء يوم القيامة استجابة لأمر ربها وخالقها.

وإلى الأرض عندما تمتد يومئذ بعد أن تتبدل بغير هذه الأرض وتتَّسع لجميع الخلائق للحشر، وعندما تقذف ما في بطنها من موتى وودائع إلى ظهرها أحياء لا ينظرون لشيء مما كانوا يركضون وراءه من كنوز الدنيا، تقذفه وتتخلى عنه لانتهاء مهمتها في حفظه، فتسمع وتطيع خالقها، وحق لها أن تسمع وتطيع.

فلتنظر أيها الإنسان لترى كيف يكون عليه شأنك في ذلك اليوم؟

لقد عملت طيلة فترة حياتك حتى جاء موتك وجاء بعثك في هذا اليوم لتحاسب على أعمال حياتك.

فهل أحسنت العمل لتعطى كتاب أعمالك في يمينك، ثم لتمرَّ إلى الجنة دون مناقشة الحساب، حيث تلتقي بزوجاتك من الحور العين وأنت في غاية الرضى والسرور؟

أم هل أسأت العمل لتعطى سجل أعمالك في شمالك من وراء ظهرك، فتدعو على نفسك بالهلاك، وتدفع لحريق النار بعد أن كنت تتقلب بين أهلك في الدنيا في سرور ونعيم، وكنت تظن أنك لن ترجع ولن تبعث لهذا الحساب أمام رب عالم بكل أعمالك وأقوالك وبصير بكل خواطر نفسك ونوايا قلبك؟!

ثم يقسم تعالى ببعض مخلوقاته مؤكداً تقلب أحوال الإنسان ومصيره تبعاً لاختياره... فيقول:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾﴾

فتأكد يا محمد، ويا كل الناس في كل زمان ومكان، من معنى قسم المولى عز وجل بالشفق الأحمر وما فيه من دلالة على رحيل النهار ومجيء الليل، وما فيهما من منافع البشر.

وقسمه تعالى بالليل وما يطويه في ثنايا ساعاته من شؤون البلاد والعباد.

وقسمه تعالى بالقمر وعودته بدراً بعد مروره في مدارات اكتماله ونقصانه، وأثر ذلك على حياة الإنسان ومصالح معاشه ورزقه.

تأكدوا بأنكم ستمرون أيضاً من حال إلى حال منذ أن يخلق تعالى الواحد منكم ويعيش حياته وينتهي إلى موته ثم يبعثه تعالى يوم القيامة للحساب على أعماله.

تأكدوا بأنكم يمر الواحد منكم في هذه الأدوار والأطوار وهو ضعيف أمامها إذ لا يملك أن يردَّ شيئاً منها وهي كلها مفروضة عليه بقضاء الله تعالى وقدره.

فهل فكرتم في ذلك مما ترونه وتلمسونه صباح مساء واستجبتم لدعوة الإيمان وانتهيتم عن الكفر بعد أن بانت آيات الله تعالى ومعجزاته في خلق الواحد منكم؟!

أليس في موقفكم وكفركم العجب العجاب يا ذوي العقول والألباب؟!

وما لهؤلاء الناس منكم إذا دعوا إلى الطاعات يعرضون ويستنكرون؟!

هل هو العناد في الباطل والتمادي في الكبر الذي يوقعكم في العمى عن رؤية الحق والتصديق به؟!

فلم هذا التكذيب بيوم الحساب، بيوم الجنة أو النار، وقد لزمتكم الحجة ولم يعد أمامكم مبررٌ للإنكار؟!

ولتعلموا أن الله تعالى محيط علمه بكل ما تطويه عقولكم وصدوركم، فاحذروه قبل أن يوافيكم الأجل فتضيّعوا فرصة التوبة والندم، فرصة الخلاص مما ينتظركم من العذاب الأليم والحصول على النعيم المقيم؟!

دليل سورة الانشقاق ـ ٨٤

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ٢٥ آية.
- إيراد أمارتين من أمارات الساعة: تصدُّع السماء وتمدُّد الأرض.
- تذكير الإنسان بضعفه أمام الحساب وحثُّه على الطاعة ليأخذ سجل أعماله وأقواله باليمين بدلاً من الشمال فينعم في الجنة بدلاً من السعير.
- بيان أن الموت مصير كل إنسان ثم الحساب ليستعد الإنسان لتحمل مسؤوليته.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ الإنذار من قرب وقوع يوم الحساب بظهور أمارتين له ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١﴾.

٢ ـ التحذير من الموت دون استعداد لما بعده من جنة أو نار ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ۝٦﴾.

٣ ـ تأكيد وقوع الشيء بالقسم ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦﴾ واستخدام (لا) المؤكدة للقسم.

٤ ـ لا يستثنى من العذاب ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ﴾ فليكن كل إنسان ممن ينطبق عليه ذلك.

سورة البروج (٨٥)

التقديم

بعد أن يقسم المولى عز وجل ببعض مخلوقاته يؤكد لرسوله عليه وآله وصحبه السلام بأن ما جرى لأصحاب الأخدود من حرق بالنار بسبب ثباتهم على الإيمان والطاعة، هو حق وصدق، وأن النار جزاء من حرقوهم والجنة جزاؤهم، وأن النصر للصابرين والهزيمة للمستكبرين.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾

فبعد أن أقسم المولى عز وجل بالسماء ونجومها ومنازل تلك النجوم، وبيوم القيامة الموعود به كل الخلائق، وبالشاهد والمشهود من خلقه سواء كان من الأيام: الجمعة وعرفة وغيرهما، أو من غير الأيام، سواء كان هو المولى سبحانه أو رسوله عليه وآله وصحبه السلام وخلقه أو أمته، أو من الأشياء كالعمل وصاحبه، فإن المولى عز وجل يؤكد أن تلك الحادثة الشنيعة المنكرة قد وقعت بالفعل عندما أقدم اليهودي ذو نواس في اليمن على حرق مجموعة من نصارى نجران وذلك بأن حفر لهم أخدوداً وأخذ يلقيهم في النار التي أشعلها فيه وجلس هو وزبانيته يشهدون حرقهم بعد أن نشر بعضهم بمناشير من مفرق رأسه، وأن ذلك كان بسبب ثباتهم على إيمانهم بالله تعالى وحده.

فاذكر ذلك يا محمد أنت ومن تبعك إلى يوم الدين واقتدوا بهم في صبرهم، وأبشروا بالنصر والأجر.

وأما أنتم يا كفار مكة، فاعلموا أنكم مهما حقدتم على المؤمنين إيمانهم فإن

حقدكم سيكون الحفرة التي تحفرونها لأنفسكم بأيديكم، وأن ما جرى مع أهل الأخدود هو ما سيجري بحق من يعذبون أصحاب رسول الله عليه وآله وصحبه السلام بالنار.

وتأكدوا أن عذاب الدنيا الذي سيحل بكم سيتلوه عذاب جهنم الأشد والأبقى.

فاحذروا هذا الاندفاع مع شهوات الدنيا ومطامعها الحقيرة مهما رأيتموها عظيمة في أعينكم.

وكفوا عن تعذيب المؤمنين والمؤمنات.

واعلموا يا من يمارسون التعذيب ضد المؤمنين بأن جنات النعيم قد أعدَّت لهم، بينما أعدَّ لكم عذاب الجحيم، وذلك هو الخزي العظيم.

فهلا ندمتم وتراجعتم؟

وأخيراً تذكّر السورة أولئك الطغاة بقدرته تعالى عليهم وأن ذلك قرآن لاشك فيه، فتقول:

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾

فاذكر يا محمد ويا أتباع محمد، بأن أخذ ربكم العزيز الجبار للظلمة والطغاة شديد شديد، وأنه كما يصيبهم بعذاب الحريق في الدنيا سيوقعه عليهم في الآخرة.

واذكروا أنه تعالى يرحم عباده المؤمنين وأولياءه المخلصين، وأنه تعالى ذو الملك والسلطان، وأنه تعالى لا يقف دون قصاصه ملك ولا سلطان مهما تكبَّر وتجبَّر على عباد الله تعالى، وأنه سبحانه فعَّال لما يريد، فلا يمتنع عليه شيء يريده.

واذكر يا محمد، ويا أتباع محمد، أخبار تلك الأمم الكافرة المكذبة لتجدوا ما يعزِّيكم عمَّا تلاقونه من قومكم.

واذكروا ما أقدم عليه جنود فرعون وثمود ضد موسى وصالح عليهما السلام من الأذى والتكذيب.

واذكروا يا أهل الكتاب ما حصل لأهل الأخدود وأنتم تعادون المسلمين لإيمانهم ورفضهم مداهنتكم ومجاملتكم على حساب دينهم.

واذكروا قصة فرعون مع موسى الموجودة في كتبكم.

واذكروا يا مشركي العرب قصة ثمود المعروفة عندكم وما فعلوه ضد نبي الله صالح.

اذكروا ذلك وكفُّوا عن معاداة الرسول وأتباعه إن لم تستجيبوا أنتم لدعوته.

واعلموا أن الله تعالى محيط علمه بكم وقادر على معاقبتكم كما عاقب من قبلكم.

وتأكدوا أن ذلك مسطَّر في القرآن محفوظ من كل عبث وتحريف، وفيه وعد لرسوله بالنصر ووعيد لكم بالهزيمة والعذاب الشديدين!!

دليل سورة البروج ـ ٨٥

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ٢٢ آية.

- يقسم المولى سبحانه ببعض مخلوقاته لتأكيد صحة ما حصل من حرق لأصحاب الأخدود.

- بيان سبب النقمة ضد من حرقوهم بأنه إيمانهم بالله تعالى.

- تأكيد قدرة الله تعالى على مخلوقات بدلالة ما حل بفرعون وقومه وقوم ثمود.

- بيان أن الله تعالى قد حفظ كتابه المجيد من التحريف والتغيير.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ استخدام أسلوب القسم لتأكيد الحقائق ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١﴾.

٢ ـ إن التوبة خلاص للكافر مهما فعل من منكرات بمجرد إيمانه وتوبته ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠﴾.

٣ ـ ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾ فإذا قضى وقدَّر أمراً فهو سبحانه قادر على إيقاع فعل ما يريده ولا يملك أحد منعه من ذلك.

سورة الطارق (٨٦)

التقديم

بعد أن يقسم المولى عز وجل بالسماء وما فيها من نجوم مضيئة يؤكد المولى سبحانه وتعالى أن لكل إنسان ملائكة يحفظونه، يحفظون عليه رزقه وعمله وأجله، وأن

عليه أن يستعدَّ ليوم رجوعه إلى الله تعالى يوم القيامة، وهو يعرف أنه خلق ضعيفاً، خلق من لقاء ماء الرجل وماء المرأة الضعيفين.

عليه ألّا تخدعه قدراته التي وهبها المولى عز وجل له.

عليه أن يعلم أن كل ما سيحفظ عليه هو الأمانة المسؤول عنها يوم الحساب، وأن أحداً لن يستطيع أن يمنعه من الحساب على ذلك.

ثم يقسم المولى عز وجل بالسماء وما ينزل منها من الأمطار.

ويقسم بالأرض وما ينبت فيها من نبات.

يقسم بأن القرآن الذي ينزله رب العالمين على رسوله المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم يفصل بين الحق والباطل، وأنه لا هزل فيه ولا لعب، وأن مكر مشركي العرب بالرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام وأصحابه محاسبون عليه مهما تأخر ذلك، وأن عليك يا محمد ألا تستعجله.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾

فالمولى عز وجل يقسم بالسماء وما يسبح في أجوائها من النجوم المضيئة، والتي تظهر واضحة في الليل، بأن على كل امرئ من البشر ملائكة يحفظونه في الليل والنهار من شر كل طارق في حياته ورزقه وأجله، وأن ما عليه إلا أن يدرك ويتدبر حقيقة ما خلقه الله تعالى عليه من الضعف عندما بدأ خلقه سبحانه من خليط من ماء الرجل، من منيه المتدفق من صلبه، ومن ماء المرأة، من بويضة من بويضاتها المتدفقة من مبيضها، فكان في بدئه مجرد ماء ضعيف مهما منحه المولى سبحانه وتعالى من القدرات والخاصِّيات في العقل والنفس والجسم متى ولد وشبَّ وكبر.

وأن على الإنسان أن يعلم بأن الله تعالى خالقه وواهبه كل هذه الهبات لقادر على إرجاعه ماء كما كان، كما أنه سبحانه وتعالى قادر على بعثه للحساب يوم القيامة وعليه

أن يستعد لذلك اليوم عندما يمتحن ويسأل عن كل ما أودع فيه من القدرات والخاصِّيات، وعن كل ما اؤتمن عليه من النعيم في جسمه وماله وعياله ودينه... وعندها سيعلم ما حفظ وما ضيع.

وعليه أن يعلم حقيقة أعماله وما حفظ منها وما ضيَّع، ويعلم بأنه لن يجد أحداً يمنعه من حساب الله تعالى وعذابه، كما لن يجد ناصراً يجلب له نفعاً أو يدفع عنه ضراً إذا لم يُعد أعمالاً طيبة تقوم بهذه المهمة يوم القيامة.

ويقسم المولى عز وجل مجدداً في بقية السورة بشأن القرآن وكيد الكائدين.. فيقول:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾

فاعلموا أن المولى عز وجل يقسم بالسماء وبما ينزل منها من أمطار تبعث الحياة والنماء والرزق الوفير في الأرض، وبالأرض وما يخرج منها من نباتات شتى بعد أن تنزل عليها الأمطار.

يقسم بأن القرآن هو الذي يفصل بين الحق والباطل، بين الحق الذي يطالبون باتباعه في الدنيا، والذي فيه النجاة لهم في الآخرة، وبين الباطل الذي يُدعوْن لتجنب الوقوع فيه والإقدام عليه في الدنيا والذي فيه ضياعهم في الآخرة.

ويقسم بأن القرآن كما وصفه الرسول عليه وآله وصحبه السلام «كتاب فيه خبر من قبلكم وحكم ما بعدكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله» وبأنه ليس فيه هزل ولا عبث ولا لعب، فخذوا به يا عرب ويا بشر والتزموا بكل ما فيه، ولا تؤمنوا ببعضه وتكفروا ببعض، لا هو ولا ما دل عليه من سنة بلَّغها لكم صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

واحذروا يا أتباع محمد عليه وآله وصحبه السلام كيد المشركين والكفار، وسيروا مع كتاب الله تعالى معتمدين على نصره لكم مهما تأخر، ولا تتعجلوا العذاب بهم فما هو إلا استدراج ويحيق بهم مكرهم وكيدهم.

دليل سورة الطارق ـ ٨٦

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ١٧ آية.

- القسم بأن لكل نفس ملكاً يحفظها، ولولا ذلك لما استطاع تدبر حياته ورزقه وهو المخلوق الضعيف.

- بيان قدرته تعالى على بعث الخلق لمحاسبتهم.

- قسم آخر بأن القرآن يفصل بين الحق والباطل.

- التحذير من كيد المشركين والإنذار الشديد لهم بالحساب الشديد .

فتبرز الأمور التالية :

١ ـ تأكيد ضعف الإنسان، فليقدر نفسه حق قدرها ولا تغرَّه الدنيا ومتاعها ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾.

٢ ـ تهديد الإنسان بإرجاعه ماء كما خلق من ماء ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨﴾.

٣ ـ إن إفشال الكيد كيد أكبر منه وشتان بين تدبير الكيد الشرير وبين إفشال هذا الكيد ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦﴾ ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾.

سورة الأعلى (٨٧)

التقديم

تبدأ السورة بأمره تعالى لعباده لتنزيهه عن السوء، فهو سبحانه الخالق المدبر الرازق المتفضل.

ثم تذكر ما يخبر به المولى سبحانه رسوله عليه وآله وصحبه السلام بأنه يحفظ عليه قراءته للقرآن فلا ينساه، وأنه تعالى ييسِّر عليه عمل كل خير فلا يخشاه، وأنه تعالى يأمره بتذكير الناس ووعظهم بالقرآن فلا يقصِّر به، وأن لهم في ذلك النفع وإن كان من يخشى الله تعالى أصلاً هو الذي ينتفع بالتذكير والوعظ، وأنه بالتالي هو الذي يكسب مثوبة ما اتعظ به.

وأما الشقي فإنه يتجنب الذكرى ويرفض الاستماع للتذكير والوعظ إن لم يسخر منه، ويواصل عناده في كفره حتى يطويه الثرى ويغيّبه قبره ليبعث على كفره فيصلى نار جهنم ويعيش مخلداً فيها بين الحياة والموت.

ثم تتحدث السورة عن الفائز يوم القيامة، وأنه من طهَّر نفسه من الذنوب وسار على درب الإيمان مصلياً مزكياً، لا صلاة الفرض فقط بل النوافل أيضاً، ولا زكاة الفرض فقط بل الصدقات الأخرى أيضاً.

وأخيراً تقول السورة أن احذروا أيها الناس وأخصُّ المسلمين منهم بالذات، من أن تفضّلوا الحياة الدنيا مهما كانت مباهجها على الآخرة لمجرد كونها مغيَّبة عنكم، واطمئنوا لما أدعوكم إليه ودعتكم إليه رسل الله تعالى وكتبه من قبل، واطمئنوا أن الحياة الأخرى هي الواجبة التفضيل على الدنيا.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾

فعليك أيها المؤمن المسلم أن تنزه الله تعالى عن كل سوء وأن تضع هذا التسبيح في سجودك من كل صلاة، كما أمركم به رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

وعليك أن تستحضر دائماً في ذاكرتك أن الله تعالى هو الذي خلقك وسوَّاك في أحسن صورة، وقدّر فيك من القدرات والخاصّيات ما يجعلك تختار بإرادتك الهدى أو الضلالة، وأودع فيك هذا العقل المميز، ووضع بين يديك رسالة الهدى، ودعاك لالتزامها والتقيد بأوامرها ونواهيها فكان أن هداك بذلك إلى النجدين، إلى طريق الهدى وطريق الضلالة، وأودع فيك قابلية الفجور وقابلية التقوى، وجعل لاختيارك الإرادي كامل المسؤولية عما تريد وتختار ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩ ـ ١٠].

وعليك أن تذكر أنه تعالى كما أودع فيك كل هذه المقومات التي تجعلك أهلاً لحمل الأمانة، أمانة التكليف فإنه تعالى قد قدّر لك في هذه الأرض أقواتها، سواء في النباتات أو العناصر بجميع أنواعها الموجودة فيها، كما قدّر فيك غرائز البقاء والنوع والتدين، وجعل لكل منها مظاهر تظهر بها بطاقات حيوية في حياتك، مسلماً كنت أو غير مسلم.

كما عليك أن تعلم أنه تعالى كما جعل في أعضاء جسمك الحاجة الدافعة لما يلزمها لبقاء حياتها وممارسة مهماتها، فقد جعل في الغرائز والأعضاء الدوافع والميول التي تدفعك لاتباعها أو توجيهها لمهامها، وجعل لعقلك وما فيه من إدراك، ولغرائزك

وما فيها من مشاعر، ما يحدد سلوكك ويضبطه في مسارات معينة تختارها بمحض إرادتك واختيارك فتسأل عن هذا الاختيار بالجنة أو النار بين يدي العزيز الحكيم.

وكما جعل فيك أيها الإنسان ذلك كله من القدرات والميول جعل في النبات قابلية التحول إلى غثاء حين يفقد خضرته وييبس ويسودُّ.

ثم تخاطب السورة الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام فيطمئنه المولى عز وجل بشأن قدرته على الحفظ، ثم يدعوه للتذكير بما يحفظ... فيقول:

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾

فاعلم يا محمد بأن الله تعالى قد ميّزك بميزة خصَّك بها هي الحفظ لما يتلى عليك من القرآن بمجرد سماعك له وأنت الأمي بحيث لا تنسى حفظ ما تسمعه من القرآن ورسالة الإسلام ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾.

فعليك أن تطمئن بأن الله تعالى الذي يعلم كل ما تعلنه وما تسرُّه لا يسمح لك بنسيان شيء من رسالته إليك ولا كتمه، وأنه تعالى قد أودع فيك الثبات في السير الدائم على طريق الهدى.

وأن عليك أن تذكّر الناس وتدعوهم لكل ما يبلغ لك فتحفظه ولا تنتظر أن ينتفع الآخرون بهذا التذكير لأنه قطعاً ينفع من اختار سبيل الهدى وأقبل على الطاعة ولن ينفع من اختار طريق الضلالة والشقاء، وعاند وكابر وأصر على دخول نار جهنم مستخفاً بها وبالتحذير منها وأنه سيخلد في عذابها بين الحياة حيناً والموت حيناً آخر.

وتحدد السورة أخيراً من اختار طريق الهدى ومن اختار طريق الضلالة... فتقول:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾

فاذكروا أيها المؤمنون المسلمون بأن الفوز والفلاح هو من نصيب من اختار التطهير لنفسه وأعماله وأمواله، وأقبل على ذكر الله تعالى الذي اختار الإيمان به كما أقبل على طاعته بأداء جميع الفروض من صلاة وزكاة وحج وصوم وإنفاق في سبيل الله

ودعوة لتطبيق شرع الله وإعادة الحياة الإسلامية للأرض فلم يقف في طاعاته عند الفروض هذه بل تجاوزها إلى غيرها من الفروض والنوافل.

واذكروا أن الإنسان بفطرته يفضل الحياة الدنيا على الآخرة لسبب واحدٍ هو الميل المفطور عليه لما يحسُّ به بأيِّ نوع من الإحساس.

فهو يرى مباهج هذه الحياة بمتعها فتثير فيه ميوله ورغباته، بينما الحياة الأخرى مغيَّبة عنه، ولا يقع عليها حسُّه إلا بالقدر الذي تستحضرها الأوصاف من القرآن والسنة.

إنه قدر محدود إلا لمن أعطي من القوة الروحية والروحانية ما تجعله يحسُّ بالأشياء المحسوسة التي تذكر من نعيم الجنة وكأنه محسوس ملموس وحاضر ومشاهد لديه.

وهذه هي قيمة التذكير الدائم والمستمر بنعيم الجنة وعذاب الآخرة مع الوصف المستفيض أحياناً والمثير دائماً.

وبسبب هذا التفضيل والإيثار للحياة الدنيا فقد جاء التحذير من ذلك والتنبيه على أن الحياة الأخرى في الجنة هي خير منها وأبقى، وبالتالي فإنها تستحق من الإنسان أن يؤثرها على الحياة الدنيا ولاسيما أن في الجنة من النعيم ما في الدنيا وزيادة بل وزيادة أكثر بكثير من حيث النوعية والكمية.

فيها ما لا عين رأت، إذن أكثر مما يمكن أن تستمتع به العين في الدنيا، ولا أذن سمعت، إذن أكثر مما تستمتع به الأذن في الدنيا، ولا خطر على قلب بشر، إذن أكثر مما يشتهي الإنسان ويحب مما في الدنيا.

ناهيك عن خلود ما في الآخرة وفناء ما في الدنيا.

ولهذا نبَّه الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام إلى أن «حفَّت الجنة بالمكاره وحفَّت النار بالشهوات».

فجعل على من يريد الجنة أن يتحمل التضحية بما يحبه من المتع في الدنيا أو كثير منها من الدعة والراحة في العمل، ومن المأكولات والمشروبات والملبوسات في الحاجات البشرية.

وجعل على من يريد النار أن يطلق العنان لشهواته بلا قيود ولا حدود لا بحلال ولا بحرام وعندها يدخلها وبئس المصير.

فليدرك ذلك كل إنسان، ويدرك حقيقة تكوينه ومسؤوليته عن إرادته واختياره، ولا يلقي مساوئه على المشيئة الإلهية التي خلقته في أحسن تقويم وحمّلته مسؤولية اختياره،

فهو الذي يظلم نفسه بإدخالها النار ويعدل بها ويحسن إليها فيدخلها الجنة ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

دليل سورة الأعلى ـ ٨٧

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ١٩ آية.
- تأمر بتنزيه الله تعالى عن كل سوء وقد خلق الإنسان ودبَّره.
- بيان خاصِّية الحفظ التي منحها تعالى لرسوله عليه وآله وصحبه السلام.
- بيان أن المؤمن التقي هو الذي يستجيب للتذكير بينما الكافر الشقي يعرض عنه.
- بيان أن العذاب الدائم لا يمكّن الكافر من الموت فيرتاح ولا من الحياة فينعم.
- بيان أن من فطرة الله تعالى للإنسان القدرة على اختيار الدنيا أو الآخرة مع أفضلية الآخرة.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ تؤكدان أن الله تعالى قد خلق الإنسان في أحسن تقويم، وأنه تعالى خلق فيه قدرات الاختيار بين الخير والشر وأنزل له الهداية ودعاه لاختيارها دون الضلال.

٢ ـ من باب حفظ القرآن من النسيان والتغيير فقد جعل سبحانه للرسول عليه وآله وصحبه السلام صفة الحفظ دون نسيان ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ﴿٦﴾﴾.

٣ ـ حث المؤمن للحرص على الانتفاع بكل علم يثير المزيد من الثقة بالإسلام ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾.

٤ ـ دعوة الناس لتطهير نفوسهم بالإيمان والعمل الصالح ولو كان من طبيعة أو فطرة الإنسان تفضيل الحياة الدنيا ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾﴾.

سورة الغاشية (٨٨)

التقديم

بعد أن يتفضل المولى عز وجل بإخبار رسوله عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام بأسلوب السؤال التقريري عن يوم القيامة، الغاشية، التي لم يكن لدى الرسول عليه وآله

وصحبه السلام علم بها من قبل، لا هو ولا قومه، يبيِّن عز وجل له ولكل من تبعه ما يجري في ذلك اليوم من أصناف العذاب للكفار والنعيم للأبرار.

ويلفت المولى عز وجل بعدها نظرهم إلى عظيم قدرته مما يعرفون من عجيب خلقه للإبل التي تعيش بينهم ولا يتنبهون لعظيم خلقه تعالى فيها.

وإلى السماء التي يستظلون بها ولا ينتبهون إلى قدرة خلقه لها بغير عمد يرونها.

وإلى الجبال التي يمرون عليها وإلى الأرض نفسها وكيف بسطها لسهولة سيرهم وطلب معاشهم وحركتهم هم وأنعامهم.

وتدعو السورة أخيراً الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ليذكّر قومه ويعظهم، كصاحب دعوة ومبلِّغ رسالة ولما يأتي دوره كصاحب دولة ومطبِّق وحامل رسالة.

يذكّرهم ويعظهم وهو لا يملك أيَّة سلطة عليهم بعد.

يذكّرهم بأن من يعرض منهم ويكذّب فعذابه الأكبر عند الله يوم الحساب بينما العذاب الأصغر في هذه الدنيا.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾

فلم يكن لديك يا محمد ولا لدى أحد من قومك خبر يوم القيامة الذي يغشى وجوه الكفار بعذابه بما يلحقهم من الذل والهوان في المظهر، والتعب والإرهاق والحريق في النار حتى صُلب الأجساد، والماء الشديد الحرارة مما يشربونه، والنبات الشوكي شديد المرارة في طعامهم بدون أدنى نفع ولا فائدة مما يتناولونه.

وانظروا إلى المؤمنين وهم بوجوه مشرقة نضرة، راضية مبتهجة جزاء أعمالهم الصالحة في الدنيا.

انظروا إليهم وهم يعيشون في جنة لا وجود للّغو من الكلام فيها، وترى فيها عيون المياه العذبة متدفقة كما ترى السرر العالية والأكواب المعدَّة للشراب والمخدات المتجاورة، والطنافس المنثورة في كل مكان من مجالسهم.

وبعدها يلفت المولى عز وجل في نصف السورة التالي إلى قدرته في خلقه لما يرونه ويشعرون به دائماً، ثم يأمر رسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بالدعوة لمن حوله... فيقول:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾

فانظروا يا من ترتابون في قدرة الله تعالى على خلق كل ذلك في الآخرة إلى ما بين أيديكم في الدنيا.

انظروا إلى قدرته تعالى في الخلق لتتأكدوا بأن ذلك كله ولا شك كائن له سبحانه.

انظروا وتدبروا كيف خلق تعالى هذه الإبل التي لها من الصفات ما ليس لغيرها في ذاتها وفي استخداماتكم لها.

انظروا إلى السماء من فوق رؤوسكم وكيف رفعها تعالى دون عمد ترونها.

وانظروا إلى الجبال وكيف نصبها وأقامها فوق سطح الأرض حتى لا يختلَّ توازنها.

وانظروا إلى الأرض وكيف مدَّها لكم لتسهل حركتكم ومعاشكم.

فذكّرهم يا محمد وخوّفهم من عذاب الله تعالى وأنت الآن تبلِّغهم الدعوة لرسالتك ولا تملك لهم إلا مجرد التبليغ والوعظ والتذكير، ولا سلطة لك عليهم

(وفي ذلك إشارة إلى ما يكون له عليهم من سلطة في المدينة).

وذكّر من يكذبك ويرفض الإيمان معك بأن عذاب الله الأكبر يوم القيامة بانتظاره.

(وفي هذا إشارة إلى العذاب الأصغر من الهزائم في العهد المدني).

وذكّرهم بأنهم جميعاً سيعودون للحساب يوم القيامة وللمؤمن الجنة بنعيمها وللكافر النار بجحيمها.

دليل سورة الغاشية ـ ٨٨

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ٢٦ آية.

- بيان صنفي الناس يوم الحساب بين كافر ومؤمن وحال كل منهما.

- دعوة مشركي العرب ليجدوا فيما بين أيديهم من الإبل.. أدلة محسوسة تؤكد أنها مخلوقة.

- دعوة الرسول عليه وآله وصحبه السلام لتذكير الناس بالقرآن وحساب من يعرض على الله تعالى.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ الإنذار قبل التبشير ببيان أحوال الكافرين في نار الجحيم قبل بيان أحوال المؤمنين في جنان النعيم• مما يؤكد أهمية هذا الأسلوب في الدعوة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾ و﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾﴾

٢ ـ تأكيد أسلوب الاستدلال بالواقع المحسوس من إبل وسماء وجبال وأرض لنجاعته في المرحلة المكية قبل المدنية وإن كان في كل منهما خير. ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾.

٣ ـ تأكيد أن المرحلة المكية خالية من العمل المادي ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾.

سورة الفجر (٨٩)

التقديم

فقد أقسم المولى عز وجل بالفجر والليالي العشر وغيرها بأنه تعالى سيعذب الكافرين الطغاة في الدنيا وفي الآخرة.

وينبِّه سبحانه إلى أن التكريم هو بالطاعة والتوفيق وليس بكثرة الرزق.

ويحذِّر تعالى من الجشع في الدنيا وأكل الحقوق.

وينذر بحساب يوم الدين على الأعمال إما بالجنة أو الجحيم.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾
أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ
جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾
فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾

فانظر يا صاحب العقل السليم إلى عظم قسم المولى بالفجر، سواء كان بداية نهار معيَّن أو إشارة لجميع النهار وما فيه من كدٍّ وسعي من قبل الإنسان.

وانظر إلى قسمه تعالى بالليالي العشر، سواء كانت ليالي نهاية رمضان أو أول المحرم أو أول ذي الحجة.

وانظر إلى قسمه تعالى بالشفع والوتر، سواء كانت في الصلاة أو في غيرها.

وانظر إلى قسمه تعالى بالليل إذا سرى فيه الإنسان وراء أيِّ عمل من الأعمال، قاصداً يسر العمل لا صعوبته، ونجاحه لا فشله.

انظر إليه تعالى وهو يؤكد بهذا القسم أنه سيعذب كل من يستحق العذاب من أمثال قوم عاد ذوي المدن ذوات الأعمدة القوية لشدتهم وضخامة أجسادهم حتى غرَّتهم وهم يرون في فعلهم السبق على غيرهم، وقوم ثمود ذوي البيوت المنحوتة في الصخور لقوة أجسامهم، وقوم فرعون الذي كان يعذب الناس فيربطهم بالأوتاد ويفسد ويطغى حتى زعم الألوهية.

فماذا كانت عقوبتهم؟

لقد عذبهم تعالى بما صبَّ على كل منهم من العذاب المناسب لكفره وطغيانه.

وتشير السورة بعدها إلى حال الإنسان الكافر، وما يفعله من تكالب على متاع الدنيا فتقول:

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ

رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾

فيا أيها الإنسان لماذا تعتبر المزيد من الرزق تكريماً لك بينما يجب عليك أن تعلم بأنه لمجرد الاختبار ليرى الرازق سبحانه ما أنت فاعل به وهو العالم بك؟

ولماذا تعتبر قلة الرزق إهانة لك بينما يجب عليك أن تعلم بأنه لمجرد الاختبار لك أيضاً؟

عليك أن تدرك أن الكرامة في الإيمان بالله وطاعته وليس بكثرة المال وقلته.

وانظر إلى فعلتك أيها الكافر أو الفاسق وأنت تهين اليتيم الذي تحت يديك وتمنع من مساعدة المسكين وتحرص على أكل ميراث حتى اليتيم وتغرق نفسك في الركض وراء المال دون حساب لحلال أو حرام!؟

أهذا ما يليق بالإنسان الذي كرمه الله على خلقه الآخرين بما منحه من خلقة سوية وعقل مميز؟!

وأخيراً يحذِّر المولى عز وجل من يوم القيامة وعذابها، ويرغِّب النفس المطمئنة بنعيمها..فيقول:

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾

فاعلم أيها الإنسان أنه متى جاء يوم القيامة، عندما تدكُّ الأرض وتبدَّل وتسوى جبالها، وصدر أمر الله تعالى وملائكته ينتظرون أمره صفوفاً ويؤتى بجهنم بعرض أهلها عليها ورؤية كل منهم مكانه فيها.

فعندها يتذكر الكافر ما قدَّم وأخَّر من أعماله الشريرة ويتمنى لو يعود للدنيا ليؤمن ويتوب، ولكن هيهات، فقد انتهى العمل وجاء الجزاء، فيتمنى لو عمل الصالحات ليجدها الآن في جنة النعيم بدلاً من عذاب الجحيم، ذاك العذاب الذي لا يضاهيه عذاب في الدنيا، والذي منه القيد في السلاسل والأغلال والدفع لقعر الجحيم.

واعلم أيها المؤمن أنك ستجد الملائكة يدعونك بصاحب النفس المطمئنة لطيب

أعمالك في الدنيا، فأنت مطمئن لطيب جزائك في الآخرة، وتطلب منك قبول رضى الله تعالى عن أعمالك، فيدخلونك ضمن عباده تعالى وفي جنته.

دليل سورة الفجر ـ ٨٩

- أنها سورة مكية، وأنزلت في ٣٠ آية.
- القسم بأن العذاب الشديد سيصيب الكفرة الطغاة في الدنيا والآخرة.
- التذكير بما أصاب الأقوام السابقين من الكافرين المكذبين من عاد وثمود وفرعون.
- بيان أثر الابتلاء على الإنسان بالنعم الكثيرة والقليلة.
- تقرير أن الإنسان بفطرته يحب المال حباً كبيراً.
- تأكيد عدم قيمة الندم والحسرة يوم الدين.
- دعوة نفس المؤمن المطمئنة بجانب الله لتكون راضية مرضية. .

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ أسلوب تأكيد وقوع المقسم عليه بالقسم ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ له أهميته.

٢ ـ استثارة العقول المتحجرة على التقاليد بتذكيرها بما حصل مع الكفار السابقين ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾.

٣ ـ تصحيح خطأ تفكير الإنسان للنعمة الزائدة أو القليلة بأنه ليس من باب التكريم أو الإهانة ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦ كَلَّا﴾.

٤ ـ إن الرضا عن قضاء الله تعالى، والحصول على الرضى الرباني مطلوبان من الله تعالى للنفس المطمئنة بالإيمان لكي تكون ضمن عباد الله تعالى في الجنة. ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝٣٠﴾.

سورة البلد (٩٠)

التقديم

يقسم المولى عز وجل بمكة، بآدم ونسله، بأن الإنسان الذي خلقه في أحسن تقويم قد خلق في شدة من مكابدة الدنيا إذ خلق للعمل فيها.

ثم يوبخ الله عز وجل هذا الإنسان كيف يظن أن الله تعالى لا يقدر عليه وعلى عقابه سواء في الدنيا أو في الآخرة، أو في الاثنين معاً؟!

كيف يظن ذلك وهو يرى قدرة الله تعالى في خلقه بهذه الأعضاء من عينين ولسان وشفتين لكلٍّ منهما مهمتها في أعماله في حياته؟!

كيف يظن ذلك وهو سبحانه الذي هداه طريق الخير وطريق الشر ليشق طريقه في حياته على بينة من أمره؟!

ولماذا ينفق أمواله في عداوته لك يا محمد؟!

تأكد يا محمد أن تجاوز عقبة الدنيا ومتاعبها يتم بالأعمال الصالحة فقط من إطلاق أسير أو إطعام يتيم قريب أو مسكين معدم، وأن ذلك لن يحسب له عند الله تعالى إلا إذا كان مؤمناً صابراً، وأما لو كان كافراً فلن يكون كالمؤمن من أصحاب الميمنة وإنما من أصحاب المشأمة ومصيره إلى النار الفظيعة.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ
﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ
نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا
ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ
﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾

فانظروا ببصائركم أيها البشر إلى المولى عز وجل وهو يقسم بمكة التي يقيم فيها رسوله المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وهو الذي يعرف حرمتها ومكانتها عند الله تعالى.

وانظروا إليه تعالى وهو يقسم بكل والد وما ولد عامة، وبآدم عليه السلام كأول

والد، وبأمته ونسله من بعده، إشارة إلى تكريمه تعالى للبشر، وبالرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام وأمته خاصة. .

إنه سبحانه وتعالى يقسم بذلك مؤكداً أنه قد خلق الإنسان في شدة ومكابدة لهذه الدنيا، بدءاً من حمله، وما يجرُّه من آلام على حاملته، مروراً بولادته ورضاعه وما يجرُّه وما يقتضيه من متاعب كثيرة، وانتهاء بكبره وبقية أطوار حياته من رجولة وكهولة وشيخوخة وما يداخلها من متاعب لا تعدُّ ولا تحصى.

فهو يكابد الشكر على السراء والصبر على الضراء مادام مؤمناً، ويكابد الخوف من حساب الآخرة بقدر تقصيره وآثامه، ويبقى يخشى أن ينتهي إلى النار بدلاً من الجنة بالرغم من إيمانه وجميع محاولاته في الحسنى والقيام بالصالحات والطاعات.

وتأكد أيها العاقل، أن الله تعالى يعلم أن الإنسان لو كان له الاختيار في هذه المكابدة، ونمط الخلقة لما رضي بذلك، الأمر الذي يجزم بضعفه وبيان ما خلقه الله تعالى عليه من المكابرة.

واعلم أيها العاقل، أن الإنسان يظن بسبب ذلك أن الله تعالى لن يعاقبه إن قدر عليه، ويظن أنه بسبب إنفاقه الأموال الكثيرة بأن الله تعالى لا يعلم من أين جمعها ولا أين أنفقها.

فعليه أن يكون على يقين بأن الله تعالى يعلم ذلك كله وسيحاسبه عليه.

ولينظر إلى ما أنعم الله تعالى عليه ليرى فيما إذا كان قادراً على عقابه أم لا: فها هما العينان اللتان يبصر بهما، وها هو اللسان الذي ينطق به، وها هما الشفتان اللتان يغطي بهما ثغره، فهل يظن أن الله تعالى لا يحاسبه على هذه النعم، وفي أيِّ حلال أو حرام استخدمها؟!

لينظر في ما منحه الله تعالى من نعمة العقل والإدراك لطريقي الخير والشر، وأرسل إليه الرسل لكي يضعوا بين يديه رسالات ربه المعرّفة لطريقي الهدى والضلال، ويدعوه للسير في طريق الهدى والخير وتجنب طريق الضلال والشر، فلم تبق له حجة ولا ذريعة في التخلف عن الأخذ بطريق الهدى وترك طريق الضلال.

ولينظر إلى ما ينفق ماله فيه: هل أنفقه في الخير وأوجه طاعة الله تعالى من فك الأسير وتحرير الرقيق، ومن الإطعام وقت المجاعة سواء لليتيم القريب أو المسكين المترب المعدم؟؟

هل فعل ذلك فكان من الذين آمنوا بالله وكتبه ورسله، وصدّقوا بكل خير في أمره ونهيه، وأنفقوا في القربات والطاعات.

وكان ممن لم يكتفوا بالإيمان القولي والدفع والإنفاق الفردي بل دعوا غيرهم من القريب وأوصوا غيرهم من البعيد بهذا الإنفاق، وإلا فبالصبر على ما يتعرضون له من ابتلاءات في طاعته، وعلى الأذى في الإيمان به والتزام أحكامه.

فكانوا ممن يوصون بالرحمة على الآخرين من أيتام ومساكين.

وكانوا ممن يستحقون عند الله تعالى أن يعطوا كتبهم بأيمانهم يوم القيامة.

وأما لو فعل ذلك على طريق الضلال والشر الذي اختاره وابتعد عن القرآن وأحكامه فإنه يأخذ كتابه بشماله وينتهي إلى النار المطبقة المغلقة.. وما أشد حرارتها؟!

دليل سورة البلد ـ ٩٠

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ٢٠ آية.

- بيان أن الحياة البشرية كلها مكابدة وتعب فلا ينتظر أحد غير ذلك.

- تحذير الإنسان من قدرة الله تعالى عليه وقد خلقه مزوداً بما يلزمه لتسهيل حياته وللاعتبار.. من عينين ولسان وشفتين.

- بيان أن الله تعالى قد قدَّر في الإنسان القدرة على اختيار طريق الخير أو الشر ليتحمل كامل المسؤولية عن أعماله وأقواله.

- تأكيد بناء الأعمال والأقوال على الإيمان والتواصي بالصبر على الأذى والشدائد في المرحلة المكية مع التواصي بالتعامل اللطيف الرحيم مع الآخرين.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ①﴾ تأكيد للقسم ب (لا) بأن الإنسان كجنس يعيش حياته في متاعب الابتلاء للمؤمن والبلاء للكافر ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ④﴾.

٢ ـ تخصيص العينين واللسان والشفتين بالذكر لأهميتها للإنسان في رؤية الدلائل ونقل العلم بها وعنها ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ⑧ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ⑨﴾.

٣ ـ ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ⑩﴾ عندما وضع تعالى بين يدي الإنسان الهداية التي تعرفه بطريقي الخير والشر، وعليه أن يختار ويتحمل مسؤولية اختياره.

٤ ـ الإصرار على الصبر والتواصي به في المرحلة المكية ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾.

سورة الشمس (٩١)

التقديم

بعد أن يقسم المولى عز وجل بالشمس وإشراقها، وبالقمر الذي يظهر بعد غيابها، وبالنهار الذي يتجلى بضيائها، وبالليل الذي يظلم بغيابها، وبالسماء ومن بناها، وبالأرض ومن بسطها، وبالنفس البشرية ومن سوى خلقها وعدلها، وبنفسه سبحانه الذي ألهم وعرَّف النفس البشرية بطريقي الفجور والتقوى أو الذي خلق فيها خاصِّية الميل إلى الفجور وإلى التقوى.

بعد أن يقسم بذلك يؤكد المولى سبحانه وتعالى بهذا القسم المضاعف والمركب بكثرة ما ورد فيه بأن أهل مكة سيبعثون يوم القيامة للحساب، وأنهم لن يبعدوا عما حصل مع ثمود وتكذيبهم لصالح عليه السلام فأهلكهم تعالى جزاء فعلتهم.

فاعلموا يا مشركي العرب بأنه سيحل بكم العذاب الذي تستحقونه.. فاحذروا.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا
بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا
﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ
ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا
يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾

فانظروا إلى المولى عز وجل وهو يقسم بالشمس وبالنهار الذي تحدثه بطلوعها، وبالقمر الذي يأتي بعدها فيعكس ضياءها، وبالنهار الذي يظهر بوضوح جرم الشمس وضياءها، وبالليل الذي يغشى الشمس بظلمته بدورة الأرض حول نفسها، وبالسماء وبمن خلقها ورفعها من غير عمد ترونها ألا وهو الله تعالى، وبالأرض وبمن خلقها وبسطها ومهدها بهذا الشكل لمعيشة مخلوقاته الأرضية، وبالنفس ومن خلقها وعدلها

وجعلها في أحسن تقويم، وعرَّفها طريقي الفجور والتقوى ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد: ١٠] بما أرسل من رسل وشرائع بعد أن قدَّر فيها خاصِّية العقل والإدراك التي وضعها فيها، في العقل وظيفة الدماغ، وفي القلب كموضع تظهر بنبضاته العادية أو السريعة أو البطيئة تأثيرات العقل والإدراك للأمور.

فكان الهدى والتقى في الشرائع والعمل بها، وكان الضلال والفجور في رفض الشرائع الإلهية واتباع غيرها.

وكان العقل بما وضع الله تعالى فيه من القدرة على التعرف على الضلال وتمييزه عن الهدى، والقدرة على التعرف على الهدى وتمييزه من الضلال، قادراً على التمييز بينهما والاختيار منهما ودعوة صاحبه للأخذ بأحدهما منضبطاً تبعاً لمدى قناعة هذا العقل بما توصل إليه، وتبعاً لاطمئنان القلب والذي يعبر عن المشاعر والعواطف المرتبطة بالغرائز والميول والرغبات النفسية في الكيان الإنساني البشري وما تميل إليه.

وبهذا الاختيار الثابت الصلب ينضبط سلوك صاحبه به ويلتزم به ويسير عليه، فيفلح إذا اختار التقى والهدى، ويطهِّر نفسه من الأدناس والأرجاس، ويخيب إذا اختار الفجور والضلال، ويدسُّ نفسه في الأدناس والأرجاس من معصية الله تعالى والبعد عن طاعته والتمرد على أوامره ونواهيه.

فانظروا إلى قوله تعالى وهو يسند الإلهام والتقدير للفجور والتقوى في النفس الإنسانية إليه تعالى بينما يسند الفلاح والفشل للإنسان، مما يدل على أن الإلهام هنا قد جاء بمعنى خلق القدرة والخاصية في العقل البشري للتمييز بين الفجور والتقوى، وهذا التقدير هو القدر نفسه، وأما أن يوجد هذا القدر في النفس البشرية فهو قضاء من الله تعالى لأنه لا علاقة للإنسان به لا من حيث وجوده في النفس ولا من عدم وجوده.

وأما من حيث الفلاح والفشل وهما الفلاح في العمل وفقاً لتلك الخاصِّية بأخذ واختيار العقل للهداية التي أرسلها وأنزلها رب العالمين للبشر وكان الإسلام خاتمها والناسخ لها، والفشل في العمل وفقاً لتلك الخاصِّية واختيار العقل لغير الهداية الربانية.

فبهذه الأقسام يؤكد رب العالمين لمشركي مكة المكذبين للرسول والرسالة بأن الله تعالى سيبعثهم ويحاسبهم يوم القيامة كما حاسب ثمود ومن قبلهم لعدوانهم على رسل الله تعالى.

فاحذروا يا مشركي العرب، ومن على شاكلتهم من نفس المصير في الدنيا وفي الآخرة.. فعذابه تعالى لن يبعد عنكم.

واذكروا أيها المسلمون أن مصير الإنسان مرتبط تماماً باختياره الذي قدره وقضاه تعالى في نفسه وعقله.

واعلموا أيها الكافرون من أهل كتاب ومشركين بأن رسالة الله تعالى الخاتمة هي الإسلام، وأنكم مطالبون بالتخلي عن أديانكم ومعتقداتكم مهما كانت والأخذ بالإسلام.

دليل سورة الشمس ـ ٩١

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ١٥ آية.

- يقسم المولى عز وجل بالعديد من خلقه في السماء والأرض، وبالنفس البشرية وتسويتها بقدرة على الاختيار بين الفجور والتقوى، بأن يوم الحساب لابد قادم.

- ويذكّر بما حصل مع ثمود عندما طغوا وبغوا فأخذتهم الصيحة.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ تأكيد أهمية استعمال القسم بما هو معروف العظمة والتقدير ليثق الطرف الآخر بالقصد منه ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾.

٢ ـ القسم بالنفس البشرية وبمن خلقها على الشكل السوي السليم العادل عندما خلق فيها القدرة على اختيار الفجور أو التقوى ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴾.

٣ ـ وتأكيد أن من يزكي نفسه فيبعدها عن الفجور هو المفلح وأما من يختار الفجور فهو الخائب الفاشل ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾.

٤ ـ تأكيد التذكير بما حل بقوم ثمود من بين السابقين المكذبين لكي يحذروا نفس المصير المشؤوم ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ۝١١﴾ ﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا﴾.

سورة الليل (٩٢)

التقديم

بعد أن أقسم المولى عز وجل بالليل والنهار، والذكر والأنثى أكد أن سعي الإنسان متنوع:

فهو إما أن ينضبط في طاعة الله تعالى في الجمع والإنفاق فيسعد، وإما أن يتفلت من طاعة الله تعالى فيهما فيشقى.

وليعلم بأن ما جمعه من مال لن ينقذه من الشقاء يوم الحساب بعد أن بيَّن له

تعالى طريق الهدى وأنذره بالنار إذا اختار طريق الضلال والعصيان، وبشَّره بالجنة إذا اختار طريق الهدى والطاعة.

التفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾

فقد أقسم المولى عز وجل بالليل وغشيانه للنهار والأرض، وبالنهار وإظهاره للأرض وطرد الظلمة، وبنفسه خالق الذكر والأنثى، مؤكداً اختلاف الناس في أعمالهم، فمنهم من يختار الخير، ومنهم من يختار الشر، ومنهم من يتردد بينهما.

فمن يعطي منهم ولا يخشى إلا الرازق الكريم، وينتظر الجزاء الطيب عنده، فسيجد التوفيق واليسر وإن حصلت ابتلاءات «اعملوا، فكل ميسَّر لعمل ما خلق له»،

ومن يبخل فلم يعن محتاجاً ظناً منه أن الرزق بيده فيقع في تكذيب حتى يوم القيامة والحساب فيها فلا يجد إلا العسر والفساد الذي يقوده إليه هواه وشهواته التي باتت تحدد له مصالحه ومنافعه من مضاره.

ومتى مات ودفن فلن يجد البخيل أيَّ خير له في ماله الذي بخل به، بل سيلقيه في جهنم جزاء كفره وبخله، بينما يجد المؤمن التقي الكريم كل الخير في ماله، فينجيه من شقاء الكافر البخيل في الدنيا والآخرة ولا سيما متى أقدم على الجمع والإنفاق مراعياً الحلال والحرام ومبتغياً رضى الله تعالى، وعندها سيرضيه سبحانه يوم الحساب بحسن الجزاء بإدخاله في نعيم الجنة، وما أطيبه وأعظمه من جزاء؟!

دليل سورة الليل ـ ٩٢

– إنها سورة مكية، وأنزلت في ٢١ آية.

– يقسم المولى سبحانه بالليل والنهار وبنفسه خالق الذكر والأنثى بتنوع سعي الإنسان بين الخير والشر.

– ويؤكد أن الكريم التقي المؤمن هو الميسَّر سبيله للجزاء الطيب وعكسه البخيل المكذب الكافر.

– وتبيِّن السورة أن الله تعالى هو الذي ينزِّل الهدى لعباده وينذرهم من التكذيب والإعراض.

– وبيان أن من يبتغي استرضاء الله تعالى في الإنفاق فرضاً وتطوعاً هو الذي سيرضيه تعالى بالجزاء الطيب.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ تأكيد استخدام أسلوب القسم لأهميته في الدعوة ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١﴾.

٢ ـ ذكر بدهية تنوع واختلاف الناس في أعمالهم الخيِّرة والشريرة ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾.

٣ ـ لفت النظر أن الناس بين كريم تقي وبين بخيل شقي فليختر كل إنسان موقعه ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥﴾ ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨﴾.

٤ ـ الإنذار بالنار الحارقة لكل شقي وبالجنة الناعمة لكل تقي مزكٍ لماله ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ١٤ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ١٥﴾.

سورة الضحى (٩٣)

التقديم

يؤكد الله عز وجل لرسوله عليه وآله وصحبه السلام بالقسم بالضحى والليل بأنه لم يبغضه لتأخر رسوله جبريل عليه السلام عنه كما زعم مشركو العرب.

ثم يطمئنه تعالى بأن ما عنده له في الآخرة من الجزاء الطيب أفضل بكثير من هذه الدنيا التي أمره بالقيام بأعمال معينة فيها.

التفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤
وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ
عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾

فبعد القسم بالنهار وما فيه من حركة ونشاط، وبالليل وما فيه من سكون وسبات، يؤكد المولى عز وجل لرسوله عليه وآله وصحبه السلام بأنه لم يبغضه عندما تأخر عنه جبريل عليه السلام كما ادعى مشركو العرب من أمثال أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان، وأن ما له في الآخرة من نعيم وكرامة أفضل بكثير من هذه الدنيا وما فيها.

وكان عليه وآله وصحبه السلام قد أري ما يفتح الله تعالى على أمته بعدها فسرَّ بذلك.

وقال سبحانه لرسوله بأنه سيعطيه حتى يرضى فقال عليه وآله وصحبه السلام «إذاً والله لا أرضى وواحد من أمتي في النار» فطمأنه بما جعل له من مأوى يأوي إليه عند عمه أبي طالب بعد أن فقد والديه وجده عبد المطلب، وبما هداه إليه من الرشد بعد الغفلة، وبالنبوة بعد العزلة، وبالقرآن وأحكامه بعد أن كان لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، وبالغنى بزوجه خديجة رضي الله عنها.

ثم أمره بالإحسان للمحتاج واليتيم والتحدث بما أنعم الله تعالى عليه من النعم قولاً وعملاً، فقال عليه وآله وصحبه السلام «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدث بالنعم شكر وتركه كفر، والجماعة رحمة والفرقة عذاب».

وكبّر الرسول عليه وآله وصحبه السلام بلفظة (الله أكبر) عندما نزل جبريل عليه السلام بهذه السورة، وأمر بالتكبير من نهاية هذه السورة حتى يختم القرآن بحيث يكبِّر في نهاية كل سورة.

دليل سورة الضحى ـ ٩٣

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ١١ آية.

- يقسم المولى عز وجل بالضحى والليل بأنَّ تأخر جبريل عنه ليس لبغض له.

- يطمئنه تعالى إذ يذكِّره بما كان عليه حاله وكيف غيّره عليه ربه إلى الأفضل السليم من العطاء والإيواء والهدى والغنى.

- يأمره سبحانه بعدم قهر اليتيم ولا نهر السائل وبالتحدث عما أنعم عليه.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ ما زال القسم في المرحلة المكية أسلوباً يعتمد عليه في الدعوة ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾.

٢ ـ ومن يملك أن يكون الله تعالى هو المدافع عنه غير الرسول محمد عليه وآله وصحبه السلام؟ ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ فليخسأ مشركو مكة الذين زعموا ذلك.

٣ ـ وأكثر من ذلك وعده ربه أن يعطيه من العطاء ما يرضيه فقال بأنه (لا يرضى وواحد من أمته في النار) ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾.

٤ ـ وذكره بما غيّر عليه ربه من النعم ليطمئنه بعطائه الجزيل الطيب له ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾.

٥ ـ خصَّ بالأمر اليتيم لما كان عليه من اليتم، والسائل لشيوع الفقر، والنعمة وشكرها بذكرها مما يدل على أهمية الاعتماد على وقائع الحياة عند الدعوة إلى الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠﴾.

سورة الشرح (٩٤)

التقديم

سورة الانشراح أو الشرح مكية، ونزلت في ثماني آيات، وتشمل ما يلي:

سئل الرسول عليه وآله وصحبه السلام: أينشرح الصدر؟ قال «نعم وينفسح» فسئل: وهل لذلك علامة؟ قال «نعم، التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاعتداد للموت قبل نزول الموت».

وقال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم «فبينما أنا عند البيت بين النائم واليقظ إذ سمعت قائلاً يقول: أحد الثلاثة بين الرجلين ـ أي: حمزة وجعفر ـ فأتيت بطست من ذهب، فيها ماء زمزم، فشرح صدري إلى كذا وكذا، فاستخرج قلبي، فغسل قلبي بماء زمزم، ثم أعيد مكانه، ثم حشي إيماناً وحكمة».

ويظهر أن تسمية السورة لها علاقة بما روي هنا عن الرسول عليه وآله وصحبه السلام من حادثة شرح صدره.. والسورة تبدأ بسؤال تقريري يشير إلى ذلك، والمولى عز وجل يمنّ على رسوله بذلك وبما أعدَّه به لحمل الرسالة من طرح أحمال من آثار الجاهلية.. ثم يطمئنه للفرج في الدنيا والآخرة ويأمره لذلك بالحرص على الذكر والطاعة.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾

فالمولى عز وجل يخاطب رسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بأنه قد فتح صدره للإسلام، وألان له قلبه وملأه حكمة وعلماً وإيماناً، وحطَّ عنه ذنبه وكل ما علق عليه من أمر الجاهلية من أحمال ثقلت عليه من خطأ أو سهو وإن غفرت له، وأنه تعالى أعلى ذكره بأن أورده في الكتب المنزلة من قبل، كما جعله يتردد في جميع مناسك وشعائر الإسلام.

ثم يؤكد المولى عز وجل لرسوله عليه وآله وصحبه السلام ولأمته بأن مع العسر والشدة يسراً، ومع الضيق سعة وغنى فقال عليه وآله وصحبه السلام مؤكداً هذا المعنى «لن يغلب عسر يسرين».

ويدعو عز وجل رسوله لذلك أن يطرح عنه حزنه بسبب ما عيَّروه به من الفقر، وأن ينتظر قريباً ما سيفتح الله تعالى عليه من الدنيا كما سيفتح عليه وعلى أتباعه في الآخرة أكثر وأكثر.

وهكذا فلن يستطيع عسر الدنيا أن يغلب يسر الدنيا مهما تأخر ويسر الآخرة.

فاطمئن لذلك يا محمد وبالغ في الدعاء وسؤال الحاجة عقب كل صلاة، واجتهد في الجهاد كما في كل عمل خير.

دليل سورة الشرح ـ ٩٤

- تقرير شرح صدر الرسول عليه وآله وصحبه السلام بإخراج قلبه وغسله بماء

زمزم وإعادته مكانه بعد أن ملئ إيماناً وحكمة كما قال عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام.

- ثم ذكر تخليصه عليه وآله وصحبه السلام من إزالة آثار أحمال الجاهلية على ظهره.

- ثم بيانه أنه تعالى قد رفع مكانته بين الخلق عندما كلفه بحمل هذه الرسالة.

- ثم يطمئنه بالفرج ويأمره بدوام الذكر والطاعة .

فتبرز الأمور التالية :

١ ـ إن في الشرح فتح الصدر الفعلي والمعنوي، وحديث الرسول عليه وآله وصحبه السلام هو الذي حدَّد نوعية الشرح ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ①﴾.

٢ ـ إن كل ما يتعلق بالخطأ والسهو مما يضيف عبئاً على الرسول عليه وآله وصحبه السلام ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ② ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ③﴾ بينما هو من العفو على غيره (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه).

٣ ـ (لن يغلب عسر يسرين) فهناك يسر عند العسر والشدة ويسر آخر عند الضيق والفقر، كما أن هناك يسراً قبل العسر ويسراً آخر بعده.

٤ ـ ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ⑦ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ⑧﴾ في الدعاء عقب كل صلاة مما يشير إلى متابعة طلب القيام بالصلاة في العسر واليسر.

سورة التين (٩٥)

التقديم

يقسم المولى عز وجل بالتين والزيتون كناية عن موضعهما الشام ومركزها بيت المقدس حيث نزل الإنجيل، ثم بطور سينين، أي: سيناء، حيث نزلت التوراة على موسى، ثم بمكة حيث نزل القرآن.

فيؤكد المولى عز وجل بهذا القسم بأنه تعالى قد خلق الإنسان في أحسن شكل وصورة بين مخلوقاته بما منحه من القدرات والخاصِّيات وبتحميله الأمانة التي لم يستطع غيره من الخلق تحملها ألا وهي أمانة التكليف لو أحسن القيام بها، وإلا فالعذاب وسوء المصير التي يجرها على نفسه بنفسه.

التفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾﴾

فيؤكد المولى عز وجل بقسمه بهذه المواضع الثلاثة، وما فيها من ثمار وخيرات، بأنه سبحانه قد خلق الإنسان، كل إنسان في أحسن وأفضل وأعدل شكل إذ خلقه كما قال القاضي ابن العربي: حياً عالماً قادراً مريداً متكلماً سميعاً بصيراً مدبِّراً حكيماً.

وأنه تعالى قد ابتلاه بذلك ليذكّره دائماً بحدود قدراته بجانب مطلق قدرة الله تعالى.

كما ابتلاه بالتكليف ليجزيه مع الإيمان طيب الجزاء في الآخرة مادام يصحب الإيمان بالأعمال الصالحة، ويرده إلى جهنم إذا اختار الكفر وطريق الضلال.

ويوبخ المولى عز وجل الإنسان الذي ألزمه الحجة وقد عرّفه حدود قدرته الفعلية وخلقه في أحسن تقويم ورأى مدى ضعفه في أطوار نموه المتعددة، يوبخه للوقوع في التكذيب بالبعث والجزاء وقد أكده له الصادق الأمين محمد عليه وآله وصحبه السلام.

ويختتم المولى عز وجل خطابه للإنسان العاقل عامة، مسلماً أو كافراً، والكافر خاصة وقد عاند واستكبر وطغى وتجبر.

كيف ينكر هذا الإنسان العاقل مجيء يوم الحساب، ويظن أن الله قد خلقه وكلفه دون أن يحاسبه وكأنه خلقه وكلفه لهواً وعبثاً؟

وأن عليه أن يعلم أن الله تعالى هو أحكم الحاكمين في قضائه وعدله، وأن كل مسلم على ذلك من الشاهدين.

دليل سورة التين ـ ٩٥

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ٨ آيات.

- تقسم السورة بثلاثة مواضع: موضع شجر التين والزيتون، وهو بيت المقدس، وموضع طور سيناء، ومكة إشارة إلى أماكن نزول الكتب الثلاثة: التوراة، والإنجيل، والقرآن.

- يؤكد المولى سبحانه أن الإنسان قد خلقه في أحسن شكل وصورة بين مخلوقاته.

- ويؤكد سبحانه بأن الإنسان الكافر هو الذي انتهى إلى سوء الجزاء لكفره بينما المؤمن الصالح نال أطيب الجزاء.

- استنكار تكذيب الكافر بيوم الحساب.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ إن في ذكر بيت المقدس بشجرتي التين والزيتون الإشارة لقيمة الشجرتين في حياة الإنسان ولاعتبار المكان، بينما ذكر طور سينين أو سيناء باسمه دون أيِّ وصف اعتباري. وكذلك في ذكر مكة بمثل هذا الوصف ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ إشارة إلى الرسول الأمين عليه وآله وصحبه السلام.

٢ ـ إن بالإيمان يحافظ الإنسان على مكانته الفضلى بين المخلوقات ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

٣ ـ إن في التكذيب بيوم الدين تجديف في حق المولى سبحانه بأنه خلق الإنسان وكلفه دون أن يحاسبه وكأنه خلق وكلف لهواً وعبثاً. ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾.

سورة العلق (٩٦)

التقديم

قال أبو موسى وعائشة رضي الله عنهما بأن سورة العلق هي أول ما نزل من القرآن على النبي عليه وآله وصحبه والسلام وهو في غار حراء عندما جاءه الملَك فقال: (اقرأ) فقال: «ما أنا بقارئ» قال «فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني» فقال: (اقرأ) فقلت «ما أنا بقارئ» فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ بي الجهد، ثم أرسلني فقال ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾.

وروت عائشة رضي الله عنها أنها أول سورة أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وبعدها (ن والقلم) ثم بعدها (يا أيها المدثر) ثم بعدها (والضحى).

فالسورة علمت الرسول عليه وآله وصحبه السلام أن يبدأ بالبسملة ثم يقرأ كل سورة من سور القرآن.

وعلمته عليه وآله وصحبه السلام بأنه تعالى خلق الإنسان بهذا الشكل، وأن على الإنسان أن يذكر ذلك دائماً حتى لا يخدع أو يغرَّ بقدراته وبالتالي يلتزم حدوده فلا يتكبر على الإيمان بخالقه ومدبره.

وعلمته ضرورة قراءة وحفظ ما يبلغ له ليبلغه لغيره.

كما نبَّهت على أهمية التعلم والكتابة في حياة الإنسان، وأهمية العلوم لنموها وتطويرها دائماً.

وتتحدث السورة في القسم الأخير منها عن موقف أبي جهل ومحاولته منع الرسول عليه وآله وصحبه السلام من الصلاة.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾
عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ
ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ
﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾
سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾

فقد نزل جبريل عليه السلام بهذه السورة على الرسول عليه وآله وصحبه السلام وهو قائم في حراء، فعلمه الآيات الخمس الأولى منها بعد أن غطَّه وعصره ثلاثاً وقال له في كل مرة (اقرأ) والرسول عليه وآله وصحبه السلام يجيب «ما أنا بقارئ»، فجاءت السورة تعلم الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن يقرأ ما ينزل عليه من القرآن مفتتحاً في كل مرة بالتسمية في ابتداء كل سورة، وأن يستحضر مع هذه التسمية أن الله تعالى قد خلق الإنسان من خليط من منيِّ الرجل وبويضة الأنثى ليشكل نطفة فمضغة فعلقة، وأنه تعالى كما خلق الإنسان وشرَّفه بالذكر في مطلع وحيه وخطابه لرسوله فإنه خلق المخلوقات الأخرى كلها.

وأن على الإنسان أن يذكر بأنه قد خلق من علقة ضعيفة فلا يتكبر عن الإيمان بخالقه تعالى ومدبره.

ليقرأ وليعلم بأن خالقه هو الأكرم لأنه لا يتعجل على عباده بالعقوبة.

وهو سبحانه الذي يعينهم على طاعته وفهم أمره ونهيه.

وأنه تعالى هو الذي علم الإنسان الخط والكتابة بالتعلم، فكان هذا التعلم من أعظم نعم الله تعالى، لأن به حفظت الشرائع والأديان، وبه تناقل البشر العلوم والشرائع والأحكام.

وأنه تعالى هو الذي علم الإنسان الأول أسماء الأشياء كلها بعد أن لم يكن يعلم منها شيئاً ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[البقرة: ٣١] كما علم رسوله المصطفى عليه وآله وصحبه السلام ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]، وكما علم الناس عامة ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨].

وأمر الله تعالى بعدها رسوله بأن يصلي في المسجد، ويقرأ باسم الرب، ولا يبالي بموقف أبي جهل الذي تجاوز الحد في العصيان مخدوعاً بما لديه من مال وعشيرة.

فليذكر أبو جهل وأمثاله الذين ينهون عن الصلاة بأنهم لن يأمنوا من العقوبة يوم الحساب.

وليعلموا أن من ينهونه عن الصلاة، ويستجيب لهم في ذلك، فإنه لن يفلت من عقاب الله تعالى.

وليذكروا أن من كذّب بكتاب الله تعالى ورفض الإيمان بأن الله تعالى عالم بكل أفعاله وأقواله، واستمر بإيقاع الأذى بالرسول عليه وآله وصحبه السلام أو بأيٍّ مؤمن من أمته، فإن الله تعالى سيأخذه بالعقوبة ويذله في الدنيا والآخرة ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١].

وليحذروا أن تأخذهم العزة بالإثم ويستمروا في العناد في الباطل لأن زبانية العذاب ستأخذهم شرَّ أخذة.. فقال عليه وآله وصحبه السلام عن أبي جهل «لو فعل لأخذته الملائكة عياناً».

فلا تطع يا محمد هذا الطاغية في طلبه ترك الصلاة، وصلِّ لله تعالى وتقرب إليه بكل ما أمرك به من الطاعات ولا سيما الدعاء في السجود حتى قال عليه وآله وصحبه السلام «أقرب ما يكون العبد من ربه، وأحبه إليه، جبهته في الأرض وهو ساجد».

وقال عليه وآله وصحبه السلام «أما الركوع فعظموا فيه الرب، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فإنه قمن أن يستجاب لكم».

دليل سورة العلق ـ ٩٦

– إنها سورة مكية، وأنزلت في ١٩ آية.

– إنها أول سورة أنزلت من القرآن على النبي عليه وآله وصحبه السلام وهو في غار حراء.

– بدأت السورة بأمر الرسول عليه وآله وصحبه السلام ليبدأ قراءته بالبسملة ثم يقرأ القرآن.

– أكدت أن بالقلم يتعلم الإنسان مالم يعلمه من العلوم النافعة وفي مطلعها خلقه من علقة ضعيفة.

– أمرت الرسول عليه وآله وصحبه السلام بالصلاة في المسجد ولا يبالي بأمثال أبي جهل من العصاة المخدوعين بأموالهم وعشائرهم.

– بيَّنت أن من يستجيب لأبي جهل وأمثاله لن يفلت من العقاب.

– أمرت الرسول عليه وآله وصحبه السلام برفض طلب أبي جهل بترك الصلاة.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ ﴿ٱقْرَأْ﴾ تدل كأمر أول للرسول عليه وآله وصحبه السلام بأهيمة القراءة لتحصيل العلوم.

٢ ـ تحذير الإنسان من نسيان أن الله تعالى هو الذي خلقه وعلمه بالقراءة ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦﴾.

٣ ـ ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾ تشير إلى الصلاة كأخطر صلة مباشرة بين العبد وخالقه.

٤ ـ الإنذار بعلم الله تعالى ورؤيته لكل ما يصدر من قول وفعل من الإنسان ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤﴾.

٥ ـ الأخذ بالناصية دليل الإذلال والإهانة ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥﴾.

٦ ـ الحرص على الصلاة عند تعرُّض الإنسان للشدة في طاعة الله وخاصة بكثرة السجود وطول الدعاء فيه ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۝١٩﴾.

سورة القدر (٩٧)

التقديم

ذكر كثير من المفسرين أن جبريل عليه السلام قد نزل بالقرآن جملة واحدة ليلة القدر، وذلك من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا، إلى بيت العزة، ثم كان ينزله على النبي عليه وآله وصحبه السلام نجوماً نجوماً، فكان بين أوله وآخره ثلاث وعشرون سنة، كما قال ابن عباس، وهذه الرواية يرفضها بعض العلماء ومنهم القاضي ابن العربي على أساس أنه ليس بين جبريل وبين الله تعالى واسطة، ولا بين جبريل ومحمد واسطة.

والسورة تتحدث عن إنزال القرآن في ليلة القدر، وأنها لمكانتها العظمى بهذا السبب تعدل في ثواب من يقومها إيماناً واحتساباً ثواب ألف شهر من غيرها.. وأن الملائكة تهبط فيها وبينهم جبريل عليه السلام مأمورين من الله تعالى لتبليغ أوامره لمن يصطفيه من خلقه.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾.

فالمولى عز وجل يذكرنا بأنه قد أنزل القرآن في ليلة القدر، سواء بإنزال جبريل عليه السلام بإذن ربه جملة واحدة إلى السماء الدنيا أو بالبدء بإنزاله في هذه الآية واستمرار هذا التنزيل على مدى فترة الثلاث والعشرين سنة هي فترة البعثة.

فكانت بداية إنزال القرآن في شهر رمضان، وفي هذه الليلة منه ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾[البقرة: ١٨٥].

وسميت بليلة القدر لأنها مباركة معظمة عند الله تعالى لأنه يحكم فيها على العباد بما يشاء من قضاء الآجال والأرزاق وغيرهما، ولأنه بدأ فيها نزول القرآن ففضِّلت العبادة فيها على ألف شهر بالعدد عن غيرها، ولأن المولى عز وجل يأمر فيها الملائكة بما فيهم جبريل عليه السلام بالنزول من السماء إلى الأرض ليؤمّنوا على دعاء الناس إلى وقت طلوع فجرها.

وقد جعلها المولى عز وجل ليلة السلامة والأمن والبركة على المؤمنين من أهل الأرض.

وقد أغفل المولى عز وجل تعيينها ليجتهد المسلم في طاعته تعالى الحول كله وإن كانت العشر الأواخر من رمضان، والفرد منها، والسابع والعشرين منها هي الأرجح في تحديدها، فقال عليه وآله وصحبه السلام «ليلة القدر ليلة سبع وعشرين» وأفضل الدعاء فيها ما علَّمه عليه وآله وصحبه السلام لزوجه عائشة رضي الله عنها «اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني».

دليل سورة القدر ـ ٩٧

- إنها سورة مدنية، وأنزلت في ٥ آيات.
- الإشارة إلى رفعة مكانة الليلة التي أنزل فيها القرآن أو بدئ بإنزاله.
- اعتبرت تلك الليلة ليلة القدر بما يحكم المولى سبحانه فيها على عباده من آجال وأرزاق.
- اعتبرت خيراً في ثواب العبادة فيها من ألف شهر من غيرها.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ تفيد إنزال القرآن ككل وإن أفادت الخبر.

٢ ـ إنها إحدى ليالي شهر رمضان المفردة من العشر الأواخر كما أشار إلى ذلك الحديث النبوي الشريف ولا سيما أن قوله تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ يؤكد ذلك.

٣ ـ ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾﴾ تفيد الإنزال الكلي كما تفيد الجزئي.

٤ ـ ﴿سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾ تشير إلى قيمة العبادة مع السحر وقرب الفجر.

سورة البينة (٩٨)

التقديم

قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم لأبيٍّ بن كعب «إن الله أمرني أن أقرأ عليك (لم يكن الذين كفروا)» قال: وسماني لك؟! قال «نعم» فبكى أبيٌّ.

والسورة تتحدث عن الكفار من أهل الكتاب والمشركين، وأنهم كانوا ينتظرون

رسولاً يأتيهم ليزيل ما بينهم من خلافات، ولكنهم بدلاً من أن يفعلوا ذلك عندما أرسل الله تعالى رسوله محمداً صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم انقسموا بين مؤمن به، وهم القليل، ومكذب ومنكر له، وهم الكثير، فاستحق المؤمنون الرضى والرضوان واستحق الكافرون السخط والنيران.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟
صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ
﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ
ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ
ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ
عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾

فالمولى عز وجل يبيِّن في هذه السورة بأن أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وأهل الشرك من قريش والعرب وغيرهم عامة، لم يكونوا لينتهوا عن كفرهم وشركهم بمختلف أنواعه ونحله إلا بعد أن تأتيهم البينة وذلك بإرسال رسول إليهم، وإلى الناس كافة، يحسم هذا الاختلاف ويجمعهم على كلمة سواء.

ولكنهم ما إن أرسل المولى عز وجل رسوله محمداً صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وأخذ يتلو عليهم القرآن ويدعوهم للإيمان والتخلي عن أديانهم ومللهم ونحلهم والدخول في دين الإسلام والتزام كتابه القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، حتى رفضوا في أكثريتهم اتباعه وأصرُّوا على ما هم عليه من الباطل والملل التي ألحقوا الكثير من التغيير والتبديل إليها.

لقد تفرقوا واستمروا على الاختلاف القديم فيما بينهم ولكنه الآن توجه ضد الرسول والرسالة الجديدين.

انظر إلى اليهود والنصارى، وهم أولى من يجتمع على الدين الجديد، لأن الرسول محمداً عليه وآله وصحبه السلام وارد في كتبهم بنعته ووصفه، فقد كفروا به ورفضوا الإيمان به، ومنهم من فعل ذلك بغياً وحسداً، ومنهم من استمر على التقليد الباطل، والقليل منهم من آمن، ولذلك قال تعالى ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠] ويصرُّون على المحرَّف والمزوَّر منها.

إنهم لو نظروا في كتبهم البريئة من التحريف والتزوير، والتي أصبحوا ينكرونها ويصرُّون على المحرف والمزور منها، لو نظروا في الأصول قبل التحريف والتزوير لوجدوها تأمرهم باتباعه والإخلاص في عبادة الله تعالى معه، والبعد عن الأديان الزائفة الأخرى غير دين الإسلام.

إن الإسلام جاء يأمرهم بإقامة الصلاة وأداء الزكاة، وكتبهم تأمرهم بذلك وإن اختلف الشكل والمضمون من ذلك لأن أصل الشرائع واحد، وهو التوحيد والأمر بالطاعة، ولكن الشرائع والمناهج تختلف بين الإسلام والأديان السابقة ولذلك ورد في القرآن ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ﴾ [المائدة: ٤٨].

فقد أمرهم المولى عز وجل بالصلاة والزكاة اللتين أنزل أحكامهما وشروطهما على محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ليلزمهم بالتخلي عما أحدثوه من تحريف في أديانهم، ناهيك عن وجوب التخلي عن الشرك الذي أحدثوه بإلحاق ونسبة الولد إلى المولى سبحانه.

فماذا فعلوا؟

لقد أصرُّوا على الكفر والباطل، واختاروا لأنفسهم هم وجميع مشركي عصرهم الخلود في نار جهنم فاستحقوا أن يوصفوا بأنهم شر المخلوقات التي كانت تعاصر الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام، مع أنه سبحانه قد وصفهم ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧ و١٢٢] من أهل الكتاب الذين كانوا في عصر موسى عليه السلام على الخصوص، وعلى العموم من الخلق الكافرين في جميع العصور.

وأما من آمن منهم مع النبي محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وأقبل على طاعة الله تعالى والتزم الطاعات والأعمال الصالحات في إطار هذا الدين، دين الإسلام، فإنهم استحقوا وصف خير المخلوقات جزاء لهم على إيمانهم وطاعاتهم، وأن جنة الخلد لهم ولكل من يخشى الله تعالى ويخافه ويتجنب المعاصي ويلتزم الطاعات.

دليل سورة البينة ـ ٩٨

- إنها سورة مدنية،أنزلت في ٨ آيات.

- تبدأ السورة بالإشارة لما كان المشركون وأهل الكتاب عليه من انتظار قدوم رسول.

- ثم تبين تكذيبهم للرسول عليه وآله وصحبه السلام إلا القلة القليلة الذين آمنوا.

- فتنذر المكذبين بنار جهنم وتبشر المؤمنين بجنة عدن.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ تأكيد الاختلاف بين البشر في شأن العقائد ﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ برسول يحسم ذلك.

٢ ـ وتأكيد عمل التقليد للآباء والحسد للأبناء في رفض الإيمان ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ٤﴾.

٣ ـ إن الأديان كلها تلتقي في التوحيد والأمر بالطاعة ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ ولكنها تختلف في الشرائع ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾.

٤ ـ وتأكيد مصير كل من كفر بالإسلام من أهل الكتاب والمشركين بأنه نار جهنم لأنهم جميعاً مأمورون بالتخلي عن أديانهم ومللهم والدخول في الإسلام. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾.

سورة الزلزلة (٩٩)

التقديم

قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم «من قرأ ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ﴾ عدلت له بنصف القرآن، ومن قرأ ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١﴾ عدلت له بربع القرآن، ومن قرأ ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ عدلت له بثلث القرآن».

والسورة كلها تتحدث عن مظاهر يوم القيامة بدءاً من الأرض ومروراً بالإنسان عند البعث وانتهاء به عند التوزيع بين أهل الجنة وأهل النار.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾

فالمولى عز وجل يذكّر خلقه بما سيؤول إليه حال الأرض والإنسان يوم القيامة، منبهاً العقل ليعقل ويتدبر أمر صاحبه قبل فوات الأوان.

فاذكر أيها العاقل عندما تنفخ النفخة الأولى فترتجف الأرض أولاً ثم ثانياً مع النفخة الثانية فتتشقق عن الموتى المدفونين في باطنها لتقذف بهم إلى سطحها فيخرجوا ويساقوا سراعاً إلى الحشر والحساب دون أن يلتفت إلى ما قذفته من كنوزها.

وانظروا إلى الناس ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢] إنهم يتساءلون عما حصل ما داموا غير مؤمنين، وأما المؤمن لا يسأل عنها لأنه يؤمن بقيامها.

فيأتيه الجواب أن أمر الدنيا قد انتهى وأمر الآخرة قد جاء.

وما كلام الدنيا وجواب الأرض فيها هذا إلا كناية عن نطقها بذلك بقدرة الله تعالى، ويكون ذلك هو لسان حالها، وإن كان ليس من البعيد أن يكون لسان مقالها.

وماذا يجري عندها؟

يتوزع الناس إلى جماعات منهم من يتجه إلى اليمين والجنة، ومنهم من يتجه إلى الشمال والنار ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾[الروم: ١٤] و﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾[الروم: ٤٣].

وفي توزعهم يساقون ليستلم كل منهم جزاء أعماله، فينتهي الكافر وأعماله الشريرة إلى النار، وينتهي المؤمن وأعماله الخيّرة إلى الجنة، ويبقى فضل الله ورحمته جاهزين لجبر أعمال المؤمنين بإذن الله مهما قصرت.

دليل سورة الزلزلة ـ ٩٩

- إنها سورة مدنية، وأنزلت في ٩ آيات.
- تبيِّن السورة حال الأرض يوم القيامة وهي تتزلزل.
- ويتساءل الإنسان حينئذ عن ذلك فيأتيه الجواب بأنها تستجيب لأمر الله تعالى.
- فتلقي ما في أحشائها من الموتى لينطلقوا في حشر وحساب.
- فتبيِّن الحكم العادل في حق كل صغيرة وكبيرة من أعمال الإنسان من خير وشر. .

فتبرز الأمور التالية :

١ ـ إن الإنسان الكافر بيوم القيامة هو الذي يتساءل عن رجفة الأرض ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣﴾.

٢ ـ ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ تشبيه مجازي أو حقيقة فعلية، وما ذلك على قدرة الله تعالى بعزيز أن تتحدث وتنطق الأرض.

٣ ـ إن قاعدة الحساب الرباني الجامعة المانعة ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ تؤكد أن العدل الرباني المطلق متحقق للجميع يوم الحساب.. فهل استعدوا له.

سورة العاديات (١٠٠)

التقديم

فالمولى عز وجل يقسم بالخيول والإبل كأدوات جهاد، بأن الإنسان مطبوع على كفر النعمة.

ولكن المؤمن يوجهه إيمانه لجمع النعم وإنفاقها في طاعة الله، بينما الكافر هو الذي لا يبالي بطرق الجمع وطرق الإنفاق.

وهنا يحذر المولى سبحانه وتعالى الإنسان، المؤمن والكافر، بوعيده بعلمه بكل شيء، ليزداد الذين آمنوا إيماناً ويحرصوا على طاعاتهم في جمع المال وإنفاقه، ويتنبَّه الكفار إلى سوء ما هم عليه فيعيدوا النظر، وإلا فليتحملوا مسؤولية اختيارهم وظلمهم لأنفسهم.

التفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

فقد أقسم المولى عز وجل بالخيل وعدوها في الجهاد، والإبل وعدوها في الحج، أقسم بها والنار تقدح بحوافرها وأخفافها، أقسم بها وهي تفجأ العدو عند الصبح في غارتها، أقسم بها وهي تثير الغبار في ركضها.

أقسم بذلك تعظيماً للجهاد أولاً وللحج ثانياً بأن الإنسان مطبوع على كفران النعمة وجحودها، فيذكر المصائب وينسى النعم، والكافر، وهذا شأنه، ليس كالمسلم لأن الكافر لا يقر إلا بالمحسوس وهو الذي لا يرى إلا النعمة فقط، بينما المؤمن يقر بالنعمة والمنعم الذي من شدة إيمانه بوجوده كأنه يراه مع نعمه، فيشكر المنعم ولا يكفره.

والله تعالى شهيد على هذا وذاك كما هو سبحانه عالم بهذا وذاك.

إنه تعالى عالم بحب الكافر الشديد للمال لدرجة أنه يعميه عن الحلال والحرام في جمعه وفي إنفاقه معاً، بينما يبقى حب الله تعالى وطاعته لا تعمي المؤمن عن الحلال والحرام في الجمع والإنفاق، كيف لا وهو يؤمن بأن الله تعالى الذي خلقه خبير بأعماله كلها، ويتهدد في نفس الوقت الكافر بخبرته بأعماله وأقواله، ويتوعده أن يصحح مساره ومعتقده قبل أن تلزمه الحجة فينكشف أمره ويفتضح سره يوم البعث فيقع في الخزي والهوان وهو يساق إلى النار بينما المؤمن يساق إلى الجنة.

فليحذر المؤمن تأثير المال عليه، وليأخذه بحقه وليعطه بحقه.

وليحذر الكافر العناد والإصرار على ذلك قبل موته.

دليل سورة العاديات ـ ١٠٠

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ١١ آية.
- تبدأ بقسمه تعالى بأدوات الجهاد لأهميتها في نشر الإسلام في الأرض.
- ثم تؤكد أن الإنسان ميال لإنكار النعمة وإسنادها لنفسه وينسى ربه المنعم المتفضل.
- ثم تؤكد حب الإنسان لكل أصناف الخير وبالذات الأموال وينسى في جمعها آخرته.
- فتنتهي بتذكيره وإنذاره بالبعث والحساب من عليم خبير.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ ليس بالضرورة تطبيق أدوات الجهاد على الخيول في كل زمان وذكرها ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١﴾ تنطبق على جميع أدوات القتال الحديثة.

٢ ـ تحذير الإنسان من إنكار نعم الله تعالى عليه ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾.

٣ ـ تقرير حب الإنسان للمال ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾. ولكن الحذر الحذر من جمعه وإنفاقه في غير طرقه الشرعية حتى ينال الجزاء الطيب يوم الحساب من ربه العالم الخبير به ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ۝١١﴾.

سورة القارعة (١٠١)

التقديم

يذكّر المولى عز وجل في هذه السورة بيوم القيامة، بالقارعة التي تقرع الأسماع فتخلع القلوب من هولها، من شدتها عندما ينتشر الناس وهم يحشرون بعد خروجهم من قبورهم انتشار الفراش الحيران في اتجاه طيرانه.

وعندما تتهيأ الجبال للزوال بظهورها كالصوف المنفوش الذي ستحمله الرياح إلى غير رجعة.

وعندما ينقسم البشر بين أصحاب الموازين الراجحة في الخير والمعيشة الطيبة، وبين أصحاب الموازين الراجحة في الشر والمعيشة الضنك والمصير المشؤوم.

التفسير

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلۡقَارِعَةُ ① مَا ٱلۡقَارِعَةُ ② وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ③ يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ
ٱلۡمَبۡثُوثِ ④ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ⑤ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ⑥ فَهُوَ فِي
عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ⑦ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ⑧ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ⑨ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ
⑩ نَارٌ حَامِيَةُۢ ⑪﴾

فالمولى عز وجل يعظم بهذا الاستفهام المتكرر من شأن القيامة، ليؤكد بأنها ليست مجرد حادث يجري ويقع ولكنه قارعة، إنها حادثة تقرع الآذان بما يسمع فيها من أصوات، وتخلع القلوب بما ترى العيون من هولها.

هناك عندما يكون الناس كالفراش المتفرق الذي لا يدري عن حاله شيئاً، ولا إلى أيِّ اتجاه يذهب، حتى تدفعه الرياح ليتساقط في النار، فهو منتشر في كل مكان حتى يركب بعضه بعضاً ويصطدم بعضه ببعض.

وهناك عندما تتحول الجبال بكل رسوخها وقوتها إلى شكل من أشكال الصوف، لتصير هباء تذروه الرياح.

وهناك توزن أعمال الخلائق:

فمن ثقلت حسناته وتناوله فضل ربه كانت له عيشة الجنة التي يرضى عنها وبها، ومن خفت أعماله لكفره وطغيانه كانت له جهنم يهوي في قعرها.

هناك حيث يجد النار بكل حرارتها تأخذ منه كل مأخذ ونار الدنيا فيها لا تعدل جزءاً من سبعين كما قال عليه وآله وصحبه السلام.

دليل سورة القارعة ـ ١٠١

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ١١ آية.
- تأكيد عظم هول يوم القيامة التي تقرع الأسماع.
- تصوير الناس والجبال كيف تكون من هول يوم القارعة.
- بيان أهل الجنة وأهل النار.

فتبرز الأمور التالية :

١ ـ بأسلوب الاستفهام المتكرر يؤكد المولى سبحانه شدة رعب يوم الحساب ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢﴾.

٢ ـ ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤﴾ فينتشر البشر من رعب ما يرون كأنهم فراش منتشر في كل مكان ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾ فتطاير من الرياح.

٣ ـ مقارنة بين أصحاب الأعمال الصالحة وعيشتهم الهنيئة وبين أصحاب الأعمال السيئة والنار الحامية التي تنتظرهم ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾.

سورة التكاثر (١٠٢)

التقديم

فالمولى عز وجل ينعى على الناس، مسلمهم وكافرهم، الانشغال في تكثير المال والولد، ويدعوهم بتكرار زيارة القبور لما فيها من العبرة والتذكرة.

ويؤكد لهم بأنهم كلهم مساقون بأعمالهم إلى الجنة أو إلى النار، ويجزم لهم بأنهم سيسألون يوم القيامة عن كل نعيم أنعمه عليهم في الدنيا سواء في المال أو الولد أو الصحة أو غيرها ليستخدموها في طاعته سبحانه.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾

فاذكروا يا عباد الله أن المولى عز وجل العالم بكم يحذِّركم سواء كنتم مؤمنين أو كافرين ألا تنشغلوا في تكثير الأموال والأولاد والتفاخر بهما وبتكثيرهما، فإنهما بل كل الدنيا لا تعدل عند الله تعالى جناح بعوضة.

فليتفاخر الإنسان بينه وبين نفسه بطاعة الله تعالى والإكثار من التقرب والتضحية في سبيل الله تعالى.

وليذكر أنه متى حمل إلى القبر فقد ضاعت عليه فرصة العمل للتوبة والندامة،

وليذكر أن عليه أن يجد في زيارة القبور العبرة كل العبرة «كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنها تزهِّد في الدنيا وتذكّر بالآخرة» كما قال عليه وآله وصحبه السلام.

وليذكر الإنسان المسلم بالذات قول الرسول عليه وآله وصحبه السلام فيحرص أن يكون قبره روضة من رياض الجنة لا حفرة من حفر النار عندما يحمل إليه.

وليذكر أن الله تعالى يزجره عن السير في طريق يوصله إلى النار بل عليه أن يراجع يومياً حسابات أعماله ومدى قربها أو بعدها من طاعة الله تعالى.

وليتذكر أنه سيسأل يوم القيامة عن كل نعيم أنعمه الله تعالى عليه سواء في المال والولد أو الأمن والصحة أو العافية والفراغ أو الإدراك والعقل أو السمع والبصر أو الأكل والشرب أو غيرها مما لا يعد ولا يحصى من النعم في ذاته وأهله وأحبابه وأخوته في الدين.

وعندها يكون شاكراً لنعيم الله تعالى عليه في الدنيا ومستحقاً طيب الجزاء في الآخرة وإلا فالعياذ بالله وقع في الحسرة والهوان وظلم نفسه بمحض اختياره...

دليل سورة التكاثر ـ ١٠٢

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ٨ آيات.
- التحذير من استغراق الركض وراء المال والولد حياة الإنسان.
- الدعوة لتكرار زيارة القبور للعبرة والعظة.
- التأكيد بسوق الناس إلى الجنة أو إلى النار ليسألوا عن كل نعيم عايشوه.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ إنذار الناس من أن يلهيهم جمع المال وتكثير الولد عن العمل لآخرتهم.. ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾.

٢ ـ تأكيد علم الناس بما سيرونه من الجحيم أو النعيم يوم الحساب.. فليستعدوا

لذاك اليوم بإعطاء كل نعمة أنعمها الله عليهم حقها.. وإلا باؤوا بسوء الجزاء ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝٦﴾

سورة العصر (١٠٣)

التقديم

يتركز فيها قسم المولى عز وجل على العصر، الدهر، الزمان، لماذا؟

ليعلمنا سبحانه أن الحياة كلها ساعات أو أيام أو شهور، أو سنين من هذا الزمان، فاغتنموها قبل ضياعها.

يقسم المولى عز وجل بالدهر لما له من تعظيم ونهي عن سبِّه كما صرح رسوله عليه وآله وصحبه السلام بالنهي عن سب الدهر.

يقسم المولى عز وجل به ليؤكد لنا أن الإنسان كإنسان واقع بلا ريب بطبعه في الخطأ والخسارة في الدنيا والآخرة.

وأن أحداً لن يستثنى من ذلك إلا من يتصف بهذه الصفات الأربعة: أن يكون مؤمناً، وعاملاً بالصالحات، وموصياً لنفسه ولغيره بالحق، وبالصبر.

فليحرص المؤمن على ذلك لأنه الأولى من غيره بدافع رصيده الإيماني.

التفسير

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾

فقد أقسم المولى عز وجل بالعصر، أو بالزمن، سواء كان بالليل والنهار لما فيهما من دلالة على قدرة الله تعالى في تقليب الزمن وتحقيق المنافع لعباده.

أو كان العشي، لما فيه من نهاية الكد والتعب في النهار والركون للراحة والسكينة استعداداً للنشاط والحركة والسعي بجميع أنواعه في النهار.

أو كان آخر النهار، لما فيه من الانتهاء من السعي ومتاعبه في الرزق وغيره.

أو بصلاة العصر نفسها لترجيح القول بأنها الصلاة الوسطى وأفضل الصلوات ليحرص الإنسان على عدم إضاعتها بالنوم عنها بعد عناء النهار بطوله.

فكلٌ له تعظيمه عند خالق الزمن والأوقات كلها، فهو سبحانه وتعالى يؤكد أن الإنسان كإنسان في خسارة وهلكة وعقوبة وشر ونقص إلا المؤمنين إذا صحبوا إيمانهم بالعمل الصالح من أداء الفرائض والنوافل، وصحبوا ذلك بالتواصي فيما بينهم بالحق كما يراه الكتاب والسنة، إيماناً وتطبيقاً، وبالتواصي بالصبر على الطاعات وعن المعاصي.

فبذلك لا يخسرون بل يفوزون بإذن الله وفضله ورحمته.

ولذلك فليعمل العاملون.. ومن أولى به من المؤمنين؟!

دليل سورة العصر ـ ١٠٣

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ٣ آيات.
- يقسم المولى عز وجل فيها بالعصر دعوة لتقدير شأن الزمان.
- يقسم سبحانه بأن الناس كلهم إلى خسارة يوم الدين باستثناء من يتصفون بالإيمان والأعمال الصالحة والتواصي بالحق وبالصبر.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ إن القسم بـ ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١﴾ إنذار بتقديره بالطاعات لا إضاعته بالمهلكات.

٢ ـ إن جنس الإنسان إلى خسارة تبعاً لميله للشهوات وحبه للأموال والأولاد ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢﴾.

٣ ـ ولا يستثنى من الناس من الخسارة إلا من التزموا بأربعة مميزات هي الإيمان والأعمال الصالحة والتواصي بالحق أي: بالإسلام والتواصي بالصبر أي: بالثبات على الإسلام، مما يعني أن الإيمان وصالح الأعمال تعرَّضا للفتن والشدائد ولا يحمي صاحبها من الضياع إلا التواصي بالثبات على الحق وبالصبر على الأذى في طاعة الله تعالى ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾.

سورة الهمزة (١٠٤)

التقديم

فقد توجهت السورة لإعداد المسلمين في مكة الإعداد الروحي والخلقي اللازمين للفرد على الأساس الفكري الإيماني السليم.

وحذّرت من الهمز واللمز حتى لا تفسد الصلات الفردية.

وحذرت من الانشغال في جمع المال وكأنه السبيل المخلَّد في الحياة والمانع من الموت.

وحذرت من التكذيب بالحساب على ذلك كله بأن جزاءه النار التي تحرق الكافر حتى أعماقه، أعماقه التي عاشت وراء الحب والكره في متع الدنيا وشهواتها ولم تفكر في الخوف من عذاب الله تعالى والرغبة في جنته.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾﴾

فيا مسلمي مكة، احذروا هذه العادات الجاهلية من التفاخر بالأموال والأولاد على الآخرين، والتمتع بالهمز في كل حاضر، واللمز بكل غائب لمجرد أنه فقير أو قليل الأولاد والعشيرة. .

واذكروا أنكم أعضاء المجتمع الذي ينتظر منه أن يقود الناس لا لجمع المال وتكديسه على حساب الإيمان والطاعة وإنما الذي يجمعه وينفقه كما يحدد الإيمان الذي آمنتم به وأحكامه.

فمتى تجمَّع لدى الفرد منكم هذا الإيمان السليم، والعبادات الصادقة، والأخلاق القويمة، والمعاملات السليمة فقد اكتملت فرديته الإسلامية، وأصبح جاهزاً لعضوية المجتمع الإسلامي السليم.

فاحرصوا على ما يزيدكم من قوة التوادد والتراحم والصلات الإيمانية السليمة فيما بينكم.

واذكروا أن تكثير الأموال لن يعين على السعادة في الدنيا إلا بقدر ما هو مرتبط بالحلال والحرام ليوصل إلى الأخرى بسلام، وإلا فمن أنكر الحلال والحرام في ذلك فقد انتهى إلى النار التي تحطمه وتكسره، بل تحرقه وهي مطبقة عليه بأشد أنواع حرِّها.

واذكروا أن القلوب التي تعيش على المحبة والكره في الله تعالى هي الناجية يوم القيامة وإلا فويل لها من عذاب الآخرة.

دليل سورة الهمزة ـ ١٠٤

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ٩ آيات.

- الإنذار بالعذاب الشديد لكل همَّاز بكل حاضر ولمَّاز بكل غائب لمجرد فقره وقلة أولاده.

- الإنذار بنار مشتعلة تحطِّم كل من يلقى فيها لانشغاله بالهمز واللمز وتجميع الأموال وتكثير الأولاد على حساب الإيمان وطاعة الرحمن.

- الإنذار بوصف النار التي ستخلع القلوب الكافرة.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ التحذير من صفات الجاهلية لكل مسلم سواء بالطعن بالناس أو بتجميع الأموال على حساب الطاعات ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢﴾.

٢ ـ التذكير بأن الأموال مهما كثرت لن تخلِّد صاحبها ولن تحميه من عذاب الله ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾.

٣ ـ التحذير بأن النار الموقدة التي سيلقى فيها لا تفلت منها القلوب الكافرة.. ﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾.

سورة الفيل (١٠٥)

التقديم

فقد أشارت السورة إلى قدرة الله تعالى في حق أصحاب الفيل الذين جاؤوا مشتركين من اليمن مع الأحباش لهدم بيت الله الحرام على أثر عزمهم على تحويل قبلة الناس وحجهم من مكة إلى تلك الكنيسة الضخمة التي أنشؤوها في اليمن.

فكان أهل مكة عاجزين عن ردِّهم عن البيت فتولى المولى عز وجل ذلك بما أرسله من طيور قامت بقذفهم بحجارة أهلكتهم حتى كاد أن لا ينجو منهم أحد، لا هم ولا الحيوانات التي حملتهم.

فاعتبروا يا مشركي العرب، بل يا مشركي الأرض، بأن الله تعالى بيده النصر،

وقادر على تحقيقه لمن يشاء من عباده، ومتى يشاء وفي أيِّ مكان يشاء.. والمهم أن يوجد من يستحقه.

ولهذا لا بد من الإيمان والاطمئنان بـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾[الفجر: ١٤] لكل طاغية متكبر متجبر على الله تعالى وكتابه ورسوله.

التفسير

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ۝١ أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ ۝٢ وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ۝٤ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ۝٥﴾

فالمولى عز وجل يسأل رسوله المصطفى عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام، كما يسأل العرب والبشرية جمعاء، فيما إذا كانوا قد رأوا وعلموا ما فعله تعالى بأصحاب الفيل، أبرهة الأشرم ونجاشي الحبشة اللذين سار معهما من قومهما العدد الكثير عندما جاءوا بعزم لهدم الكعبة، مدفوعين بأحقاد وأطماع ذكر أن هدم كنيسة لهم كنصارى في اليمن كان منها، كما ذكر أن من هدم الكنيسة، ومن وضع فيها الوسخ، هما من أتباع مكة.

فالمولى عز وجل يدعو كل من له عقل أن يقرَّ بقدرته تعالى على نصرة من يستحق نصره، فبيته المحرم عندما لم يجد من ينصره أو لم يقدر على نصره تولى المولى عز وجل ذلك.

فاعتبروا يا طلاب النصر من الله، وكونوا ممن يستحقه.. وكفى.

دليل سورة الفيل ـ ١٠٥

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ٥ آيات.
- الإخبار عما حل بأصحاب الفيل من الهلاك لكيدهم هدم الكعبة.
- تحديد الطريقة التي قضت عليهم وعلى فيلهم برميهم بحجارة. .

فتبرز الأمور التالية :

١ ـ التذكير بقدرته تعالى على إنزال العقوبة الملائمة لكل عات متجبر ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾﴾.

٢ ـ التحذير بأن من سعوا لهدم الكعبة قد جاءتهم العقوبة بالرمي بالحجارة ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾﴾.

سورة قريش (١٠٦)

التقديم

قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم».

فقريش هم أهل الحرم الذين تجمعوا حوله حيث يجدون الأمن والأمان من عدوان الشعوب والقبائل عليهم وهم أهل تجارة لا زراعة.

وفي السورة تذكير لهم من المولى عز وجل بما منّه عليهم منذ ذلك الأمان في عيشهم بسبب بيته المحرم، وأن الأولى بهم أن يبادروا للالتفاف حول من يقدس هذا البيت ويجعله قبلته لا أن يرفضوه ويكذبوه ويناصبوه العداء بل يستعدوا الآخرين عليه!!

ولذلك جاء لهم الأمر بعبادة الله تعالى بتحديد أمرين اثنين امتنَّ بهما عليهم:

إنه إطعامهم مما هم فيه من الجوع، وتحقيق الأمن لهم من كل خوف.

وفي الأمرين كل ما يريده أيَّ مجتمع من المجتمعات من أسباب الخير، وتوفير الجو اللازم للنمو والازدهار.

كيف لا والطعام كناية عن حل المشكلة الاقتصادية للمجتمع المكي بكامله، فلا يجوع أحد،

والأمن من الخوف كناية عن حل المشكلة الأمنية للمجتمع فينطلق باطمئنان وأمان وسلام في عيشه.

في عيشه في الدنيا، مما يمكّنه من الانصراف إلى عبادة خالقه الذي وفَّر له ذلك دون أيِّ تنغيص.

التفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ① إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ② فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ③ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ④﴾

بدأت السورة ممتناً سبحانه وتعالى عليهم بهذا التجمع المكي الآمن في رحلتيهم التجاريتين:

رحلة الشتاء لليمن ورحلة الصيف للشام، فيستمتعون بجو الدفء في اليمن والاعتدال في الشام كما يعودون بالتجارات منهما، كما يستمتعون بالأمن من السبي والأمراض التي كانت تصيب غيرهم.

ودعاهم سبحانه وتعالى لذلك لشكره وعبادته الصادقة وخاصة وقد حماهم من أصحاب الفيل كما وفر لهم هذا الخير في الصيف والشتاء.

فأين شكر المنعم المتفضل؟!

دليل سورة قريش ـ ١٠٦

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ٤ آيات.
- تذكير لقريش بنعمة الأمان في حياتهم لوجود البيت الحرام.
- الأمر لقريش بعبادة الله تعالى رب البيت الذي بوجوده حقق لهم الأمان.
- منّة الله تعالى على قريش بتوفير الطعام لهم وتحقيق الأمن في ربوعهم. .

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ إن في ذكر رحلتي الشتاء لليمن والصيف للشام دعوة للرحلات الخارجية طلباً للتجارة ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ① إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ②﴾.

٢ ـ الدعوة لعبادة رب البيت الذي حقق لهم الخيرات الكثيرات بدلاً من تكذيب رسوله.

٣ ـ إن الإشارة لتوفير الطعام وتحقيق الأمن إشارة لأخطر عاملين يوفران الاستقرار لكل مجتمع ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾.

سورة الماعون (١٠٧)

التقديم

إن المولى عز وجل يستثير القارئ والسامع، يستثير عقله بهذا الأسلوب الخطابي الاستفهامي البليغ وهو يربط بين التكذيب بالجزاء والحساب يوم القيامة بالإساءة لليتيم والمسكين ومنع الرفد عنهما.

وربط ذلك بالمصلين الذين لا يخلصون أو لا يحرصون على صلواتهم لا من حيث الوقت ولا الأداء إلا وتخالطها المجاملة أو الرياء.

وربط ذلك بمنع أبسط أنواع العون والمساعدة كإعارة أدوات الطبخ للقريب أو البعيد.

فليحذر المسلم من ذلك وليحرص على طاعة الله تعالى ليس بالإيمان بالجزاء فقط بل بالإحسان لأهل الإحسان جنباً إلى جنب مع القيام بالصلوات بشكل كامل.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾

هل رأيت وعلمت يا صاحب العقل ما يفعله منكر الحساب والجزاء يوم الدين؟!

لقد كلَّف المولى الخلق في الدنيا وابتلاهم بالصبر على الأذى في سبيل الحق وعن المعاصي، فكيف لا يثيب المحسن ولا يعاقب المسيء؟!

واعلموا أن من ينكر الحساب على أعماله هو الذي يجرؤ على اليتيم فيمنع عنه الإحسان، وبأسلوب فظّ لأنه لا يخشى عقاباً على ذلك.

فانظروا إلى أبي سفيان وهو يضرب في جاهليته اليتيم ويمنع عنه العون لأنه لا ينتظر ثواباً على ذلك يوم الدين.

وانظروا إليه لا يطعم المسكين ولا يدعو غيره لإطعامه.. لماذا؟

لبخله وتكذيبه بالجزاء.

وانظروا إلى المرائين المتكاسلين في صلاتهم.

إنهم المنافقون الذين يحسّنونها للناس ويهملونها لرب الناس !

وانظروا إلى من يحسّن صلاته لا لمغنم دنيوي ولكن طلباً للمثوبة من الله تعالى.

وانظروا إلى من يمنع حتى أدوات مطبخه عن إعارتها لغيره، وإلى من يمنع الكلأ والماء أو كليهما.. إنه الآثم.

فليحذر المسلم التقي من ذلك، وليحذر من تخريب الأخوة الإيمانية بينه وبين المسلمين ببخله عن المساعدة والأمر بها لهم.

دليل سورة الماعون ـ ١٠٧

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ٧ آيات.
- استنكار التكذيب بيوم الدين ممن يسيء لليتيم والمسكين لأنه لا يخشى عقاباً.
- الإنذار بالعذاب الشديد للمصلين الذين يتركون صلاتهم لله ويحسِّنونها للناس.
- إنذار من يمنع إعارة أدوات مطبخه لغيره لما في ذلك من إفساد التراحم بين الناس. .

فتبرز الأمور التالية :

١ ـ بأسلوب الاستفهام الاستنكاري ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾ تستثير السورة العقول والنفوس لمعرفة هذا المكذب.

٢ ـ ربط التكذيب بيوم الحساب بالإساءة لليتيم والمسكين تأكيد على أهمية مثل هذا التراحم معهم والإحسان اليهم ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾.

٣ ـ وربط العذاب الشديد للمرائين في صلاتهم لكسب مغنم من الناس بمنع إقراض أو إعارة ما يمكن من أدوات المطبخ أو غيرها وفي ذلك تشديد على أهمية هذه الأشياء في توطيد الصلات المجتمعية بين الناس ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾.

سورة الكوثر (١٠٨)

التقديم

فسواء كان الكوثر نهر في الجنة أو حوض فيها أو غير ذلك من الأقوال الكثيرة التي تشمل النبوة أو القرآن أو الأصحاب أو الشفاعة أو الشهادتين أو الصلوات الخمس أو غيرها.

والراجح هو النهر أو الحوض بدلالة قوله عليه وآله وصحبه السلام «الكوثر نهر في الجنة، حافَّتاه من ذهب، ومجراه على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج».

فالمولى عز وجل يمتنُّ على رسوله بأن أعطاه هذا الكوثر، ثم يأمره بالصلاة، صلاة العيد، فالنحر يوم النحر.

ويؤكد له عليه وآله وصحبه السلام بأن مبغضه هو الأبتر، هو المقطوع الذِّكر في الدنيا والآخرة لأن الرسول عليه وآله وصحبه السلام سيملأ ذِكره الدارين.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾

فاطمئن يا محمد أن ربك عندما أعطاك نهر الكوثر في الجنة، لك ولأمتك التي ترد عليك الحوض، وبيّن لك أن الصلاة يوم عيد الأضحى تكون أولاً ثم النحر بعدها، وذلك للتفرغ للذبح والتوسعة على الفقراء والمحتاجين في ذلك اليوم بعد أن وسعتم على أنفسكم بالصلاة وكسب الثواب منه تعالى، فإنه تعالى أمركم بالتوسعة على أنفسكم بكسب الثواب بتقديم هذا الطعام يوم عيد الأضحى، اليوم الذي يشتهي فيه الفقير، حاجاً أو غير حاج ألا وهو أكل اللحم، فيجده برفدكم.

اطمئن يا محمد بأن ربك بعد ذلك لا يمكّن لأذى العاص بن وائل أو عقبة بن أبي معيط أو غيرهما من قولهما بأنك المقطوع الذِّكر في الدنيا أو فاقد الولد أن يجعل له

قيمة في حياتك، لأنه سيجعلك أنت الدائم الذِّكر في الدنيا والآخرة، وأن الذي يبغضك من هؤلاء وغيرهم هو الأبتر.

وكيف يكون الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام أبتر وذِكره يتعالى على السمع في الآفاق مدى الزمان؟!

فاطمئنوا يا أتباع محمد بأنكم بقدر تمسككم بالاقتداء به عليه وآله وصحبه السلام بقدر ما يتحقق لكم الذِّكر من خلال النصر على أعدائكم، وبعدها من خلال ورودكم الحوض على نبيكم عليه وآله وصحبه السلام.

فاحرصوا على ذلك والله معكم ولن يتركم أو ينقص من ثواب أعمالكم.

دليل سورة الكوثر ـ ١٠٨

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ٣ آيات.
- إخبار المولى سبحانه لرسوله عليه وآله وصحبه السلام بأنه قد أعطاه نهر الكوثر في الجنة.
- ثم يأمره بالصلاة يوم عيد النحر قبل أن ينحر أضحيته.
- ثم يؤكد له بأن من يبغضه هو الأبتر. .

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ قد جاءت قبل ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢﴾ لتطمئن الرسول عليه وآله وصحبه السلام وأمته بأن المطلوب منهم مقابل عطية الكوثر أن يقوموا بالنحر بعد الصلاة ليعطى الفقراء والمحتاجون.

٢ ـ ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣﴾ تأكيد آخر للرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن العاص بن وائل أو عقبة بن أبي معيط هما من سيكون أبتراً مقطوع الذكر وليس أنت يا محمد لأن ذكرك سيملأ الدنيا والآخرة.

سورة الكافرون (١٠٩)

التقديم

فبغضِّ النظر عمن عرض على الرسول عليه وآله وصحبه السلام من الكفار لترك دينه ومشاركتهم في دينهم مرة ليشاركوه في دينه بالمقابل مرة أخرى فإن هذا لا يجيزه

رب العالمين، إذ كيف يُعبد المولى عز وجل يوماً وتعبد الأصنام في اليوم الآخر فتكون النَّد له سبحانه وتعالى؟!!

وانظر إليه تعالى وهو يؤكد ويؤكد تحريم ذلك، لا منعاً لهم من الدخول في دين الإسلام وعبادتهم لله تعالى ولكن منعاً لهذا الاستخفاف في العبادة بإشراك أصنامهم مع الله تعالى.

فليحذر المسلمون ذلك، وليثبتوا على دينهم وعبادتهم مهما تعرضوا من إغراء أو تهديد ووعيد.

التفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾

فيا عتاة قريش، من الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب وأمية بن خلف، عليكم أن تكفوا عن عرض أن تعبدوا الله تعالى يوماً وتعبدوا أنتم يا محمد واتباعه أصنامهم بالمقابل في اليوم اللاحق.

واعلموا أنه من المستحيل الجمع بين الإيمان والكفر في القلب وفي العمل وفي القول.

وعليكم أن تسيروا على الحق وعبادة الحق الذي عليه محمد عليه وآله وصحبه السلام وأتباعه المؤمنون.

وعليكم أن تتخلوا عن باطلكم وكفركم.

وإن أصررتم فعليكم كفركم تتحملون وزره بمفردكم في الدنيا بما ستقابلونه من خزي وعار، وفي الآخرة بما ينتظركم من شديد العذاب.

واذكروا يا أتباع رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بأن عتاة قريش قد عرضوا على رسولكم ليكون أغناهم، أو ليملّكوه عليهم، أو ليزوجوه بمن يشاء من بناتهم إن قبل مشاركتهم في عبادتهم.

فماذا كان الجواب الرباني؟

إنه الرفض الحاسم الذي لا يحتمل التردد ولا المهادنة، ويبقى الجدال بالتي هي أحسن في الأسلوب فقط لا في اللبِّ والجوهر.

فهل أدركتم ذلك يا أتباع محمد عليه وآله وصحبه السلام؟؟

دليل سورة الكافرون ـ ١٠٩

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ٦ آيات.

- تخبر الكافرين برفض عبادة أصنامهم وهم لا يعبدون الله تعالى مع أصنامهم.

- ويؤكد عليه وآله وصحبه السلام رفض هذا الاستخفاف بالعبادة إذ لكل عابد دينه الذي لا يلتقي مع دين غيره.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ أمر مشركي مكة بالكف عن عرض تبادل عبادة الاصنام مع عبادة الله تعالى بتأكيد هذا مكرراً لأن الحق لا يمكن أن يجتمع مع الباطل ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ① لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ②﴾.

٢ ـ الإشارة لتذكير المسلمين بعروض قريش على الرسول عليه وآله وصحبه السلام لأن يكون أغناهم أو ملكاً عليهم أو زوجاً بمن يريد من بناتهم.. ولكنه رفض ذلك كله.

سورة النصر (١١٠)

التقديم

قال ابن عباس في صحيح مسلم بأنها آخر سورة نزلت من القرآن.

ويروى أن العباس رضي الله عنه قد بكى بعد نزول هذه السورة فسأله الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم عن ذلك فقال: نعيت إليك نفسك، فقال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم «إنه لكما تقول».

وروي أن الرسول عليه وآله وصحبه السلام كان في آخر أمره بعد نزول هذه السورة لا يقوم ولا يقعد ولا يجيء ولا يذهب إلا قال «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه»، وقال «إني أمرت بها» ثم قرأ السورة.

التفسير

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾

فاذكر يا محمد عندما يأتيك نصر الله تعالى بالانتصار على قريش وتُفتح عليك مكة.

وعندما ترى الناس من العرب خاصة، بمن فيهم أهل اليمن، قد أخذوا يدخلون في دين الله الإسلام أفواجاً، فما عليك إلا أن تسبح ربك بالصلاة والتسبيح، وأن تستغفره، فتطلب لنفسك ولأمتك من بعدك ناهيك عمن معك، مهما كان الواحد منهم محسناً، تطلب له المغفرة، المغفرة من فضل الله تعالى ورحمته ولا تكتفي ولا تقف عند طلب العدل منه تعالى في قضائه، فلا أحد يحتمل ذلك لكثرة ما عليه الخلق من التقصير والأخطاء «كل ابن آدم خطَّاء، وخير الخطائين التوابون».

فاذكروا قول الرسول عليه وآله وصحبه السلام وأديموا التوبة إلى الله تعالى مراراً وتكراراً مع كل ذنب وخطأ.

واذكروا أن الرسول عليه وآله وصحبه السلام وقد رأى أهل اليمن يقدمون عليه جماعات وجماعات فقال «أتاكم أهل اليمن، هم أضعف قلوباً، وأرق أفئدة، الفقه يمان والحكمة يمانية».

واذكروا ما حل به عليه وآله وصحبه السلام من غمٍّ وهو يشير للردة «إن الناس دخلوا في دين الله أفواجاً وسيخرجون من دين الله أفواجاً».

وهل هو أمر الردة من بعدك يا رسول الله.. فما أشبه اليوم بالبارحة!!

دليل سورة النصر ـ ١١٠

- إنها سورة مدينة، وأنزلت في ٣ آيات، وتسمى سورة التوديع .

ـ بكاء العباس رضي الله عنه عند نزولها لأنها تنعي الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

- عرف عن الرسول عليه وآله وصحبه السلام بعد أن أنزلت دوام الذكر بـ«سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه».

- تشير السورة لقرب فتح مكة ودخول الناس بعدها في الإسلام جماعات جماعات. .

فتبرز الأمور التالية :

١ ـ دعوة الرسول عليه وآله وصحبه السلام بحمد الله تعالى واستغفاره والتوبة إليه مع نصره تعالى له بفتح مكة ودخول الناس في الإسلام ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ﴾.

٢ ـ كان الدخول في الإسلام قبل فتح مكة فردياً وأصبح بعده جماعياً مما يشير لأهمية الفتوح الكبيرة في نشر الإسلام في الأرض ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾.

٣ ـ ربط الأمر بحمد الله تعالى واستغفاره والتوبة إليه دليل على أن مثل ذلك مأمور به المسلم مع كل خير يتفضل به الله تعالى عليه. .﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا تَبَّتۡ﴾.

سورة المسد (١١١)

التقديم

روى ابن عباس رضي الله عنهما أنه لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١٤] صعد رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم الصفا وأخذ يهتف: يا صباحاه ! فاجتمعوا إليه فقال: «يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب!» فاجتمعوا إليه، فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟» قالوا: ما جرَّبنا عليك كذباً، قال «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: تبّاً لك: أما جمعتنا إلا لهذا؟! ثم قام فنزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ السورة.

السورة التي يدعو المولى عز وجل على أبي لهب بالخسران من باب الإخبار أنه خاسر، وتوضِّح أن الظن بأن ماله سيغنيه ويمنعه من هذا الخسران ظن فاسد، وأنه سينتهي إلى نار جهنم هو وزوجته أم جميل التي كانت تؤذي الرسول عليه وآله وصحبه السلام.

وهذا هو حال ومآل كل مؤذ للإسلام وأهله.

التفسير

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ۝٥﴾

فاعلم يا أبا لهب، ومن على شاكلته ممن يتصدون للإسلام ورسالته ودعوته، بأن الله تعالى يؤكد لكم بأنكم أنتم الخاسرون في الدنيا وفي الآخرة وليس الإسلام والمسلمون مهما حاولتم أن تصوروهم وتطعنوا بهم بأسماء أو نعوت بعيدة كل البعد عن الحق في القصد منها.

واعلموا أن الإسلام ودعوته أصولية فعلاً إذ تريد العودة للأصول الإسلامية، ولكنكم لا تقصدون هذا.

إنكم تقولون إن هذه الحركة الإسلامية إرهابية وهي فعلاً ترهبكم وتخيفكم بمعنى قوله عليه وآله وصحبه السلام «نصرت بالرعب مسيرة شهر» وقوله تعالى ﴿تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾.

فأنت يا أبا لهب وزوجك أم جميل التي تلقي الحطب والشوك في طريق الرسول عليه وآله وصحبه السلام أنتم الخسارى، وأنها ستشد بحبل الشوك في نار جهنم.

وبالفعل فإنها قد خنقت وماتت في ذلك الحبل.

وأما أبو لهب فقد قتل بالجمرة الخبيثة شر قتلة بعد موقعة بدر، إذ أنتن فلم يجرؤ حتى أولاده من أن يقتربوا منه خوفاً من العدوى، ثم ألقوه إلى جدار وطرحوا فوقه كومة من الحجارة بعد أن رشُّوه بالماء ليخففوا شيئاً من رائحته القذرة.

فأخزاه الله وامرأته حياً وميتاً.

فاخشوا ذلك يا من تتصدون للإسلام ودعاته بالتجبر والأذى كذباً واستجداء لرضى الكفار!!

دليل سورة المسد ـ ١١١

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ٥ آيات.

- يخبر المولى سبحانه بأن أبا لهب خاسر ولن يغنيه ماله شيئاً من نار جهنم هو وزوجته أم جميل التي كانت تؤذي الرسول عليه وآله وصحبه السلام بالشوك والحطب تلقيه في طريقه.

- إن من يمارس الأذى ضد الإسلام وأهله في الدنيا يعذب نفسه بنفس الشكل في نارجهنم.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ توجيه الدعاء الرباني إلى يد أبي لهب بالهلاك كناية عن كلِّيته وتخصيصاً لإساءات يده ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾.

٢ ـ عُرف أن زوجه أم جميل قد خنقت وماتت بذلك الحبل فكان الجزاء بنفس الأسلوب.

٣ ـ وقتل أبو لهب بعد موقعة بدر بالجمرة الخبيثة شر قتله فاستقذره حتى أولاده.

سورة الإخلاص (١١٢)

التقديم

طلب المشركون من الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام: انسب لنا ربك، فأنزل الله عز وجل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ وقال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم في فضلها «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن».

وقال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم لأصحابه «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟» فشق عليهم ذلك فقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: «الله الواحد الصمد ثلث القرآن».

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾

فقد سأل المشركون الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم أن يصف لهم ربه أو ينسبه لهم فنزلت السورة.

نزلت السورة تقول: قل لهم يا محمد بأنه هو الله الواحد الوتر الذي لا شبيه له ولا نظير ولا صاحبة، ولا ولد ولا شريك.

فهو سبحانه الصمد الذي يُصمد إليه في الحاجات، وهو الدائم الباقي الذي لا يلد، كما ولدت مريم، ولا يولد كما ولد عيسى وعزير عليهما السلام، لأنه ليس من شيء يحصل له ذلك إلا ويموت، وليس من شيء يموت إلا يورث، وهو سبحانه المستغني عن كل أحد، والمحتاج إليه كل أحد، وهو الكامل الذي لا عيب فيه، وهو الذي لا شبيه ولا عدل ولا مثيل له.

وبالمناسبة يقال بأن القرآن ينقسم إلى ثلاثة أثلاث: ثلث للأسماء والصفات الربانية، وثلث للأحكام الشرعية، وثلث وعد ووعيد، وهذه السورة تشتمل على الثلث الأول ولذلك قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بأنها تعدل ثلث القرآن أي: إن قراءتها تعدل ثواب ثلث تلاوة القرآن، كما قال بالإشارة لكلمة الصمد بأن «الله الواحد الصمد ثلث القرآن».

وسمع رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم من يقرأها فقال «وجبت» فسألوه: وما وجبت؟ قال «الجنة».

فعليكم يا أتباع محمد أن تحرصوا على قراءتها في صلواتكم دائماً، وأثناء الدعاء والثناء بعدها، ومع كل خاتمة عمل تقدمون عليه، وعندما تأوون إلى فرشكم كل ليلة.

وما أعظم هذه السورة في اسمها وجسمها؟!

دليل سورة الإخلاص ـ ١١٢

- إنها سورة مكية، أنزلت في ٤ آيات.
- جاءت جواب المشركين على طلبهم من الرسول عليه وآله وصحبه السلام: انسب لنا ربك.
- (والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن) في ثواب تلاوتها.

فتبرز الأمور التالية :

١ ـ تدل (الله الصمد) على أنه لا يحتاج لأحد وكل أحد يحتاج إليه سبحانه.

٢ ـ وتدل (لم يلد ولم يولد) على أنه ليس كما ولد آدم زوجه حواء ولا كما ولد عيسى بن مريم.

٣ ـ وتدل (ولم يكن له كفواً أحد) على أنه لا شبيه ولا عدل ولا نظير له.

سورة الفلق (١١٣)

التقديم

قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم لعقبة بن عامر بشأن المعوذتين «يا عقبة، تعوَّذ بهما، فما تعوَّذ متعوِّذ بمثلهما»، وقال عليه وآله وصحبه السلام «قل هو الله أحد والمعوذتين حين تمسي، وحين تصبح ثلاثاً، يكفك كل شيء».

وروي في الصحيحين أن اليهودي لبيد بن الأعصم قد سحر النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، فأنزل تعالى سورتي الفلق والناس وأمر أن يتعوذ بهما فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة حتى انحلت العقدة الأخيرة فكأنما أنشط من عقال، ورقاه جبريل عليه السلام (باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر حاسد وعين، والله يشفيك).

هذا مع العلم أن قصة سحر لبيد للرسول عليه وآله وصحبه مشكوك فيها من باب الدراية أكثر من الرواية، والله أعلم...

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾

كان صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم إذا اشتكى قرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث، وكان كما يقال عدد عقد سحر لبيد للرسول عليه وآله وصحبه السلام إحدى عشرة بعدد آيات المعوذتين، فأمر أن يتعوذ بهما فانحلت العقد.

وقد جاءت هذه السورة والناس من بعدها يتعوذ بهما المسلم من كل أذى وضرر.

وقد أمرت السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام وكل فرد من أمته أن يلجأ إلى الله رب الفلق، مما يشمل كل ما انفلق أو انشق عن جميع ما خلق تعالى من حيوان، ونبات، وصبح، وأمر، أن يلجأ إليه تعالى طالباً منه العون ضد شر إبليس وذريته، وشر كل ما يجلب الشر، وبالذات من شر الليل إذا أظلم أو أيِّ شيء إذا انطوى على شر.

ومن شر النفاثات أي: الساحرات اللواتي ينفثن في العقد لإيقاع السحر على الآخرين فيؤذونهم، مما يجعله شركاً بقوله عليه وآله وصحبه السلام «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئاً وكل إليه» أي: علق شيئاً من تمائم الجاهلية معتقداً نفعها أو ضررها من دون الله تعالى.

كما يلجأ إليه تعالى طالباً عونه من شر حاسد إذا تمنى زوال النعمة عن غيره لتعود إليه وأما لو غبطه فتمنى مثلها فليس بحرام.

وقال عليه وآله وصحبه السلام «ثلاثة لا يستجاب دعاؤهم: آكل الحرام، ومكثر الغيبة، ومن كان في قلبه غلٌّ أو حسد للمسلمين».

فيا مسلمون، ويا دعاة الإسلام التزموا دوام قراءة هذه السورة في كل حركاتكم وسكناتكم.. فلعل الله أن يعيذكم من الشيطان وأتباعه وهم الذين يتفننون في الكيد لكم.

دليل سورة الفلق ـ ١١٣

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ٥ آيات.

- تبدأ بأمر التعوذ واللجوء إلى رب الفلق من شر كل مخلوق وبالذات إبليس وذريته والليل وظلمته والساحرات ونفثهن في العقد، والحاسد وشر حسده.

- (ياعقبة، تعوَّذ بهما فما تعوَّذ متعوِّذ بمثلهما) أي: سورتي الفلق والناس .

فتبرز الأمور التالية :

١ ـ إن اللجوء إلى الله تعالى مأمور به المسلم ضد كل شر يخشاه ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾﴾.

٢ ـ ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾﴾ بيان لأسلوب من أساليب السحر الذي تقوم به النساء عادة بالنفث أو النفخ في العقد مما يجزم بوقوعه وشره.

٣ ـ ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ بيان تحريم حسد النعمة وزوالها عن أخيه لتعود إليه، وأما الغبطة فجائزة لأنها تمني مثلها.

سورة الناس (١١٤)

التقديم

قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم لعقبة بن عامر «لقد أنزل الله عليَّ آيات لم ير مثلهن: قل أعوذ برب الناس، إلى آخر السورة، وقل أعوذ برب الفلق، إلى آخر السورة».

التفسير

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾

فقد طلب المولى عز وجل من رسوله المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم أن يلجأ إلى رب الناس ومالكهم ومصلح أمورهم، ومعبودهم، من شر الشيطان الذي يوسوس في صدور الناس ويخنس ويتأخر كلما ورد ذكر الله تعالى.

وبخصوص الشيطان قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم «إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإذا ذكر الله خنس، وإذا نسي الله التقم قلبه فوسوس».

وذكر الله أيها المسلمون لا يكون بالقول فقط ولكنه مع العمل يكون أشد، ولا يكون مع الضر والعسر فقط ولكنه مع اليسر أشد.

فالشيطان يحاول أن يبعد المؤمن عن هدى الله تعالى أو يشككه في يقينه، وقد بيَّن ذلك عليه وآله وصحبه السلام عندما قال «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم» فالمؤمن يلجأ إليه تعالى ليخلِّصه من هذه الوسوسة التي يشترك فيها شياطين الجن وشياطين الإنس، عندما يعبثون في النفوس.

والرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام قال «إن الله عز وجل تجاوز لأمتي عما حدَّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به».

فاللهم أعذنا من شياطين الإنس والجن، واكتبنا عندك من عبادك الصالحين، وخذ

بأيدينا لنصرة هذا الدين وإعلاء رايته وتطبيق أحكامه وإعادة خلافته.. فأنت نعم المولى ونعم النصير.

وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢].

دليل سورة الناس ـ ١١٤

- إنها سورة مكية، وأنزلت في ٦ آيات.

- تبدأ السورة بالأمر باللجوء إلى رب الناس ومالكهم ومعبودهم للتخلص من شر إبليس وجنده سواء كانوا من الجن أو الناس.

- «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم» فالمؤمن يلجأ إلى الله تعالى للتخلص من وسوسته التي يشترك فيها مع الموسوسين من البشر.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ التقديم للاستعاذة بالثناء على الله تعالى (برب الناس، ملك الناس، إله الناس) تعليم لشكل الدعاء في اللجوء الأفضل.

٢ ـ «إن الله عز وجل تجاوز لأمتي عما حدَّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به» فلتمت وساوس إبليس وزبانيته من الجن والإنس مع خواطرها، وليطمئن المسلم إلى رحمة الله تعالى به وفضله عليه.

❑❑❑

دعـــــاء

اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك باسمك الأعظم، بأسمائك الحسنى، بكل اسم سميته لنفسك، أو أنزلته في كتابكَ أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في مكنون الغيب عندك أن تجعل القرآن الكريم ربيع قلبي ونور عيني وجلاء حزني وذهاب همّي وغمّي.. يا أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين يا حي يا قيّوم.

اللهم أنت ربّي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.. رضينا بالله تعالى رباً، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن إماماً وبسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم نبياً ورسولاً، الصلاة والسلام عليك يا سيدي يا رسول الله في كل نفس وحركة وسكنة بعدد ما وسعه علم الله.

اللهم أنت رب الأرضين والسموات وأنت ربي، أنت رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما، ارحمنا برحمة من عندك تغنينا بها عن رحمة من سواك.. يا أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين يا حي يا قيوم.

اللهم هذه ثمرة جهد عبدك وابن عبدك وابن أمتك، وزوج أمتك، ووالد عبديك وإمائك، وأخ عبيدك وإمائك، فلا تؤاخذني إن نسيت أو أخطأت، وتقبله مني خالصاً لوجهك الكريم، واجعله في ميزان حسناتي عندك يوم الدين، وميزان حسنات كل من يقبل عليه قراءة وعملاً والتزاماً إلى يوم الدين.. واجعل منه لبنة في صرح دولة الخلافة الراشدة الموعودة .. يا أكرم مسؤول وخير مأمول يا حي يا قيوم.

اللهم إننا بين يديك وأنت أعلم بنا من أنفسنا، فقد تكالب علينا الكفر والعدوان والظلم والطغيان، فبرحمتك نستغيث فأغثنا وأصلح لنا شأننا كله ولا تكلنا لأنفسنا طرفة عين ولا أكثر من ذلك ولا أقل .. يا أكرم مسؤول وخير مأمول يا حي يا قيوم.

اللهم هذا حالنا بين يديك لا يخفى عليك فعاملنا بالإحسان إذ الإحسان منك وإليك، وتولانا بعين عنايتك ورعايتك، وخذ بأيدينا لكل ما تحبه وترضاه في الدنيا والآخرة، وانصرنا وانصر بنا، يا سميع الدعاء ورب الكرماء يا حي يا قيوم.

اللهم لا تعاملنا بما نحن أهله : فقد كثرت ذنوبنا، وعظم تقصيرنا، وظلمنا أنفسنا، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين، وعاملنا بما أنت أهله من الجود

والكرم والإحسان واللطف والعفو والغفران، ويسِّر لنا أمر إقامة حكم شريعتك ورفع راية دينك.. فالشريعة شريعتك والخلافة خلافة نبيّك والدين دينك وأنت سبحانك أدرى بحدود قدراتنا منا.. فنصرك عوننا ورضاك مبتغانا .

ولا حول ولا قوة بنا ولنا إلا منك وإليك.

وصلِّ اللهم وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه واتبع سنته وسار على طريقته وعمل لإعلاء كلمة ربه وجاهد تحت راية دينه.. وسلم تسليماً كثيراً، يا أكرم مسؤول وخير مأمول يا حي يا قيوم، يا سميع يا قريب يا مجيب .. لك الحمد وحدك يا الله .. يا رب العالمين .. يا أرحم الراحمين .

والحمد لله رب العالمين

الفهرس

سورة فصلت (٤١) ٣
التقديم ٣
التفسير ٥
دليل سورة فصلت ١٣
سورة الشورى (٤٢) ١٥
التقديم ١٥
التفسير ١٩
دليل سورة الشورى ٣٢
سورة الزخرف (٤٣) ٣٤
التقديم ٣٤
التفسير ٣٨
دليل سورة الزخرف ٤٩
سورة الدخان (٤٤) ٥٠
التقديم ٥٠
التفسير ٥٢
دليل سورة الدخان ٥٨
سورة الجاثية (٤٥) ٥٩
التقديم ٥٩
التفسير ٦٢
دليل سورة الجاثية ٦٨
سورة الأحقاف (٤٦) ٦٩
التقديم ٦٩
التفسير ٧٠
دليل سورة الاحقاف ٧٨

سورة محمد (٤٧) ٨٠
التقديم ٨٠
التفسير ٨٣
دليل سورة محمد ٨٩
سورة الفتح (٤٨) ٩١
التقديم ٩١
التفسير ٩٣
دليل سورة الفتح ٩٩
سورة الحجرات (٤٩) ١٠٠
التقديم ١٠٠
التفسير ١٠٣
دليل سورة الحجرات ١١١
سورة ق (٥٠) ١١٣
التقديم ١١٣
التفسير ١١٥
دليل سورة ق ١٢٢
سورة الذاريات (٥١) ١٢٣
التقديم ١٢٣
التفسير ١٢٤
دليل سورة الذاريات ١٢٩
سورة الطور (٥٢) ١٣٠
التقديم ١٣٠
التفسير ١٣١
دليل سورة الطور ١٣٤
سورة النجم (٥٣) ١٣٥
التقديم ١٣٥
التفسير ١٣٦
دليل سورة النجم ١٤٢

سورة القمر (٥٤) **١٤٣**
التقديم ١٤٣
التفسير ١٤٤
دليل سورة القمر ١٤٨
سورة الرحمن (٥٥) **١٤٩**
التقديم ١٤٩
التفسير ١٥٠
دليل سورة الرحمن ١٥٥
سورة الواقعة (٥٦) **١٥٦**
التقديم ١٥٦
التفسير ١٥٧
دليل سورة الواقعة ١٦٣
سورة الحديد (٥٧) **١٦٤**
التقديم ١٦٤
التفسير ١٦٥
دليل سورة الحديد ١٧١
سورة المجادلة (٥٨) **١٧٢**
التقديم ١٧٢
التفسير ١٧٣
دليل سورة المجادلة ١٧٩
سورة الحشر (٥٩) **١٨٠**
التقديم ١٨٠
التفسير ١٨١
دليل سورة الحشر ١٨٨
سورة الممتحنة (٦٠) **١٨٩**
التقديم ١٨٩
التفسير ١٩٠
دليل سورة الممتحنة ١٩٥

سورة الصف (٦١) **١٩٦**
التقديم ١٩٦
التفسير ١٩٧
دليل سورة الصف ٢٠١
سورة الجمعة (٦٢) **٢٠٢**
التقديم ٢٠٢
التفسير ٢٠٣
دليل سورة الجمعة ٢٠٦
سورة المنافقون (٦٣) **٢٠٧**
التقديم ٢٠٧
التفسير ٢٠٨
دليل سورة المنافقون ٢١١
سورة التغابن (٦٤) **٢١٢**
التقديم ٢١٢
التفسير ٢١٣
دليل سورة التغابن ٢١٧
سورة الطلاق (٦٥) **٢١٩**
التقديم ٢١٩
التفسير ٢٢٠
دليل سورة الطلاق ٢٢٥
سورة التحريم (٦٦) **٢٢٦**
التقديم ٢٢٦
التفسير ٢٢٧
دليل سورة التحريم ٢٣٢
سورة الملك (٦٧) **٢٣٤**
التقديم ٢٣٤
التفسير ٢٣٥
دليل سورة الملك ٢٣٩

سورة القلم (٦٨) ٢٤٠
التقديم ٢٤٠
التفسير ٢٤٢
دليل سورة القلم ٢٤٦
سورة الحاقة (٦٩) ٢٤٧
التقديم ٢٤٧
التفسير ٢٤٨
دليل سورة الحاقة ٢٥٢
سورة المعارج (٧٠) ٢٥٣
التقديم ٢٥٣
التفسير ٢٥٤
دليل سورة المعارج ٢٥٨
سورة نوح (٧١) ٢٦٠
التقديم ٢٦٠
التفسير ٢٦١
دليل سورة نوح ٢٦٣
سورة الجن (٧٢) ٢٦٤
التقديم ٢٦٤
التفسير ٢٦٦
دليل سورة الجن ٢٧٠
سورة المزمل (٧٣) ٢٧١
التقديم ٢٧١
التفسير ٢٧٢
دليل سورة المزمل ٢٧٤
سورة المدثر (٧٤) ٢٧٥
التقديم ٢٧٥
التفسير ٢٧٦
دليل سورة المدثر ٢٨٠

سورة القيامة (٧٥) ٢٨٢
التقديم ٢٨٢
التفسير ٢٨٣
دليل سورة القيامة ٢٨٦
سورة الإنسان (٧٦) ٢٨٧
التقديم ٢٨٧
التفسير ٢٨٨
دليل سورة الإنسان ٢٩٤
سورة المرسلات (٧٧) ٢٩٦
التقديم ٢٩٦
التفسير ٢٩٧
دليل سورة المرسلات ٣٠٠
سورة النبأ (٧٨) ٣٠١
التقديم ٣٠١
التفسير ٣٠٢
دليل سورة النبأ ٣٠٥
سورة النازعات (٧٩) ٣٠٦
التقديم ٣٠٦
التفسير ٣٠٧
دليل سورة النازعات ٣١١
سورة عبس (٨٠) ٣١٢
التقديم ٣١٢
التفسير ٣١٣
دليل سورة عبس ٣١٥
سورة التكوير (٨١) ٣١٦
التقديم ٣١٦
التفسير ٣١٧
دليل سورة التكوير ٣١٩

سورة الانفطار (٨٢) **٣١٩**
التقديم ٣١٩
التفسير ٣٢٠
دليل سورة الانفطار ٣٢٢
سورة المطففين (٨٣) **٣٢٢**
التقديم ٣٢٢
التفسير ٣٢٤
دليل سورة المطففين ٣٢٦
سورة الانشقاق (٨٤) **٣٢٧**
التقديم ٣٢٧
التفسير ٣٢٧
دليل سورة الانشقاق ٣٢٩
سورة البروج (٨٥) **٣٣٠**
التقديم ٣٣٠
التفسير ٣٣٠
دليل سورة البروج ٣٣٢
سورة الطارق (٨٦) **٣٣٢**
التقديم ٣٣٢
التفسير ٣٣٣
دليل سورة الطارق ٣٣٤
سورة الأعلى (٨٧) **٣٣٥**
التقديم ٣٣٥
التفسير ٣٣٦
دليل سورة الأعلى ٣٣٩
سورة الغاشية (٨٨) **٣٣٩**
التقديم ٣٣٩
التفسير ٣٤٠
دليل سورة الغاشية ٣٤٢

سورة الفجر (٨٩) ٣٤٢
التقديم ٣٤٢
التفسير ٣٤٣
دليل سورة الفجر ٣٤٥
سورة البلد (٩٠) ٣٤٥
التقديم ٣٤٥
التفسير ٣٤٦
دليل سورة البلد ٣٤٨
سورة الشمس (٩١) ٣٤٩
التقديم ٣٤٩
التفسير ٣٤٩
دليل سورة الشمس ٣٥١
سورة الليل (٩٢) ٣٥١
التقديم ٣٥١
التفسير ٣٥٢
دليل سورة الليل ٣٥٣
سورة الضحى (٩٣) ٣٥٣
التقديم ٣٥٣
التفسير ٣٥٤
دليل سورة الضحى ٣٥٤
سورة الشرح (٩٤) ٣٥٥
التقديم ٣٥٥
التفسير ٣٥٦
دليل سورة الشرح ٣٥٦
سورة التين (٩٥) ٣٥٧
التقديم ٣٥٧
التفسير ٣٥٨
دليل سورة التين ٣٥٨

سورة العلق (٩٦) ٣٥٩
التقديم ٣٥٩
التفسير ٣٦٠
دليل سورة العلق ٣٦٢
سورة القدر (٩٧) ٣٦٣
التقديم ٣٦٣
التفسير ٣٦٣
دليل سورة القدر ٣٦٤
سورة البينة (٩٨) ٣٦٤
التقديم ٣٦٤
التفسير ٣٦٥
دليل سورة البينة ٣٦٧
سورة الزلزلة (٩٩) ٣٦٧
التقديم ٣٦٧
التفسير ٣٦٨
دليل سورة الزلزلة ٣٦٩
سورة العاديات (١٠٠) ٣٦٩
التقديم ٣٦٩
التفسير ٣٧٠
دليل سورة العاديات ٣٧١
سورة القارعة (١٠١) ٣٧١
التقديم ٣٧١
التفسير ٣٧٢
دليل سورة القارعة ٣٧٢
سورة التكاثر (١٠٢) ٣٧٣
التقديم ٣٧٣
التفسير ٣٧٣
دليل سورة التكاثر ٣٧٤

سورة العصر (١٠٣) **٣٧٥**
التقديم ٣٧٥
التفسير ٣٧٥
دليل سورة العصر ٣٧٦
سورة الهمزة (١٠٤) **٣٧٦**
التقديم ٣٧٦
التفسير ٣٧٧
دليل سورة الهمزة ٣٧٨
سورة الفيل (١٠٥) **٣٧٨**
التقديم ٣٧٨
التفسير ٣٧٩
دليل سورة الفيل ٣٧٩
سورة قريش (١٠٦) **٣٨٠**
التقديم ٣٨٠
التفسير ٣٨١
دليل سورة قريش ٣٨١
سورة الماعون (١٠٧) **٣٨٢**
التقديم ٣٨٢
التفسير ٣٨٢
دليل سورة الماعون ٣٨٣
سورة الكوثر (١٠٨) **٣٨٤**
التقديم ٣٨٤
التفسير ٣٨٤
دليل سورة الكوثر ٣٨٥
سورة الكافرون (١٠٩) **٣٨٥**
التقديم ٣٨٥
التفسير ٣٨٦
دليل سورة الكافرون ٣٨٧

سورة النصر (١١٠) **٣٨٧**
التقديم ٣٨٧
التفسير ٣٨٨
دليل سورة النصر ٣٨٨
سورة المسد (١١١) **٣٨٩**
التقديم ٣٨٩
التفسير ٣٩٠
دليل سورة المسد ٣٩٠
سورة الإخلاص (١١٢) **٣٩١**
التقديم ٣٩١
التفسير ٣٩١
دليل سورة الإخلاص ٣٩٢
سورة الفلق (١١٣) **٣٩٣**
التقديم ٣٩٣
التفسير ٣٩٣
دليل سورة الفلق ٣٩٤
سورة الناس (١١٤) **٣٩٥**
التقديم ٣٩٥
التفسير ٣٩٥
دليل سورة الناس ٣٩٦
دعـــاء **٣٩٧**
الفهرس **٣٩٩**